التاريخ اليوناني

العصر الهلادي

(١)

دكتور

عبد اللطيف أحمد علي

أستاذ التاريخ القديم بجامعة القاهرة
وجامعة بيروت العربية

١٩٧٦

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

التاريخ اليوناني

التاريخ اليوناني

(العصر الهللادي)

(١)

دكتور
عبد اللطيف أحمد علي

أستاذ التاريخ القديم بجامعة القاهرة
وجامعة بيروت العربية

١٩٧٦

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص.ب ٧٤٩

DL

الى :

محمد زكي شافعي

AMICO CARISSIMO :

« Cognovi te gratissimum omnium
Est mihi iucunda in malis et grata
in dolore tua erga me voluntas ! »

DEDICATVM

رمز صداقتنا الوطيدة !

بيروت
آذار (مارس) ١٩٧١

ع.ا.ع.

الفصل الأول

« دولة المدينة » اليونانية

- ١ -

أثر البيئة الطبيعية

الموقع الجغرافي :

يرتبط تاريخ أوروبا ارتباطاً وثيقاً بتـــاريخ الشرق الأدنى القديم . وكان تاريخ الشرق القديم تاريخاً عالمياً إذ سيطرت ممالكه – كل بدورها – على معظم العالم المعروف وقتذاك أو امتد تأثير حضارتها إليه . وكانت بلاد اليونان (بلاد الإغريق أو هللاس)[1]، بمفهومها الجغرافي الواسع، هي أول منطقة في أوروبا

---

(١) لم تكن هذه البلاد قد عرفت بعد بأي من هذه الأسماء في عصر هوميروس (القرن التاسع أو بداية الثامن ق.م) التي يطلق عليها اسم أخاييس (Achaiis) وهي صفة مؤنثة لكلمة أرض (gaia) أو وطن (patris) المقدرة (بمعنى الأرض الأخايية أو وطن الأخاييين) . لكنه لا يقصد به كل بلاد الإغريق ، بل قسمها الشمالي فقط حيث كانت توجد منطقة في جنوب شرق إقليم تساليا عرفت باسم أخيا (Achaia) أو فثيا (Phthia) أو أخيا الفثيوتيس (Achaia Phthiotis) ، وهي موطن أخيليوس (أخيل) بطل ملحمة الإليادة . كذلك يسمي هوميروس البلاد أحياناً باسم أرجوس (Argos) ، وهي إحدى مدن إقليم أرجوليس في البلوبونيز (شبه جزيرة المورة) ، وموطن البطل ديوميديس ، وكانت =

تتأثر بهذا التاريخ العالمي الذي وفد إليها من أقطـــار الشرق الأدنى . وإذا

= متاخمة لمدينة أو ميكيناي (Mukénai -Mycenae) ، عاصمة مملكة أجاممنون، القائد الأعلى للحملة الطروادية ، والتي كانت أقوى ممالك بلاد الإغريق في ذلك الحين . وبالتالي فإن هوميروس يطلق اسم أرجوس على كل البلوبونيز ، بل إنه يقرنه في موضع بهلاس قاصداً بلاد الإغريق عامـــة .

– ولا يطلق هوميروس اسم هللاس (Hellas) إلا على منطقة صغيرة متاخمة لمملكة أخيل السالفة الذكر في جنوب شرق تساليا ، ولا اسم الهللينيين إلا على سكان هذه المنطقة ، وإن يكن قد ورد في موضع واحد من الإلياذة (ك ٢، بيت ٥٣٠) اسم بانهللينيين (Panellênes) بمعنى اتحاد الإغريق .

– ولم يعرف اليونان عامة باسم الهللينيين (Hellênes) إلا منذ أوائل القرن السابع ق.م (عند الشاعرين أرخيلوخوس وهيسيود).

– وأما الإغريق (Graeci) فهو اسم أطلقه عليهم الرومان فيما بعد نسبة إلى الجرايين (Graioi) ، وهم جماعة من شرق إقليم بيوتيا ببلاد اليونان كانوا قد اشتركوا (مع أهل خالكيس) في تأسيس مدينة كيمي (Kumê) أو كوماي (Cumae) ـ كما كتب اسمها الرومان ـ على الساحل الغربي لإيطاليا ، وهي أقدم المستعمرات اليونانية هناك (٧٥٠ – ٧٢٥ ق.م) . ولم يلبث الرومان أن أطلقوا على جميع سكان تلك المستعمرة اسم الإغريق ، وبعدئذ أطلقوه على كل سكان بلاد اليونان .

– وأما عن اسم « اليونان » أو « اليونانيين » الشائع في اللغة العربية فهو تحريف للفظ أيونيين (Iônes) . وكان الأيونيون (إغريق ساحل آسيا الصغرى الغربي) يعرفون في اللغة الإغريقية المبكرة باسم ياؤنيين (Iaones) ، وهو اسم لم يرد في الإلياذة إلا مرة واحدة ويظن أنه مقحم على البيت الذي ورد فيه . وكانوا هم أول إغريق احتكت بهم ممالك الشرق الأدنى القديم ، ومن ثم فقد أطلقت عليهم شعوب هذه الممالك اسم ياؤنيين مع تحريفه بما يتفق وطبيعة لغة كل شعب من هذه الشعوب فصار ينطق تارة يفـــاني (Yavani) ويوانا (Yauna) ويونان (Yunan) . ولعل الاسم المحرف قد ظهر أولاً في قبرص التي كانت لها صلات قوية مع أوجاريت (راس شمره) على ساحل سوريا المواجه لها، وكانت أسبق من مدن أيونيا نفسها في إنشاء علاقات مع هذا الساحل . وأما الأشوريون الذين هاجموا مستعمرات اليونان على الساحل الفينيقي (أشدود) في عصر سرجون الثـــاني (٧٢٢ – ٧٠٥ ق.م) فقد عرفوهم باسم « يماني » (Yamani) .

– وفي هذا الكتاب تحتمل الصفات « هلليني » و « إغريقي » و « يوناني » كلهـــا بمعنى واحد . (وعن هذه التسميات ، أنظر أيضاً ص ١٠٥ – ١٠٩ فيما يلي)

تصورنا تاريخ العالم كأنه رواية متصلة ، فإن الفصل الأول من هذه الرواية لم يتم تمثيله في أوروبا ، وإن كانت أوروبا هي التي حددت مجرى الفصول التاليـــة . ذلك أن الشرق القديم الذي كان يمتد من سواحل البحر الابيض المتوسط شرقاً إلى خط لا يبعد كثيراً عن الحدود الغربية للهند ، لم يكن عالماً مستقلاً بذاتـه أثـر في أوروبا من الخارج فقط أو كان مجرد ميدان للنشاط الاستعماري والتوسع الحضاري على يد الأوربيين ، بل كان ينتمي في العصور القديمة إلى نفس المنطقة الجغرافية التي ينتمي إليها التاريخ العالمي الآخر ، تاريخ اليونان والرومان، الذي شملت حضارته – وهي أساس الحضارة الاوربية أو الغربية – كل العالم المعروف أو معظمه . ولهذا السبب أصبحت المنطقة التي تقع على الحدود بين أوروبا وآسيا، وهي البحر الإيجي والدردنيل والبسفور، أول مسرح ظهر عليه التاريخ الأوربي.

كان البحر الإيجي الذي يزخر بالجزر بمثـــابة الجسر الذي ربط بين هاتين القارتين ، وبالتالي بين حقبتين من حقب التاريخ العـالمي . وقد تسلطت جميع أضواء التاريخ على هذه المنطقة التي هيأتها الطبيعـة لتكون معبراً من آسيا إلى أوروبا ، فعلى أحد جانبيها يقع ساحل آسيا الصغرى الذي يتوغل نحو الغرب بما فيه من خلجان وموانٍ كثيرة تتميز بوقوعها عند مصبات الأنهار الخصبة، أي عند نهاية الطرق التجارية الآتية من موطن حضـــارات الشرق القديم ، وعلى جانبها الآخر تقع بلاد اليونان ، وهي أقرب أشباه الجزر في أوروبا إلى الشرق. وقد أقامت الجزر العديدة المتناثرة بهذه المنطقة عدة قناطر عبر المساحة الضيقة التي يشغلها البحر الإيجي. وفي الجنوب تقع جزيرة كريت عند مفترق الطرق بين قارات ثلاث ؛ أما في الشمال ، بين البحر الإيجي والبحر الأسود ، فلا يفصـــل أوروبا عن آسيا سوى مضيقين هما البسفور والدردنيل. وقد التقى الشرق بالغرب في جميع أجزاء هذه المنطقة، وعبر هذه المنطقة انتقل الناس من آسيا إلى أوروبا ومعهم انتقلت التجارة والمكتشفات الجديدة ، وكذلك المعتقدات الدينيـــة والأفكار الفلسفية. وفي الحق إن الموقع الجغرافي الذي حبت به الطبيعة بلاد اليونان

جعلها ذات أهمية قصوى من الناحية التاريخية، ولم تلبث أن صارت بمثابة المخفر الأمامي لأوروبا.ولما كانت هذه البلاد عرضة للغزو فقد أصبح الدفاع عنها أمراً حيوياً بالنسبة لهذه القارة . وإذا نظرنا إلى بلاد اليونان من ناحية آسيا نجد أنها كانت تقع على الطرف الغربي للعالم المتمدين،ولهذا تعرضت للمؤثرات الوافدة من هذا العالم تعرضاً مباشراً . وعلى الرغم من أن بلاد اليونان لا تعزلها عن وسط أوروبا عزلاً تاماً حواجز مثل الألب أو البرانس فإنها تعتبر مكشوفة من ناحيتي الشرق والجنوب ، وكأنها اليد التي تمدهـا أوروبا نحو آسيا . ولم تكن حصناً في وسعه أن يصد هجوماً من جانب عالم متبربر معاد، بقدر ما كانت سوقاً تنبض بالحياة النشطة المتنوعة .

ومع أن الموقع الجغرافي قلما يتغير ، إلا أنه في وسعنا أن نقول إن موقع بلاد اليونان قد تغير خلال العصور التاريخية تبعاً لما طرأ على النظريات الجغرافية من تغيير. لقد نظر الجغرافيون القدماء إلى موقع بلاد اليونان من زاوية مختلفة ، لأن تصورهم للعالم كان مختلفاً عن تصورنا . فلم تكن أوروبا في نظرهم هي تلك القارة التي تقع بين القطب الشمالي والمحيط الأطلسي والبحر المتوسط ، بل كانت تتألف فقط من السواحل الشمالية للبحر المتوسط والبحر الأسود ، وبمعنى آخر تتكون من أشباه الجزر الثلاث: بلاد اليونان وإيطاليا وأسبانيا التي تقع وراءها بلاد لم تكن معروفة تقريباً . ولم تكن آسيا بالقارة الهائلة التي نعرفها اليوم، بل كانت تتألف على الأخص من الجزء الغربي من شبه الجزيرة المسماة بآسيا الصغرى ومن سواحل سوريا وفينيقيا والمنطقة الخلفية لها التي لم تكن تمتد حسب تصور القدماء مسافة بعيدة وراء بلاد الرافدين ، والتي كان اتصالهـا ميسوراً بالبحر المتوسط . وأما الهند فظلت بلاداً عجيبة شبه خرافيـة تقع في الطرف الأقصى من العالم ، على حين أن أفريقيا التي أطلق عليها الإغريق اسم ليبيا وهي المنطقة الوسطى من ساحل أفريقيا الشمالي ، لم تكن تتألف إلا من هذا الساحل ، وهو الحافة الجنوبية من حوض البحر المتوسط ــ هذا على الرغم من المحاولات المبكرة

التي قـــام بها المصريون والقرطاجنيون للملاحة حول القارة وأصابوا منها بعض النجاح .

البحر المتوسط مركز العالم اليوناني :

لقد قامت إذن جميع النظريات الجغرافية القديمة على أساس أن البحر هو مركز الأرض . وفي الحق إن انفصال القارتين آسيا وأوروبا ، نشأ في الأصـل عن تقسيم مفتعل للأراضي المحيطة بالبحر المتوسط إلى جزأين، إذ اعتقد هكاتايوس (Hecataeus)[1] أن الأرض قرص مستدير يقع مركزه في دلفي (Delphi) وقسمها إلى جزأين متساويين ، نصف شمالي وهو أوروبا ، ونصف جنوبي يشمل آسيا وليبيا . وهكذا انتهك الحقائق الجغرافية انتهاكاً صارخاً من أجل نظرية نبعت من تصوره للأرض في شكل رقعة منتظمة حول مركز . ومع أن هيرودوت (Herodotus)[2] يسخر من هكاتايوس إلا أنه تأثر هو ومن جـاء

(١) جغرافي ومؤرخ من مدينة ميليتوس (ملطية على ساحل أيونيا) عاش في أواخر القرن السادس وأوائل الخامس ق.م . وضع كتاباً بعنوان « رحلة حول الأرض » (أوروبا وآسيا ، ومصر وليبيا) ، ورسم خريطة للعالم المعروف في وقته . كذلك ألف كتاباً عن « أنساب الأسر وأخبارها » .

(٢) المؤرخ الشهير « بأبي التاريخ » . ولد في هاليكرناسوس (على ساحل آسيا الصغرى الغربي) حوالي عام ٤٨٤ ق.م ومات حوالي عام ٤٢٤ ق.م بمدينة ثوريى (وهي مستعمرة أثينية شهد هو تأسيسها في جنوب إيطاليا عام ٤٤٣ ق.م) . وقد زار - إلى جانب جزر البحر الإيجي وبلاد الإغريق وجنوب إيطاليا وبرقة - بعض أقطار الشرق القديم (مصر وفلسطين ولبنان والعراق) وبعض أنحاء آسيا الصغرى ، ومنطقة شمال البحر الأسود ،وطراقيا. ووصف هيرودوت أحوال هذه البـلاد وشعوبها وصفاً مسهباً كمقدمة لتاريخه عن الحروب الفارسية (الميدية) التي نشبت بين اليونان والفرس (٤٩٠ - ٤٦٧ ق.م) بسبب الثورة الأيونية (٤٩٩ - ٤٩٣ ق.م) . وتحتل هذه المقدمة الطويلة الزاخرة بالأخبار الشائقة ما يزيد على نصف كتابه .

ـــ ولعل القارىء يلاحظ أن التواريخ الواردة في هذا الكتاب كلها قبل الميلاد ما لم ينص على غير ذلك .

بعده من الكتاب بهذه النظرية . فقد تصور كل من اليونان والرومـــان الأرض المسكونة أو المعمورة (Oikoumenè) في شكل منطقة من اليابسة تنتظم حول البحر المتوسط . وظل هذا الاعتقــاد سائداً منذ البداية إلى أن أصبحت « المعمورة » هي الإمبراطورية الرومانية العالميــة . وكان الاستثناء الوحيد هي إمبراطورية الإسكندر الاكبر التي اتخذت شكل الإمبراطورية الفارسية ،فكانت في جوهرها قوة « قارية » . ونجد اليونان ومن بعدهم الرومان كثيراً ما يصفون البحر بأنه بحرنا « Mare nostrum »،وهي نظرية سيطرت على سياسة رومـا ووجهتها ضد قرطاجنة ،وكان هدفها الأخير هو خلق حلقة محكمة من السواحل المحيطة بالبحر لا تستطيع قوة أجنبية أن تنفذ منها . نحن إذن على صواب إذا رأينا في هذه النظرية شيئاً مميزاً للعالم الكلاسيكي وأساسياً بالنسبة له، فالحضارة اليونانية – الرومانية التي ترتكز على البحر ، تتميز عن كل من حضارة الشرق القديم التي ترتكز على النهر ، وحضارة العصر الحديث التي ترتكز على المحيط بعد اكتشاف القارات الجديدة .

ولنتوقف هنا لحظة لنقول كلمة عن البحر الذي لم يجد له اليونان والرومان اسما أفضل من « بحرنا » . هذا البحر مغلق من جميع جوانبه إلا عند الدردنيل في الشرق ومضيق جبل طارق في الغرب . غير أن سرعة التيارات المائية وشدة الرياح عند هذين المنفذين تجعلان الملاحة عسيرة على السفن المتجهة إلى البحـــر الأسود أو إلى المحيط الاطلسي. ولذلك ظل الإغريق لا يعرفون عن هذا المحيط إلا النزر اليسير حتى العصر الهللينستي [٢] . وكانت معلوماتهم لا تتعدى مضيق جبل طارق الذي عرفوا صخرتيه باسم « عمودي هرقل » . ولم تكن صعوبة الملاحة في هذا المضيق هي وحدها سبب جهل الإغريق بالمحيط الأطلسي ، بل كان من أسبابها أيضاً تحكم القرطاجنيين فيــه ، إذ كان من مصلحة قرطاجنة

(١) كان الكتاب اليونان يسمونه « بالبحر الداخلي » ، وكذلك الرومان (Internum Mare) . وكان أول من سماه « بالبحر المتوسط » هو الجغرافي الروماني سولينوس في أوائل القرن الثالث بعد الميلاد .

(٢) هو العصر التالي لموت الإسكندر الأكبر (٣٢٣ ق.م) .

إقصاء منافسيها عن المحيط ، حيث كانت سفنها تتنقل بين سواحل أسبانيا وأفريقيا حتى أنها بلغت انجلترا شمالاً ووصلت إلى سيراليون جنوباً . وقد وصلنا كتاب باسم « دليل الملاحة » كان القصد منه إرشاد السفن التي تسير بمحاذاة الساحل الغربي لأفريقيا . وهذا الدليل مكتوب باليونانية ولكنه منقول عن البونية وينسب إلى هَنّو (Hanno) القرطاجني الذي عاش في أواخر القرن السادس ق.م.

والملاحة في الدردنيل والبسفور أشق منها في مضيق جبل طارق . كانت العقبة الرئيسية في الدردنيل (Hellespontus) هي الاستدارة حول رأس سيجيوم (Sigeum) التي احتلها الطاغية بيسستراتوس (Peisistratus) في بداية سيادة أثينا البحرية [١] ، فعند هذه الرأس الواقعة على الساحل الآسيوي تشتد سرعة التيارات المائية اشتداداً يعرض السفن للخطر . ويعزو بعض المؤرخين أهمية طروادة (Troia) في العصور الأولى إلى هذه الظاهرة [٢]. ذلك أن السفن لم تكن تحاول، نظراً لصغر حجمها ، أن تدور حول رأس سيجيوم ، بل كانت تفرغ حمولتها في الخليج الصغير المواجه لجزيرة تنيدوس (Tenedos) ثم تنقل البضاعة براً إلى الخليج الواقع على الجانب الآخر . ولما كانت طروادة تقع على تل يسيطر على هذا الطريق البري ، فمن الجائز أنها فرضت مكوساً جمركية على كل من يستخدمه [٣]. والملاحة في البسفور (Besporus) أشق منها في الدردنيل، إذ أن هذا الممر الملتوي يمتد حوالي خمسة عشر ميلاً ، ويتراوح عرضه بين ميل وربع ميل ، ويشتد فيه التيار تبعاً لذلك. وقد أسس الإغريق على ضفتيه مستعمرتين هامتين هما بيزنطة (Byzantium) على الجانب الأوربي وخلقدونية (Chalcedon) في مواجهتها على الساحل الآسيوي . وكان الوصول إلى الأولى

---

(١) في النصف الأخير من القرن السادس ق.م .

(٢) تقع طروادة (التي يسميها هوميروس غالباً إليوس أو إليون) في الركن الشمالي الغربي من آسيا الصغرى على مسافة قصيرة من مدخل الدردنيل .

(٣) هناك بين الباحثين من يشك في ذلك لعدم وجود ما يؤيده .

أيسر منه إلى الثانية لأن طريق الملاحة الطبيعي في بحر مرمرة (Propontis) هو أن تلتزم السفن ساحله الشمالي لا الجنوبي .

وثمة ملاحظة أخرى عن البحر المتوسط، وهي خلوه من حركات المد والجزر القوية . وقد يسّر ذلك استخدام الموانى والمراسي وبناء الأحواض وتخطيط المدن الساحلية . ولا تجد المراكب فيه أي صعوبة كبيرة سواء عند الإقلاع من الميناء أو الرسو على الشاطىء . غير أن ضعف حركة المد والجزر وبالتالي ضعف حركة الرياح ، كثيراً ما سبب المتاعب للملاحين الإغريق عند الخروج من الموانى إلى عرض البحر . وإذا كان البحر المتوسط خالياً من حركات المد والجزر القوية فهو لا يخلو من التيارات التي كان على الملاحين أن يحترسوا منها . وأشهرها وأخطرها تيار مضيق مسينا بين إيطاليا وصقلية ، وتيار يوريبوس (Euripus) عند مضيق خالكيس (Chalcis) بين جزيرة يوبويا (Euboea) وبيوتيا (Boéotia) . وقد اشتهر المضيق الأول في الأساطير اليونانية باسم سكيللا وخاريبدس (Scylla & Charybdis) وهما صخرتا المضيق التي تقع إحداهما عند مسينا والأخرى عند ريجيوم (Rhegium) ويضرب بهما المثل عند الوقوع في مأزق لا مخرج منه [1] . وقد نجم عن هذه الظروف أن أصبحت سيباريس (Sybaris) من أغنى مدن العالم القديم حتى ضرب بثرائها المثل . ذلك أن الملاحين لتخوفهم من المرور بالسفن عبر مضيق مسينا ، كانوا يفضلون إنزال بضائعهم المصدرة إلى الغرب على الساحل الشرقي لإيطاليا ونقلها براً عبر الحذاء الإيطالي، وكان أقصر الطرق وأكثرها ملاءمة هو وادي كراثيس الذي يبدأ عند سيباريس . ويرجع الفضل في ثراء هذه المدينة في القرن السادس ق.م إلى سيطرتها على ذلك الطريق البري الذي كان يؤدي إلى مستعمرة تابعة لها على الساحل الغربي [2] . وهناك كانت البضائع تشحن ثانية إلى موانى إتروريا . وكان تيار يوريبوس عند مضيق

---

(١) وينطبق عليهما المثل العربي القائل « كالمستجير من الرمضاء بالنار » .
(٢) وقد دمر أهل كروتون ، سيباريس تدميراً في ٥١٠ ق.م .

خالكيس يفوق غيره شهرة في البحر المتوسط . ومع ذلك فقد كان هذا المضيق على شدة تياره هو الطريق الذي اعتادت السفن أن تسلكه في رحلاتها بين ميناء بيريه (Piraeus) في الجنوب وموانئ الساحل الشمالي للبحر الإيجي ومنطقة الدردنيل ، لأن الساحل الشرقي لجزيرة يوبويا مليء بالصخور شديد الانحدار خلو من الموانئ . وقرب نهاية الحرب البلوبونيزية [1] سد أهالي خالكيس هذا المضيق ببناء قنطرة عليه وردمه بالتراب ، موجهين بذلك ضربة للبحرية الأثينية .

على أن التيارات المائية ليست أكبر عقبة كان على الملاح اليوناني أن يتغلب عليها أو يأخذ حذره منها . لقد كان الجهل هو عدوه الحقيقي ، لأن معلوماته في ذلك الحين كانت لا تزال محدودة . ولا ينبغي أن نلومه لأنه لم يتجرأ على ركوب البحر في أشهر الشتاء أو لأنه كان يلتزم السواحل بقدر الإمكان أو يخاف الابتعاد كثيراً عن اليابسة أو لأنه لم يخاطر بدخول مياه غريبة عليه ، فالملاح اليوناني لم يعرف البوصلة أو الخرائط ، وإذا انحرف عن الطريق المألوف بفعل الرياح فإنه كان عرضة لأن يضل سبيله أو يجتاحه التيار أو يرتطم بالصخور المغمورة . ومع هذا كله فإن روح المغامرة – كما يقول بريكليس (Pericles) في خطاب تأبين قتلى الحرب البلوبونيزية [2] – قد حفزت الأثينيين على أن يمخروا عباب كل البحار . وكانت الدويلات البحرية الكبرى هي التي جاهدت لاجتذاب السفن إلى موانيها ، وبذلك أدخلت البحار البعيدة في نطاق نفوذها التجاري والسياسي . وأما الدويلات الصغيرة التي لم تتوافر لها فرص التجارة المشروعة

---

(١) الحرب البلوبونيزية بين أثينا واسبرطه (٤٣١ – ٤٠٤) . والحادث المذكور عام ٤١١ .

(٢) هو القائد والسياسي الأثيني الكبير وزعيم الحزب الديمقراطي الذي هيمن على شئون أثينا الداخلية والخارجية (٤٦١ – ٤٢٩) ، وقد ألقى هذا الخطاب في ٤٣٠ أي بعد عام واحد من قيام الحرب .

فقد لجأت إلى الاشتغال بالقرصنة . ولهذا كان تاريخ البحر المتوسط منذ عصر الحضارة المينوية [١] حلقة متصلة من الصراع بين قراصنة الجزر الصغيرة والمتاخمة للسواحل وبين الدويلات البحرية القوية التي أخذت على عاتقها تطهير البحر من شرهم .

وحدة المنطقة الايجية :

ونعود إلى الموضوع الاصلي لنقول إن وصف بلاد اليونان القديمة بأنها شبه جزيرة في الجزء الجنوبي الشرقي من أوروبا فيه مجانبة للصواب . لقد كانت في حقيقة الأمر منطقة تشمل الجزر والسواحل التي تحيط تقريباً بالبحر الإيجي وبحر مرمرة ، والتي يتصورها الجغرافيون المحدثون بحق في شكل وحدة باسم المنطقة الأيجية . وكانت تلحق بهذه المنطقة مساحة خلفية أو « ظهير » غير فسيح ، ثم ألحقت بها فيما بعد سواحل أخرى بالتدريج . وبعبارة أخرى لم تكن بلاد اليونان الأصلية سوى جزء من تلك الوحدة الجغرافية التي سميناها منطقة البحر الإيجي . لقد كان للعالم الهلليني نصيبٌ في كل من أوروبا وآسيا . وبذلك يصبح فصل القارتين أمراً ينطوي على كثير من التعسف . ومن الأمور ذات الدلالة أن الإغريق لم يتمكنوا أبداً من الاتفاق على حدود ثابتة بين أوروبا وآسيا .

وكانت منطقة البحر الإيجي سوقاً نشطة تبادل فيها الناس جميع أنواع السلع والأفكار . وفي وسعنا أن نقول – استناداً إلى معلوماتنا الحديثة – إن وحدة العالم الإيجي كانت لا تقل قدماً عن استقرار الإغريق داخل حدود عالم البحر المتوسط . وقد استطاع الإغريق بفضل هذه الوحدة أن يحققوا

---

(١) الحضارة المينوية هي حضارة كريت القديمة (٢٤٠٠ - ١٤٠٠) وسميت كذلك نسبة إلى مينوس (لقب ملوك مدينة كنوسوس قرب الساحل الشمالي للجزيرة) .

رسالتهم في التاريخ . ولو كانت هذه المنطقة كلها يابسة لما أصبحت حلقة وصل بين عالمين بقدر ما أصبحته هذه السواحل المتعرجة المكشوفة التي تحيط ببحر غاص بالجزر . فالإغريق لم تقتصر رسالتهم على تلقي تراث الحضارات الشرقية القديمة لينقلوه بدورهم إلى أوروبا ، بل هضموا ما تلقوه وأعادوا إخراجه في صورة جديدة مختلفة تتسم بطابع بيئتهم الخاصة . ولا نحيد كثيراً عن الصواب إذا قلنا إن البحر الايجي كان مسئولا إلى حد ما عن مناهضة اليونان للشرق الذي ظهر فيه أول قبس أضاء الطريق لحضارة الغرب المبدعــــة ، ومسئولاً كذلك عن الطابع المستقل الفريد لهذه الحضارة العظيمة التي نزعت إلى إخفاء المؤثرات الشرقية. هناك إذن عاملان رئيسيان: أحدهما هو منطقة البحر الإيجي كوحدة جنسية وحضارية لها نصيب في أوروبا وآسيا ، أما الآخر فهو انفصال سواحل هاتين القارتين بمسافة قصيرة عليها جسر من الجزر يربط بينهما . هذان العاملان على تناقضها الظاهري يرتبط أحدهما بالآخر . وثمة عامل ثالث ينبغي إضافته وهو عبقرية اليونان .

إن وحدة المنطقة الإيجيةهي الأساس الذي ينبغي أن يقوم عليه تفسيرتاريخ العالم اليوناني القديم . ذلك أن هذه الوحدة الجغرافية لم تتحول أبداً إلى وحدة سياسية وظلت بلاد اليونان منقسمة دائماً إلى عدد كبير من الدويلات المستقلة . وقد كان للموقع الخاص الذي شغلته كل منها داخل المنطقة الإيجية تأثـــير في تاريخها وفقاً لقانون حتمته جغرافية المنطقة بأجمعها : فالأقاليم التي تولي وجهها شطر البحر — تمشياً مع الاتجاه العام للمنطقة الايجية — كانت أول من حمـــل مشعل حضارة قوية مبدعة ، وكان البحر بالنسبة لها مركز حياتها وإن لم يكن مركز أرضها . وأما أقاليم غرب بلاد اليونان وغيرها من الأقاليم الداخلية مثل أركاديا (Arcadia) وتساليا (Thessalia) ، أي الدويلات الـــتي لم تتمتع بموقع إيجي حقيقي ، فكانت قوى من المرتبـــة الثانية أو لم تظهر على مسرح التاريخ اليوناني إلا في وقت متأخر ، بل إن غرب بلاد اليونان لم ينهض حتى

عندما اندمج البحر الأيوني (جنوب الأدرياتي) في المنطقة اليونانية بفضل إنشاء المستعمرات في صقلية وجنوب إيطاليا . ولهذا السبب نفسه تأخرت إيطاليا عن بلاد اليونان في موكب الحضارة . وبينما تقع مواني بلاد اليونان الصالحة لرسو السفن على الساحل الشرقي المواجـــه للبحر الإيجي والشرق الادنى ، موطن الحضارات القديمة ، تقع مواني إيطاليا على ساحلها الغربي المواجه للحوض الغربي من البحر المتوسط ، فكأن كلا منها كانت تولي ظهرها للأخرى ، لأن ساحليها المطلين على البحر الأدرياتي خاليان تقريباً من المواني . وقد أدى ذلك إلى قلة الاتصال بينهما في العصور الأولى ، حتى أن إيطاليا لم تتأثر بحضارة بلاد اليونان بدرجة كبيرة إلا بعد أن بلغت الحضارة الاخيرة شأواً بعيدا .

وقد درج بعض الكتاب على تأكيد هذا التباين الذي نشأ عن طبيعة الموقع الجغرافي لكل دويلة من هذه الدويلات . غير أنه ينبغي ألا يغيب عن البال أن كل دويلة يونانية ، حتى أكثرها ابتعاداً عن البحر ، قد أسهمت في بناء وحدة المنطقة الإيجية ، وبالتالي في المركز الذي شغلته المنطقة بأسرهـــا داخل العالم المعروف وقتذاك . ولم تقم هذه المساهمة على أساس من التبادل التجاري فقط أو إنشاء المستعمرات أو الزعامة السياسية (qegemonia) ، بل قامت أيضاً على أساس روحي أو نفسي وطيد ، ومؤداه أن مواطني كل دويـلة يونانية كانوا يدركون أنهم جزء من كل أو أبنـاء وطن واحد ، لأن الاعتزاز بالأصل اليوناني والانتماء إلى عالم يوناني محصور بين المتبربرين ، تخطى كل منها جميـع الحدود السياسية . وقد ألف بين الإغريق جميعاً إحساسهم بما بينهم من روابط جنسية [1] . ولغوية [2] ودينية [3] وثقافية [4] . وهـذا الإحساس يرجع في آخر الأمر إلى أن المنطقة الإيجية كانت تتجه إلى مركز مشترك وهو البحر .

---

(١) لاعتقاد الإغريق أنهم كانوا يتحدرون من أصل مشترك أو جد واحد .

(٢) كان الإغريق يتكلمون لغة واحدة هي اللغة اليونانية التي تنتمي إلى أسرة اللغات =

لا عجب إذن إن اختلف نظام « دولة المدينة » اليونانية عن النظم السياسية في كل من الشرق والغرب .

وننتقل بعد ذلك إلى جغرافية بلاد اليونان الأصلية وأثرها في الحياة السياسية . سنتناول أولاً تلك العوامل التي أدت إلى انقسام بلاد اليونان إلى عدة وحدات سياسية صغيرة تعرف كل منها باسم polis - وهي كلمة من العسير ترجمتها بدقة وقد

= الهندية - الأوربية ولكن بلهجات مختلفة كانت أهمها في العصر الكلاسيكي هي : الأيونية والأيولية والدورية.

(٣) تتمثل الروابط الدينية في الاشتراك في تقديس آلهة أوليمبوس وتصديق أساطيرها وإجلال مراكز النبوءة وعلى الأخص نبوءة أبوللون في معبده بدلفى الذي كان الإغريق على اختلافهم يحجون إليه لاستشارته ، وكذلك اشتراك معظم مدنهم في دورات الألعاب الرياضية ولا سيما الدورة الأوليمبية التي كانت تعقد مرة كل أربع سنوات في بلدة أوليمبيا (Olympia) بإقليم إيليس في غرب البلوبونيز .وكانت الدورات الرياضية ذات طابع ديني إذ كانت تسبقها احتفالات دينية ومواكب وشعائر وقرابين . وفي اثنائها كانت تؤمن الطرق إلى مكان انعقاد الدورة ، . وكان يصاحب المباريات الرياضية مسابقات أدبية . وكانت الدورة الرياضية فرصة لالتقاء الإغريق في صعيد واحد وتبادل الآراء وتسوية المنازعات ومناقشة غير ذلك من المسائل التي تهم الرأي العام الهلليني . (وعن هذا الموضوع ، أنظر ص ١١٢)

(٤) وأما الروابط الثقافية فتتمثل في أدبهم المشترك وبخاصة شعر هوميروس الذي كانوا جميعاً يقرأونه ويفهمونه ، ويعجبون به أشد الإعجاب . كانوا يعتبرون هوميروس معلمهم الأول ويرون في الإلياذة موسوعة حافلة بكل المعارف. وكانت أساس منهج التعليم عندهم ويحفظ الصبية منها أبياتاً كثيرة عن ظهر قلب . في الحق إنها كانت عندهم بمثابة الكتاب المقدس. وكانوا يتنافسون على هوميروس بمعنى أن كثيراً من المدن كانت تزعم أنها مسقط رأسه، فضلا عن إدعاء كل مدينة بأنها اشتركت قديماً في الحرب الطروادية . وكان يزيد من إحساسهم بوحدة ثقافتهم شعورهم بأنهم مهددون من جانب دول قوية متاخمة لهم (كالفرس) وغيرهم ، من البرابرة (barbarai) - الأجانب - الذين يختلفون عنهم اختلافاً بيناً في القيم والعادات والدين والثقافة، فضلا عن النظام السياسي .

وثمة عوامل أخرى ساعدت على توثيق الروابط بين الإغريق. وسيأتي ذكرها في المواضع المناسبة .

تعني المدينة الحرة أو دولة المدينة ، أو المدينة الدولة أو الدويلة . وتتلخص هذه العوامل في الجبال غير المنتظمة التي تقطع البلاد طولاً وعرضاً وتقسمها إلى مرتفعات كثيرة وسهول قليلة وتجعل الاتصال بين أجزائها شاقاً إن لم يكن متعذراً ؛ ثم البحر نفسه الذي يتوغل فيها ويجعل سواحلها مسننة كثيرة التعاريج أو يقطعها إلى جزر وأشباه جزر أو يقسم البلاد كلها قسمين كبيرين ، فيصبح على الرغم من أنه هو الذي خلق الوحدة الاقتصادية والثقافية بين أقسام العالم الإيجي ، عائقاً دون تحقيق الوحدة السياسية وذلك في حالة عدم استخدامه أو السيطرة عليه . وبعدئذ نتناول جدب التربة بوجه عام والتباين الشديد في الظروف المناخية والزراعية وبالتالي في الأحوال الاقتصادية والاجتماعية بين الأقاليم ، وكيف أدى ذلك إلى الاختلاف في الطباع وأساليب المعيشة ، وقوى من الرغبة في الاستقلال السياسي والاكتفاء الاقتصادي ، وما استتبع ذلك من نزعة انفصالية بين الدويلات المختلفة . وأخيراً نتناول ضيق الحيّز في الدويلات اليونانية وصغر مساحة المنطقة الإيجية بوجه عام وما ترتب على ذلك من ضعف هذه الدويلات وعجز معظمها عن أن تصبح قوى سياسية كبيرة من ناحية ؛ وتقوية الروابط بين الفرد ودولة المدينة ، والاهتمام الشديد بالشئون السياسية ، وقيام رأي عام قوي ، وإذكاء روح الوطنية من ناحية أخرى ، والتعاون الوثيق لاستغلال كل إمكانات الحيز الضيق ، ومضاعفة الجهد واشتداد نبض الحياة مما عجل بنهايتها ، واحتدام المنافسة بين المواطنين من أجل رفعة دولة المدينة ، وتحول المنافسة إلى خصومة ، وأثر تلاصق دول المدن اليونانية في توتر علاقاتها واحتكاكها وقيام المنازعات والحروب بينها . وأخيراً اضطرار الإغريق بسبب ضيق الحيز إلى الاتجاه إلى البحر والتجارة وإنشاء المستعمرات والرغبة في التوسع وما ترتب على ذلك من آثار .

الجبال والانفصالية السياسية :

تكونت جبال منطقة البحر الابيض المتوسط قديماً بفعل الحركات

الجيولوجية التي أدت إلى هبوط بعض الهضاب وصعود البعض الآخر . وليست جزر البحر الايجي في الواقع سوى قمم بارزة من هضبة كبيرة غاصت في الماء . وقد توغل البحر في اليابسة توغلاً شديداً وغمر أودية كثيرة . وحفرت بعض الأنهار خوانق عميقة بينا ملأ بعضها الآخر خلجاناً واسعة في البحر. وقد تولدت عن الانفجارات البركانية جبال وجزر كثيرة.وبتكرار هذه الظواهر الجيولوجية خلال تاريخ الأرض الطويل ، تحولت الكتلة المتماسكة التي كانت تربط أوروبا وآسيا في أقدم العصور إلى منطقة مفتتة تتنوع تضاريسها تنوعاً شديداً . ومن يتأمل المنظر العام لسطح بلاد اليونان وما يتخلله من جبال ومرتفعات وسهول ووديان وجزر وأشباه جزر ، يدرك على الفور أن هذه المنطقة قد تعرضت أكثر من غيرها لهزات وزلازل عنيفة وانفجارات بركانية هائلة قبل ظهور الإنسان على الأرض بزمن طويل . وقد نجم عن ذلك كله أن تداخلت اليابسة والماء حتى تكونت منها منطقة واحدة مؤتلفة .

ومع أن المنطقة المحصورة بين البحرين الأدرياتي والأيوني [1] من ناحية الغرب والبحرين الأسود والإيجي من ناحية الشرق تعرف باسم شبه جزيرة البلقان،إلا أن هذا الوصف لا ينطبق تماماً على القسم الشمالي حيث تقطن الشعوب البلقانية لأنه قسم قاري أي ينتمي إلى القارة . وفي القسم الجنوبي فقط أي في بلاد اليونان حيث يزداد التداخل بين الأرض والبحر ويشتد التقطع ، تتحول الأرض الداخلية إلى شبه جزيرة حقيقية بينا تتحول أشباه الجزر إلى جزر.وقد توغل البحر في الوسط توغلاً شديداً نشأ عنه خليج عميق هو خليج كورنثة (Corinthus)الذي يمتد ـ بعد برزخ ضيق ـ نحو الشرق في الخليج الساروني. وقد كان لهذا الخليج وبرزخ كورنثة ووقوع الأخير في الطرف الشرقي أثر كبير

---

(١) يقع البحر الأيوني جنوب الأدرياتي وهو محصور بين الساحل الغربي لجنوب بلاد الإغريق والساحل الشرقي والحذاء الإيطاليه .

في مجرى التاريخ اليوناني . فإلى جانب أن هذه المنطقة ، منطقة خليج كورنثة، قامت فيها أهم مدن اليونان من الناحية الاقتصادية ، فإن خليج كورنثة فصل البلوبونيز عن وسط بلاد اليونان ، وبعبارة أخرى قسم البلاد كلها إلى قسمين كبيرين وتسبب في ثنائية التاريخ اليوناني ، وتوزيع مسرحه بين قوتين : أثينا في الشمال واسبرطة في الجنوب . ولما كان هذا الخليج نفسه قد جعل البلوبونيز في مأمن من الغزو العسكري ، فقد كان أحد الأسباب التي حالت دون الاتحاد الشامل في وجه الخطر الفارسي. وأما البرزخ الكورنثي الذي يصل بين البلوبونيز ووسط بلاد اليونان فقد تسبب في اضطرار السفن إلى الالتفاف حول سواحل كل البلوبونيز في رحلاتها بين ساحل البحر الإيجي وساحل البحر الأيوني . ولو أن البلوبونيز كانت جزيرة حقيقية كما أسماها الإغريق (Peloponnesus) أي «جزيرة بيلوبس» لأصبح الاتصال بين شرق بلاد اليونان وغربها مباشراً مستمراً، ولتغيرت طرق المواصلات ومراكز التجارة وميادين القتال . ولو كان البرزخ الكورنثي موجوداً في الطرف الغربي لا الشرقي من الخليج ، ليُسر ذلك اتصال الأراضي الواقعة على ضفتيه بالبحر الايجي والشرق، ولانتشرت الحضارة في شمال غرب بلاد اليونان بصورة أسرع وأقوى .

وقد زاد من حدة هذا التقطع سلسلة جبال بندوس (Pindus) التي تمتد في شكل قوس ضخم من البلقان الغربية إلى بلاد اليونان وجزر البحر الايجي وغرب آسيا الصغرى . وتتفرع من هذه السلسلة التي تشبه العمود الفقري عدة شعاب أو ضلوع جبلية تكتنف الجانب الشرقي من بلاد اليونان . وتحدد هذه السلاسل الجبلية المتشعبة في كل اتجاه شكل تضاريس البلاد وهكذا يبدو السطح كله ممزقاً تمزيقاً شديداً بالجبال والمرتفعات والوديان والسهول . ولا يكاد يوجد سطح آخر يفوقه في عدم الانتظام . ويقدر الجزء المستوي منه بما لا يزيد عن ٢٠ ٪ من المساحة كلها. ومع أن هذه الجبال في جملتها غير شاهقة وأن متوسط ارتفاعها لا يزيد على ٨٠٠٠ قدم – باستثناء جبل أوليمبوس (Olympus) ، بين تساليا

ومقدونيا ، الذي تبلغ قمته ٩٦٠٠ قدم – إلا أنها تعمل كحواجز طبيعية بين السهول ، وتحول دون سهولة الاتصال بين الجماعات المختلفة ، وتجعل التنقل شاقاً بين مكان ومكان . على أن هذا التباين الشديد في شكل الجبال – وهي من الحجر الجيري الصلب – وتنوع التضاريس واختلاف المناظر ، مع صفاء الجو الذي يساعد على بروز معالم المرتفعات وجلاء خطوطها ، جميع هذه العوامل جعلت من بلاد اليونان موطناً للفنانين وبخاصة المثّالين .

ولا يترك تزاحم الجبال سوى ممرات قصيرة تسير بمحاذاة سلاسل الجبال . وتكسو الثلوج كثيراً منها في بعض شهور الشتاء . والأنهار قصيرة المجرى قليلة الماء. والكبير منها مثل بينيوس (Pêneus) في تساليا[١] وألفيوس (Alpheus) في البلوبونيز لا يصلح للملاحة إلا في فترة قصيرة من السنة . وأما سائر الأنهار فهي لا تزيد عن أن تكون سيولاً لا تمتلىء بالمـاء إلا بعد العواصف الشديدة أو خلال فصل الشتاء، وتجف مجاريها في بقية الفصول. وفي إحدى خطب ديموستنيس الأثيني[٢] (Demosthenes) يحتدم الجدل حول ما إذا كانت قطعة من الارض جدولاً أم طريقاً أم بستاناً !! وهذه الأنهار ليست صالحة للملاحة فحسب بل يتعذر اجتيازها أيضاً ولا سيما عند فيضانها في الشتاء . ولا توجد أنهار صالحة للملاحة سوى نهر أخيلوس (Acheloüs) عند حدود إقليمي أكارنانيا وأيتوليا، وسوى ألفيوس المشار إليه وباميسوس (Pamisus) في إقليم مسينيا، بل إن بعض الأنهار الكبيرة مثل بينيوس وألفيوس نفسه لا يصلح للملاحة إلا في فترة قصيرة من السنة . ويجري الانتقال البري غالباً على الطرق المحاذية لمجاري الانهار. وإذا كانت بلاد اليونان منعدمة المطر تقريباً في الصيف ولا تصلح مياه أنهارها

---

(١) وهو غير نهر بينيوس الصغير الذي يجري في إقليم إيليس بالبلوبونيز .

(٢) أشهر خطباء اليونان (٣٨٤ – ٣٢٢) . والخطبة المشار إليها قضائية تحمل رقم (LV, 13 & 16) وعنوانها ضد كاليكليس، وتتسم بروح فكاهية غير مألوفة في خطبه الأخرى.

للشرب بسبب الطمي الذي تجرفه التيارات المائية السريعة [1] فقد اضطر أهلها إلى السكنى بجوار الآبار . وكثيراً ما نسمع عن تفاخر القرى اليونانية بجودة مياه آبارها وعذوبتها ونسمع أيضاً عن مجالس خاصة من الموظفين للإشراف على تزويد القرية أو المدينة بالمياه . ولم يعرف اليونان قبل العصر الهلينستي المرافق المائية أي وسائل نقل المياه إلى المدن لتغذيتها كالقنوات المعلقة مثلاً ، وإن كان هيرودوت يصف مرافق كهذه شاهدها في ساموس ، كما أن بيسستراتوس بنى قناة جوفية واهتم بمرافق المياه في أثينا . لقد كان الرومان وحدهم هم الخبراء في تخطيط المدن في أماكن تفتقر إلى الماء .

ومعظم البحيرات لا مصارف لمياهها سوى المسالك أو القنوات الجوفية (katabothrai) فإن انسدت هذه القنوات ارتفع منسوب المياه فيها ، وإن زالت العوائق هبط ذلك المنسوب وقد تختفي البحيرة تماماً في بعض الأحيان . وهذه الظاهرة الغريبة قد أدت بدورها إلى نشأة كثير من الأساطير . ولا تخلو بلاد اليونان من السهول ، وبعضها فسيح مثل سهول ثساليا حيث أدت الظروف التي كانت تختلف عن ظروف سائر بلاد اليونان إلى نشأة نظام أشبه ما يكون بنظام الإقطاع . ولكن معظم السهول الأخرى صغيرة وهي إما محصورة بالجبال من جميع الجهات مثل سهل مانتينيا (Mantinea) في إقليم أركاديا ، أو مطلة على البحر من ناحية واحدة ومحصورة بالجبال من جهاتها الأخرى مثل سهل إليوسيس (Eleusis) على بعد حوالي ١٤ ميلاً شمال غرب أثينا ، وسهل أرجوس (Argos) في إقليم أرجوليس .

---

(١) ولذلك نجد كثيراً من موانئ البحر الأبيض المتوسط تقع لا عند مصاب الأنهار التي تنسد بالطمي من وقت لآخر ، بل تقع غالباً على مسافة منها ، هذا إذا كان وادي النهر يصلح لأن يكون طريقاً: البندقية(البو) ، مرسيليا (الرون) ، سالونيك (أكسيوس)، الاسكندرية (النيل) ، أزمير (هرموس) ، روما (التيبر). قارن أيضاً نابلي وبيريه .

البحر والإنفصالية السياسية :

رأينا كيف يكتنف البحر بلاد اليونان من أغلب جوانبها ويتوغل في أراضيها توغلاً شديداً ويقطع سواحلها تقطيعاً حتى أن طول هذه السواحل لا يتناسب ومساحة المنطقة كلها . وفي الحق إنه لا يوجد مكان في بلاد اليونان الوسطى يبعد عن البحر بأكثر من أربعين ميلاً ، ولا مكان في البلوبونيز يبعد عنه بأكثر من اثنين وثلاثين ميلاً ، وهي مسافة لم تكن تستغرق سوى يومين بوسائل النقل القديمة . وكانت أركاديا بالبلوبونيز ــ حيث يوجد سهل مانتينيا الذي أشرنا إليه ــ هي الإقليم الوحيد الذي لا يطل على البحر . وكان البحر أحياناً هو طريق المواصلات الوحيد بين مدينة وأخرى وبخاصة في الجزر وأشباه الجزر . لكن إذا كانت أرض بلاد اليونان مقطعة في كل مكان ، فإن الوصف نفسه ينطبق أيضاً على البحر المحيط بها حيث لا تكاد اليابسة تغيب عن عين الملاح . وحسبك أن تعلم أنه يوجد في البحر الإيجي ٤٨٣ جزيرة ، وفي غرب بلاد اليونان حوالي ١١٦ جزيرة .

وفي العصور الأولى التي لم تعرف البوصلة أو الخرائط كانت السفن تتحسس طريقها عبره في حذر ، ولكنها كانت تجد في الجزر الكثيرة والخلجان المتقاربة مكاناً تحتمي فيه من العواصف المفاجئة . ويصف هوميروس الممرات المائية بين الجزر المتلاصقة بأنها « أزقة مائية » . لقد كانت هذه الجزر بمثابة المعالم التي تسير السفن على هديها في عرض البحر . وتبدو صخور سواحلها للعين أقرب مما هي عليه في الواقع لأن البحر الإيجي اشتهر بنقاء هوائه وصفاء جوه . وليس أدل على وضوح معالمه من أن مكاناً كالبارثنون Parthenon (معبد الربة العذراء اثينة) يمكن رؤيته من قلعة كورنثة ، وأن من يقف عند لسان سونيوم (Sunium) في الطرف الشرقي من أتيكا (Attica) يستطيع أن يشاهد

مجموعة جزر الكيكلاديس Cyclades [1] (الملتفة حول ديلوس) حتى جزيرة ميلوس (Melos) ، مما يمكنه أن يتبين من هذه الجزيرة سلسلة الجبال الوسطى في كريت . وفي الحقيقة إن البحر هو الذي خلق بتشابكه مع الأرض وحدة العالم الإيجي . فكل جزيرة وكل جزء من شبه الجزيرة اليونانية لم يكن سوى قطاع من الدائرة الإيجية . والبحر هو الذي خلق وحدة اقتصادية واسعة تعلّم فيها شعب كان في الأصل زراعياً كيف يبني السفن منذ الألف الثالثة أو الثانية قبل الميلاد ويركب البحر لممارسة صيد الأسماك والتجارة أو الاشتغال بالقرصنة أو تطهير البحر منها أو تأسيس المستعمرات . وما تاريخ بلاد اليونان القديمة في معظم مراحله سوى سجل لسيادات بحرية متعاقبة . وأخيراً فإن البحر كان عاملاً جوهرياً في ابتداع حضارة لا تتسم بطابع دويلة بعينها ، بل حضارة يونانية تخطت حدود الدويلات ، وأشعرت الإغريق جميعاً بأنهم شعب منطقة واحدة أو وطن واحد هو بلاد اليونان .

ومع هذا فإن القول بأن البحر أداة وصل لا فصل ليس بصحيح إلا إلى مدى محدود . لا بد أولاً من أن يسيطر الإنسان على البحر ، لأن البحر لا يصبح جسراً إلا عندما يسخّره الإنسان . ومع أن مرحلة تسخيره قد تمت في زمن مبكر ، إلا أن فريقاً صغيراً من الإغريق هو الذي خاطر بركوبه . ومن المعروف أن جنوب البحر الأدرياتي أو البحر الأيوني مركز للزوابع والتيارات غير المنتظمة في فصل الشتاء . ويتعرض شمال البحر الإيجي حتى أواخر الربيع لرياح شمالية عاصفة كتلك الرياح التي حطمت الأسطول الفارسي بقيادة مردونيوس (Mardonius) في عام ٤٩٢ . وقد تهب رياح شديدة في الخريف

---

(١) لعل القارىء قد لاحظ أن حرف الـ C ينطق دائماً كافاً ، حيث أنه يمثل حرف الـ K في اللغة اليونانية التي لا يوجد فيها حرف C . وهي في ذلك عكس اللاتينية التي لا يوجد فيها حرف K بل حرف C وينطق أيضاً كافاً .

من أي سلسلة جبلية ساحلية كتلك الرياح العاتية المستمرة التي جعلت الملاحة خطرة حول رأس ماليا (Malea) عند الطرف الجنوبي الشرقي من البلوبونيز وأكسبته سمعة سيئة، إذ أثارت هذه الرياح في وجه أوديسيوس (Odysseus) ، بطل الأوديسيا ، متاعب جمـــة وحالت دون وصول وحدات كُركيرا (Corcyra) [١] البحرية إلى ميدان القتال عند سلاميس (Salamis) [٢] في الحرب الفارسية عام ٤٨٠ . وتحيط الصخور الشاهقة إحاطة تامـة بجانبي بلاد اليونان : ساحل إبيروس (Epirus) في الغرب وساحل تساليـا في الشرق . ويتعرض الأخير للرياح التجارية القوية في الصيف والعواصف الشمالية في الشتاء مما يجعل الملاحة عنده خطرة على مدار السنة . وكانت الرياح التجارية الصيفية التي تهب من الشمال في البحر الإيجي بين يونيو وسبتمبر ترغم التجار الإغريق على الملاحة وفقـاً لجدول زمني دقيق . وكان عليهم إذا أرادوا ارتيـاد البحر الأسود أن يبلغوا الدردنيل قبل انتهاء الربيع . وكثيراً ما وقفت هذه الرياح عقبة كؤوداً في وجه الحملات البحرية الأثينية المتجهة إلى الشمال، حتى أن فيليب الثاني ملك مقدونيا (٣٥٩ - ٣٣٦) كان يستغل فترة هبوبها لكي يسبق الأثينيين إلى ميدان القتال ، ويفوت عليهم فرصة نجدة حلفائهم . فكأن البحر إذاً ظل موصداً في وجـه جميع الإغريق في فصل الشتاء (من أكتوبر حتى أبريل) ، وفي وجه بعضهم في كل فصول السنة تقريباً. وكان الشاعر هيسيودوس الذي اشتهر باسم هيسيود (Hesiodus) وعـــاش في أوائل القرن السابع (؟)[٣] ، يعتقد أن البحر الإيجي لا تؤتمن فيه الملاحة إلا في الخمسين يوماً

---

(١) وهي في الأصل اليوناني Kêrkura . جزيرة كورفو الحالية في البحر الايوني قرب الساحل الغربي لبلاد اليونان .

(٢) جزيرة في الخليج الساروني قرب الساحل الجنوبي الغربي لأتيكا وتقع غرب ميناء بيريه مباشرة .

(٣) أو ربما قبل ذلك في أواخر القرن الثامن ق.م.

التي تلي الربيع . وقد اعتبر اجتياز البحر من ميناء أوليس (Aulis) في بويوتيا إلى جزيرة يوبويا المتاخمة لها ، حدثاً هاماً بل عملاً قريباً من أعمال البطولة . ولم يكن هو الوحيد الذي حذر الناس من ركوب البحر .

ولما كان اليونان – على نحو ما ذكرنا – جاهلين بالبوصلة والخرائط ، فلم يكن في وسع ملاحيهم تحديد مكانهم من البحر بدقة ، وبخاصة عندما تكون السماء ملبّدة بالغيوم . وهذا العامل وحده كان كفيلاً بإرغام السفن على ألا تبتعد عن اليابسة إلا في القليل النادر . ولم يكن اليونان يجرؤون على الملاحة في الشتاء أو أثناء الليل ، بل كانوا يركبون البحر في الصيف فقط وأثناء النهار ملتزمين الساحل بقدر الإمكان . وعندما يأتي الليل كانت المراكب تتجه على الفور إلى أقرب ميناء حيث يتناول البحارة طعامهم . وعلى ذلك فلم يكن من الضروري أن يحملوا معهم مقادير كبيرة من المؤونة . وكانت حمولة المراكب اليونانية صغيرة . ولعل أقصى حمولة لها لم تزد على ٣٠٠ طن في العصر الكلاسيكي. وكان لديلوس (Delos) وهي أحدى الموانى الكبرى في العصر الهلينستي ، رصيف يبلغ طوله ٨٢٤ قدماً . وحتى إذا سلمنا بأن المراكب الشراعية كانت تشد من مقدمها إلى رصيف المرفأ أي كانت ترسو في وضع متقاطع مع الرصيف (وهو شيء لا يساعد على التفريغ أو الشحن السريع) ، فهذا يدل على ضآلة حجم التجارة المنقولة على المراكب الصغيرة بالقياس إلى سفن العصر الحديث . وإذ كانت هذه المراكب غير مزودة فقط بالأشرعة بل كان من المستطاع أيضاً تحويلها إلى زوارق تجذيف ، فإن ذلك دليل آخر على أن حمولتها كانت خفيفة بوجه عام .

وحتى عندما راجت تجارة الإغريق الخارجية وازدهرت ، فإن الغالبية العظمى منهم كانوا لا يزالون مزارعين . ولا ينطبق هذا الوصف على سكان الأقاليم الداخلية فقط مثل بويوتيا أو أركاديا بل ينطبق أيضاً على سكان أتيكا

وكثير من الجزر . وباستثناء مجارا (Megara) وكورنثة لا توجد مدينة في البلوبونيز أو حول البرزخ الكورنثي كانت لها تجارة منتظمة عبر البحر . وعندما يرتبط الإنسان بالأرض التي يزرعها بيديه وتتألف ثروته من مزرعته وما تنتجه من محصول ، فإنه لا يفكر في ركوب البحر . ومع أن البحر كان أداة ربط ووسيلة من وسائل الوحدة فيما يتصل بتبادل التجارة وتبادل الأفكار إلا أنه كان عائقاً كبيراً دون تكوين الوحدة السياسية . وقد يكون من اليسير على مدينة أن ترسل شحنة من البضائع عبر مضيق بحري بواسطة السفن أو حمولة من السلع عبر ممر جبلي على ظهور البغال . غير أنه من العسير عليها أن تمد نفوذها السياسي عبر حدود طبيعية من البحر والجبال . وبديهي أن دول المدن الصغيرة التي لم تكن لها مراكز سياسية متفوقة ، وبالتالي لم تملك الأداة الفعالة لتحقيق أهدافها السياسية المشتركة ، كان من المستحيل عليها أن تتوسع خارج نطاقها الطبيعي ، بل إن دول المدن الكبيرة التي استقرت فيها الحياة السياسية على قواعد راسخة ، كانت تقف عاجزة أمام الحواجز التي يقيمها البحر والجبال . وحسب القارىء أن يذكر ما بذلته أثينا من جهد وما أمضته من وقت قبل أن تستطيع توطيد أقدامها سواء في جزيرة سلاميس أو في جزيرة يوبويا . لقد ربط البحر ما بين أجزاء العالم الهليني التي لا حصر لها ، ولكنه أتاح لكل جزء فيه أن يحيا كوحدة مستقلة .

على أن البحر لم يكن ليفصل أو يعزل الوحدات السياسية بعضها عن البعض الآخر لو أن الأرض قد هيأت الفرصة لقيام دولة بالمعنى الحديث . لقد كان في وسع هذه الدولة دون سواها أن تتغلب على العقبات التي أقامها البحر في وجه الوحدة الشاملة . غير أن البلاد كانت مقسمة إلى عدد كبير من المناطق الصغيرة التي تفصل بينها الجبال ، كما أن القبائل اليونانية ، لاختلافها في النشأة والتقاليد ، كانت هي الأخرى منقسمة إلى جماعات سياسية عديدة كُتب عليها عليها كلها أن تكون ضعيفة . ولم تكن المناطق الطبيعية وحدها منفصلة

فيما يتصل بالسلع التموينية قد حدد تطور الحياة الاقتصادية والسياسية عند اليونان [١] .

ومن بين أوضح العوامل الأولية التي شكلت التاريخ اليوناني أن التكوين

---

(١) كان من وسائل التعاون الاقتصادي بين المدن الإغريقية ما يمكن تسميته بتبادل التمثيل التجاري على النحو التالي : تختار المدينة (من بين مواطني المدينة الأخرى وليس من بين مواطنيها كما في العصر الحديث) ممثلين لرعاية مصالحها في تلك المدينة الأخرى . ومن ثم فقد أطلق على هؤلاء الممثلين (أو القناصل إن جاز التعبير) اسم **proxenoi** (بمعنى القائمين برعاية مصالح الضيوف والغرباء والاجانب). وكانوا في العادة من أصدقاء المدينة التي يمثلونها في مدينتهم(تطوعاً أو بالتعيين) أو تربطهم بهـا روابط عائلية . وكثيراً ما كانوا يكافأون على خدماتهم بمنحهم امتيازات مادية أو شرفية كحقوق المواطنة الفخرية في المدينة الأخرى . ولم يلبث – بعد انتشار هذا النظام – أن أصبح التعيين في مثل هذا النصب يصاحبه دائماً اكتساب حقوق المواطنة الفخرية. بل إن النصب أصبح مطمع الكثيرين ، ولم يلبث أن صار وراثياً .

– ولتسهيل المعاملات بين المدن الاغريقية كانت تلجأ إلى عقد معاهدات تجارية إمـا لتأمين التجار على أرواحهم وبضائعهم في الموانئ الأجنبية أو لتسوية الخلافات الناشئة بسبب تضارب المصالح عن طريق عرض القضايا على محاكم طرف ثالث أو محاكم مختلطة أو محكمة الطرف الأقوى(مثلما فعلت أثينا مع أعضاء حلف ديلوس) . وتعرف هذه المعاهدات أو الاتفاقات المدنية باسم (symbolon) .

– وفي بعض الاحيان كانت المدينتان المتنازعتان تحيلان النزاع الاقليمي أو السياسي على مدينة ثالثة محايدة للتحكيم بينهما . ومنذ منتصف القرن الخامس ق.م أصبحت معاهدات الصلح تتضمن في العادة بنداً أو مادة تنص على التزام الطرفين المتعاهدين بقبول التحكيم لفض ما قد ينشب بينهما من نزاع في المستقبل .

– وفضلا عن ذلك فإن بعض المدن كانت تعقد – في أحوال قليلة – أحلافاً دفاعية أو هجومية (symmachia- epimachia) فيما بينها أو تقبل طوعاً أو كرهاً الاندماج في تنظيم سياسي أشبه ما يكون بالاتحاد الفيدرالي أو الكونفدرالي الذى يعرف باسم **koinon** أو **sympoliteia** – وهو ما نسميه أحياناً بالعصبة أو الحلف .

– وأخيراً فقد جرت بعض المدن الإغريقية على أن تمنح أحياناً أهل مدينة أخرى حقوقهـا المدنية أو تتبادل معها حقوق المواطنة ، وهو ما يعرف باسم **isopoliteia** .

الجغرافي للبـــلاد قد فرض عليها الانفصالية السياسية . غير أنه من المسلم به أيضاً أن هذه الانفصالية كثيراً ما ذهبت إلى أبعد ممـا تقتضيه الظروف الطبيعية . ولم يكن هناك سبيل للتغلب على هذه النزعة الانفصالية إلا بقيام دولة قوية مسيطرة، تستطيـع أن تفرض الوحدة على البلاد ولو لفترة قصيرة .

فقر التربة وقلة الثروة الزراعية :

وينبغي قبل الكلام عن فقر الثروة الزراعية أن نستعرض مصادر الثروة المعدنية . لقد كانت أرض بلاد اليونان تحتوي على ثروات من مختلف الأنواع ؛ ففي كل منطقة تقريباً كان يوجد الصلصال اللازم لصناعة الأواني الفخارية ، وهو محصول هام لبلاد فقيرة في الخشب ، ولشعب لم يعرف بعد صب الحديد في قوالب وعمل السبائك (من الحديد الزهر) . وكان الرخــام الجميل من مختلف الأنواع يوجد في باروس (Paros) بكميات كبيرة حتى لقـد وصفت هذه الجزيرة بأنها كتلة واحدة من المرمر ! والرخام مادة متينة لا غناء عنها في فن النحت أو المعمار . وكان فوق ذلك سلعة تجارية هامة لأن أنواعـــاً معينة منه كانت مطلوبة نظراً لقيمتها الكبيرة . وكان الذهب يوجد بكميات كبيرة نسبياً في الساحل الشمالي لبحر إيجة ، أي في طراقيـا ومقدونيا ولو أن مناجم الذهب في جزيرة ثاسوس (Thasos) لم تستغل قبـل القرن الخامس على أي نطاق واسع .

وأما الذهب الذي استُعمل في العصر الميكيني بكميات كبيرة في صنع أدوات الزينة والحلي والأمتعة فلا بد من أنه كان مستورداً من الشرق [1] . وكانـــت

---

(١) وقد يؤيد ذلك أسطورة بيلوبس (Pelops) التي روى أنه أتى إلى بلاد اليونان من آسيا الصغرى ومعه كنوز من الذهب. وكان الذهب قد شح في بلاد اليونان بعد العصر الميكيني

لاوريوم (Laurium) في جنوب أتيكا هي المصدر الرئيسي للفضة . غير أن استخراجه من هذه المناجم لم يكن عملاً مربحاً إلا بفضل رخص أجور العبيد . ولم يوجد النحاس إلا بالقرب من خالكيس Chalcis (وهي كلمة تتضمن معنى النحاس) في جزيرة يوبويا، ومن ثم كان من الضروري استيراده من قبرص (Cyprus) الغنية بالنحاس(الذي يشتق اسمه من اسم الجزيرة نفسها) أو من أسبانيا . ولم تستغل معظم مناجم الحديد لأن ذلك لم يكن ميسوراً إلا بتوافر الوقود أو باستيراد الوقود دون صعوبة . هذا إلى جانب أن الحديد لم يكن معدناً من السهل تشكيله والانتفاع به ، وبالتالي فإنه لم يقم إلا بدور قليل الأهمية في العالم القديم . وكانت لاكونيا هي أغنى إقليم بالحديد . وكان رعايا اسبرطة شبه الاحرار ممن يسكنون في المدن التابعة لها في أطراف لاكونيا ويعرفون باسم البريؤيكي (Perioeci) يصنعون من هذا المعدن أسلحة لسادتهم الإسبرطيين ، وقليلاً من الآلات الزراعية التي لا غناء عن الحديد في صناعتها . ولم يعرف اليونان الصلب أو الحديد الزهر .

وبينما كانت بلاد اليونان غنية في ثروتها المعدنية، كانت في الوقت نفسه فقيرة في منتجاتها الزراعية . ولكي نفهم ذلك علينا أن نستعرض إمكاناتها الزراعية . ويقسم الجغرافيون المحدثون بلاد اليونان أربعة أقسام : الأراضي الجدباء ، والغابات ، والمراعي ، والاراضي الصالحة للزراعة . والأراضي الجدباء معظمها صخور وتكوّن الآن حوالي ثلث المساحة كلها ، وهي أبرز الأقسام وأكثرها وضوحاً لأن بلاد اليونان - كما ذكرنا - ليست مسطحة بل جبلية حتى لتبدو كالجسم النحيل العاري الذي تبرز منه العظام . ولا يرجع قحلها إلى أنها بلاد

= فاضطرت إسبرطة ذات مرة إلى شرائه من كرويسوس(Croesus)، ملك ليديا، لكي تصنع منه نذوراً للآلهة . وليس من المستبعد أن يكون الذهب قد استورد من مصر في العصر الميكيني (١٥٥٠ - ١١٥٠) .

جبلية فقليل من قمم جبالها يقع فوق خط الشجر الدائم ، وإنما يرجع قحلها إلى أنه لا توجد رطوبة مستديمة في المناسيب المرتفعة تكفي لمعادلة عمليات التجوية المستمرة التي تعرى السطح. لقد كانت بلاد اليونان بالمقاييس الحديثة أرضاً غير خصبة وإن كان الإغريق أنفسهم قد نظروا إلى هذه التربة بأعين مختلفة ، فجانب كبير منها صخري لا ينتج أي شيء ، ذلك لأن الدبال سرعان ما يختفي عندما لا تتخذ الاحتياطات الكافية ، لأن المطر لم يكن منتظما بحيث يقي هذه الطبقة. وفضلاً عن ذلك فإن المطر في حالة سقوطه كان يتشع بسرعة من خلال الحجر الجيري المسامي. ومناخ بلاد اليونان في جملته كمناخ البحر الابيض المتوسط ، فالصيف جاف والشتاء ممطر ، ومتوسط المطر لا يقل عن متوسطه في وسط أوروبا ، غير أن ٧٨٪ منه يسقط في شهور الشتاء ، ٧٪ في شهور يونيو ويوليو وأغسطس. وقد يؤدي انقطاع المطر باستمرار إلى شدة القيظ وجفاف الاراضي ، وذبول النباتات (٢) .

ومن الجائز أن الغابات كانت توجد قديماً في بعض أنحاء بلاد اليونان ، ولكنها زالت على مر الزمن إما بيد الإنسان الذي كان يقطع الاشجار ليستخدم أخشابها كوقود أو بفعل الماعز التي كانت تقضم ما يتخلف عنها فتحول دون نموها من جديد. وعلى أي حال فإن الغابات الكبيرة لا توجد الآن إلا في جبال المنطقة الشمالية الغربية وفي جزيرة يوبويا. على أنه ينبغي التنبيه إلى أن غابات بلاد اليونان لم تكن في أغلب الأحيان كثيفة بحيث لا تنفذ منها أشعة الشمس كغابات البلاد الشمالية ، فأشجارها كانت صغيرة ولا تنمو متقاربة ومعظمها

---

(١) وهو المادة العضوية الغروية الرقيقة التي تغطي الصخر واللازمة لنمو النبات والتي تنشأ عن عوامل التجوية وعوامل أخرى .

(٢) يبلغ متوسط درجة الحرارة في أثينا في شهر يوليو حوالي ٢٧ درجة مئوية، وفي شهر يناير حوالي ٨ درجات مئوية .

دائمة الخضرة كالصنوبر والشربين والبلوط أو مستعرضة الأوراق كالقسطل . وكانت أكثر الأشجار البرية انتشاراً لا تعدو أن تكون شجيرات خضراء أو جافة حسب الفصول كالأسفندان . وكانت الحاجة شديدة إلى الخشب في بناء المنازل وأشد منها للوقود ، فضلاً عن أن المراكب الصغيرة كانت تحتاج باستمرار الى التجديد أو التغيير . وإذا كانت أثينا قد استطاعت أن تحصل على ما يلزمها من الوقود من غابات أخرناي (Acharnae) التي تبعد عنها بحوالي سبعة أميال ، فإنها كانت تفتقر إلى الأخشاب اللازمة لبناء السفن، ولذلك عملت على استيرادها من مناطق الغابات الكبيرة في خارج شبه جزيرة البلقان وبخاصة من الاقطار التي تقع على الساحل الشمالي للبحر الإيجي .

وكانت المراعي تنمو في أسفل الغابات أو بينها على منحدرات الجبال أو حيث زالت الأشجار تحت الصخور العارية مباشرة. وليست هذه المراعي حشائش خضراء كثيفة تنمو على مقربة من الأراضي المزرعة أو في وسطها ، بل هي شجيرات قصيرة جافة تنمو في مناطق صخرية التربة منعزلة بعيداً عن السهول ، وترعى فيها الماعز والأغنام وكذلك الخنازير حيث يتوافر البلوط . ولم يكن الغذاء في المراعي كافياً لتربية المواشي الكبيرة كالثيران والبقر. ولذلك لم يتوافر السباخ لتحسين التربة التي هي فقيرة بطبيعتها، ومن ثم كان استهلاك اللحم ضئيلاً. وكانت المواشي الصغيرة تمد اليوناني بكميات قليلة من اللحم ليقيم أوده، وبالجلود لصناعة الأحذية ، وبالصوف لعمل الملابس . غير أن أسراب النحل تجد في هذه المراعي غذاءً وفيراً ، ولذلك اشتهرت بلاد اليونان لا بلبن الماعز فقط بل بالعسل كذلك . ولم يكن العسل غذاء كمالياً بل ضرورياً للإغريق لأنه كان يقوم عندهم مقام السكر في الوقت الحاضر .

فإذا هبطنا من المرتفعات وصلنا إلى مستوى الاراضي المزرعة التي كانت باستثناء الغابات ، أصغر الاقسام الجغرافية الاربعة إذ لا تزيد مساحته عن خمس

مساحة بلاد اليونان . وتوجد السهول :

أ – في ثساليا (حول لاريسا وشرقي فرسالوس) – وهذا هو أفسح سهول بلاد اليونان – وفي وادي نهر اسبرخيوس شرقي خليج ماليس ؛ وفي فوكيس جنوب إلاتيا .

ب – وفي بويوتيا شمالي طيبة ؛

جـ – وفي أتيكا عند أليوسيس (غربي أثينا) ، وبين جبل هيمتوس وجبال الساحل الشرقي ، وحول مراثون ؛

د – وفي أرجوليس حول أرجوس ؛ والوادي المتاخم لمانتينيا وتجيا في غرب أرجوس ؛ وفي لاكونيا بجنوب اسبرطة ؛ وأخيراً في كل الساحل الغربي من إقليم إيليس .

هـ – وأما الجزر فخالية من السهول ما عدا يوبويا .

غير أن هذه السهول كانت أهم الاقسام لأنه لولاها لما أصبحت بلاد اليونان صالحة للسكنى أو موطناً لحضارة من أعظم الحضارات . وتكوين هذه السهول على جانب كبير من الاهمية لأنه أثر تأثيراً كبيراً في تاريخ اليونان السياسي . وعلى عكس الحال في بلاد مثل سويسرا فإنها لا تتكون من سلاسل جبلية ووديان تسير إحداها بموازاة الاخرى تقريباً ، بل تتكون من سهول أو أراض منبسطة محصورة بين سلاسل جبلية لا تجري في خطوط مستقيمة بل على شكل مستطيلات . وهذه السهول منبسطة بوجه عام وإذا ارتفع سطحها فإنه لا يرتفع عند أسفل الجبال بل عند الوسط حتى لتبدو كأنها أطباق مقلوبة . ولهذا انقسمت الاراضي المزروعة في بلاد اليونان إلى مناطق منعزلة أشبه ما تكون بالصناديق المربعة الصغيرة المغلقة التي يصعب فتحها . وبعضها بل أهمها مثل

سهل أثينا وإليوسيس وأرجوس ليس له سوى جانب واحد مكشوف من ناحية البحر ؛ وأما البعض الآخر كسهل اسبرطة ووسط أركاديا وثساليا فتحيط الجبال بجوانبه الاربعة . وقد ساعد هذا التكوين الطبيعي على عزلة كلا النوعين من السهول في العصور الاولى عندما لم تكن الملاحة قد أصبحت بعد آمنة من خطر القرصنة ، فكانت معظم المدن كأثينا وأرجوس ، تبنى على مبعدة من الساحل .

وعلى حاصلات هذه السهول الصغيرة كان يعيش الإغريق منذ أن استقروا في القرى وانصرفوا عن حياة الرعي والبداوة . وتأتي في مقدمة هذه المحاصيل الضرورية للمعيشة القمح والعنب والزيتون التي يطلق عليها البعض اسم « ثالوث البحر الأبيض المتوسط » . ومنها كان يصنع الخبز والنبيذ والزيت . وأهم هذه المحاصيل بداهة القمح ، الذي يسمى في اليونانية سيتوس sitos (وهي كلمة قد تعني الشعير أيضاً) وكان الغذاء الرئيسي عند اليونان. وقلما كان اليونان يأكلون اللحم إلا في الاعياد عندما كانت توزع القرابين . لا عجب أن صارت كلمة الأضاحي مرادفة لكلمة الذبائح عند الإغريق. وكل طعام آخر غير القمح كان بمثابة الحلوى التي تأتي في ختام الوجبة [1] . وكان اليونان يأكلون الأطعمة المصنوعة من الدقيق بكميات كبيرة وأصناف متعددة . ولم يكن الخبز يصنع عادة إلا من القمح ، وأما الشعير الذي كان يزرع في أكتوبر ويحصد

(١) كل الاطعمة الاخرى التي تؤكل إلى جانب الخبز تسمى opson عند اليونان ، وقد يكون اللحم أو السمك أو الخضروات أو المرق أو الزيتون والجبن . ومن الغريب أن أفلاطون يتجاهل أهم هذه الاطعمة وهو السمك ويحرمه على حراس المدينة (الفاضلة)، ولعله تأثر في ذلك بهوميروس أو بالإسبرطيين . لكن لا شك في أن السمك كان أهم هذه الاطعمة، وليس أدل على ذلك من أن كلمة سمك ixthus أصبحت مرادفة لكلمة opson (وهو ما يستساغ من الطعام ويلتطعمه أي الإدام أو « الغموس ») . وكانت سوق السمك تسمى to opson تمييزاً لها عن سوق اللحم mageiron .

في مايو فكان دقيقه يعجن دون أن يخبز ويؤكل كالثريد بعد خلطه بالماء . ولم يكن اليونان شعباً أكولاً نهماً فمعظمهم كان ولا يزال يتناول وجبتين فقط ، إحداهما في الظهر والأخرى في المساء . وكانت كل دويلة يونانية تزرع أو تحاول أن تزرع ما يكفيها من القمح ، فإذا حدث – وكثيراً ما كان يحدث – أن قل العرض عن الطلب وعجزت دولة المدينة عن تحقيق الاكتفاء الذاتي ثارت فيها مشاكل سياسية خطيرة . وكان القمح يزرع في أكتوبر ويحصد في يونيو ، وفي أي بقعة من ريف المدينة تصلح لزراعته . ونرى المؤرخ الأثيني الكبير ثوكيديديس [1] (Thucydides) لا يؤرخ أحداث فصل معين بالشهور التي كانت اسماؤها تختلف باختلاف الدويلات اليونانية ، وإنما بحالة المحصول في

---

(١) عاش في القرن الخامس (حوالي ٤٦٠ – حوالي ٤٠٠) ويعتبر من أعظم إن لم يكن هو أعظم المؤرخين القدماء . وقد أرخ للحروب البلوبونيزية التي دارت رحاها بين أكبر قوتين في بلاد الإغريق أثينا واسبرطة (٤٣١ – ٤٠٤) ، ولو أن تاريخه ينتهي عند سنة ٤١١ (وقد تابعه المؤرخ اكسنوفون) . وقد اشترك توكيديديس في هذه الحرب ثم نفي من وطنه أثينا لتقصيره في نجدة إحدى المستعمرات مما أدى إلى سقوطها في يد الأعداء (٤٢٤) . وقد عكف في منفاه الذي استغرق عدة سنوات على الكتابة ، مستمداً معلوماته عن الحرب من مشاهداته الشخصية والسجلات الرسمية ، والشهود العيان وخطب القواد والساسة ، وغير ذلك من المصادر الوثيقة . وعالجها بأمانة ودقة وعمق معالجة المؤرخ الناقد الحصيف المنصف . فلا عجب أن أجمع الباحثون على طول باعه كمؤرخ لم تخف عليه أسباب الحرب الحقيقية وفهم الاتجاهات العريضة في عصره . لكنهم أخذوا عليه إسرافه في الاستشهاد بالخطب التي يتصور كأنها جرت على لسان الزعماء . وحيث أنه لا يعنى بالألفاظ بل بالمعاني ، فان أسلوبه صعب معقد ، ويفتقر إلى السلاسة والرونق ، وليس طريفاً شائقاً على خلاف هيرودوت. ولكن تاريخه كما وصفه كتاب يقتنى للأبد. وكان المؤرخ – مع إنصافه لاسبرطة – من المعجبين بالقائد والزعيم بريكليس (Pericles) ، ذلك السياسي الكبير الذي بلغت أثينا في عهده ذروة المجد والحضارة (القرن الخامس أو العصر الذهبي) حتى أصبحت أثينا – كما يقول المؤرخ نقلا عن خطاب التأبين الذي ألقاه بريكليس في رثاء قتلى أثينا في السنة الاولى من الحرب – أصبحت بحق « مدرسة هللاس » أي معلمة كل بلاد الإغريق .

كل فصل [١] .

وبعد القمح يأتي العنب الذي عرفته بلاد اليونان منذ فجر تاريخها . وكان يزرع في أي مكان إذ كانت كل منطقة تزرعه للاستهلاك المحلي . على أن تجارة النبيذ كانت مقصورة على الانواع الفاخرة كنبيذ خيوس ولسبوس وثاسوس [٢]. وكان هو الشراب القومي عند اليونان مثلما كانت الجعة شراب المصريين ونبيذ البلح شراب البابليين. ولم يكن الإغريق شعباً مدمناً للخمر ولو أن النبيذ كان لهدور كبير في حياتهم الاجتماعية والدينية . وبمرور الزمن ارتبط ديونيسوس (Dionysus) أو باكخوس(Bacchus)بالأعناب حتى صار إله النبيذ ، وترى صورته على الأواني الفخارية مقرونة بغصون الكرم .

وأما عن الزيتون فكان زيته يقوم في حياة الإغريق مقام الزبد والصابون والغاز،أي كان يستعمل للطهو والغسل والإضاءة فضلاً عن استعماله كمرهم عطري مستحب في المناخ الجاف . لقد كان أساس الوجبة اليونانية يتألف من الخبز والزيتون أو الخبز والجبن المصنوع من لبن الماعز . وكان الزيت يستعمل في كل طعام تقريباً . ولم يعرف الإغريق الصابون ، بل كانوا يدلكون أجسامهم بالزيت ، فإن لم يؤد الغرض ، أضافوا إليه بعض العطور.وكانت وسيلة الإضاءة الوحيدة هي مسارج الزيت أو مشاعل الراتنج. ولعل هذا يفسر امتلاء المتاحف اليونانية – الرومانية بمسارج الزيت الفخارية . ولكل غرض من هذه الاغراض كانت ربات البيوت يستعملن نوعاً مختلفاً من الزيت . وكان الزيتون

---

(١) كانت الربة ديميتر (Demeter) هي ربة القمح . وقد اشتهرت عبادتها ذات الطقوس السرية في إليوسيس .

(٢) وأما الزبيب وهو من أهم السلع التي تصدرها الآن بلاد اليونان فلم يكن معروفاً في الزمن القديم ، وعن النبيذ في اليونان القديمة ، راجع :

Ch. Seltman, Wine in the Ancient World. London, 1957.

يعصر في معاصر خاصة، والعصرة الأولى ينتج منها زيت الطعام ومن الثانية زيت الاستحمام، ومن الثالثة زيت الإضاءة، وأما ما يبقى بعد ذلك من قشر فكان يستعمل كوقود . وفي الأساطير اليونانية أن الربة أثينة هي التي أدخلت شجرة الزيتون في إقليم أتيكا في وقت لم تكن قد نبتت بعد في أي جهة أخرى من بلاد اليونان. غير أن اكتشاف الأثريين معصرة لزيت الزيتون في قصر مينوس بمدينة كنوسوس الكريتية ، يرجح أن شجرة الزيتون كانت أصيلة في بلاد اليونان، وأن إكليل الزيتون البري كان هو الجائزة اليونانية المفضلة منذ الدورة الأولى للألعاب الأوليمبية في عام ٧٧٦ . وقد تنمو هذه الشجرة في أي جزء من بلاد الإغريق تصلح فيه التربة لزراعتها . ولكنها ازدهرت بوجه خاص في أتيكا، حيث أصبح الزيت أهم سلع التصدير حتى أن صولون Solon [١] عندما حرم تصدير كل المنتجات الزراعية استثنى الزيت . ومن ثم كثرت الإشارة إلى شجرة الزيتون في الشعر اليوناني . غير أن الزيتون لم يزرع في ساحل البحر الأسود ، ولهذا كانت المستعمرات اليونانية العديدة هناك تعتمد على الزيت المستورد إليها من الوطن الأصلي أو من ساحل آسيا الصغرى . وثمة حقيقة هامة تتصل بالزيتون ، فهو لا ينضج إلا بعد مدة طويلة من غرس أشجاره التي لا تعطي محصولاً كاملاً إلا بعد ستة عشر أو ثمانية عشر عاماً وقد لا تعطي أجود محصول إلا بعد أربعين أو ستين عاماً [٢] . ولهذا كانت أشجار الزيتون ، كالغابات ، من العسير زراعتها إلا تحت ظل حكومة مركزية قوية ، وعند قوم أوتوا من الصبر قدراً كبيراً . وهذا يفسر التقدم البطيء الذي أحرزته زراعة الزيتون في الأيام الأولى وكذلك الصعوبات التي لقيها كل من صولون

---

(١) المشرع والمصلح الأثيني الكبير (حوالي ٥٩٤ – حوالي ٥٦٠) .

(٢) ومن ثم أصبح غصن الزيتون رمزاً للسلام بمعنى أنه يحتاج إلى فترة سلام طويلة تحت ظل حكومة قوية تكفل الأمن فلا تتعرض الأرض للتخريب وتتاح الفرصة لكي ينمو الزيتون وينضج .

وبيستراتوس عندما شجعت الحكومة انتشاره . ومن المحتمل أن زراعته ما كانت لتنتشر في أتيكا انتشاراً واسعاً لولا أن بيستراتوس منح ملاك الأراضي قروضاً من جيبه الخاص[1] . وثمة ملاحظة أخيرة عن الزيتون وهي أنه كان نعمة أسبغتها الطبيعة على أتيكا ولكنه كان نقمة عليها في بعض الأحيان. ذلك أن إتلاف مزرعة من مزارع الزيتون لا يعني – كما يحدث في حالة حقل من القمح – ضياع دخل سنة واحدة ، بل ضياع رأس المال كله . ولهذا أصيبت أتيكا بأضرار فادحة بسبب التخريب الذي أحدثه الفرس بأراضيها في الحروب الميدية (٤٩٠ – ٤٦٧) والإسبرطيون في الحرب البلوبونيزية (٤٣١ – ٤٠٤)[2] .

وفي وسعنا أن نتصور كيف أدى هذا التقشف في المأكل والملبس وتواضع مطالب المعيشة التي كان في وسع اليوناني أن يسد أكثرها محلياً ، كيف أدى إلى تقييد نشاط الإنتاج والتجارة ، ولا سيما عندما نعقد المقارنة بالعصر الحديث حيث تستهلك أبسط الأسر سلعاً مستوردة من كل أنحاء العالم : الصوف من استراليا ، والقطن من مصر وأمريكا والهند ، والأرز من الشرق الأقصى والبن من البرازيل وجاوة ... الخ . هذا فضلاً عن تأثير الرق الذي أفضى إلى هبوط مستوى المعيشة بين ضحاياه من العبيد هبوطاً شديداً . على أن هذا المستوى المعيشي المنخفض لجمهرة الشعب اليوناني لم يكن وحده السبب في أن الإنتاج على نطاق واسع لم يكن مجزياً أو مربحاً . ذلك أن الظروف الجغرافية لبلاد اليونان والأقطار المحيطة بها كانت تعوق جانباً من التعامل التجاري. لقد كانت الملاحة – على نحو ما رأينا – مقيدة ، بل معطلة أثناء الشتاء كله

---

(١) طاغية أثينا الشهير (٥٦٠ – ٥٢٧) . حكم من بعده كطغاة (tyrannos) إبناه هيبياس وهيبارخوس (٥٢٧ – ٥١٠) . وبذلك اسدل الستار على حكم الطغاة في اثينا .

(٢) لم تعرف بلاد اليونان زراعة القطن ، وزرعت الكتان بمقادير قليلة ، ولم يكن يرتدي الملابس الكتانية إلا أفراد الطبقة الميسورة . وأما عن الفواكه فقد عرفت منها بلاد اليونان التين والتفاح والكمثري والرمان . ولم تزرع فيها – على الأقل قبل أيام الإسكندر – الفراولة والبرتقال والطماطم ولا الخوخ أو المشمش .

والنيل كله . وقد تعذر النقل البحري الداخلي بسبب عدم صلاحية الأنهار للملاحة ،وتعسر النقل البري بسبب الافتقار إلىالطرق الجيدة .وكان مد الطرق أمراً شاقاً مضنياً حتى أن المصطلح اليوناني لمد الطريق (temnein hodon) أو (keirein hodon) يؤدي معنى شق الطريق أو نحته .ولذا اقتصر الأغريق على تعبيد الطرق الضرورية لسير المواكب الدينية (pompai) إلى المعابد الشهيرة حيث كانت تعقد الأسواق أيضاً في الأعياد الدينية الكبرى . وقد عاقت المنازعات السياسية بين دول المدن اليونانية تطورها الاقتصادي في هذا الصدد كذلك ، حيث أن كل مدينة كانت ترى مصلحتها في أن تترك الطرق على ما هي عليه لكي تعوق زحف عدوتها إليها إذا ما سيرت جيشاً لغزوها . وكاد نقل السلع القابلة للتلف والبضائع الثقيلة عن طريق البر أن يكون مستحيلاً في بلاد اليونان . ومعنى هـــذا أن كل المناطق التي لا تقع على البحر كانت محرومة من التبادل التجاري إلا المحلي منه . وكانت هناك عوائق أخرى للتجارة إلى جانب الظروف الجغرافية ، ونعني بذلك اللصوصية في البر ، والقرصنة في البحر ، حيث كانت كثرة الخلجان على السواحل عاملاً من عوامل تسهيلهـــا والتشجيع عليها . وقد سبق أن شرحنا كيف وقف التطاحن السياسي في بلاد اليونان بسبب فقر التربة حائلاً دون تقدم حياتها الاقتصادية ، لأنه لم يحدث – إلا في فترات قصيرة – أن قامت دولة قوية واحدة في وسعها أن تؤمن التجارة في البحر ، وكان لهذا أثره الخطير في حياة بلاد فقيرة المحاصيل الزراعية كبلاد اليونان التي كان رخاؤها يعتمد على التجارة إلى حد كبير .

وكان التطور التاريخي يجري في اتجـــاه مضاد لمصلحة بلاد اليونان ، بل لا نعدو الصواب إذا قلنا إنه أصابها بضربة قاصمة . ذلك أنه عندما أقام فيليب المقدوني وابنه الإسكندر دولة قوية موحدة قادرة على تأمـــين البحر وحماية التجارة ، وفتح أحدهما وهو الإسكندر أقطاراً خصبة غنية في آسيا ومصر ، انتقل مركز التجارة من الدويلات المحيطـــة بالبحر الإيجي إلى الشرق الذي

اجتذب أعداداً غفيرة من الإغريق المغامرين ذوي النشاط والعزيمة والإقدام . ولم تغنم بلاد اليونان سوى النزر اليسير من ذلك التبادل التجاري الجديد الذي قام فيما بعد بين الممالك الهلينستية الغنية والدول القوية الواقعة في غرب البحر المتوسط ، ذلك بسبب التقدم العلمي في فن الملاحة حيث لم يعد من الضروري أن تلتزم السفن السواحل أو تتجنب الخروج إلى عرض البحر . إن تاريخ بلاد اليونان بعد الإسكندر الأكبر يعكس ، من ناحية الحياة الاقتصادية ، صورة قاتمة من التدهور والفقر المطرد .

تنوع البيئة وأثرها في تكوين المواطن اليوناني :

تتميز الحالة النباتية في بلاد اليونان بظاهرة التغير المفاجىء من نوع إلى نوع ، فكثيراً ما توجد منطقة خصبة وفيرة الزرع إلى جانب منطقة قاحلة جرداء . وقد نشأ عن الاختلاف في ارتفاع السطح اختلاف في المناخ .وزاد من حدته القرب من البحر أو البعد عنه ، فضلاً عن الاختلاف الكبير في درجة الحرارة بين الصيف والشتاء ، وإن لم تختلف كثيراً بين يوم ويوم في الفصل الواحد . وقد أدى ذلك إلى اختلاف كبير في شدة الرياح ودرجة الحرارة وكمية المطر بين مكان ومكان .

وقد تضافرت هذه العوامل على جعل الحياة في بلاد اليونان شاقة وسهلة ، وعلى جعل شعبها صلباً ولين العريكة في الوقت نفسه . ذلك أن وعورة الأرض وجدبها ، واختلاف المناخ من فصل إلى فصل ، وقسوة الشتاء ، قد جعلت البقاء للأصلح ، وبالتالي جعلت اليونان شعباً متقشفاً شديد المراس غير أن اعتدال الجو في الصيف الطويل الجاف ، مع قدرة اليوناني على أن يعيش عيشة الكفاف ، ترتب عليها أن أصبح الكفاح من أجل القوت لا يستغرق كل وقته ، فلم يكن بحاجة إلى الكد المستمر من الصباح إلى المساء لكي يحصل على لقمة العيش .

ولم يكن المناخ ليسمح لليوناني بارتداء الملابس الثقيلة ، فكان يكتفي بأن يلف جسمه بقطعة من الصوف [١] ، وهـــو صوف كانت زوجته تنسجه له

---

(١) الرداءان الرئيسيان عند اليونان للرجال والنساء على السواء هما القميص أو الجلباب المسمى بالخيتون (chiton)، والعباءة المعروفة بالهياتيون (himation)، وكلاهما مستطيل الشكل. والخيتون على نوعين ، الدوري وهو مصنوع من الصوف ، والأيوني وهو مصنوع من الكتـــان ، والأول هو ما كانت نساء أثينا تلبسنه في العصور الأولى وكان يلبس فوق الجسم مباشرة. وجلباب النساء طويل ، وجلباب الرجال قصير ، ويصل طوله في العادة إلى طول القامة أو أزيد قليلا ، ويبلغ عرضه ضعف امتداد الذراع . وقبل ارتدائه كانت النساء تطوينه أولاً عند طرفه العلوي حتى تصل الثنية إلى الوسط ، وبعدئذ تطوينه بالطول . وكانت أطرافه المفتوحة تخاط بعضهـــا بالبعض الآخر ، غير أن نساء إسبرطه كن يشبكنها بدبابيس . وكان الجلباب يتدلى من الكتفين، وفيه فتحتان للذراعين . ويثبت عند الوسط بحزام . وفي العصور الأولى كانت النساء في أثينـــا ترتدين الجلباب الدوري بينما كان الرجال يرتدون الجلباب الأيوني . لكن حوالي منتصف القرن الخامس لبست النساء الجلباب الأيوني، ولبس الرجال جلباباً قصيراً من الصوف يصل إلى الركبتين ويشد إلى الكتف اليسري بأربطة بحيث تبقى الذراع اليمنى عارية .

وأما اللباس الخارجي العادي (الذي يلبس فوق الجلبـــاب عند الخروج) فكان العباءة أو الهياتيون التي يبلغ طولها سبع أقدام وعرضها مساو لقامة الشخص . وكانت تلف حول الجسم كله ما عدا الكتف اليسري في العادة ، وقد تطوى طيات عديدة بالطريقة التي تروق الرجل أو المرأة .

وعند ممارسة بعض أنواع النشاط الرياضي أو العسكري كركوب الخيل مثلا كان اليونان (وبخاصة الشبان epheboi) يلبسون رداءً قصيراً بدون أكمام يطرح على الكتفين يسمى بالخلاميس (chlamys) .

وأما البيلوس (peplos)فهو رداء دوري عريض خارجي للنساء يتكون من قطعة واحدة ويشبك بدبابيس عند الكتفين ويطوى حسب الرغبة ، أو هو الثوب (الفستان) الذي تطرزه الفتيات الأثينات ليحمل في موكب فاخر إلى معبد البارثنون على الأكروبول لإهدائه إلى الربـــة أثينه في عيدها الكبير المسمى بالاثينيا (Panathenaea).

ويلاحظ أن اللون الغالب في زي الرجال هو الأبيض ، والرملدي في زي العمال ، وأما زي النساء فمختلف الألوان ، وأن رداء الرجال يشبه رداء النساء ، وأن « الموضة » لم تكن تتغير بسرعة كما هو حالها الآن ، وأن الثوب كان ينسج في البيت ، وقد يستخدم كرداء أو شال أو بطانية أو لحاف .

في البيت . ولم تكن الملابس الكتانيـة رخيصة فكان استبدالها قبل أن تبلى يعتبر مظهراً من مظاهر التأنق والثراء .

ولم يعرف اليوناني كيف يكون رجلاً اقتصاديا سواء في عادته أو في تفكيره. والحق إن الاقتصاد ، على الرغم من شغف الإغريق بالمال والثروة ، لم يكن ذا أهمية رئيسية في حياتهم فالتفكير الاقتصادي كان غريباً على الإغريق على الأقل قبل القرن الرابع ق‌م. ومما لا جدال فيه أن القيم الخالدة التي تدين بها الانسانية لبلاد اليونان لا تمت بأدنى صلة إلى ميدان الاقتصاد . والكلمة اليونانية التي تعبر عن البطالة (scholé) تعني الفراغ ، بينما لا توجد في اليونانية كلمـة تعبر عن العمل أفضل من الكلمة نفسـها في حالة النفي وهي عدم الفراغ (ascholia) . والفراغ ربيب التأمل والتفكير كما أن الحاجة أم الاختراع . وإذا كان الفلاح اليوناني قد فهم ما في مسرحيات يوريبيديس (Euripides) من معنى خفـي عميق ، فإنه لم يفكر أبداً في ابتكار آلة بسيطة كطاحونة الهواء . وفضلاً عن ذلك فان هذا الصيف الطويل الجاف ، الذي قلما يكون خانق الحرارة، قد دفع بالناس إلى الحياة الخلوية وجعلهم على اتصال وثيق مستمر بالطبيعة،فكان الناس سواء في الريف أم في المدينة يقضون جانباً كبيراً من نهارهم خارج البيوت. وقد أتاح ذلك لهم فرصة الالتقاء المستمر . وأثرت جميع هذه العوامل في حياة الفرد الخاصة وحياة « دولة المدينة » السياسية .

كان المواطن الأثيني العادي– كما ورد عند اكسنوفون (Xenophon)[1]–

---

(١) مؤرخ أثيني (حوالي ٤٣٠ - ٣٥٤) كان ميسور الحال ، تتلمذ على سقراط وخدم في سلاح الفرسان ثم اشترك في الحملة الشهيرة باسم رحلة العشرة آلاف من الجنود الإغريق المرتزقة التي خرجت في ربيع عام ٤٠١ لمساعدة قورش الأصغر الفارسي ضد أخيه أردشير الثاني ، وقد انتهت الحملة بالفشل إذ قتل قورش ولقى معظم الضباط الإغريق مصرعهـم في معركة كيناكسا Cunaxa (على بعد ٤٥ ميلا شمالي بابل) في خريف عام ٤٠١ . وقد اسندت إلى اكسنوفون نفسه قيادة =

يدع زوجته تدير شئون المنزل وحدها ، بينما يخرج هو ليمضي سحابة النهار في الحقل أو في السوق العامة (agora) أو في المحكمة (dikasterion) أو في

= الحملة أثناء عودتها وسط جبال آسيا الصغرى إلى ميناء طرابيزون (على البحر الأسود) .

كان اكسنوفون من المعجبين بإسبرطه وأنظمتها حتى أنه دعا قواته بعد الحملة المذكورة إلى الانضمام إلى جيش اسبرطة . وقد نفى من أثينا إما لميوله الإسبرطية أو لصداقته لسقراط (الذي ارغم على الانتحار عام ٣٩٩) ، فعاش معظم حياته في اسبرطه وكورنثة. وقد التحق بالجيش الإسبرطي عام ٣٩٦ ، واشترك تحت قيادة مليكها أجيسيلاوس في معركة كورونيا (Coronea) بإقليم بويوتيا حيث انتصر الإسبرطيون انتصارا غالي الثمن على طيبة وحلفائها عام ٣٩٤ . ولما عادت أثينا إلى محالفة اسبرطه صدر قرار بالعفو عنه في عام ٣٦٩ ، فأعاد أسرته إلى أثينا وكان يتردد عليها من وقت لآخر . وقد توفي في كورنثة .

وأهم مؤلفاته هي :

(ا) التاريخ الهليني (Hellenica) الذي يبدأ من حيث توقف توكيديديس في عام ٤١١ (سقوط الديمقراطية الأثينية وقيام حكومة الأربعمائة الأوليجركية المتطرفة ، ثم حكومة الخمسة آلاف) وينتهي عند عام ٣٦٢ وهو تاريخ معركة مانتينيا Mantinea (في سهل أركاديا) حيث انتصر إيامينونداس ، زعيم طيبة وقائدها الكبير ، على اسبرطة انتصارا غير حاسم ولقى مصرعه . ويكشف الكتاب عن تحيزه لاسبرطه ضد طيبة .

(ب) حملة قورش (Anabasis) ، حيث يصف وصفاً طريفاً شائقاً حملة العشرة آلاف من الجنود الإغريق المرتزقة لمساعدة قورش عام ٤٠١ .

(حـ) تربية قورش (Cyropaedia) ، وهو كتاب عن سيرة قورش الأكبر (٥٥٩ — ٥٢٩) ، مؤسس الإمبراطورية الفارسية الأخيمينية ، وهي ترجمة متسمة بطابع الخيال ، وطويلة مملة .

(د) دستور اللاكيدايمونيين (Politeia Lakedaimonion) ، وهـو بحث في دستور الإسبرطيين ، مختصر وخال من أي ملاحظات نقدية ، ويميل إلى الإطراء .

(هـ) ذكريات أو مذكرات عن سقراط (Memorabilia) وهي دفاع عن سقراط ضد السفسطائيين ، ونوادر أخرى عنه . وللمؤرخ كتاب آخر في نفس الموضوع بعنوان « الدفاع » (Apologia) يشرح فيه لماذا لم يدافع سقراط عن نفسه اثناء محاكمته دفاعا أفضل . =

الجمعية الشعبية (ecclesia) أو مجلس الشورى (boulé) أو النادي الرياضي الثقافي (gymnasium) حيث يمارس مهنته أو يؤدي واجبه أو يروح عن نفسه. وجميع المنظمات الرئيسية في الحياة اليونانية كانت تنعقد في الخلاء[1]. وكان اليوناني لا يأوي إلى منزله إلا في ساعات الأكل والنوم. ولم يكن يركن إلى بيته وأسرته وقتاً طويلاً حتى في الشتاء الذي كان عند الإغريق فترة توقف نسبي عن النشاط. وإذ كان الصيف عندهم طويلاً والشتاء قصيراً فقد وصف الأخير أحياناً بأنه عطلة مؤقتة للصيف. وعندما نظم الإغريق أسلوب حياتهم، نظموه وفقاً لجو الصيف لا لجو الشتاء. ففي الشتاء كانوا يتوقفون عن القتال ويتجنبون ركوب البحر. غير أن الفلاحين كانوا يتابعون عملهم في الريف كالمعتاد. وكان سكان المدينة يؤمون جلسات الجمعية الشعبية أو المحاكم التي تنعقد في الخلاء. أو يلتجئون إلى

= (و) مدير شئون الضيعة Oeconomicus، وهو بحث عن ادارة المزرعة وتدبير شئون المنزل، في شكل حوار بين سقراط وأحد الملاك الأثينيين. ويتصل بهذا البحث كتاب آخر يتضمن مقترحات لتنمية موارد أثينا المالية بعنوان (Peri porôn).

(ز) حديث مائدة الشراب (Symposium)، وهو بمثابة ندوة تخيلية يعقدها بعض الضيوف حول مائدة الشراب في منزل كالياس (Callias) أحد ثراة أثينا.

(ح) بحث في الفروسية (Peri hippikès)، وهو أقدم بحث كامل عن هذا الموضوع. وبحث آخر بعنوان (Hipparchicus) عن واجبات ضابط الفرسان مشفوعاً بمقترحات لتحسين سلاح الفرسان. وللمؤرخ أيضاً بحث في الصيد بعنوان Cynegeticus ونجاحة صيد الأرانب البرية، ومن الغريب أن يقحم فيه هجوما عنيفا على السفسطائيين الذين لا يفيدون أحداً من الناس».

لم يكن اكسنوفون مؤرخاً كبيراً، لكنه كان قادرا على معالجة مختلف الموضوعات، وتصوير الشخصيات ووصف المشاهد. فهو فيلسوف ومؤرخ واقتصادي هاو. لكنه كان خبيرا كل الخبرة بالشئون العسكرية وعلى الأخص فن قتال الفرسان. وأفكاره في الغالب عادية ومألوفة وليس فيها جديد، وتبعث على السأم من كثرة تكراره لها. وهو كثير الاقتباس عن غيره. وأسلوبه سهل بسيط ودارج أحياناً وإن كان لا يخلو من اللمحات البلاغية والألفاظ الشعرية.

(١) حتى المسرح اليوناني (theatron) كان يقام في الخلاء.

الحوانيت أو الأروقة المسقوفة (stoa) إلتماساً للدفء وقتل الوقت بالحديث والمناقشات . وجدير بالملاحظة أن بيوت الإغريق البسيطة لم تكن من النوع الذي يكفل لسكانها الراحة التامة لا في الصيف ولا في الشتاء . ولم يعن اليوناني بتوفير الراحة في بيته (المبني من الطين المجفف في الشمس ومن الخشب) لأنه لم يكن يقضي فيه فترة طويلة من النهار [1] . وبالإضافة إلى ذلك فإنه لم يتعود أن يدعو أصدقاءه لزيارته في المنزل حيث لا يتهيأ الجو المناسب للكلام بحرية تامة مع وجود النساء . ومن ثم أصبحت السوق العامة والأروقة المسقوفة بالنسبة لليونان كالنوادي بالنسبة لنا في العصر الحديث ، غير أنهم كانوا يمضون فيها وقتاً أطول بكثير مما نمضيه نحن الآن . وفي الحق إن اليوناني لم يكن رجل أسرة بل كان ، كما سماه أرسطو ، حيواناً مدنياً (politikon zôon) ، أي شغوفاً لا بالحياة في المدينة فقط بل بالوقوف على أحوالها والمشاركة في تدبير شئونها ومناقشة سياستها. وقد بلغ من شغفه بحياة الخلاء أنه زهد في بعض المهن كالصناعة التي تستلزم البقاء بين جدران أربعة .

أثر البيئة في مركز المرأة عند اليونان :

ولم يكن هناك مناص من أن يؤثر ذلك في مركز المرأة عند اليونان وفي المجتمع الأثيني بوجه خاص ، حتى لقد قيل إن مركز المرأة في أثينا كان أدنى من مركزها في مجتمعات كريت وميكيناي واسبرطة والمدن الأيونية ومجتمع الرومان . وقيل أيضاً إن المرأة اليونانية أو على الأقل الأثينية كانت تعيش في عزلة أشبه ما تكون بعزلتها في بعض بلاد الشرق ، وأنها لم تظفر من الرجال بأي احترام ، بل كانت تلقي منهم معاملة مشوبة بالازدراء والامتهان. غير أننا نجانب الصواب لو سلمنا بصحة كل ما قيل ويقال إلى الآن عن حطة مركز المرأة

---

(١) ومع هذا فلا بد من أنه كانت هناك منازل كثيرة فخمة يمتلكها الأثرياء .

الأثينية لعدة أسباب ، لأن ما لدينا من قرائن إما طفيف أو مبتور أو خاطيء تفسيره . وفي رأينا أن المقارنة بالمجتمع المينوي في كريت أمر غير جائز لأن هذا المجتمع ينتمي إلى حضارة اتضح أنها غير يونانية ، وهي غير جائزة أيضاً في حالة المدن الأيونية التي تعرضت للمؤثرات الشرقية تعرضاً مستمراً مباشراً ، وبخاصة من ناحية ليديا وكاريا . كما لا ينبغي أن نقيس وضع المرأة في أثينا بوضعها في اسبرطة التي لا خلاف في أنها كانت ذات نظام فريد بين المدن اليونانية من وجوه كثيرة. ومن المسلم به أيضاً أن الرومان وإن اقتبسوا الكثير من اليونان وشابهوهم من بعض النواحي ، إلا أنهم كانوا يختلفون عن اليونان اختلافاً جوهرياً في التفكير وأساليب المعيشة . ولا مراء في أن الكتاب المحدثين قد تأثروا في أحكامهم على المرأة اليونانية بما يرونه الآن من حولهم ، غير أن مقارنة المرأة الأثينية بالمرأة في العصر الحديث ضرب من القياس الباطل في أغلب الاحيان ولا سيما بعد أن طرأ على المدنية تغيير هائل في شتى الميادين ومن ثم لا تجوز إلا مفاضلة واحدة وهي مفاضلة مركز المرأة في المجتمع الأثيني ومركزها في المجتمع الميكيني ، وهو مجتمع نبعت حضارته من أرض اليونان ، على أن يؤخذ دائماً في الاعتبار فارق الزمن بين العصر الهليني والعصر الهلادي [1]

المرأة في العصر الهلادي :

لقد كانت أثينا ، على ضوء الكشوف الأثرية الأخيرة ، هي المكان الذي فر إليه الآخيون بعد الغزو الدوري ، وآوى المنشدين (aoidoi) الهاربين من قصور ميكيناي المتهاوية وغيرها من مراكز الحضارة الميكينية في البلوبونيز ، ومن ثم كانت هي المكان الذي ورث الكثير من مظاهر تلك الحضارة وحفظ التراث الملحمي القديم من الضياع . وقليل من معلوماتنا عن المجتمع الميكيني

(١) العصر الهلادي هو أقدم عصور الحضارة المعروفة لنافي بلاد اليونان، ويمتد من حوالي عام ٢٣٠٠ ـ ١١٥٠ . والحضارة الميكينية هي أزهى فترة حضارية في العصر الهلادي (١٥٠٠- ١١٥٠) .

مستقى من الآثار ، وأغلبها مستقى من الالياذة والإوديسيا ، اللتين نظمهما هوميروس في القرن التاسع أو الثامن ، أي بعد انقضاء ثلاثة قرون أو أربعة على زوال الحضارة الميكينية (١١٥٠) . وعصر الحضارة الميكينية هو «عصر البطولة » عند اليونان ، وفيه نبت ذلك المثل الأعلى البطولي الذي توارثه اليونان من بعد ، وهو مثل يحث على السعي وراء الشرف أو المجد عن طريق العمل الشاق أو بالأحرى عن طريق الحرب والقتال . فالرجل العظيم ، حسب تصور الإغريق ، هو من يستغل كل ما لديه من مواهب بدنية وعقلية إلى أقصى حد ويظفر بثناء زملائه لأنه يبذل قصارى جهده ولا يحجم عن مجابهة أي خطب لإبراز كل مواهبه والتفوق على غيره من الناس . ونجد الفلاسفة الإغريق أنفسهم ، وهم من يؤثرون حياة الفكر والمعرفة لذاتها ، ولا يتوقع أن يرضوا عن مثل بطولي يتركز في الحرب والقتال ، نجدهم يوفونه حقه من الاعتبار ، وإن لم يعتبروه أسمى شيء في الحياة . ويقسم فيثاغورس الرجال ثلاث طوائف : الباحثين عن المعرفة ، والباحثين عن الشهرة ، والباحثين عن المال . ويقارن الحياة بالألعاب الأولمبية فيشبه الطائفة الأولى بالنظارة المتفرجين ، والثانية بالرياضيين المتبارين في الملعب ، والثالثة بالباعة الجائلين . ومع أن الفيلسوف لا يثني في هذه المقارنة على الساعين إلى الشهرة (أو المجد) ثناءً كبيراً ، إلا أنه يعتقد أن المجد أحسن صيتاً من الغنى . كان السعي وراء المجد جزءاً لا يتجزأ من حياة الإغريق ، وكان في نظر اليوناني العادي أقيم من أي نظرية فلسفية في السلوك الخلقي . ولا مراء في أن هذا المثل البطولي هو انعكاس لحالة مجتمع كانت الحرب هي شاغله الأول ، لأن الإقدام والشجاعة كل منهما ذو أهمية قصوى في الحرب . والمعيار الأساسي للشرف هو كرامة الانسان . وما ينال من الكرامة يعتبر غير مشرف . وما يرفع منها يعتبر مشرفاً . ومن ثم نفهم لماذا ذهبت سُدَى كل توسلات الاغريق إلى أخيل (Achilleus)[1]

---

(١) الـ ch في اللغات الأوروبية الحديثة تمثل حرف الخاء اليوناني . وتنطق في هذه اللغات كافاً أو شيناً لعدم وجود الخاء فيها .

عندما غضب لإهانة اعتبرها ماسة بشرفه واعتكف في خيمته رافضاً الاشتراك في القتال إلى جانب إخوانه عند أسوار طروادة . ذلك أن حاجة الاغريق إليه كانت حجة واهية بالقياس إلى إحساسه بالإهانة، ولهذا لم يزده سوء حالهم من بعده إلا إصراراً على موقفه واقتناعاً بأنه على حق .

وبديهي أن مفهوم المثل البطولي قد طرأ عليه تغيير على مر الزمن . وقد طبّقه الاغريق بعد قيام دولة المدينة في حالة السلم أيضاً . ولم تعد الحرب ، على قيمتها الكبيرة من وجهة النظر البطولية ، هي الميدان الوحيد لاحراز الشرف. غير أن أي مجتمع يعتز بفكرة البطولة ويتخذها مثلاً لا يكون دائماً رفيقاً أو موفقاً في معاملته للمرأة.وقد يجد مجتمع كالمجتمع الأيسلاندي المرأة التي تسلك في مواقف كثيرة مسلك الرجال ، فترحب بالخطر ولا تجفل من سفك الدماء . بيد أن إغريق العصر الميكيني (١٥٥٠ — ١١٥٠) — كما يصورهم هوميروس — لم يكونوا على هذه الشاكلة ، لقد تمتعت نساؤهم بمكانة اجتماعية سامية ، وعشن عيشة حرة منطلقة ، استمتعن فيها بالطبيعة والخلاء . وإن كان لنا أن نستشهد بالأساطير اليونانية القديمة ،فنحن نذكر القارىء بأسطورة أرتميس(Artemis) ربة الصيد، وأتلانتا(Atalanta)الفتاة الصيّادة الماهرة [1] ، كما تظهر صورهما

(١) أتلانتا في الأساطير اليونانية هي ابنة أحد ملوك أركاديا (أو بيوتيا ؟) . تخلص منها أبوها بعد مولدها لأنه كان يتمنى غلامـــا بإلقائها في العراء فأرضعتها دبة،وهي حيوان مقدس لأرتميس،ربة الصيد.ولما بلغت أشدها وأصبحت فتاة قوية،وصائدة ماهرة ، وعداءة لا تبارى ، اشتركت في صيد الخنزير البرى الكاليدوني . ذلك ان اوينيوس (Oineus) ،ملك كاليدون (Calydon) ، وهي منطقة لا تبعد كثيراً عن بيوتيا ، قد غفل ذات مرة عن ذكر أرتميس أثناء تقديم القرابين لكل الآلهة ، فعاقبته الربة بأن أرسلت ذلك الخنزير البري المفترس ليعيث في أرضه فساداً ويفتك بقومه الآمنين وعهد الملك إلى ابنه ميلياجروس (Meleagros) بمطاردة هذا الوحش الضاري والقضاء عليه ، فدعا ميلياجروس أمهر الصيادين من كل بـــلاد الإغريق . وكان من بينهم أتلانتا التي كان سهمها هو أول سهم يصيب الخنزير في مقتـــل . وقد افتتن بها =

على الأواني الخزفية . وفي رأي بعض الباحثين أن اللعبة الرياضية الخطرة الشبيهة بمصارعة الثيران ، وهي لعبة كانت تمارسها المرأة الكريتية ، قد نقلها المينويون عن أهل الحضارة الميكينية . ويتبين من الرسوم الحائطية (frescoes) في قصر تيرينس Tiryns (في أرجوليس) أن المرأة الميكينية كانت عصرية الأزياء ، وهي شبيهة بأزياء المرأة في كريت التي أثارت بأناقتها الفائقة دهشة المكتشفين الأثريين . ولا تمثل هذه الصور الحائطية إلا سيدات الطبقـــة الأرستقراطية . لكن من المحتمل أن نساء الطبقات الدنيا كن يلبسن ثياباً أكثر بساطة وحشمة وأقل بهرجاً وأناقة . والإلياذة – كما يعرف القارىء – ملحمة قتـال وحرب سجال، وتزخر بصورة الشجاعة والبطولة وتمجد الرجل. ومع هذا فقد أفسح الشاعر فيها مواضع لابراز دور المرأة. وأما الأوديسيا فهي رواية طويلة حافلة بالمغامرات وقصص البحار ، ودور النساء فيها أبرز منه في الالياذة حتى لقد قيل إنها كتبت لتمجيد المرأة[1]. وحسبك أن تعلم أن الحرب الطروادية نفسها ، وهي موضوع الإلياذة ، لم تنشب – وفقاً لهوميروس – إلا

= ميلياجروس وكافأها بأسلاب هذا الصيد. لكن أخواله اعترضوا على ذلك، وثار بينهم وبينه نزاع انتهى بقتال صرعهم فيه. وقيل إن أمه ألثايا (Althaia) انتقمت منه بوسائل سحرية حتى مات هو الآخر .

وأما أتلانتا فقد تعرف عليها أبوها وأراد أن يزوجها. لكنها اشترطت أن لا تتزوج إلا بمن يستطيع أن يفوز عليها في السباق ، وأن يكون القتل مصير الخاسرين. ولذلك أعرض الخطاب عنها وظلت عذراء. وأخيراً فاز عليها ميلانيون (Melanion) الذي قيل إنه استمالها إليـه بمشاركتها في هوايتها المفضلة وعقد أواصر الصداقة معها. لكن الأسطورة الاكثر رواجاً تقول إن الذي فاز عليها رجل آخر يدعى هبومنيس (Hippomenes) التي أعطته أفروديتي (ربة الحب والجمال) ثلاث تفاحات ذهبية من تفاح حديقة هسبريديس (Hesperides) ، وهي – وفقاً لتصور الإغريق – جنة في الغرب عند سفوح جبال أطلس بلوغها عسير والعثور عليهـا أعسر . وفي أثناء السباق أخذ هبومنيس يلقي بالتفاحات الواحدة تلو الأخرى أمام اتلانتا ممـا شغلها وجعلها تتوقف لالتقاط التفاحات . وبذلك خسرت السباق واضطرت إلى الزواج منه . وقد أنجبت منه غلاما اشترك في الحملة الشهيرة باسم « سبعة ضد طيبة » قبل الحرب الطروادية .

(١) حيث تضرب بينلوبي المثل الأعلى في الوفاء بانتظار زوجها أوديسيوس عشرين عاماً ورفضها كل عروض الزواج أثناء غيابه الطويل .

بسبب هليني الجميلة . ولا ينبغي أن ننسى أن هليني (Helené) كانت عريقة النسب [١] ، وكان الزواج منها سنداً قوياً ، إن لم يكن سنداً شرعياً ، لمنلاوس (Menelaus) ملك اسبرطة . ومن ثم نفهم لماذا ثارت ثائرته وبقية الامراء الاغريق لفرارها مع الأمير باريس (Paris) إبن ملك طروادة ، الذي أغواها.
وكان النسب إلى الام أمراً مألوفاً في بلاد اليونان خلال عصرها القديم بل إن الانتساب إليها كان يعد شرفاً كبيراً . وكانت ولاية العرش تتحقق بالزواج من الملكة ، إذ صار أوديب (Oedipus) ملكاً على طيبة بزواجه من يوكاستي (Iocasté) ، وآيجستوس (Aegisthus) ملكاً على ميكيناي بزواجه من كليتيمنيسترا (Clytaemnèstra) . وفي إيثاكا كان تيلماخوس (Télemachus) بن أوديسيوس ، يقوم بدور الوصي على أمه بينلوبي (Pénelopé) فيما يبدو ، غير أن العرش كان سيؤول حتماً إلى من تختاره الأم زوجاً من بين الخطاب. وتعامل زوجات الزعماء باحترام، ويتمتعن بحرية الاختلاط بالرجال دون قيود ، ولكنهن لا يشتركن في الحرب أو السياسة أو الحكم أو الإدارة . وتجالس بينلوبي رجالَ البلاط في غياب زوجها أوديسيوس ، وتحظى بالحفاوة والتكريم حتى من هؤلاء الأمراء الثقلاء المتطفلين الذين طارحوها الغرام وعرضوا عليها الزواج ، ولم يتورعوا عن من العبث بخادمات القصر من الإماء. وتدبر كل من هكابي (Hecabè) [٢] ، زوجة برياموس ، ملك طروادة ، وأريتي (Areté) زوجة الكينوس (Alcinous) ، ملك فياكيا [٣] شئون بيتها كما تدبره الملكات ، وكل منها صديقة لزوجها وناصحة . ولعل الأخيرة أقوى مركزاً من الأولى لأن أوديسيوس يُنصح بأن يحوز رضاها قبل أي شيء آخر ،

---

(١) ينطق اسم هليني مثل ليلى وضحى في العربية مع الإمالة . وكذلك تنطق الأسماء المؤنثة اليونانية الأخرى المنتهية بالياء .
(٢) ويكتب الاسم مكبوبا Hecuba في اللاتينية .
(٣) جزيرة Phaeacia هي كركيرا (Corcyra) وتسمى الآن كورفو .

وهي تشترك في الحديث في البهو الكبير بالقصر مع زوجهـا الكينوس على قدم المساواة . وتخرج ابنتها ناوسيكا (Nausicaa) إلى أطراف المدينة في صحبـة وصيفاتها، وتلتقي عند شاطىء البحر بأوديسيوس بعد أن غرقت سفينته وفقد كل شيء. ويدور بينهما حديث هو آية في الصراحة والدماثة والغزل الرقيق حتى لقد وصف هذا المشهد بأنه أول حب من أول نظرة .

وكانت هليني أيضاً تروح وتغدو في طرقات طروادة في رفقة وصيفتيها ، وتحضر مجلس برياموس ومستشاريه فوق أسوار طروادة . وحتى عندما عادت إلى زوجها منلاوس في اسبرطة غفرت لها زلتها وعاشت معززة دون انتقاص من سمعتها أو مساس بكرامتها . وثمة صورة من أروع صور الوفاء بين زوجين متحابين وهو لقاء أندروماخي (Andromaché) مع هكتور (Hector) ، الذي يتسم بالبساطة ويخلو من الانفعال ولكنه يمس شغاف القلب ويكشف عن رقة بالغة في العواطف، ولعلها أقدم قصة حب مثالي بين زوجين في الأدب الأوربي كله [١] ؛ وهي حديث وداع بينهما قبل أن يمضي هكتور إلى منازلة أخيل ، بطل الإغريق. وتحاول أندروماخي أن تثني زوجها عن عزمه وتتوسل إليه أن يقاتل من برج المدينة ولا يخرج إلى مبارزة خصم قوي عنيد كأخيل قائلة له « لخير لي أن أموت من أن أفقدك ، فلن يبقى لي أي عزاء إذا لقيت حتفك ، ولن يبقى لي شيء سوى الحزن فليس لي الآن أب أو أم . وكان لي سبعة أخوة انتقلوا في يوم واحد إلى هاديس (عالم الموتى) . لقد صرعهم جميعاً أخيليوس الكبير ، سريع القدمين . أنت يا هكتور أبي وأمي وأخي وزوجي الشهم . أرحمني الآن وابق هنا في القلعة ولا تيتم ابنك وترمل زوجتك » . لكن هكتور لا يستطيع أن يسلك مسلك الجبناء أو يرفض النزال ، إذ اعتاد أن يأخذ مكانه دائماً في الطليعة ويحرز المجد لأبيه ولنفسه ؛ مع أنه يشعر في

---

(١) الإلياذة ، ك ، ٦ ، بيت ٣٦٩ وما بعده .

قرارة نفسه بأن يوم منيته قريب ويوم دمار طروادة غير بعيد. ولا يزعجه شيء سوى مصير زوجته من بعده ، فيقول « أنا لست قلقاً على ما قد ينزل بالطرواديين أو بهكابي نفسها أو الملك برياموس أو بإخوتي البواسل الذين سيطرحهم العدو في الرغام بقدر ما أنا قلق عليك من أن يسوقك جندي أخيٌ وأنت دامعة العينين إلى ذل العبودية . وأتصورك وأنت في أرجوس تغزلـــين على المنول لامرأة أخرى ، وتحضرين الماء من بئر غريبة وأنت مسلوبة الإرادة صاغرة مقهورة . ويقول من يراك باكية : ها هي زوجـــة هكتور الذي بز في الوغى كل الطرواديين ، مروضي الخيول ، حين كانت رحى القتال تدور حول طروادة . ولسوف ينتابك الحزن من جديد على فقدان رجل مثلي قد يخلصك من العبودية ليتني أموت ويهال على جسدي التراب قبل أن أسمع صرخاتك وهم يسوقونك إلى الأسر ... »

ومع أن مصير المرأة الأسيرة كان سيئاً في أغلب الأحيان إلا أننا نجد كلا من بريسيئيس (Briseis) [١] وخريسيئيس(Chryseis) [٢] تعامل معاملة كريمة في المعسكر اليوناني ؛ وتنتشل تكميسا (Tecmessa) على يد سيدها أياس (Aias) من وهده العبودية وتصير محظية له . ولم يكن في تغزل الرجل بالمرأة ما يشينه أو يشين زوجته فيعشق أوديسيوس كاليبسو (Calypso)

---

(١) وهي ابنة الكاهن بريسيوس (Briseus) التي سباها أخيل ثم انتزعها منه أجاممنون (Agamemnon) ، القائد الأعلى للحملة الإغريقية على طراودة ، مثيراً بذلك غضب البطل أخيل الذي امتنع عن القتال ، وبهذه الحادثة تبدأ الإلياذة .

(٢) وهي ابنـــة خريسيس (Chrysês) ، كاهن الإله أبوللون في معبده على الساحل الطروادي . وكان أخيل قد أسرها ولكن عند توزيع الغنيمة كانت من نصيب أجاممنون . وعندما توسل والد خريسيئيس أن يفتدي ابنته رفض أجاممنون طلبه ، وطرده شر طرده. وعندئذ أصاب أبوللون معسكر الإغريق بوباء ، فاضطر أجاممنون إلى أن يرد السبية إلى أبيها الكاهن كي يسترضي الإله الغاضب .

وكيركي (Circe) وبغازل ناوسيكا ولا تلومه بينلوبي على عدم وفائه . ولا نسمع في المجتمع الميكيني عن الطلاق أو تعدد الزوجات إلا في قصر برياموس الطروادي حيث كان يوجد ما يشبه « الحريم » . ولا يرد في ملحمتي هوميروس ذكر للزواج من المحارم سوى مرة أو مرتين [1] .

المرأة في العصر الهلليني :

وبدهي أن مركز المرأة قد اختلف في بلاد اليونان باختلاف الزمان والمكان ولا بد من انه قد طرأ عليه تغيير في الفترة التالية للعصر الميكيني . وليس لدينا معلومات عن المجتمع الهلليني في العصر المعروف باسم العصر المظلم أو العصر اليوناني الوسيط (١١٥٠ — ٧٥٠) ، لكننا نفهم من بعض شعراء القرن السابع من أمثال هيسيود وأرخيلوخوس (Archilochus) وسيمونيديس (Sêmonides) بأن المرأة لم تتبوأ مركزاً رفيعاً في بعض المجتمعات اليونانية ، فيقرن هيسيود الزوجة بالبيت والمحراث والثور عندما يعدد الأشياء التي ينصح فلاح بويوتيا باقتنائها . ويتحامل على المرأة فيصفها بأنها « هدية من زيوس إلى البشر في ساعة من ساعات غضبه » . وهو صاحب أسطورة پَنْدورا (Pandora) الشهيرة التي تجعل من المرأة أصلاً لكل الشرور على الأرض [2] . والتناقض بين هوميروس

---

(١) الإلياذة ، ك ٥ ، بيت ٤١٢ ، الأوديسيا ، ك ٧ ، بيت ٦٦ .

(٢) راجع « الأعمال والأيام » ، أبيات ٥٤ — ١٠٥ ، « أنساب الآلهة » ، أبيات ٥٢١ — ٦١٦ . وخلاصة الأسطورة التي لها أكثر من رواية أن زيوس (Zeus) كبير الآلهة غضب من بروميثيوس Promêtheus (ومعناها المتبصر أو المتروي) — وهو احد الجبابرة Titaues — كان صانعاً ماهراً شديد المكر واسع الحيلة . وقد خدع زيوس نفسه عند توزيع الذبائح الشوية التي كانت تقدم كقربان للآلهة فكان يموه عليه ويعطيه الشحم منها دون اللحم ، فأخفى زيوس النار عن الانسان . ولكن بروميثيوس سرق النار وأعادها إلى الأرض لينتفع بها البشر . وثار غضب كبير الآلهة فقيده بسلاسل عند جبل القوقاز واطلق عليه نسراً ينهش من كبده الذي كان يتجدد كل يوم لأنه كان خالداً كسائر جنسه ، فكان ينمو منه بالنهار ما ينهشه النسر بالليل . وأخيراً أنقذه هيراكليس (Heracles) من هذا =

وهيسيود في تصوير المرأة يرجع الى اختلاف المجتمعين فأحدهما يصور مجتمعاً أرستقراطياً بطولياً لا يخلو من المثالية ، والآخر يصور مجتمعاً ريفياً واقعياً ، ومع هذا نجده يقول في مكان آخر « ليس هناك ما هو خير للرجل من أن يفوز بزوجة طيبة ، وليس هناك ما هو شر له من الزوجة الخبيثة » وهو تعميم ينهض دليلا على أهمية المرأة كمدبرة للمنزل . وأما أرخيلوخوس ، شاعر باروس ، فهو هجاء يحمل على المرأة لاسباب شخصية ولا يمكن أن يؤخذ تشهيره بها مأخذ الجد . وليس من الإنصاف كذلك أن نحكم في المرأة عدواً صريحاً لها مثل سيمونيديس ، شاعر أمورجوس ، الذي عدد نقائصها وشبه أصناف النساء بأصناف الحيوانات المختلفة .

وإذا كان الامر كذلك فما الذي أدى إلى رواج الرأي القائل بأن المرأة الأثينية كانت تعيش في عزلة عن المجتمع ، وأنها كانت تعامل معاملة مهينة؟ لقد جاء في بعض النصوص الأدبية ما يُفهم منه أن المرأة كانت بطبيعتها دون الرجل كفاءة ، وأدنى منه منزلة ، وأنها كانت وسيلة لا غاية ، وأن الزواج لم يقم على

= العذاب . ويعتبر بروميثيوس أول معلم الناس، وأول نصير البشرية ، وصديق الإنسان وحليفه ضد طغيان زيوس . وإذ كان استاذ الصناع جميعاً فقد صنع الإنسان من الصلصال شأنه في ذلك شأن الإله خنوم عند قدماء المصريين ، وهو خالق الأشياء جميعاً .

وفي رواية أخرى أن زيوس غضب على البشر كافة وأراد عقابهم بإرسال امرأة إليهم تنشر بينهم الفتنة والفوضى والشرور. ولذلك أمر هيفايستوس ، إله الصناعة والحدادة، بصنع امرأة وهبتها أفروديتي الجمال وزودها هرميس بالجرأة والحيلة . وكانت هذه المرأة هي بندورا ، أول امرأة في الوجود، ومعنى اسمها كل العطايا أو الهبات جميعاً ، وقد تزوجها إبيميثيوس (المتهور أو العجول) Epimêtheus شقيق بروميثيوس ، برغم تحذير الأخير له من قبول أي هدية من الآلهة. وكانت بندورا قد أحضرت معها إلى بيت الزوجية جرة أو صندوقاً مليئاً بكل الآفات الإنسانية . فأزاح زوجها غطاء الصندوق فتسربت منه كل الشرور ولم يبق سوى « الأمل » . وفي رواية ثالثة متأخرة أن الصندوق كان يحتوي على كل النعم التي كان من الجائز أن تكون من نصيب البشر لولا أن بندورا أزاحت الغطاء فانفلتت منه النعم . ومن الواضح أن قصة بندورا تشابه قصة آدم وحواء الواردة في الكتب السماوية .

عاطفة الحب بل على المصلحة المادية. وكان الهدف منه إنجاب الاطفال للمحافظة على الجنس وكيان الدولة ، واستمرار الأسرة ، وحماية الأباء في سن الشيخوخة ، وضمان تقسيم العمل تقسيما ملائما بين الرجل والمرأة. ويفهم أيضاً من هذه النصوص أن مكان المرأة الطبيعي هو البيت حيث كان عليها أن تربي الاطفــال وتطهو الطعام وتغزل الصوف وتنسج المـلابس وتشرف على شئون البيت الأخرى . ويبدو أن الأثيني كان لا يطمئن إلى خروجها بمفردها إلى السوق الصاخبة حيث لا يتحرج الرجال من الكلام في أي موضوع. يقول اكسنوفون (Xenophon) إن من الخير للمرأة أن تكون في بيتها من أن تكون خارجه ، وليس مما يشرف الرجل أن يبقى فيه مدة أطول مما يمضيها خارجه لتصريف أعماله. وعندما رأى هيرودوت الرجال في مصر ينسجون الكتان في البيوت ، بينما تقوم النساء بشراء الحاجات بل بالبيع والشراء في السوق ، شعر بأن الوضع الاجتماعي مقلوب . ويقول كاتب آخر إن الصمت هو أنبل دور يمكن أن تقوم به المرأة . ويجري يوريبيديس على لسان إحدى شخصياته في مسرحية « الضارعات » عبارة مؤداها أن المرأة العاقلة هي التي تسلس القياد لزوجها في كل الأمور . وعندما ندرس الشاعر الكوميدي أن المرأة ينبغي ألا تتخطى باب دارها. وقد ورد في الخطاب الذي ألقاه بريكليس في تأبين قتلى أثينا في مستهل الحرب البلوبونيزية ، موجهاً الكلام للأرامل ، ما معناه أن المرأة الفاضلة هي من لا يتحدث الناس عنها بالمدح أو الذم [1] . وتفيد بعض الفقرات الواردة في الأدب اليوناني بأن المرأة الأثينية كانت لا تحضر مجالس الرجال ولا تختلط بضيوف زوجها في المنزل . وكان في البيت الأثيني جنـــاح مخصص للنساء (gynaikônitis) ، وآخر مخصص

---

(1) Aeschylus, Septem contra Thebas 232, Sophocles, Ajax 293, Euripides Hereclidae 276 - 7 : Aristotle. Pol. 1260 a30; Thucydides ll, 45 , Plato, Rep - 431 C , Xenoph. Oec - VII, 30, Democritus fr. 274 D—K. Menander, fr. 546 (Kock).

للرجال(andrônitis) وكان لا يجوز لاحد سوى رب المنزل وأقرب الأقارب أن يدخل جناح الحريم . ويتخذ بعض البـــاحثين من عدم إرسال البنات الأثينيات إلى المدارس قرينة على أن المرأة كانت محرومة من التعليم فعاشت جاهلة حمقاء .

ولم تتمتع المرأة الأثينية بحقوق الرجل السياسية . وكان مركزها القانوني أدنى من مركز الرجل ، بل كانت عديمة الأهلية القانونية ، فلا تستطيع إدارة الأعمال أو أداء الشهادة في المحاكم[1] ، أو أن تكون طرفاً في عقد قانوني . وكانت تظل تحت وصاية زوجها(kyrios) حتى مماتها أو تحت وصاية أقرب أقربائها من الذكور . وكان يجوز للأب في حالة عدم وجود ورثة من الذكور أن يوصي بأملاكه وابنته لأي رجل يختاره . وكان على هذا الرجل أن يتزوج الإبنة (حتى لو اقتضى منـه ذلك أن يطلق زوجته) وإلا تنازل عن الإرث . فإذا مات الأب دون وصية ، كان من حق أقرب الأقرباء أن يطالب بالزواج من الإبنة الوريثة (epiklêros) . فإذا كانت الإبنة قد تزوجت ، فعليها أن تترك هـذا الزوج ، وتتزوج أقرب أقربائها .

لا عجب إذن ان ساء الرأي في مركز المرأة الأثينية . غير أن الإنصاف يقتضي التنبيه ثانية إلى أن ما لدينا من معلومات عن وضعها في المجتمع طفيف أو مبتور أو خاطىء التفسير ، وأن كثيراً من الكتاب ينظرون إليها بعين العصر الحديث . ولا ينبغي أن يؤخذ من صمت المصادر الأدبية أو قـلة إشارتها إلى الحياة العائلية دليلاً على إهمال المرأة أو ضعف الرابطة الأسرية أو افتقار الحياة العائلية إلى الدفء والعاطفة . ذلك أن المجتمع اليوناني كان مجتمعاً رجولياً في

---

(١) وإن كان يجوز لها أداء القسم في حالة التحدي الرسمي (proklêsis) أي عندما يتحدى أحد في المحكمة خصمه بأن يقدم عبيده لاستخلاص الشهادة من أفواههم بالتعذيب أو يقبل هو تعذيب عبيده لنفس الغرض.

جوهره ، وأن الأدب اليوناني كان أكثر عناية بالدولة والسياسة منـــه بالفرد والأسرة . ولا جدال في أن البيت كان هو المكان الطبيعي للمرأة الأثينية ، وما يزال مكانها في القرن العشرين . كان على الزوجة الأثينية أن تدبر شئون المنزل من خبز وطهو وحياكة ومراقبة غرف تموينه وأمتعته وإشراف على العبيد إن كان هناك عبيد ، وتوجيه الإماء وهنّ ينسجن بالمنول . كانت مسئولياتها ضخمة كما يتضح من كتاب التدبير المنزلي (Oeconomicus) للمؤرخ اكسنوفون الذي يتناول فيه واجبات زوجة إيسخوماخوس(Ischomachus) ، ومن فقرات كثيرة في مسرحيتي ليستراتا (Lysistrata) والنساء في الجمعية الشعبية (Ecclesiazousae) للشاعر الكوميدي أرسطوفانيس حيث تستشهد النساء بكفايتهن في التدبير المنزلي على قـدرتهن على إدارة شئون المدينة نفسها . ولا يماري أحـــد في أن وظيفة المرأة الرئيسية عند الأثينيين كانت إنجاب الأولاد لاستمرار حياة الأسرة وحياة الدولة ، وتربية البنين حتى يأتي وقت ذهابهم إلى المدرسة ، والبنات حتى زواجهن . لكن من الشطط أن يقـــال إنها كانت قابعة في خدرها لا تخرج إلى السوق ، أو معزولة عن مجتمع الرجال ، أو أن الصمت كان أنبل أدوارها في الحياة ، فمثل هـذا الكلام هو من قبيل الحكم والأمثال ، ومن الخطأ أن نفسره تفسيراً حرفياً ، لأنه يتضمن معنى تمني المستحيل ؛ ومن العسير أن نتصور امرأة يونانية وقد لزمت الصمت مدة طويلة . وأما الفقرة الواردة عنـد اكسنوفون بوضع متراس على أبواب الجناح المخصص للنساء في المنزل فقـد أسيء تفسيرها لأنهـا مقتطفة من نص تنبغي قراءته بأكمله ليتبين لنا أن الكاتب لم يقصد به إيصاد الأبواب على الزوجة والبنات وتقييد حريتهن وحجبهن عن الأنظار ، وإنما قصد بهتجنيب الخادمات الزلل وإنجابهن أطفالاً خلسة دون علم سادتهن وتأمين أمتعة البيت من أيدي العابثين [١] .

(1) Oeconomicus, IX, 5.

لقد تمتعت المرأة الأثينية بقسط من الحرية غير ضئيل . كانت هناك مناسبات كثيرة تخرج فيها النساء من البيوت دون أن تتعرض سمعتهن للقيل والقال.وكانت الزوجات ينهضن ببعض الواجبات أو يسعين للترويح عن أنفسهن خارج المنزل : كن يذهبن إلى السوق (agora) في صحبة خادمة إذا وجدت ، لأن السوق الأثينية كانت مكاناً مكتظاً بالناس شديد الصخب ، تحتدم فيه المناقشات وتثور المشادات. وفيه كان الرجال يتكلمون بحرية تامة وقد يتبادلون قارص الكلم أو يتنابذون بفاحش اللفظ أو يأتون بأفعال تخدش الحياء . وكانت النساء يتزاورن مع جيرانهن ويقضين مع صويحباتهن بضع ساعات من النهار . ولدينا الآن ذخيرة من الأواني الفخارية المزخرفة بصور تدحض رأي القائلين بتقييد حرية المرأة الأثينية ونشاطها. ففي هذه الصور تظهر الفتيات وهن يمارسن مختلف انواع الألعاب الرياضية كالسباق في دورة الألعاب الأولمبية[1]،والاستحمام في أحواض السباحة أو يظهرن وهن حاملات جرار الماء من النافورات العامة أو سائرات في موكب عيد الربة أثينة الكبير (Panathenaea) إلى جانب الفتيان والرجال . وليس في عدم اشتراك المرأة في حفلات الرجال ما ينتقص من قدرها. لقد كان للسيدات الأثينيات أعيادهن وحفلاتهن الخاصة ، كعيد الشموفوريا (Thesmophoria) وهو عيد ديميتير (Demeter) ربة القمح . وكن يذهبن دون رقابة إلى حفلات الزواج ويقمن بواجب المواساة في المآتم ويزرن المقابر . ولعلهن وجدن مجالاً للنشاط في بعض الجمعيات الدينية إن لم يكن قد مارسن أحياناً مهنة الكهانة . وكن يترددن على المسرح لمشاهدة الروايات التراجيدية ، وربما الكوميدية أيضاً ، ولو أننا نستبعد ذلك لأن الملهاة اليونانية لا تخلو من نابي اللفظ وبذيء العبارة والإسفاف ، بل هي لا تخلو من الأفعال الفاضحة المنكرة في بعض الأحيان[2] . وفي طبقات المجتمع الفقيرة كانت النساء يشتغلن أحياناً

---

(١) ما زال اشتراك المرأة اليونانية في مثل هذه الدورات مثار خلاف .

(٢) ومع هذا فإن بعض الباحثين يعتقدون أن المرأة الأثينية لم تحرم من مشاهدة الملهاة ذلك أن المأساة نفسها التي لا يختلف الرأي كثيراً في أن المرأة كانت تشاهدها ، تنتهي برواية=

بالتجارة أو الصناعة، وإن كان أغلبهن من المعتقات ، فنسمع عن مشتغلات بنسج الصوف أو عمل الأحذية ورتقها، وعن أخريات يملكن الحوانيت أو يبعن البخور والسمسم والحبال . ونقرأ عن بائعة باقـــات الزهور في مسرحية « النساء في عيد الثسموفوريا » وصاحبة النزل الرهيبـــة في مسرحية « الضفادع » للشاعر الكوميدي أرسطوفانيس . ولم يكن في وسع زوجات الأثينيين الفقراء أن يعشن بمعزل عن مجتمع الرجـــال ولا كان في وسع الفلاحات في الريف تجنب الاختلاط بالرجال .

وإذا كانت المرأة الاثينية قد عاشت حياتها بين جدران أربعة ، كمـا يزعم البعض، فكيف لم نسمع عن تذمرها من هذه الحياة القاتمة؟ في الحق إن يوريبيديس يطيل في مسرحية ميديـا (Mèdea) الكلام عن مشاق حياة المرأة الحبيسة في المنزل . غير أنه يضع انتقاداته على لسان ميديـا ، وهي امرأة أجنبية الأصل، لا يمكن أن تكون نموذجاً للزوجة أو الأم الاثينية. ومن المرجح أن آراءها في حياة المنزل لم تحظ بالقبول عند معظم الاثينيات اللاتي كنّ يضقن بما يجافي الاعتدال (sophrosynê)، وهو إحدى القيم الخلقية الأثيرة لدى اليونان. بل نحن نستبعد أن الوقت كان يمر ثقيلاً على ربة البيت الاثينية أو أنها دأبت على الشكوى من ملل الحياة المنزلية . ذلك أن تدبير شئون البيت كان يستنفد معظم وقتها. فإذا فرغت من أعبائه لم يبق لديها سوى فترة قصيرة من الفراغ لتزجيها في الحديث أو الثرثرة مع جيرانها وقص الحكايات أو الرقص أو الترويح عن النفس بألعاب

= « ساتيرية » فيها شيء من المجون والبذاءة . ولم يصلنا من هذا النوع إلا ساتيرية كيكلوبس (Cyclops) للشاعر يوريبيدس وساتيرية إخنيوطاي (Ichneutae) لسوفوكليس .
وينبغي أن لا تنسى أن أعين النساء في أثينا كانت تقع على تماثيل عارية فيها كثير من الإباحية .
ولنذكر القارىء بأن كل بيت تقريباً كان يقوم أمامه تمثال للإله هرميس ، رسول الآلهة .
يبرز منه عضو الذكورة (phallus) . وكان الأثينيون يعنون بهذه التماثيل ويغسلونها ويزينونها بالأزهار ويرتلون أمامها أدعية وصلوات قصيرة .

مسلية كالكـــرة أو الارجوحة أو « الكعب » أو « الداما » أو في صناعة الدمى » أو تربية الحيوانات الاليفة وتدليلها . ولا ينهض عدم إرسال البنات في أثينا إلى المدارس دليلاً على حرمـــانهن من التعليم وبقائهن أميات جاهلات ، إذ كان من الميسور دائماً تعليمهن في المنزل القراءة والكتابة والغناء والرقص بل والرياضة البدنية ايضاً ، فضلا عن تثقيفهن في أصول التدبير المنزلي على يد الأمهات .

ومن الخطأ أن نبني فكرتنا عن المرأة الاثينية على نص فلسفي كحديث المأدبة (Symposium) لأفلاطون — وإن كان هو نفسه يساويها بالرجل في كتاب « الجمهورية » مساواة تامة — متجاهلين حقيقة هامة أخرى ، وهي أن كثيراً من المسرحيات التراجيدية تحمل أسماء نساء كأنتيجوني وإيلكترا وميديا وألكيستس وهليني وإفيجنيا ، فضلا عن ازدحام هذه المسرحيات بشخصيات نسوية أخرى . ومن يقرأ هذه المآسي اليونانية يرى النساء وهن يتخذن قرارات خطيرة ، ويحملن مسئوليات جسيمة ، وهو شيء لا نقول إنه مستمد بالضرورة من تجارب الحياة الأثينية وإنما نستبعد أن يكون مناقضاً لما هو جار في هـذه الحياة كل المناقضة ، بل إن من يقرأ المسرحيات الكوميدية — وهي أكثر واقعية من التراجيدية — كليزاة « ليسستراتا » أو « النساء في الجمعيـــة الشعبية » أو « المحتفلات بعيد الثسموفوريا » يدرك على الفور أن المرأة الأثينية لم تكن كماً مهملا. وسواء اعتبرت يوريبيديس نصيراً للمرأة كبعض المحدثين أم عدواً لها تمشياً مع رأي الأقدمين فلا هو ولا زميلاه آيسخيلوس وسوفوكليس توحي رواياته بأن في الإمكان اغفال شأن المرأة أو الإستهانة بأمرها. ومن يستعرض الصور المنحوتة في إفريز البارثنون (Parthenon) يلمس مدى بروز العنصر الأنثوي لا في الأساطير وحدها بل في الديانة كذلك . وجدير بالذكر أن الأثينيين اتخذوا من الربة أثينة (Athênê) راعية لمدينتهم ، وحامية لها ورمزاً .

وليس في حرمان المرأة الأثينية من الحقوق السياسية ما يحط من قدرها ، فإن حق الانتخاب لم يمنح للمرأة في بلاد كثيرة إلا منذ عهد قريب ، وما تزال نساء سويسرا – على سبيل المثال – محرومات من هذا الحق . على أن ذلك لا يعني أن المرأة كانت مسلوبة الإرادة ، فلم يكن هناك ما يمنعها من أن تبدي رأيها في صراحة وتتكلم بحرية دون كبت وأن تسيطر في مملكتها الصغيرة سيطرة تامة . وأما عن وضعها القانوني فإن المشرع لم يقصد بإخضاعها لوصاية الأب أو الزوج أو أقرب الأقارب إلا حمايتها . لعل القارىء قد راعه ذلك القانون الذي يرغم الإبنة الوريثة التي مات أبوها دون وصية على الزواج من أقرب أقاربها . ولا جدال في أن هذا القانون ينطوي على شيء من التعسف. لكنه يتفق واتجاه المشرع اليوناني في كل ما يتصل بمهر الزوجة أو دوطتها إلى الاحتفاظ بهذه الممتلكات في يد أسرتها بقدر المستطاع بغية الحيلولة دون انقراض الأسرة وتوقف ممارستها الشعائر الدينية (sacra)[1] .

---

(١) كان مهر (أو دوطة) الزوجة الأثينية (وهو ما تنقله معها إلى بيت الزوجية سواء في شكل جهاز pherné ، أو ثروة عقارية proix) لا يصبح ملكاً للزوج الذي كان يتولى فقط إدارة أملاك زوجته والانتفاع بها طيلة الحياة الزوجية . وإذا ماتت الزوجة قبله ، فإنه يظل يتولى إدارة هذه الاملاك والانتفاع بها إلى أن يتوفى (إذا كانت زوجته قد تركت منه أبناء) أو إلى أن يتزوج ثانية . ففي حالة وفاته أو زواجه مرة ثانية كانت أملاك الزوجة أو دوطتها تؤول إلى ابنائها . فإذا لم يكن لها ابناء ، ردت املاكها إلى الوصي عليها (kyrios) ، وبالتالي لم يكن الزوج ان يبيع أو يرهن شيئاً منها . وكان عليه في بعض الأحوال أن يقدم حساباً عنها . وفي حالة الترمل كانت الزوجة تتولى إدارة أملاكها إذا بقيت في أسرة زوجها على ان يأخذ الأبناء الذكور نصيبهم من هذه الأملاك عند بلوغهم سن الرشد ، وليس للبنات نصيب إذا كان هناك ولد . وإذا تزوجت الأرملة فإن دوطتها كانت تنفصل عن املاك زوجها الأول وتنضم إلى املاك زوجها الثاني . وإذا طلقت المرأة كانت دوطتها تعود إلى الوصي عليها أو يدفع الزوج فائدة عنها بنسبة ١٨ ٪ ، فضلاً عن إلزامه بدفع النفقة . وقد قصد المشرع الأثيني بذلك أن يحتفظ بأملاك الزوجة في يد أسرتها .

ولقد قيل إن عاطفة الرجل اليوناني نحو المرأة طرأ عليها تغيير خلال العصور أو بعبارة أخرى أن حب الرجل للمرأة بمفهوم الكلمة الحديث لم يعرف إلا منذ العصر الهلينستي . غير أننا نستبعد أن تظل علاقة الرجل بالمرأة قائمة حتى ذلك الوقت على مجرد إشباع الغريزة الجنسية أو الزواج المصلحي . وليس من المعقول أن نبحث عن عاطفة الحب الصادق في ديوان هيسيود المتحامل على المرأة أو قصائد شعراء هجائيين كأرخيلوخوس الباري وسيمونيديس الأمورجي، أو في روايات شعراء ساخرين كأرسطوفانيس أو مناندروس(Menandros) ، أمير « الملهاة الجديدة»[1]، الذي يصف المرأة بأنها شر لا بد منه . وينبغي أن نتجه إلى شاعر إنساني كبير مثل هوميروس الذي يعرض علينا نماذج من وفاء المرأة ، وتحاب الزوجين ، والغزل الرقيق ، والغرام المشبوب ، والفروسية في تصويره لشخصيات بينلوبي وأندروماخي وناوسيكا وهليني . ولا تخلو الأبيات المتبقية من قصيدة دناي (Danae) التي نظمها سيمونيديس (Simonides) - وهو شاعر من جزيرة كيوس Ceos (٥٥٦ — ٤٦٨) — من الوصف العاطفي المؤثر . ويروى أن استيسيخوروس (Stesichorus) ـ وهو شاعر غنائي من عاش في هيميرا بصقلية (حوالي ٦٣٢ — ٥٥٦) - كتب قصة غرامية ، ولكنها ضاعت. ولا يخلو تصوير آيسخيلوس[2] (Aeschylus)لشخصية «إيو» في مسرحية « بروميثيوس» من لمحات عاطفية. وهل كان في وسع سوفوكليس (Sophocles) أن يبتدع شخصيات كأنتيجوني وإليكترا أو ديانيرا أو تكميسا ، ما لم يكن قد عُني بدراسة المرأة لذاتها وتحليل نفسيتها وعواطفها ؟ ويبدي يوريبيديس (Euripides) اهتماماً شديداً بطبائع المرأة في كثير من رواياته ، ويروى أنه

---

(١) ويسمى في اللاتينية مناندر (Menander) وازدهر نشاطه الأدبي في أثينا(٣٢١ - ٢٧١) . وأرسطوفانيس الأثيني (٤٠٠ — ٣٨٥ ؟) هو أمير « الملهاة القديمة » .

(٢) آيسخيلوس (٥٢٥ - ٤٥٦)، وسوفوكليس(٤٩٦ - ٤٠٦) ، ويوريبيديس(٤٨٠- ٤٠٦ ؟) هم أعظم الشعراء المسرحيين في أثينا في القرن الخامس ق.م.

صور الحب الرومانتيكي في مأساة « أندروميدا » التي لم تصل إلينـــا . وحتى أرسطوفانيس على مجونه وسخريته يهتم بمشكلـة المرأة ، ويبدي إشفاقه الشديد عليها من ويلات الحرب في مسرحية ليسستراتا .

ولعل أبلغ رد على القائلين بامتهان الرجل الأثيني للمرأة هي شواهد القبور المحفورة برسوم بارزة والأواني الجنائزية المزخرفـة بصور تكشف عن مدى ما كان يسود الحياة الزوجية من احترام وتعاطف ومشاركة وجدانية . وبدهي أن الزوجة ، أم الأطفال ومدبرة شئون المنزل ، هي التي كانت تحظى بأعمق تقدير وثقة ومحبة من الزوج الأثيني . وليس معنى هذا أن بعض الأثينيين لم يساورهم القلق من احتمال إدمان زوجته الخمر واتخاذها عشيقاً في بعض الأحيـان . وإذا كان مثل هذا القلق لم يساور – على ما يبدو – الأزواج في اسبرطة أو في أيونيا ، فإن ذلـــك يرجع إلى الاختلاف في قواعد السلوك الخلقي . لقد وقف العرف حاجزاً أمام عواطف الرجل الأثيني ، وحتم عليه كتمانها وعدم إظهارهـــا على مرأى من الناس . وإذا كان للرجل ميدانه وللمرأة ميدانهـــا ، فقد احتجبت هذه العواطف وراء ستار ، وبقيت كعنصر جوهري في الحياة المنزلية الخاصة ، لكنها ظلت مبعدة عن حياة الأثيني العامـــة ، وعن السياسة وشئون الدولة والحرب . ومن ثم عني الأدب اليوناني – على نحو ما رأينـا – بالسياسة والدولة أكثر من عنايتـه بالفرد والأسرة . ولا يقوم الغزل حتى في الشعر اليوناني إلا بدور أقل أهمية مما نتوقع ، وبالتالي لم تلق عاطفة الحب الرومانتيكي اهتمامـــاً خاصاً من الأدباء قبل القرن الرابع ، وإن كان يوريبيديس هو الذي حطم بواقعيته الصارخة حواجز العرف في هذا الميدان وغيره من الميادين ، مطلقاً العنان للمشاعر المكبوتة ، وممهداً الطريق للتعبير عن عاطفة الحب الرومانتيكي تعبيراً كاملاً عند شعراء العصر الهلينستي . وأياً كان الرأي في المجتمع اليوناني ، فـلا مناص من التسليم بأنه كان في جوهره مجتمعاً رجولياً . وكان ذلـــك ظاهرة حتمية النظرية السائدة التي اعتبرت الكفاح غاية الحيـاة الرئيسية واتخذت من

البطولة مثلاً أعلى يقتضي من الرجل أن يبذل قصارى جهده في الانتفاع بمواهبه البدنية والعقلية .

المرأة ومجتمع الرجل اليوناني :

ومع هذا كله فلا بد من التسليم بأن ثمة عوامل معينة أثرت في مركز المرأة الأثينية تأثيراً مباشراً أو غير مباشر ، وألقت على وضعها ظلّاً قاتماً . ولعلها كانت تشعرها بالمهانة في بعض الأحيان . ذلك أن هذه النظرة البطولية إلى الحياة تمخضت عن ظاهرة غريبة ، وهي أن قدراً كبيراً من العاطفة التي تنشأ في معظم البلاد بين المرأة والرجل ، نشأت بين الرجل والرجل في بلاد اليونان، إذ كانت الصداقة بين الرجال عاطفة قوية، ولعلها كانت أقوى عندهم من عاطفة الحب نحو المرأة . ويمدنا هوميروس بمثال مشهور عندما يجعل من صداقة أخيل (Achilleus) وباتروكلوس (Patroclus) محوراً لقصته ، ويروي كيف حزن أخيل وغضب لمصرع باتروكلوس ، فعاد بعد تمنع طويل إلى حمل السلاح بجانب إخوانه الإغريق ، وكيف لم يهدأ له بال حتى ثأر لصديقه ونكل بقاتله هكتور. وكان جوهر هذه العلاقة هو مشاركة الصديق لصديقه في السراء والضراء ومناصرته له بصدق وإخلاص ظالماً أو مظلوماً ، ومصادقة أصدقائه ومعاداة أعدائه ومشاركته أفراحه وأتراحه ، ومعاملته بصفاء ونية خالصة ، وتلبية ندائه في كل حين . ويزخر الأدب اليوناني من القرن السادس حتى القرن الرابع بصور زاهية من هذه الصداقة الحميمة ، والتي ترك لنا أرسطو بحثاً شهيراً فيها بعنوان « الأخلاق عند نيقوماخوس » . ويرد في المآسي اليونانية نماذج من وفاء الخليلين كوفاء أياس وتيوكروس، وأورستيس وبيلاديس. ويقول اكسنوفون إن الصديق الوفي هو أثمن مقتنيات الإنسان . وصداقة من هذا النوع كان من السهل ان تنشأ في مجتمع تؤلف بين رجاله المصالح المشتركة ، ويأنس فيه الواحد منهم إلى صحبة الآخر . ولهذه الصداقة جانبها العاطفي النبيل . وقد وجد فيها

الإغريق غذاءاً روحياً ، وسموا بالفكر ، وحافزاً على الجد . غير أنها تعني في الوقت نفسه افتقار حياة الإغريق إلى الحنان أو الرقة التي تلطف من خشونة الحياة حين تقاسم المرأة الرجل أعباءه ومشاقه سواء ببذل الجهد أم بإسداء النصيحة . وللصداقة بين الرجال ذخيرتها من العواطف : بيد أن هذه العواطف قلما تطفو على السطح ، وغالباً ما تحتجب وراء ستار من التحفظ والتزمت والاحتشام. وقد يثير إفراطهم في المشاركة الظنون بأن الصداقة بينهم كانت قائمة على تبادل المنفعة ، ولو أن أرسطو يؤكد أن الصداقة هي أن يحب الإنسان غيره لا أن يحب منه وأن يتمنى لصديقه الخير لا كوسيلة لإسعاد نفسه بل لإسعاد صديقه . وليس ثمة شك في أن الاغريق وجدوا في الصداقة مثلاً عالياً ساعد كثيراً على إشباع حاجتهم إلى الحب .

وكان لهذا الحب الذي نشأ بين الرجال في بلاد اليونان جانبه الحسّي أو الجنسي ، ولو أن هذا النوع من الحب لا نجد له أثراً عند هوميروس الذي ينفيه ضمناً عن أخيل وباتروكلوس [1] . غير أنه يقوم منذ القرن الثامن بدور ملحوظ في حياة اليونان . ويعزى أصله إلى الدُوريين. وقد انتشر وصار شيئاً مستساغاً في معظم أنحاء بلاد الاغريق . وكان ينشأ في العادة بين الرجال والشبان أو في صورة استملاح الصبية وحب الغلمان (paiderastia) . وتختلف الآراء في تفسير بواعثه فتعزوه إما إلى عزلة النساء أو قلتهن، أو ما يسود الحياة العسكرية من كبت في العواطف وحرمان ، أو الافتتان بالجسد العاري في الألعاب ، أو الاستجابة لنداء الغريزة حيثما يشتد الاختلاط وتتوافر عناصر التحاب . وتؤكد الصور المرسومة على بعض الأواني الخزفية هذا الغرام الشاذ بين الرجال . وقد نشأت بين هرموديوس (Harmodius) وأرسطوجيتون (Aristogeitón) ، اللذين اكتسبا شهرة لاغتيالهما الطاغية هيبارخوس (Hipparchus) ، علاقة

---

(١) بلوتارخوس ، سيرة الكيبياديس ، ٤ .

حب صريحة في غير مواربة أو خفاء ، ولكن ذلك لم يحل دون تمجيد ذكراهما باعتبار أنهما عجلا بتخليص أثينا من «الطغيان»[1]. ولعل علاقة من هذا النوع نشأت بين سقراط (Socrates) والكيبياديس (Alcibiades) . وترد في قصائد شعراء كأناكريون وإبيكوس وثيوجينس أبيات تكشف عن احتدام عاطفة الحب بين الرجال، وهي شبيهة بالتغزل في الغلمان. وكان في طيبة «كتيبة مقدسة» قوامها ثلاثمائة شاب انخرطوا في سلكها على أساس إن كل شابين بينهم متحابان، وكانا يدربان على إنماء عاطفة الحب المتبادل ، والقتال سوياً ، ولقاء الموت معاً في الميدان. ويبدو أن أفلاطون لم يجد في مطلع حياته غضاضة في هذا الانحراف ونظر إليه بشيء من السماحة واللين . ونجده يرتب في « حديث المأدبة » علاقات الحب ترتيباً تصاعدياً بادئاً بالجاذبية الجنسية ، ومنتقلاً بعدها إلى حالة الزهد ، وأخيراً إلى الجهاد الفكري لبلوغ حالة أشبه ما تكون بالتأمل الصوفي . غير أنه عدل عن رأيه تدريجياً عندما تقدمت به السن ، فدعا إلى الحد من هذا الانحراف في كتاب « الجمهورية » ، ثم استهجنه وحرّمه في كتاب « القوانين » . وأما أرسطو فلم يقطع فيه برأي صريح وإن كان قد وصفه بأنه حالة مرضية تنشأ بالعادة وشبّهه بنتف الشعر أو قضم الأظافر . وفي الحق إن بعض الناس قد استنكروا هذا اللواط كل الاستنكار غير أنهم كانوا قلة لا تتمتع بنفوذ كبير . ولا مراء في أنه كان عادة مستقرة في المجتمع اليوناني نتجت عن غلبة الطابع الرجولي في الحضارة الهللينية التي كانت تقدس الصفات الرجولية البارزة .

ومع هذا فليس من المستبعد أن تكون هذه الظاهرة الغريبة قد اقترنت بظاهرة أخرى أثرت بدورها في مركز المرأة الأثينية ، ونعني بها تأخر سن زواج الرجل الأثيني[2]. وكان من رأي شاعر واقعي كهسيود ومشرع كصولون

(١) راجع ما تقدم في ص ٤١ ، هامش ١.

(٢) معلوماتنا عن أثينا أوفر منها عن أي مدينة يونانية أخرى .

وفلاسفة من أمثال أفلاطون وأرسطو أن الرجل ينبغي ألا يتزوج قبل سن الثلاثين. وينصح هذان الفيلسوفان الرجل بالزواج بين سن الثلاثين والسابعة والثلاثين، والمرأة بين سن السادسة عشر والعشرين. وقد لوحظ أن الاختلاف في السن بين الزوجين كان كبيراً في العادة، بل لقد ترتب على التشريع الخاص بالإبنة الوريثة أن صار زواج الكهل بالفتاة الصغيرة ظاهرة مألوفة. وقد فسر بعض المؤرخين هذه الزيجات المتأخرة بأنها نتيجة للحياة الاجتماعية وبخاصة تلك الصداقات الحميمة التي نشأت بين الرجال فوجدوا فيها عوضاً عن الزواج المبكر. غير أنه في الإمكان أيضاً أن نسوق لها تفسيراً اقتصادياً أو اجتماعياً – اقتصادياً آخر. ذلك أن جانباً كبيراً من سكان أتيكا كان يتألف من صغار المزارعين. وكانت مساحة الأرض التي يملكها الواحد منهم صغيرة. ومن ثمّ كان من المتعذر على الابن في معظم الأحوال أن يكوّن أسرة إلا كخلف لأبيه عندما يبلغ هذا الأخير سناً لا تسمح له بفلاحة الأرض بنفسه. ولهذا كان الزواج عند هذه الطائفة الكبيرة من السكان أمراً عسيراً قبل سن الثلاثين. ولم تكن ثروة الأب العقارية، وربما ثروته كلها، توزّع بين أبنائه بعد موته، فكان الأخوة يشتركون في زراعة الأرض ويتقاسمون إيرادها، ويظلون عادة يعيشون سوياً تحت سقف واحد، فلا يتعجلون بناء أسر مستقلة. والتعليل الصحيح لهذه الظاهرة هو أن الميراث لم يكن كبيراً في الغالب، فلو أنه وزع بينهم لما نال الإبن الواحد ما يكفيه لإعالة أسرة ومعنى هذا أن كل واحد من الإخوة كان يضطر إلى إرجاء زواجه حتى سن متأخرة. ومن المحتمل إذن أن ذلك لم يكن نتيجة الصداقة بين الرجال بل كان سبباً في دعم أواصر تلك الصداقة التي شرحنا كيف اكتسبت مظهراً غير عادي. ومن المرجح أن الفارق الكبير بين سن الزوجين قد أثر بدوره في مركز المرأة، إذ جعلها أكثر خضوعاً وانقياداً للرجل مما لو كان الزوجان متقاربين في السن. ويتضح ذلك من

لمبة الأمر الواضحة في كلام إيسخوماخوس – وهو الزواج المثالي في كتاب «التدبير المنزلي»لاكسنوفون – إلى زوجته الصغيرة التي لا يزيد عمرها على خمسة عشر ربيعاً .

وينبغي ألا نغفل عاملين آخرين أثرا في مركز المرأة الأثينية وأحدهما تسامح المجتمع في أن ينشيء الرجل علاقات مع النساء خارج نطاق الزواج ، والآخر نظام الرق الذي يتيح له أن يشتري ما يستطيع شراءه من الإماء ، إذ كان القانون يقر معاشرة الرجال للحظيات (pallakai) . ويولد الأبناء أحراراً (eleutheroi) إذا كانت الحظية مواطنة (astè) ، ولكنهم لا يعتبرون شرعيين (gnêsioi) ، بمعنى أنهم لا يصيرون أعضاء تابعين لأسرة الأب وبطن قبيلته (phratria) ، ولو أنه كان في وسع الأب أن يعترف ببنوتهم ويطالب بشرعيتهم إذا شاء . ولم يكن زواج الحظية مصحوباً بأي مهر أو دوطة (proix) . لكن الوصي على المرأة ، الذي يقبل تزويجها لآخر على أنها حظية ، كان يراعي اتخاذ الإجراءات الكفيلة بحمايتها من العوز في حالة طردها دون نفقة .

وكانت هناك طائفة أخرى من النساء الأجنبيات اللاتي توافدن على أثينا خلال القرن الخامس ، وبخاصة من أيونيا . وكان بعضهن مثقفات على قدر كبير من اللطافة واللباقة والذكاء ،وثريات يعشن في بذخ . وقد تسكن الواحدة منهن بمفردها أو مع صديقة أخرى أو صديقتين . وقد تقيم في مسكنها « صالوناً أدبياً » يرتاده رجال الفكر من الأزواج والأعزاب دون شعور بالحرج أو الخزي طالما كانوا لا يهملون زوجاتهم أو ينتهكون الآداب العامة . وكان بعضهن الأخريات أقل ثراء يتكسبن من التجارة أو المهن الأخرى ، أو يعملن « كوديلات » أو يعشن كالغواني عالة على جيوب العشاق. وكانت حياتهن جميعاً غير مستقرة ولكنها لم تكن بالضرورة منحلة او خليعة . وكثيراً مادعين إلى الحفلات مع إغفال الزوجات . وقد اتخذ بعض الأزواج الأثينيين منهن رفيقات

أو خليلات (hetairai) . ولم يكن في هذا المسلك ما يعيب الرجل أو يمس سمعته لأن المجتمع كان لا يستنكره أو يرى فيه ما يستوجب اللوم . وأشهرهن جميعاً هي أسباسيا (Aspasia) ، خليلة بريكليس ، التي أنجب منها، بعد طلاقه من زوجته ، إبناً لم يمنح حقوق المواطنة الأثينية إلا بمقتضى قانون خاص ، لأن هذه الجنسية كانت وقفاً على الأبن المنحدر من أبوين كل منهما أثيني . ومن ثم نرى أن المجتمع الأثيني، وإن تسامح مع الرجل في أن يتخذ له خليلة، إلا أن القانون (الذي أصدره بريكليس نفسه في عام ٤٥١) لم يكن سخياً في معاملته للأبناء المنحدرين من أزواج أثينيين وزوجات أجنبيات . وأما فريني (Phryné) الخليلة الشهيرة الأخرى فكانت تجلس للمثال الكبير براكسيتليس(Praxitelés) وللرسام المعروف أبلليس (Apellés) كموديل لنحت تمثال أو رسم صورة للربة أفروديتي ، إذ روى أن مقاييس جسمها كانت آية في التناسق والكمال[1]. وكانت أدنى هذه الطوائف من النساء طائفة العاهرات اللاتي كن في الغالب من الرقيق ، وقد يحترفن مهنة معينة كعزف الناي(auletrides)أو القيثارة(katharistriai) ويؤجرن للغناء والرقص في حفلات الشراب . وكان سادتهن يقومون بإسكانهن في دور بغاء خاصة ، فاذا كن فقيرات معدمات فقد يحترفن الدعارة رسمياً في مواخير عامة (porneia) بتصريح من الحكومة ، كما يتبين من بعض النصوص الواردة في تشريعات صولون .

الحرية والروح الاستقلالية والنزعة الأنفصالية :

لقد كان الإغريق كالشعوب التي تعيش في مثل مناخهم ، شعباً يألف العشرة ويميل إلى الاندماج في جماعات كبيرة ولهذا كانوا حتى في حالة الهجرة إلى ساحل

---

(١) براكسيتليس مثال أثيني شهير (٣٧٠ - ٣٣٩ ؟) . والتمثال المشار اليه هو تمثال « أفروديتي كنيدوس» الذي وصف قديما بأنه أجمل تمثال في العالم بأسره ، ويمثل الربة شبه عارية. وأما أبليس (٣٣٢ - ؟) فهو أشهر رسام أيوني. رسم أفروديتي، واشتهر برسم صور الإسكندر الأكبر.

آسيا الصغرى أو إلى إيطاليا ، لا يخرجون فرادى بل زرافات أي في حشود تشيع فيها روح الصداقة والود . فاذا حطوا رحالهم في المستعمرة الجديدة على الشاطىء الآخر من البحر لم يكن يعنيهم أن يجدوا الظروف الاقتصادية بقدر ما كان يعنيهم أن يجدوا الظروف الاجتماعية المناسبة . وحياة النوادي تقوّي روح الزمالة : والزمالة الطيبة تعني المساواة، لا المساواة الصورية بل الحقيقيةالتي تنبع من الإحساس بالمصلحة المشتركة ووحدة الهدف ومن الاتصال المستمر في الاماكن العامة . ومساواة من هذا القبيل تصلح لأن تكون أساساً للنظم السياسية . فمن الخير للناس أن يلتقوا ويتبادلوا الحديث لأنهم سوف يتناولونمسائل تهم الجميع. وفي مجتمع صغير بسيط لا يتغير فيه المناخ إلا بتغير الفصول، لن يكون الموضوع الرئيسي الذي يشغل بال الجماهير هو الجو أو المال أو الزواج، بل الدولة.فالدولة في حقيقة الأمر هي المصلحة المشتركة (koinon) كما يسميها اليونان أو هي المصلحة العامة (res publica) كما يسميها الرومان . ففي المنتديات العامةتتهيأ الفرصة لمناقشة المشاكل علناً وبحثها على مشهد من الجميع . ومثل هذه الحياة الجماعية كفيلة بأن تخلق وعياً أو إرادة شعبية قوية أي أن تخلق ما نسميه اليوم بالرأي العام . وكان اليوناني بوصفه « كائناً سياسياً » يناقش كل موضوع يطرح أمامه . وكان من بين حقوقه الأثيرة إلى نفسه هو أن يتكلم بحرية ويقول كل ما يخطر له (parrésia) . وكانت أثينا تفاخر غيرها من دول المدن اليونانية بما تكفله من حرية للأفرادعلىاختلاف أمزجتهم الشخصية.يقول بريكليس فيخطاب التأبين المشهور « إننا لا ننظر بعين القيظ إلى جارنا أو نغضب منه عندما نراه يستمتع بالحياة على طريقته الخاصة ونربأ بأنفسنا عن المشاكسات التافهة التي قد لا تترك أثراً في النفس ولكنها تثير امتعاض من يلحظها » .

ولقد ذكرنا كيف كانت بلاداليونانمنقسمة إلى بيئات تختلففي التضاريس والمناخ والنبات اختلافاً شديداً . ولهذا لم يكن من المتيسر أن يكون أسلوب المعيشة متجانساً إلا في داخل مناطق صغيرة محدودة المساحة. وقد اختلفت

أساليب المعيشة حتى بين الجماعات المتجاورة . فكأن التربة نفسها كانت سبباً جوهرياً في انعـــدام الوحدة السياسية . ومن البديهي أن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية ترتهن أيضاً بهذه الظروف الجغرافية ، ولذلك نجدها تختلف هي الأخرى في مكان عنها في مكان آخر . وما يزال الفارق الطبقي – حتى في العصر الحديث بعد تقدم طرق التجارة والمواصلات – ما يزال هذا الفارق بين سكان المدن والفلاحين في السهول من ناحية وبين الرعاة في الجبال من ناحية أخرى ، أكبر في بلاد اليونان منه في أي دولة أخرى من دول العالم الغربي الرأسمالية . وكان هناك عامل آخر ساعد على الانقسام الشامل ، إذ تملكت كل جماعة رغبة شديدة في أن تحيا مستقلة . وبمرور الزمن تحولت القرية إلى بلدة وتحولت البـــلدة إلى مدينة – دولة كان من أبرز خصائصها الحرية (eleutheria) والاستقلال السياسي (autonomia) والديني ، والاكتفاء الاقتصادي (autarkeia) . وكانت هناك روح انفصالية قوية تكمن وراء حركة التطور التي انتهت بظهور دول المدن اليونانية . وهكذا أصبحت دولة المدينة (polis) ، التي تركزت حول جماعة مدنية واحدة ، هي الشكل النموذجي للدولة اليونانية . غير أن دولة المدينـة كانت تحمل منذ نشأتها بذور انحلالهـــا . فإلى جـانب روح الأثرة والانطواء على النفس وعدم إشراك الغير في الحقوق تولد عن الارتباط الوثيق بين المدينـة (astu) – بالمعنى الضيق الكلمة – وبين الريـف (chôra) احتكاك بسبب تضارب المصالح السياسية والاقتصادية . وهكذا كانت عوامل التفكك تسري في كيان دولة المدينة ، ولم تلبث بمضي الزمن أن تسربت إلى المجتمع والأفراد الذين تولد عن احتكاكهم المستمر منافسة انقلبت في آخر الأمـر إلى خصومة . وبعبارة أخرى فان النزعة الاستقلالية التي تفشت بين الدويلات ، وحالت دون قيام أمة يونانية واحدة ، تطورت إلى نزعة فردية بين الأشخاص قضت في آخر الأمر على « دولة المدينة » .

سياسية مترابطة أي يصبحون دولة مدينة ، يعرف فيها الناس بعضهم بعضاً معرفة شخصية. وقد ساعد هذا العامل أيضاً على أن يدرك كل فرد من المواطنين في كل لحظة وفي كل مسألة أن مصلحته ترتبط بمصلحة الجماعة أشد الارتباط ، وأن دولة المدينة في الواقع مصلحة عامة او مشتركة (koinon) . وكان جميع المشتركين في نفس الدولة يعيشون في ظروف متماثلة ، كما كانت معتقداتهم وأفكارهم وأمانيهم متماثلة ، على الرغم من الاختلافات الطبيعية التي لا مندوحة عنها . وكان كل فرد يرى أن وجوده الشخصي منحصر في نفس الحدود التي ينحصر فيها وجود غيره من المواطنين . هكذا أصبحت إرادة الفرد مقيدة بإرادة الجماعة أو خاضعة لإرادة دولة المدينة . وقد نشأ طراز متجانس من الناس ، يتميز بالارتباط الوثيق بين المواطن والدولة ، ذلك الارتباط الذي حال دون أن يكون الفرد مجرد فرد في الدولة . ومن ثم تولدت وطنية اليوناني المتقدة التي كانت مظهراً من مظاهر وحدة تكاد تكون كاملة بين الحياة السياسية والحياة عامة . وبالإجمال فإن الانسان – كما أسلفنا – أصبح في دولة المدينة محدودة المساحة « حيواناً مدنياً أي سياسياً » .

وترتبط بتلك النقطة حقيقة أخرى تقودنا خطوة أبعد . ففي المنطقة الصغيرة التي شغلتها كل دويلة يونانية كان من المستطاع أن يتعرف الناس على إمكاناتها السياسية والاقتصادية والثقافية فيستغلوها استغلالاً كاملاً . لذلك لم تترك أرض خصبة دون أن تزرع ولا منطقة صالحة للسكنى دون أن تسكن . وانطبق نفس الشيء على الميدان السياسي والفكري ، إذ نجم عن تلاصق الأشياء أن كل جزء منها ، مادياً كان أم معنوياً ، أسهم في بناء الجماعة . وكانت حياة مثل هذه الجماعة الكثيفة السكان ، تنبض بالنشاط نبضاً قوياً ، وسرعان ما تبلغ أوجها . وقد سلكت كل جماعة في تطورها طريقاً خاصاً حددته طبيعة أرضها وطباع سكانها . وبذلك اكتسبت كل دويلة شخصية قوية مستقلة عن غيرها . كما خلقت الوحدة داخل الحيز الضيق إرادة سياسية واعية أو رأياً

عاماً قوياً ، وهذا بدوره أفسح المجال لانطلاق غرائز قوية تسببت في احتدام المنافسة وإثارة الخصومة بين المواطنين . ولا نجانب الصواب إذا قلنا إن هذه الغرائز هي التي شكلت تاريخ الاغريق وتحكمت في مجراه كما شكلت وتحكمت في حياة كل مواطن يوناني . فقد كان أسمى هدف يطمح إليه هذا المواطن أن يفوز بغصن الزيتون بالانتصار في إحدى الألعاب الرياضية التي كانت تجري في الأعياد الهللينية الجامعة حتى يرفع من اسم دولة مدينته . وكانت دول المدن بدورها متلاصقة إحداها بالأخرى إلى درجة أن الحدود الطبيعية والسياسية لم تستطع أن تحول دون توتر العلاقات وقيام المنازعات ، هذا في الوقت الذي كانت كل دولة مدينة على علم تام بموارد دول المدن المجاورة ومدى قوتها . وفي هذا الصدد أيضاً نجد اسبرطة تخرج على القياس ، إذ اشتهرت بتكتمها الشديد فيما يتصل بنظمها وشئونها الداخلية . وقد أفضى تدهور العلاقات واحتدام المنازعات إلى قيام حروب كثيرة من ناحية ، وقيام محاولات من ناحية أخرى لإيجاد نوع من توازن القوى — وهذا بدوره أدى إلى انقسام العالم الهلليني فريقين في الحرب البلوبونيزية .

على أن الحيز الضيق يظل دائماً على ضيقه . وقد أدرك الإغريق ذلك لأول مرة عندما وجدوا أن الحيز الضيق قد يصبح أضيق مما كان عليه . وحين كانت المنطقة المحدودة المساحة تصبح بمرور الزمن غير قادرة على توفير الغذاء الكافي أو المكان اللازم للسكان الذين يتزايدون باستمرار زيادة طبيعية[١]، عندئذ كانت أراضي دولة المدينة تعجز عن أن تحتمل أو تستوعب الفائض من السكان . وقد حدثت تلك الظاهرة في أوقات مختلفة وبدرجات متفاوتة في كثير من دول المدن اليونانية ، غير أن المشكلة كانت قائمة باستمرار

(١) لكن يلاحظ أنه كان للزواج المتأخر ، فضلاً عن ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال ، والحروب المستمرة ، والتطاحن الحزبي ، والأوبئة ، والرق ، والهجرة ، أثر في بطء معدل الزيادة في عدد السكان ببلاد اليونان .

كنتيجة حتمية للظروف الطبيعية . وقد انتهى الفلاسفة الذين كتبوا عن الدولة المثالية إلى أن عــدد سكانها ينبغي أن يظل ثابتاً . وبديهي أن ذلك ليس بالحل الميسور ، وإن كان ضيق حيز دولة المدينة اليونانية قد يبرر هــذه الفكرة غير العملية بعض التبرير . لقد كان الحل الوحيد الممكن الذي فرض نفسه على الإغريق عدة قرون هو الاتجاه إلى البحر ، إذ كان هذا البحر الذي يتغلغل في جميع أنحاء المنطقة اليونانية بمثابة المكمل الطبيعي لنقص المساحة أو المفرج عن ضيق الحيز . ولما كانت دولة المدينة اليونانية منحصرة في نطاق ضيق ولها منفذ على البحر ، فقــد دفعت سكانها دفعاً قوياً إلى التجارة والاستعمار . وقــد عبر المستعمرون اليونان بحراً تقطعه الجزر والسواحل في كل مكان . وهكذا وطدوا أقدامهم بالتدريج في مهاجر أو مستعمرات جديدة . وإن لم تكن أقرب الأماكن دائمــاً هي التي استعمرت في بادىء الأمر . ولم يكن الاستعمار حركة نابعة من إرادة الشعب الجماعية ، بل حركة حتمتها الظروف المؤقتة في كثير من دول المدن اليونانية[1]. وينطوي هذا المثل على حقيقة تاريخية هامة : وهي أن الملاحة والتجارة البحرية والقرصنة والاستعمار – وهو استيطان سلمي يتميز عن الاستعمار المسلح – قلمــا تنبع الحاجة إليها من ظروف دول « قارية » كبيرة ، تتوافر لديها الإمكانات لتنمية الاقتصاد المحلي والتجــارة الداخلية والتعمير الإقليمي ، وإنمــا تنبع من ظروف ضيق المنطقة وعزلتها ونقص مواردها وإجهاد تربتها واكتظاظها بالسكان .

وقد رأينا كيف تؤدي الظروف في المناطق الصغيرة بالضرورة إلى اشتداد كثافة السكان واشتداد نبض الحياة الاقتصادية والفكرية . غير أن التركيز في مكان محدود يستتبعه أيضاً تركيز في الزمن . ففي المناطق الضيقة تجري حياة

---

(١) نشطت حركة الاستعمار الإغريقي ما بين ٧٥٠ ، ٥٥٠ ق.م . وقد شملت جنوب إيطاليا وصقلية وجنوب غاله ومنطقة الدردنيل والبسفور وسواحل البحر الأسود . وقد ترتبت عليهــا نتائج اقتصادية وثقافية بعيدة المدى .

الإنسان وحياة الدولة إلى نهايتها بسرعة كبيرة : نمو سريع ، وشباب قصير مزدهر ، وشيخوخة مبكرة . وقد كان ذلك هو مصير دولة المدينة اليونانية . ولم يكن هناك مناص من أن يأتي الوقت الذي تجهد فيه تربة الأرض المحدودة ، وتؤدي العزلة إلى ضعف الأنسال وتجمد العقول ، وتحوق سير التقدم حدودٌ تزداد ضيقاً من يوم إلى يوم ، وتصبح الحياة تافهة عديمة الجدوى ، وتفقد النظم معناها ، وتتحول المنافسة بين دول المدن إلى نزاع لا معنى له ولا طائل من ورائه . وعندئذ كانت «دولة المدينة» تتحطم بسبب ضيق مجالها الحيوي .

وكان السبيل الوحيد لتجنب هذه النهاية هو توسيع رقعة الأرض ؛ وأمام الإغريق لم يكن هناك سوى مخرج واحد ، وهو البحر . ففي كل دويلة يونانية تقريباً نشأ ميل قوي إلى ركوب البحر ، وإن كان على المهاجرين أن يواجهوا مقاومة السكان الأصليين في كل مكان نزلوا به . وقد سلكت التجارة طريق البحر حيثما كان من المستطاع استخدامه . وقلما كانت الطرق البرية تشق في الداخل . وكان من الطبيعي أن يسبق السكان الذين يعيشون على مقربة من السواحل غيرهم إلى الاشتغال بالسياسة . وجاء الوقت الذي كانت فيه كل دويلة تحاول أن تقهر عزلتها وضيق مساحتها . وقد مهدت التجارة والاستعمار الطريق ، وفي أعقابها جاءت السياسة . ومن أمثلة دول المدن التي كان لها السبق في هذا المضمار ميليتوس وإفسوس وكورنثه وأيجينا وأثينا (Athenae) ، وأن لم تفق اي منها الأخيرة في مضاء العزم أو مرتبة النجاح. ففي وقت مبكر مدت أثينا حدودها السياسية إلى حدود أتيكا الطبيعية . وفي فترة تالية استطاعت تحت قيادة الزعيم السياسي الكبير ثيستوكليس (Themistocles) [1] ان تصبح قوة بحرية سيرة . وقد أتاح لها حلفاؤها في القتال فرصة الزعامة بمحض اختيارهم أولاً ضد الفرس وبعدئذ داخل العالم

(١) ٤٨٣ - ٤٧١ ، ونفي في هذه السنة الأخيرة ومات حوالي ٤٦٢ .

الإيجي . ولن ينطوي الكلام على أي تناقض إذا قلنا إن أثينا ، وقد تمادت في سياستها الإمبريالية ، سرعان ما بدأت تحتكر البحر وتحوله إلى جزء من أراضيها . غير أن أثينا نفسها لم تحصل إلا على زعامة استبدادية مؤقتة . وكان الحلف الأثيني (حلف ديلوس) لا يعدو أن يكون سيطرة فرضتها اثينا على منطقة واسعة .ولكنه لم يتحول إلى إمبراطورية بالمعنى الحقيقي لأنه لم يصبح أبداً دولة واحدة[1] . وهكذا أخفقت أروع محاولة قامت بها دولة مدينة يونانية لكي تتخطى حدودها الضيقة بالتوسع عبر البحر . لقد راحت بلاد اليونان ضحية صغر تكويناتها السياسية .

وثمة نقطة أخيرة : إن منطقة كالمنطقة الإيجية التي تستمد اسمها وطبيعتها من كون البحر الإيجي هو نقطتها المركزية ، يعوزهـا بالضرورة الأفق الجغرافي الواسع . ولم يكن ضيق الحيّز إذاً ظاهرة تميز فقط كل دويلة يونانية على حدة بل تميز أيضاً كل الجزء اليوناني من البحر المتوسط . ولم يتغير هذا الوضع إلا تدريجياً عن طريق الاستعمار فيما بين القرنين الثامن والسادس عندما وجد اليونان مخارج لهم من البحر الايجي إلى عالم أوسع . ومع هذا فقد ظل البحر مركزاً لحياتهم وأفكارهم حتى بعد أن دخل البحر الأسود في نطاق « بحرهم » . وليس أدل على ارتباط حياتهم بالبحر وشغفهم به من « قصة العشرة آلاف جندي » من الإغريق المرتزقة الذين بدأوا حملتهم (anabasis) من سرديس (Sardes) في عام ٤٠١ وتوغلوا في قلب آسيا الصغرى متجهين إلى فـارس لمساعدة قورش (Cyrus) الأصغر في ثورته ضد أخيه أردشير الثاني (Artaxerxes)لكي يسقطه عن عرشه . فلما قتل قورش في معركة كيناكسا (Cunaxa) على بعد ٤٥ ميلاً شمالي بابل،ولم يجد المرتزقة الإغريق بعد مصرع الكثير من ضباطهم ما يصنعونه عادوا أدراجهم ، واختـاروا المؤرخ اكسنوفون نفسه ، الذي روى لنا هذه

(١) أنشىء هذا الحلف عام ٤٨٨/٤٨٧ق.م. ثم نقلت خزانة الحلف من ديلوس إلى أثينا في صيف عام ٤٥٤ ق.م.

القصة [1] ، قائداً ليتولى عملية انسحابهم الشاق عبر جبال أرمينيا الوعرة حتى طرابيزون . وهناك ارتقى بعض أفراد طليعة الجيش ربوة عالية فاشتد الهرج وترامى الصياح تدريجياً إلى مؤخرة الجيش التي ظنت هي والقائد أن عدواً هاجم المقدمة. وحار اكسنوفون في تفسير هذا الصياح الذي أخذ يتزايد فامتطى صهوة جواده مع ثلة من الفرسان واتجه إلى المقدمة ليمدها بالنجدة، فسمع الجنود يصيحون بأعلى صوتهم : البحر ، البحر ! ويتناقلون النداء من واحد لآخر . وارتقى الجميع الربوة وبكوا من الفرح وتعانقوا جميعاً جنوداً وضباطاً . لقد وجدوا البحر [2] أخيراً فتنفسوا الصعداء وأطمأنت قلوبهم إلى أن الطريق أصبح مفتوحاً إلى أرض الوطن . وإذا كان رجل مثل فاسكودي جاما قد حاول فيا بعد أن يطوف بحراً لكي يكتشف حدود الأرض فقد حاول الإغريق بطوافهم أن يكتشفوا حدود البحر . وقد كان من بين الحقائق الهامة أنهم ، أو على الأقل إغريق شبه الجزيرة والجزر المجاورة ، لم تربطهم صلة الجوار إلا بإغريق مثلهم . وفي آسيا الصغرى وحدها بدأوا يدركون أنهم على مقربة من إمبراطوريات كبيرة. وقد جعلت تجربة الحروب الفارسية معظم اليونان يحسون بالفارق بينهم وبين دولة «قارية» ضخمة. ومع هذا فلم ير اليونان في فارس سوى قوى شرقية متبربرة تمثل الاستبدادية المقيتة . وبعبارة أخرى فإنهم تأثروا في حكمهم على الإمبراطورية الفارسية بمستوى حضارتهم وضيق حيزهم السياسي. وكان الإسكندر المقدوني ، وإن حمل لواء الحضارة اليونانية واعتبر وريثاً لها، هو أول من خرج بالتفكير اليوناني من حيز البحر المتوسط إلى « حيز القارات » . ولهذا السبب وغيره من الأسباب، يعتبر الإسكندر في الواقع (٣٣٦ – ٣٢٣) هو محدث التحول

(١) وهو البحر الأسود الذي تقع عليه طرابيزون.

(٢) راجع أيضاً ما تقدم في ص ٤٠ هامش ٢ Anab. VII, 4, 21 - 25 .
بدأت الحملة بحوالي ١٣٠٠٠٠ – وعادت بحوالي ٨٦٠٠ . وكانت اسبرطة متواطئة فيها مع قورش ، وقدمت له المساعدات البرية والبحرية .

الكبير في العالم اليوناني ، ذلك التحول (peripeteia) الذي سلب دولة المدينة اليونانية معاني وجودها وأهميتها .

ويتبين من النظر إلى خريطة سياسية جيدة لبلاد اليونان القديمة أنه كان بها من الحدود السياسية ما يزيد بكثير على حدودها الطبيعية ، بمعنى أن دول المدن التي نشأت فيها كانت أكثر من أقاليمها الجغرافية . وهذه الحقيقة تؤيد الرأي القائل بأن السياسة والتاريخ لا يمكن أن يفسر أي منهما على أساس الظروف الجغرافية وحدها . فالبيئة الطبيعية ليست سوى مادة يستخدمها الإنسان ، مبدع كل تقدم سياسي وحضاري . فكل جماعة من الناس لها خصائص مميزة تتكون قبل فترة قيام الدولة وتتمثل في الجنس واللغة والدين والسياسة والاقتصاد . وهكذا يخلق الإنسان البيئة الحضارية لتكون تربة خصبة لنمو الدولة وبقائها . ولما كنا قد ركزنا الكلام حتى الآن على العوامل الجغرافية ، فينبغي أن نبين ما صنعه الإنسان بما وهبته الطبيعة ، ونستعرض بإيجاز العوامل الجوهرية الأخرى في تكوين « دولة المدينة » اليونانية .

الفَصْـل الثـاني

« دولة المدينة » اليونانية

– ٢ –

أثر البيئة البشرية

الشعب اليوناني وأصله :

لعبت العوامل الطبيعيه دوراً بارزاً في قيام « دولة المدينة » ولكنها لم تكن وحدها هي صانعة هذا النوع من الدول في اليونان ، بل ساعدتها عوامل بشرية؛ وفي مقدمة هـــذه العوامل الشعب اليوناني وأصله أو تكوينه الجنسي . فقد اتضح الآن – في ضوء الكشوف الأثرية – أن حضارة البلاد التي عرفت فيما بعد باسم هِللاس (Hellas) .أو بلاد اليونان نشأت أول ما نشأت في « العصر النيوليثي » (أي الحجري الحديث) الذي بدأ هناك قبـل عام ٣٥٠٠ وانتهى حوالي عام ٢٠٠٠ /١٩٠٠ . وقد جاء بعده «عصر البرونز» الذي انتهت حضارته عام ١١٠٠ على وجه التقريب . وكان قد دخل شبه الجزيرة (الإغريقية) أثناء عصرها النيوليثي قوم لا نعرف لهم اسماً، وإن كان الكتّـاب اليونان قد اطلقوا عليهم فيما بعد اسم البلاسجيين (Pelasgoi)[1] . ومن المرجح أنهم وفدوا من

---

(١) أو الكاريين (نسبة إلى إقليم كاريا(Caria) بآسيا الصغرى أو الليليجيين(Lelegeis) وهو اسم أطلقه الكتاب اليونان فيما بعد على شعب آسيوي كان يحتل جزر البحر الإيجي وأجزاء من بلاد الإغريق نفسها قبل قدوم الآخيين (الهلينيين) . وكانوا يمتون بصلة قرابـة للكاريين ، ويعرفون جميعاً « بالبلاسجيين » الذين يظهرون في الإلياذة كحلفاء لطروادة .

جنوب غرب آسيا الصغرى ودخلوا شبه الجزيرة من سواحلها الشرقية والجنوبية. ولعلهم كانوا يمتّون بالصلة للسكان الأوائل في كريت وجزر البحر الايجي. وقد قامت لهم حضارة، زراعية الطابع، عثرنا على أغلب مراكزها في إقليم تساليا (١٥٠ مركزاً)، ومنطقة كورنثة. وانتشرت غرباً حتى جزيرة كركيرا (كورفو)، وجنوب شرق إيطاليا (إقليم أبوليا). ولم تكن لغة هؤلاء القوم القدامى تنتمي إلى أسرة اللغات الهندية — الأوربية. ويتضح ذلك من أسماء كثير من الأماكن (والنباتات والطيور وألفاظ الملاحة وصيد الأسماك) التي تنتهي بنهايات غير هندية — أوربية وبالتالي غير أصيلة في اللغة اليونانية (- nthos , - ênê , - ssos) مثل كورنثوس وميكيني (وهي ميكيناي) وبَرْناسوس. وأما الطور الأخير من هذه الحضارة النيوليثية فقد درج العلماء على تسميته «بالعصر الهلادي القديم» (حوالي ٢٥٠٠ — حوالي ١٩٠٠)، مع أن الهللينيين (وهم الإغريق) لم يكونوا قد ظهروا بعد على مسرح شبه الجزيرة في ذلك الحين. لكن التسمية اصطلاحية، ولا بأس منها على اعتبار أن هؤلاء السكان الأصليين سيمتزج بهم فيما بعد المهاجرون الهللينيون. وكانت حضارة «العصر الهلادي القديم» حضارة زراعية أيضاً، وانتشرت (إلى جانب تساليا) في وسط بلاد الاغريق (بووتيا وأتيكا) وفي البلوبونيز (كورنثة وأرجوليس)، وجزيرة أيجينا وجزر الكيكلاديس (في البحر الإيجي).

ومع بداية عصر البرونز أي حوالي عام ١٩٠٠ — أو بعده بفترة يختلف الباحثون في تقدير مداها [١] بدأ يدخل شبه الجزيرة قوم جدد لا نعرف من أين

(١) في رأي العلامة السويدي نيلسون (M. P. Nilsson) أن العصر المسمى «بالعصر الهلادي الوسيط» (١٩٠٠ - ١٥٠٠) لا تكشف آثاره حتى الآن عن أي أدلة قاطعة بوجود مراكز عمرانية هندية - أوربية في بلاد الإغريق. ومن ثم فهو لا يعتقد بمجيء الآخيين إلى شبه الجزيرة قبل عام ١٦٠٠. لكن الأثريين والمؤرخين يرون جميعاً أن حضارة «العصر الهلادي الوسيط» حضارة إغريقية، راجع:

H. Bengtson, Griechische Geschichte. 3 tte Aufl, (München) 1965, p. 29, n. 4.

أتوا على وجه اليقين . لعلهم وفدوا من منطقة حوض الدانوب (سهل المجر) أو شمال أوروبا الشرقي أو من منطقة أبعد من ذلك: من شرق بحر قزوين وأواسط آسيا (وهي مناطق شديدة البرودة بعيدة عن البحر) ، ثم دخلوا البلقان من شماله أو سواحله الشرقية . بل إننا لا نعرف الاسم الذي كانوا يطلقونه على أنفسهم عند مجيئهم إلى شبه الجزيرة . لكننا نعرف أنهم كانوا ينتمون إلى أسرة الشعوب الهندية - الأوربية ، وأنهم كانوا قوماً محبين للقنص والفروسية والقتال ويحملون أسلحة مصنوعة من البرونز . ولعل ذلك الدمار الذي لحق بعدد كبير من المراكز العمرانية (في آخر العصر الهللادي القديم) وشمل منطقة واسعة تمتد من غرب شبه الجزيرة إلى أرجوليس ، يرتبط بمجيء هؤلاء القوم ، وإن كنا لا نزال نفتقر إلى الدليل الذي يثبت هذا الارتباط من كل الوجوه . وفي أكبر الظن أنهم لم يقتحموا البلاد كغزاة دفعة واحدة بقدر ما دخلوهـا متسللين في أفواج متعاقبة ، وأن هجرتهم استغرقت زمناً طويلاً جداً . وثمة شيء آخر عن هؤلاء القوم هو أن حضارتهم لم تكن بأرقى من حضارة سكان البلاد الأصليين الذين كان أغلبهم فلاحين يمارسون مهنة الزراعة . لكن مع توالي مجيء قبائل جديدة من هؤلاء المهاجرين ، طغوا على السكان القدامى - وإن تأثروا بحضارتهم - وأصبحوا هم الطبقة الحاكمة بفضل تفوقهم في التنظيم العسكري ، والفروسية ، وفنون القتال . لكن فترة طويلة بعد ذلك من التعايش السلمي والتعاون المثمر كانت كفيلة بتحقيق الامتزاج بين القدامى والجدد . ولم يأت منتصف القرن السادس عشر (حوالي ١٥٥٠) حتى كان سكان شبه الجزيرة خليطاً يتألف من عنصرين أو سلالتين : سلالة الهنود - الأوربيين ، وسلالة سكان البحر الأبيض المتوسط .

هؤلاء القوم الجدد الذين امتزجوا بالقدامى خلال بضعة قرون ، ثم قاموا بالحملة على طروادة في آخر القرن الثالث عشر أو مستهل الثاني عشر ، يسميهم هوميروس (في القرن التاسع) غالباً بالأخايـويين أو الأخيين (Achaioi) .

ولا يساورنا الآن شك - بعد أن توصل فنتريس (M. Ventris) وزملاؤه إلى فك رموز كتابتهم المدونة على ألواح من الطين - [1] في أنهم كانوا يتكلمون حينئذ صورة قديمة من اللغة اليونانية . وليس هناك بأس من أن نقبل تسمية هوميروس لهم بالأخيين حيث أننا لا نعرف لهم اسماً آخر أو أقدم طوال الفترة الممتدة من وقت مجيئهم إلى شبه الجزيرة (في القرن التاسع عشر) إلى وقت تأليف الإلياذة (في القرن التاسع) . لكننا لا نلبث أن نسمع أنهم صاروا يطلقون على أنفسهم - ابتداءً من القرن السابع أو قبله بقليل - اسم الهللينيين (Hellênes) ، وهم من سمّاهم الرومان فيما بعد بالإغريق (Graeci) ، وعرفهم أهل الشرق القديم باسم اليفانيين (Yavani) واليوانيين (Yauna) - نسبةً إلى أيونيا والأيونيين - ونعرفهم نحن في العربية عادة باليونان واليونانيين [2] .

تأثر اليونان بحضارة كريت :

ويسمي الأثريون العصر الذي يبدأ بمجيء الإغريق وينتهي عند منتصف القرن السادس عشر « بالعصر الهلادي الوسيط » (١٩٠٠ - ١٥٥٠) ، وهو يتفق أيضاً مع بداية عصر البرونز في بلاد اليونان . ويسمون العصر التالي له « بالعصر الهلادي الحديث » (١٥٥٠ = ١١٥٠) أو « بالعصر الميكيني » ، نظراً لأن مدينة ميكيناي(Mycenae) في أرجوليس (بالبلوبونيز) لم تلبث أن صارت أقوى مراكز هذه الحضارة وأغناها وأوسعها نفوذاً . ولقد وقعت بلاد اليونان في بداية العصر الهلادي الحديث (الميكيني) تحت تأثير حضارة أخرى أقدم منها نشأة ، وهي حضارة كريت المسماة « بالحضارة المينوية »

---

(١) وهي الألواح المكتوبة بخط يسمى بالكتابة الخطية ب (Linear B) ، واكتشف أغلبها (١٢٠٠ لوحا) في بيلوس (Pylos) بإقليم مسينيا غرب البلوبونيز ، وقليل منها في ميكيناي، وتيرينس وإليوسيس وأورخومينوس وطيبة، وكذلك في كريت . وقد سميت كذلك تمييزاً لها عن الألواح المكتوبة بالخطية ا (Linear A) والتي لم تكتشف إلا في كنوسوس بجزيرة كريت. وقد حلت رموز الأولى عام ١٩٥٢ وإن كان هناك خلاف على تفسيرها. وأما الأخرى فلم تفك رموزها بعد.

(٢) راجع ما تقدم في ص ٨ هامش.

نسبةً إلى مينوس (Minos) ، وهو اسم أحد ملوك كريت القدامى أو لقب كان يحمله ملوك هذه الجزيرة كلقب « فرعون » في مصر القديمة [١] . وكانت حضارة مستقلة ذات طابع خاص ابتدعها أهل كريت الذين كانوا لا ينتمون إلى الأسرة - الأوروبية. وكانوا قد وفدوا إلى كريت - على ما يرجح - من آسيا الصغرى في العصر النيوليثي الذي انتهى في الجزيرة عند حوالى عام ٢٥٠٠ ، واستقروا في الشرق والشمال ، كما وفد في أعقابهم - على ما يبدو - قوم آخرون من جهة أخرى يظن أنها ليبيا واستوطنوا جنوب الجزيرة. ولما كانت كريت تتمتع بموقع وسطيّ ممتاز يجعلها على اتصال بالشرق والجنوب والشمال . فسرعان ما تلاقت فيها التيارات الحضارية الآتية من هذه الجهات ، وعلى الأخص من الشرق الأدنى ، ونشأت فيها حضارة رائعة . ويقسم علماء

---

(١) عن نشأة مينوس (Minos) تروى الأسطورة التالية: كان أجينور (Agenor) ، ملك مدينة صور، له ابنة تدعى يوروبي (Europê) - وهي التي سميت باسمها قارة أوروبا - وقد رآها زيوس ذات مرة وهي تتنزه فأغرم بها . ولكي يفوز بها فقد تقمص شكل ثور وديع لطيف ، وأخذ يقفز من حولها قفزات رشيقة وهي تمشي على الساحل الفينيقي . وأخيراً تمكن من إغرائها بالركوب فوق ظهره . وفجأة قفز في البحر حاملاً حبيبته الى كريت. وهناك أنجبت منه ثلاثة أولاد ذكور من خيرة الأبناء وهم مينوس(Minos)وردامانثوس(Rhadamanthus) وساربيدون (Sarpedon) . وقد أصبح الأخير ملكاً على ليكيا (بآسيا الصغرى) ونجده مشتركا في الحرب الطروادية ضد الإغريق ويلقى مصرعه على يد باتروكلوس ، مع أن هذه الحرب وقعت بعد مولده بزمن طويل . لكن لعله عمر طويلا أو لعل وجوده في القصة هو انعكاس لحقيقة العلاقات التي قامت بين كريت وأقطار آسيا الصغرى . وكان ردامانثوس رجلا مستقيما ولذلك لم ينتقل - بعد حياته الدنيا - الى هاديس عالم الموتى في أسفل الأرض بل انتقل - وفقاً لرواية هوميروس في الأوديسيا - إلى الأليزيوم(Elysium)أو إلى « جزر المباركين » - وكلاهما مكان في الغرب شبيه بالجنة - حيث كان يعيش الأبطال الخالدون والأبرار عيشة كلها نعيم وهناء مقيم ، ولا يذوقون أبداً طعم الموت.لكن في الأساطير التالية نرى ردامانثوس قد نصب بفضل نزاهته - قاضياً في عالم الموتى(مع أخيه مينوس وأياكوس Aeacus ، أحد أبطال جزيرة أيجينا). وأما مينوس فقد صار ملكاً على كريت . وليس لاسمه من الناحية اللغوية معنى في اليونانية ، ولعله تحريف يوناني لاسم أو لقب كريتي غير معروف على وجه الدقة .

الآثار زمن هذه الحضارة إلى عصور : العصر المينوي القديم (٢٤٠٠ — ٢٠٠٠)،[١] والعصر المينوي الوسيط (٢٠٠٠ — ١٦٠٠/١٥٥٠) ، والعصر المينوي الحديث (١٦٠٠/١٥٥٠ — ١٤٠٠) . وقد ازدهرت هذه الحضارة في فترتين إحداهما تسمى «بفترة الإزدهار الأولى» (قبل ٢٠٠٠ — حوالى ١٧٠٠) التي شيد اثناءها قصر ضخم في كنوسوس (Cnossus) قرب الساحل الشمالي ، وقصر آخر في فايستوس (Phaestus) قرب الساحل الجنوبي . وتحولت القرى إلى مدن فاكتسبت الحضارة طابعاً مدنياً ، ونشأت مراكز عمرانية كثيرة في وسط الجزيرة . وتمتعت كريت بالأمن بعد أن قام ملوك كنوسوس — لأول مرة في تاريخ المنطقة — بتطهير البحر من القراصنة . وسادها الرخاء ، وارتقى الفن حتى لتسمى هذه الفترة أحياناً « بعصر كاريس » (١٩٥٠ — ١٧٥٠) نسبة إلى كاريس (Kamares) ، وهو كهف في جنوب إيدا (Ida) [٢] ، عثرنا فيه على أوان فخارية مزينة بزخارف متعددة الألوان . كذلك عثرنا على أوان كريتية في مصر وفينيقيا وبابل وجنوب بلاد الإغريق ، وعثرنا في كريت على بعض آثار شرقية كالأختام الأسطوانية من بابــل ، وتحف فنية من مصر . وينهض ذلك دليلاً على قيام علاقات بين كريت وهذه الأقطار .

لكن حوالى عام ١٧٠٠ حلت بكريت كارثة دمرت قصورها ومراكزها العمرانية . ولا ندري ما إذا كانت قد تعرضت لغزو من الخارج أو دهمها زلزال من تلك الزلازل التي كثيراً ما تعرضت لها الجزيرة . وأيّا كان السبب ، فلم تلبث كريت أن أفاقت من الصدمة بسرعة ، ونهضت من كبوتها ، وأقبلت على « فترة الازدهار الثانية » (١٦٠٠/١٥٥٠ — ١٤٠٠) حيث بلغت حضارتها المينوية أوجها على الأخص في كنوسوس التي أعيد بناء قصرها الفسيح الفاخر ،

---

(١) يرجع بعض علماء الآثار بداية هذا العصر إلى عام ٢٧٠٠ أو ٢٦٠٠ .

(٢) وهو غير جبل إيدا (Ida) بالقرب من طروادة (في شمال غرب آسيا الصغرى) .

وتركزت في يد ملكها « مينوس » الزعامة على معظم أمراء المدن الكريتية الأخرى . وبلــغ الفن المينوي ذروته وهو فن يستمد عناصره الأساسية من الطبيعة ، وعلى الأخص فن الإفرسك (fresco) أو فن الرسوم الجدرانية الزاهية الألوان ، مستوى رفيعاً مثيراً للدهشة . واحتلت المرأة الكريتية مكانة مرموقة في المجتمع ، وكان لها دور كبير في مجال الدين الذي كان مرتبطـــاً بالطبيعة كل الارتباط ، وامتلأت حياة « الجزيرة السعيدة » بالبهجة ، وألوان التسلية والترف ، والأناقة والجمال . واتسع نطاق علاقاتها مع أقطـار الشرق الأدنى. لكن علاقتها ببلاد الاغريق كانت ذات أهمية بالغة من الناحية التاريخية . وقد توثقت هذه العلاقة وبلغت ذروتها في غضون القرن السادس عشر (١٥٥٠ ـ ١٥٠٠) . ولا مراء في أن بلاد الاغريق وقعت تحت تأثير الحضارة المينوية ولا سيا في مجالات الفن والدين والحرف الصناعية وطريقة الكتابة . لكن هـذا لا يعني بالضرورة – كما يعتقد بعض الباحثين – أن كنوسوس قد احتلت بعض أجزاء من شبه الجزيرة الإغريقية أو فرضت عليها سيطرتها السياسية – كما توحي بذلك أسطورة « ثيسيوس والمينوتاوروس »[1] ، ولا يعني أيضاً أن تأثير هـذه

---

(١) ثيسيوس (Theseus)، بطل أتيكا الأسطوري ، هو ابن آيجيوس (Aegeus)أحد ملوك أثينا القدامى . نشأ في مدينة تروزين ، إحدى مدن أرجوليس. وفي رواية أخرى أنه كان ابن بوسيدون ، إله البحر . ولعل هذا معناه أن آيجيوس كان في الاصل إلهاً ثم صور كملــك من البشر . وعندما بلغ ثيسيوس أشده أنجز عدة أعمال خارقة ، إذ رفع صخرة ضخمة وجد تحتها سيف أبيه ونعليه . فامتشق السيف ولبس النعلين ، واتجه إلى أثينا عن طريق البر ، وهو طريق خطر ، حيث اعترضه بعض قطاع الطرق ، ولكنه تغلب عليهم جميعاً . وفي أثينا فــرح أبوه بلقائه بعد طول الفراق ، وجعله وريثاً بعد أن أثبت شجاعته مرة أخرى بقتل ثور مراثون ».

وجاء في الأسطورة ، أو الحكاية الشعبية ، أن مينوس (راجــع ص ٨٩ هامش ١) « بعد أن صار ملكاً على كريت ، بدأ أعماله بأن أراد أن يثبت تلبية الآلهة لكل دعواتــه ، ومن ثم رضاءهم عنه ، وجدارته بالحكم . فدعا الإله بوسيدون أن يبعث إليه من البحر ثوراً ، واعــداً بذبحه قرباناً . وعندما جاء الثور استجابة لدعائه ، وجد مينوس أنه حيوان عظيم فخم الصورة =

العلاقة قد تجاوز الجوانب المادية . لقد اقتبس الأخيون (الإغريق) من جيرانهم المينويين أشياء كثيرة ومن بينها وسائل الترف والرفاهية والتأنق وطريقة الكتابة .

= يبهر الناظرين ، ومن ثم أشفق من ذبحه وآثر أن يحتفظ به لينتج له سلالة من الثيران على شاكلته . ونحر حيواناً آخر عادياً . لكن بوسيدون أصاب الثور بالهياج أو الجنون . وزاد الطين بلة أن باسيفائي (Pasiphaé) ، زوجة الملك مينوس ، تولدت في نفسها رغبة شاذة نحو هذا الثور .

وتصادف في تلك الأثناء وجود ديدالوس (Daedalus) في كنوسوس وكان صانعاً ماهراً جداً برع في النحت والمهارة . لكنه حقد ـ عندما كان لا يزال في أثينا ـ على أحد تلاميذه ، وهو ابن أخيه في الوقت ذاته ، حقداً شديداً لأن التلميذ أظهر من المهارة مـا كاد يفوق به أستاذه . لذلك قتله ديدالوس ، مرتكباً إثماً كبيراً ، وهو قتل المحارم . وقبل المحاكمة هرب ديدالوس إلى كريت حيث رحب به مينوس لإعجابه بمواهبه الفنية . وقد رأت باسيفائي فرصتها سانحة لإشباع نزوتها الشاذة فأقنعت ديدالوس بمساعدتها . فصنع لها تمثال بقرة في حجم البقرة الطبيعية ، ويكاد ينبض بالحياة . ثم أخفى الملكة فيه . وبذلك تمكنت من مجامعة الثور ، وأنجبت منـه وحشاً رهيباً ، عجيب الشكل ، نصفه انسان ونصفه الآخر ثور . ومن ثم فقد عرف باسم مينوتاوروس (Minotaurus) أي « مينوس متجسداً أو متقمصاً شكل الثور » . ونظراً لخطورة هـذا المولود العجيب فقد التجأ الملك إلى ديدالوس مناشداً إياه أن يشيد بناء يخفي فيه هذا الثور . فبنى له قصراً عرف بقصر اللابيرنث (Labyrinthos) ، وهو « قصر التيه » الذي سمي كذلك لكثرة حجراته وتداخل ردهاته والتواء ممراته حتى ليتعذر على المرء بعد دخوله أن يخرج منه ، فيضل طريقه ويتوه .

وكان مينوس قد فرض على الأثينيين جزية سنوية قدرها سبعة فتية وسبع فتيات . ولعل ذلك يرمز إلى مبلغ ما وصلت اليه كنوسوس من قوة وسلطان في ذلك الحين . لكن هناك حكاية شعبية تقول إن مينوس لم يفرض هذا الشرط القاسي إلا انتقاماً من الأثينيين الذين قتلوا ابنه أندروجيوس (Androgeos) . فقد حدث أن ذهب أندروجيوس إلى أثينا للاشتراك في حفلات عيـد الباناثينيا (Panathenaea) وتبارى مع بعض الأثينيين وفاز عليهم في مختلف الألعـاب . وحقد عليه آيجيوس ، ملك أثينا ، وقتله . وأياً كان السبب فإن مينوس كان يحبس الرهـائن الأثينيين من بنين وبنات في قصر اللابيرنث (قصر التيه) ليموتوا جوعاً أو ليفتك بهم الوحش الرهيب مينوتاوروس . وكان الهلاك دائماً مصيرهم لأنه لم يكن هناك سبيل إلى الخروج من قصر كالذي وصفناه .

كان البطل تيسيوس ـ على نحو ما ذكرنا ـ قد عاد إلى أثينا فأستاء من هذا الوضع المهين وقرر =

لكن الحضارة المينوية ، برغم كنوزها الثمينة ، لم تقهر نفوس الإغريق أو بالأحرى لم تغيّر من روح الحضارة الميكينية تغيراً يذكر . ولم تلبث كريت أن وقعت

= أن يضع له حداً . فتطوع ذات مرة ليكون واحداً من بين الرهائن المرسلة الى كريت . ولما نزل بالجزيرة التقى بالأميرة الجميلة أريادني (Ariadnê) ، إبنة الملك مينوس ، التي أعجبت بوسامته وبسالته ووقعت في حبه . فأعطته سيفاً ليقتل به الثور ، وخيطاً ليسترشد به عند خروجه من قصر التيه . وأنجز ثيسيوس مهمته بنجاح ، وقتل الوحش ، وأنقذ زملاءه من براثنه ، وخرجوا جميعاً سالمين . ثم هرب مع أريادني وركب البحر . وما إن بلغ جزيرة ناكسوس حتى كان قد تنكر لأريادني أو نسي حبها فهجرها هناك . وقد التقى بها ـ فيما بعد ـ ديونيسوس ، إله النبيذ ، واقترن بها . وتابع ثيسيوس رحلة العودة إلى وطنه . وعندما اقترب من ساحل أتيكا نسي ـ مرة أخرى ـ أن ينشر الشراع الأبيض فوق مركبه (كما اتفق مع أبيه أيجيوس قبل رحيله كعلامة على عودته سالماً من رحلته الخطرة) . وكان أبوه ينتظره على الساحل في قلق . فلما شاهد الشراع الأسود منشوراً حسب أن ابنه قد هلك فألقى بنفسه في البحر حزناً عليه . ومن هنا جاءت تسمية هذا البحر « بالبحر الإيجي » . واعتلى ثيسيوس عرش أثينا بعد أبيه ، واليه ينسب توحيد أتيكا السياسي (synoikismos) ، كما تنسب إليه أعمال أسطورية أخرى .

وبقي الآن أن تعرف أن قصر اللابيرنث (Labyrinthos) ـ الذي أصبح يرمز الى أي مبنى معقد ـ يشتق اسمه ـ على ما يرجح ـ من كلمة لابرو (labru) ، وهي كلمة ليدية الأصل (أي من ليديا بآسيا الصغرى) ، معناها « البلطة ذات الرأسين » ، وأن لابيرنثوس معناها مكان أو « قصر البلطة المزدوجة » . ولقد عثر علماء الآثار في قصر كنوسوس على صورة لوحش رأسه في شكل الثور ، مرسومة على الجدران . ولا ندري أترمز إلى أرواح أو قوى خارقة معينة (daimones) كالتي كان يؤمن بها الكريتيون أم هي أقنعة كان يلبسها الكهنة عند تأدية الطقوس الدينية إذ كان مينوس نفسه حاكماً مؤلهاً وكاهناً أعلى ، بل كان ـ كما يقول هوميروس ـ رفيقاً لزيوس نفسه . وكان حكمه يتجدد كل تسع سنوات وفقاً لطقوس معينة . ولا مراء في أن البلطة ذات الرأسين ـ التي وجدت أيضاً مرسومة على جدران قصر كنوسوس كانت هي الأخرى ترمز (كأداة في ذبح القرابين المقدسة) إلى روح إله معين أو إلهة يعتقد أنها « ربة الارض » أو « الأرض الأم » التي كانت عبادتها منقولة عن إقليم ليديا وغيره من أقاليم آسيا الصغرى .

وأما عن ديدالوس فقد أراد أن يرحل عن كريت . لكن مينوس حاول منعه إما لرغبته في الاحتفاظ به والانتفاع بمواهبه الفنية أو لرغبته في معاقبته وسجنه لانه كان ضالعاً مع بسيفاي عندما ساعدها على إشباع غريزتها البهيمية . لذلك احتجزه هو وابنه إيكاروس (Icarus) . =

في يد الميكينيين الذين هاجموا الجزيرة حوالي عام ١٤٠٠ ، واحتلوا كنوسوس، وهدموا قصرها وغيره من القصور بعد حوالي نصف قرن فانطفأ بريق الحضارة المينوية منذ ذلك الحين وورثت ميكيناي مركز كريت في البحر الايجي بل في عالم المتوسط (١٤٠٠ – ١٢٠٠) .

لكن إذا كانت كريت قد أثرت تأثيراً قوياً في حضارة بلاد اليونان في فترة أثناء الألف الثاني قبل الميلاد ، فإن هذه الجزيرة نفسها لم تقم بأي دور هام في سياسة أو حضارة بلاد اليونان خلال العصور التالية سواء في العصر الهلليني (الكلاسيكي) ، وهو عصر ازدهار « دولة المدينة » اليونانية ، أو في العصر الهللينستي (الهلليني المتأخر) عندما احتلت رودس وديلوس مركزاً كان المرء يعتقد أن كريت أولى منهما به . ولعل أرجح تفسير لهذا التطور الغريب هو عامل الجنس . فمنذ مجيء الفوج الثاني الكبير من القبائل اليونانية ، وهو ما يعرف بالهجرة أو « الغزو الدُوري » ، تحولت كريت إلى جزيرة دُورية ، وبعدئذ سادتها حالة من الركود ولم تسهم بأي نشاط حضاري خلال القرون الكثيرة التالية . ومع هذا فقد كان بفضل الدوريين أنفسهم أن أصبحت كورنثة مركزاً من مراكز التجارة . وتحولت اسبرطة إلى دولة عسكرية تتمتع بأقوى نفوذ سياسي في بلاد اليونان ، كما تأسست في جنوب إيطاليا

= وبرغم إحكام الرقابة وسد جميع منافذ الهرب، فإن ديدالوس لم يعدم حيلة الفرار، إذ صنع أجنحة من الريش وثبتها بالشمع في جسمه وجسم ابنه ، وطار الإثنان هاربين من كريت . غير أن إيكاروس ، استخفه الطيران ، فحلق عالياً جداً حتى اقترب من الشمس فذاب الشمع من شدة الحرارة ، وتساقط جناحاه ، وسقط المسكين في البحر ومات غريقاً . لذلك عرفت هذه الناحية من البحر باسم « بحر إيكاروس » ، تخليداً لذكراه . وأما ديدالوس فشق طريقه عبر الفضاء وهبط سالماً في صقلية حيث لاذ بحمى ملك الجزيرة الذي أمنه على حياته . وتعقبه مينوس وجاء مطالباً بتسليمه . وراوغه الملك . وتظاهرت بناته بمساعدة الضيف الملكي عند اغتساله (وهو ما يرمز عند هوميروس إلى أقصى مظاهر تكريم الضيف) . وفي الحمام صبت عليه البنات ماء مغلياً فقضى نحبه . (وفي رأي البعض أن هذه الحادثة ربما ترمز لحملة قامت بها كريت ضد صقلية ، وانتهت بالفشل الذريع أو بكارثة كبيرة) .

وصقلية بعض مستعمرات على أكبر جانب من الرخاء والبذخ . وعلى ذلك فلن يستطيع أحد أن يعتبر الأصل الجنسي وحده عاملاً حاسماً ، وإن لم ينكر ارتباطه بالتطور الحضاري .

وقد جعل الفوج الأول من المهاجرين اليونان ، وهم الأخيّون ، من البحر الايجي بحراً يونانياً إذ شرعوا بعد قرون قليلة من استقرارهم – يعتبرهـا الباحثون حلقة مفقودة من سلسلة التطور – في بناء حضارة بدأت في الازدهار منذ عام ١٥٥٠ وتابعت هذا الازدهار حتى عام ١١٥٠ ، وهو ما يعرف «بالعصر الهللادي الحديث» أو «العصر الميكيني ». وقد انعقد أثناءها لواء الزعامة لمدينة ميكيني (Mycênê) أو (Mycenae) الـتي تقع في سهل أرجوليس بالبلوبونيز[١]، إذ استطاعت هذه المدينة أن تبني قوة سياسية واقتصادية وتفرض سيطرتها على جانب كبير من منطقة البحر الايجي . وقامت بالتعاون مع المدن الأخيّة الأخرى بالحملة الشهيرة على طروادة حوالي عام ١٢٠٠ . وأخيراً جاء الدوريون الذين أطاحوا بالأمراء الأخيين ودمروا قصور ميكيناي وتيرينس (Tiryns) وميديا (Midea) وقلبوا الأوضاع السياسية في بلاد اليونان رأساً على عقب .

الغزو الدوري : اللهجات «والهجرات اليونانية » :

هذا الفوج الثاني من القبائل اليونانيـة ، وهو ما يعرف بالهجرة أو الغزو الدُوري، جاء إلى بلاد اليونان حوالي ١١٥٠، أي عند نهاية عصر البرونز وبداية عصر الحديد (١١٠٠) . وقد اتضح الآن أن المهاجرين الجدد لم يكونوا أول من أحضر الحديد، لأن هذا المعدن كان مستعملاً قبل قدومهم على نطاق محدود في صناعة بعض الحلي في عصر البرونز . ويحدثنا المؤرخ الأثيني الكبير ثوكيديديس

(١) الاسم في اليونانية Mukénê أو صيغة الجمع Mukénai، وتمثل الـ K بحرف C في اللاتينية (راجع ص ٢٦ هـ ١) . وينطق – للأسف – سينا في اللغات الأوربية الحديثة. كذلك تمثل الـ u بحرف الـ y في اللغات الأخرى. وتنطق نطقاً بين الياء والواو: ميكيني أو موكيني (قارن في العربية بيزنطة أو بوزنطة ، لكن يقال دائماً سوريا (Syria) .

الذي عاش في القرن الخامس أنه في السنة الثمانين من بعد الحرب الطروادية غزا الدُوريون بقيادة أبناء هيراكليس (Heraclidae) منطقة البلوبونيز . وتعرف هذه الحادثة في الأساطير اليونانية باسم « عودة أبناء هيراكليس » الذين جاءوا من الشمال والشمال الغربي إلى بلاد اليونان لاسترداد إرثهم القديم وهي تتفق وفترة الانتقال بين عصر البرونز وعصر الحديد . على أن الغزو الدُوري وإن صحبه انقلاب في أحوال اليونان السياسية والإطاحة بمراكز الحضارة الميكينية لم يحدث أي توقف فجائي في التطور الحضاري فظلت الحياة في جوهرها على ما كانت عليه ، وأن اصبحت أكثر بساطة وأقل مستوى عن ذي قبل .

وعندما استقرت الأحوال بعد الاضطراب المباشر الذي نجم عن الهجرة الدُورية التي استغرقت بضع عشرات من السنين حدث ذلك التوزيع الغريب للقبائل واللهجات اليونانية (الأيولية والدُورية والأيونية) . وهذا التوزيع – بجانب الآثار – هو أساس معرفتنا بتاريخ بلاد اليونان خلال عصرها الذي درج البعض على تسميته «بالعصر اليوناني المظلم» أو «العصر اليوناني الوسيط» (١١٥٠ – ٧٥٠) . ولعله مظلم بالنسبة لنا فقط لأن الحفائر الأثرية لم تمدنا إلا بمعلومات غير وفيرة ومعظمها عن أثينا [١] . لكن حسب هذا العصر أن هوميروس ، الذي يرجح أنه عاش في القرن التاسع او الثامن ، كان نجمه الساطع الذي بدد ظلمته بلحمتيه الخالدتين ، الإلياذة والأوديسيا . ومن المستحيل أن نفسر على أساس الظروف الجغرافية وحدها كيف استعمل سكان تساليا وبويوتيا – على سبيل المثال – اللهجة الأيولية التي تتفرع أصلاً من الأخية ، ولا يتبين فيها سوى أثر ضئيل للهجة الدُورية ، بينما استعملت عدة أقاليم تقع بينهما اللهجة الدُورية دون سواها . وقد انتشرت اللهجة الأخيرة في مجارا والبلوبونيز ، بينما احتفظت أتيكا على الرغم من وقوعها بين بويوتيا ومجارا ، بلهجتها الأيونية الخالصة إلى درجة أن أثينا كانت تعتبر بمثابة المدينة – الأم (Metropolis) لكل الأيونيين ، وكان الأثينيون يعتقدون اعتقاداً راسخاً أنهم أصلاء في أرضهم

(١) وإن كانت هذه المعلومات قد ازدادت في السنوات الأخيرة بفضل أعمال الحفر المستمرة.

(autochthonoi)[1] . وفي بعض الأحيان كانت الحدود الطبيعية تطابق الحدود اللغوية . لكن أهم من ذلك هو أن التنوع العام في مظهر العالم اليوناني كان إلى حد ما يرجع إلى التباين في الأصول الجنسية . فكأن اختلاف اللهجات كان إلى جانب الاستقلال السياسي لكل دولة من دول المدن الكثيرة حائلاً دون إدماج بلاد اليونان كلها في وحدة شاملة .

وينبغي أن نضيف أنه حدث خلال ذلك العصر أن نشطت حركة الهجرات من بلاد اليونان نشاطاً كبيراً كما زاد عددها عن ذي قبل إما بسبب ضغط غزاة جدد أو بسبب ازدحام السكان . وقد استقر الإغريق الذين هاجروا من ثساليا وبويوتيا ويسمون بالنسبة إلى لهجتهم « بالأيوليين » ، استقروا بجزيرة ليسبوس الكبيرة والأراضي التي تقع في شمال ساحل آسيا الصغرى الغربي المواجه لها ، وقد عرفت هذه المنطقة باسم أيوليس (Aeolis) . ومن وسط بلاد اليونان وبخاصة من أتيكا هاجر فريق من الإغريق إلى جزر الكيكلاديس بالبحر الايجي ومنها إلى وسط ساحل آسيا الصغرى الغربي ، الذي عرف فيما بعد باسم أيونيا (Ionia). وقد أسس هؤلاء المهاجرون مدناً صغيرة مكان القرى التي وجدوها. وكان المستعمرون الجدد خليطاً غريباً وزاد في عدم تجانسهم امتزاجهم بالسكان الأصليين . ولعل ذلك العامل إلى جانب جمال الجو الذي يعتبره هيرودوت أفضل أجواء العالم ، وكذلك التربة الخصبة وملاءمة الساحل للتجارة وموقعه بين الشرق والغرب ، هو الذي جعل « الأيونيين » أكثر الإغريق ذكاءً وحذقاً لفنون شتى ، حتى ليبدو أنهم تقدموا غيرهم في موكب الحضارة اليونانية . وأخيراً انزح من أرجوليس ولاكونيا مهاجرون بعضهم من الأخيين وبعضهم الآخر من الدوريين إلى مدن ميلوس وثيرا وكريت . وقد توسعت حركة الهجرة الدُورية إلى ما وراء كريت فبلغت كرباثوس ورودس ، وأخيراً بلغت جنوب ساحل آسيا الصغرى

---

(١) وهو اعتقاد باطل كما يتضح مما ذكرناه عن السكان القدامى في شبه الجزيرة قبل مجيء الأخيين.

الغربي الذي عرف باسم دوريس (Doris) . ومعنى هذا أن « الدُوريين» انتشروا من بلاد اليونان الأصلية عبر البحر الإيجي إلى نقطة تواجه نقطة بداية هجراتهم ، وكان الأيوليون والأيونيون – كما ذكرنا – قد فعلوا نفس الشيء .

وفي خلال الفترة التي هاجر فيها اليونان إلى داخل شبه الجزيرة ، كانت القبيلة هي العامل الأساسي في التنظيم السياسي . ولما كانت دول المدن قد نبعت من القبائل فإن أقسام القبيلة أصبحت هي أقسام « دولة المدينة ». ويرجع أصل القبائل (phylae) والبطون (phratriae) ، التي انقسمت إليها كل دولة مدينة يونانية ، إلى فترة الهجرة عندما كانت الحياة تخضع لأحكام النظام العسكري والقانون الأسرى . ومن ثم لم يكن للقبائل أو البطون صلة بعملية الاستقرار أو بأراضي دولة المدينة الجديدة . لقد كان من الضروري أن يستقر الناس وتتوطد دعائم دولة المدينة أولاً قبل أن يظهر أي تقسيم محلي أو إقليمي يكسب قانون الأراضي أو الملكية قوته الكاملة . غير أن التغيرات التي طرأت على البناء الاجتماعي عقّدت من صورة هذا التقسيم . فمنذ وقت مبكر يرجع إلى فترة الهجرة انفصلت طبقة من الأشراف (Eupatridae) عن الجماعة كلها وابتدعت لنفسها شكلاً جديداً من الحياة المشتركة التي تقوم على أساس الزمالة أو الإخاء (hetaireia) ، الزمالة في ميدان القتال والإخاء المتين . وقد عارضت هذه الطبقة المتضامنة منذ البداية أي تنظيم شامل للمجتمع ، سياسياً كان أم إقليمياً. ومن هذا المجتمع الأرستقراطي ، الذي تشيع صورته في ملاحم هوميروس ، نشأت العشيرة (genos) نتيجة لاكتساب القانون الأُسَري قوة بين الجماعة المستقرة في دولة مطردة النمو . وكانت العشيرة ، وهي مجموعة الأفراد الذين ينحدرون أو يعتقدون أنهم ينحدرون من جد واحد ويشتركون في عبادة واحدة، هي الشكل التي دخلت به الأرستقراطية دولة المدينة وأصبحت جزءاً منها لا يتجزأ . وكان لها مركز محلي ، وهو مقر زعيم العشيرة. وبذلك تضافرت لأول مرة عناصر الرابطة العشائرية والرابطة المكانية واطرد نموها معاً . ومن

طبقة العشائر الشريفة نشأ البناء السياسي والاجتماعي الجديد، وهي «دولة المدينة» التي سارت بمرور الزمن في اتجاه مضاد لتلك الطبقة، حتى أصبح جميع المواطنين بمثابة شركاء أو زملاء .

وترتب على الاستقرار ارتباط قوي بين الفرد والأرض . وقد تم ذلك بين الإغريق كما تم بين غيرهم من شعوب العصور القديمة التي فتحت أو استعمرت أراضي جديدة ، بتقسيم المنطقة إلى أنصبة أو حصص متساوية (kléroi) بقدر المستطاع . وكانت الملكية الخاصة للأرض ، وإن لم يصحبها أول الأمر حق التصرف فيها ، هي الأساس الذي ارتكز عليه بناء دولة المدينة اليونانية . وحتى في المناطق التي لم يطبق فيها مبدأ توزيع الأرض بين المواطنين على الفور تطبيقاً كاملاً ، انقضت مرحلة الملكية الجماعية في وقت مبكر . وسرعان ما عملت النزعة الفردية عند اليونان، وهي نزعة كان يقويها التكوين الطبيعي لبلادهم وصفاتهم القومية ، على إقصاء القبيلة والعشيرة عن ملكية الأرض ، سواء أكان السكان يعيشون في القرى المتناثرة أم حول المركز المدني للدولة .

وكان الملوك والآلهة من بين الملاك الذين منحوا منذ البداية نصيباً كبيراً من الأرض . وكان هؤلاء الآلهة قد هاجروا إلى مواطنهم الجديدة مع الأخيين ، كل مع القبيلة أو البطن التي ينتمي إليها من قديم الزمن . وقد جاء هؤلاء الآلهة الأجانب المرتبطون بالسماء ليأخذوا مكانهم بجانب الآلهة الوطنيين الذين كانوا كآلهة للزراعة ، مرتبطين بالأرض (chthonioi) ارتباطاً وثيقاً بوصفها «الأم الكبرى» التي تخرج من بطنها كل الثمرات . وكان من أبرز العوامل التي شكلت ديانة دولة المدينة اليونانية أن آلهتها القدامى والجدد أدمجوا بالمصاهرة أو اختلاق النسب في مجمع واحد (pantheon) على الرغم من اختلاف خصائصهم . وتفسير هذا الدمج إما على أساس أن هوميروس يجمع في ملحمتيه بين متناقضات زمنية فيما يتصل بالمسائل الروحية شأنه في الجمع بين متناقضات زمنية فيما يتصل

بالأشياء المـــادية ، أو على أساس أن الرواية المتواترة التي التزمها جاءته أصلا متناقضة تجمع بين عناصر متباينة وتتفق مع الأنساب الأسرية المختلفة الممثلة في شخصيات الإلياذة والأوديسيا .

ولم يتم هذا التطور ببساطة أو دفعة واحدة. وحسبنا أن نشير إلى ظاهرتين فيه تسترعيان النظر ، إحداهما انتشار عبادة آلهة المهاجرين – وهم من عرفوا بعد استقرار الأغريق بآلهة أوليمبوس(Olympioi) – في بعض أماكن معينة ، وتشبيههم بآلهة البلاد القدامى ، مكتسبين بذلك ألقابا كانت تميزهم في مكان عنهم في مكان آخر ، فكان زيوس (Zeus) في بلدة معينة يتميز عن زيوس في بلدة أخرى ، وأبوللون (Apollon) في مكان يتميز عن أبوللون في مكان آخر . وأما الظاهرة الأخرى فهي أن الآلهة لا يبدون متحررين من الارتباط بالأرض إلا في الجماعـــة الإلهية المسيطرة التي يتصورهـا هوميروس مقيمة فوق جبل أوليمبوس (Olympus) حيث يظهر أعضاؤها بأشخاصهم العظيمة المنطلقة ، التي عاشت في علم الأساطير وفي الفن وشكلت طابع الديانة اليونانية. وقد اتحد هذان المظهران بعد اندماج العناصر العديدة غير المتجانسة – التي نشأت منها الجماعة – في وحدة دولة المدينة .

التنوع والوحدة :

ويتضح من استعراض المظاهر التاريخية المتصلة بنشأة دولة المدينة اليونانية أن تأثير البيئة الجغرافية كان يوازيه – إلى حـــد ما – تأثير عوامل أخرى . غير أن مـــا يسترعي النظر حقاً هو أن الظاهرتين الأساسيتين والمتناقضتين في جغرافية بلاد اليونان ينعكس أثرهما على التطور التاريخي نفسه . وبغض النظر عن تأثير البيئة الجغرافية ، فإن التنوع والوحدة قـد شكـلا كل شيء تقريباً . وهـــذا هو السبب فيما نلحظه من ازدواج سواء في الصورة العامـة للتفكير اليوناني أو في اتجاه مجرى التاريـخ اليوناني . وتتمثل هذه

الثنائية تمثيلاً جلياً في الحقبتين الكبيرتين لهـذا التاريخ : عصر دولة المدينة ،- والعصر الهلينستي . غير أن الظاهرة نفسها يمكن أن نلحظها في كل حقبة من هاتين الحقبتين ، بل في كل فرع من فروع الحياة والتفكير اليوناني .

ولم يكن مركز اسبرطة الفريد في العالم اليوناني يرجع - كما يذهب البعض – إلى أن الإسبرطيين (وهم دُوريون) قد وفدوا أصلاً إلى موطنهم كغزاة ، وإنما يرجع إلى تلك العلاقة الفريدة بين دول المدينة وأراضيها. فدول المدن اليونانية التي لم تعبر البحر أبداً لإنشاء مستعمرات في الخارج كانت قليلة بوجه عام. غير أن ذلك كان في اسبرطة مبدأ أساسياً في سياستها العامة. ولم يدفع اسبرطة إلى ركوب البحر إلا طموح قليل من كبار قادتها ، ولكنها سرعان ما كانت تعدل عن هذا الاتجاه وتعود إلى عزلتها. لقد حاولت اسبرطة (Sparta) أن تقهر ضيق حيزها في البر . وكانت هي دولة المدينة الوحيدة التي انتهجت متعمدةً سياسة إقليمية بحتة ، وهي سياسة كانت في الوقائع فوق طاقتها . وبينما أفضى صغر المساحة في غيرها من دول المدن إلى تضخم السكان واشتداد نبض الحيـاة وأخيراً إلى التوسع عبر البحر ، كانت أراضي اسبرطة المتسعة بالقياس إلى غيرها تتحكم فيها فئة قليلة من المواطنين تهددها طوال الوقت جموع كبيرة من أشباه العبيد وأنصاف المواطنين . وهذا يفسر على الأقل تفسيراً جزئياً لماذا اتبعت اسبرطة ، على الرغم من الروح العسكرية التي تفشت فيهـا ، سياسة خارجية سلبيّة منذ حوالي منتصف القرن السادس . ففي ذلك الوقت كانت دولة المدينة قد بلغت في نطاق حدودها المتسعة مرحلة التشبع . غير أن اتساع رقعة أراضيـها لم يؤثر أي تـأثير جوهري في طبيعة مواطنيها الحكام وهم الإسبرطيّون (Spartiatai) الذين انطووا على أنفسهم وأحكموا إغلاق دائرة طبقتهم . وبينما كانت الحشود الغفيرة المستعبدة من الهيلوتيس (heilotes) تفلح الأرض

وتسام سوء العذاب [1]، تولد في اسبرطة نفسها شكل جديد من الحياة المغلقة المركزة ، قوامه نظام التربية العسكرية الشامل (agôge) الذي حطم في النهاية الإسبرطيين عدديا ومعنويا .

وأياً كان أصل هذا النظام الآلي الجامد الذي انصقل فيما بعد على يد ساسة أقوياء الإرادة ، فقد أتيحت لاسبرطة ، بعد توسعها الإقليمي ، فرصة ثانية عندما أخفقت محاولة أثينا في بسط سيادتها عبر البحار [2] . وقد يستطيع النظام السياسي الصارم أن يسترد القوى التي تحطمت بتأثير ضيق المساحة . ولذا نرى المفكرين السياسيين يتخذون من النظام الإسبرطي نموذجاً ويحولونه إلى مثل أعلى ينبغي الاقتداء به . وقد برزت في نظرياتهم حينئذ فكرة جديدة وهي أن الدولة المثالية يجب أن تكون بعيدة عن البحر . « فلعل من الملائم أن يكون البحر على مقربة من الإنسان في حياته اليومية . غير أن البحر ، في حقيقة الأمر ، جار ملح أجاج ، مر المذاق » . بهذه الكلمات المقتبسة من الشاعر الإسبرطي ألكمان (Alcman) يحذر أفلاطون — في الصورة الواقعية نسبياً التي رسمها للدولة المثالية في كتاب « القوانين » — مؤسسي أي دولة جديدة من البحر . وكان البحر قد ائتلف مع الأرض في خلق دولة المدينة اليونانية ، بتنوعها وضيق حيزها . فكأن أفلاطون ، باستبعاده البحر ، يحاول أن يعود إلى ضيق الحيز الذي كان مظهراً جوهرياً من مظاهر دولة المدينة الحقيقية . غير أنه يستبعد بذلك مظهرها الجوهري الآخر ألا وهو التنوع ؛ ومع هذا فليس من المؤكد أن استبعاد التنوع من أجل وحدة مثالية كان

---

(1) الهيلوتيس (Heilotes) هم أشباه العبيد من الآخيين القدامى (قبل الدوريين) وسكان إقليم مسينيا (غربي لاكونيا) الذين أخضعتهم اسبرطة بالقوة .

(2) الإشارة هنا إلى زعامة اسبرطة العالم اليوناني في مستهل القرن الرابع بعد انتصارها على أثينا في الحروب البلوبونيزية عام ٤٠٤ ق.م. وقد استمرت هذه الزعامة حتى عام ٣٧١ ق.م. عندما انهزمت في معركة ليوكترا على يد إبامينونداس قائد طيبة .

يناقض الواقع إلى الحد الذي يبدو لأول وهلة . لقد كان أفلاطون نفسه كأرسطو مواطن (politês) إحدى دول المـدن (polis) غير أن نظرتيها أو بالأحرى نظرتها كانت أبعد من حدود مدينتها وأعمق من مجرد الإلمام بتنوع دول المدن اليونانية . لقد اكتشف أفلاطون ببديهته ، مثلما اكتشف أرسطو الذي درس عدداً كبيراً من دساتير الدول اليونانية ، بمنهجه التجريبي ، الحقيقة الخالصة ، وهي أن الوحدة تكمن وراء التنوع [1] .

لقد نتجت كثرة الأقاليم اليونانية وكثرة دول المـدن اليونانية عن طبيعة الأرض وطبيعة سكانها ، ومن ثم تعددت أشكال الجماعات السياسية وتباينت صور الحكم تبايناً شديداً . وإننا لنجد بين الجماعة القبلية المفككة التي تعيش في القرى والمدينة الكبيرة المترابطة الرقعة ، وبين دولة المدينة الزراعية البحتة ودولة المدينة التي لا تشتغل إلا بالتجارة ، وبـين حكم طبقة ملاك الأراضي الأشراف وسيادة دهماء المدينة ، نجد اشكالاً أخرى من الحكم تتراوح بـين هذه المتناقضات في أماكن مختلفة وأوقـات مختلفة . فإذا تأملنا صفحة بلاد اليونان نرى صوراً متنوعة لا حصر لها . وكان هذا التنوع الشديد سبباً في تلك الحيوية المدهشة التي فاضت بها حضارة اليونان الفريدة ، كما كان سبباً في مأساة تاريخهم الذي جرى إلى نهايته المحزنة بسرعه مذهلة . ومع هذا ، فوراء هذا التنوع كانت تكمن دائماً وحدة الحياة اليونانية ووحدة الإنسان اليوناني . لقد كان اليوناني بسليقته وتقاليده وتاريخه « حيواناً سياسياً » قبل أي شيء آخر ، وقد نبتت الوحدة التي نتحدث عنها من الجماعة السياسية . وإذ كانت الدولة هي إطار تلك الوحدة ، فقد كانت نفسها مظهراً من مظاهر الوحدة . ومن يبحث بإمعان بين مختلف النظم السياسية اليونانية يجد أن الـ « Polis » هي الدولة اليونانية . وفي وسعنا أن نقول إن جميع دول المدن اليونانية مع تميزها واستقلالها الواحدة عن الأخرى لم تكن سوى صوراً مختلفـة من الـ « Polis » .

---

(١) أفلاطون (حوالي ٤٢٩ - ٣٤٧) . أرسطو المعروف بأرسطاطاليس (٣٨٤ - ٣٢٢) .

وبقي أن نبحث عن جوهر وحدة هذه الـ « Polis » . إننا لن نجد من الفلاسفة عوناً في هذا الصدد ، وعلينا أن نسترشد بأدلاء غيرهم لكي نكشف ذلك الجوهر ، لأنه لم يكن شيئاً مثالياً بل شيئاً واقعياً شكلته الحياة والتاريخ . فقد اتخذ المفكرون السياسيون من اسبرطة التي تجمع بين النظم البدائية والمقتملة ، نموذجاً واعتبروها الصورة الكاملة « لدولة المدينة » عندما رأوا أن أثينا الديمقراطية قد تدهورت وأوشكت على الانهيار [1] . غير أن أثينا في الحقيقة هي التي اقتربت من صورة الكمال قرباً شديداً ، ففيها بلغ الفن والفكر ذروته لأن فيها اقترب الفرد والدولة من الهدف الذي رسمه القدر ، وهما مرتبطان ارتباطاً أقوى منه في أي مكان آخر .

تلك إذن هي صورة « دولة المدينة » بخصائصها الجوهرية : جماعة حرة مستقلة مكتفية بذاتها ، معتمدة على نفسها ، تتركز مكانياً حول المدينة وروحياً حول إله المدينة ، فهي وحدة في حيز صغير . وتكاد هذه الصورة تكون نسخة من صور العالم الإيجي عندما نتمثله أساساً جغرافياً للحياة اليونانية والتاريخ اليوناني . فالمنطقة الإيجية أيضاً يمكن أن توصف بأنها منطقة حرة مستقلة مكتفية بذاتها معتمدة على نفسها في وجه شعوب أجنبية تعيش حول البحر ، فهي وحدة في حيز صغير . وكانت دولة المدينة اليونانية بوجه عام تزداد حيوية وأهمية كلما ازداد ارتباطها بالبحر الإيجي . غير أن الأمر لم يقتصر على مجرد الارتباط ، إذ كان هناك بين « دولة المدينة » وبين العالم الإيجي نوع من الوحدة أكسب جميع دول المدن اليونانية ، بل المستعمرات البعيدة ، خصائص متشابهة أو واحدة . ولا يغير من جوهر الأمر أن التراث المشترك قد ظهر في درجات متفاوتة أو صور متنوعة . فمن المؤكد أن وحدة « دولة المدينة » التي تكمن وراء تعدد دول المدن اليونانية وكثرتها إنما هي نتيجة

(١) بانهزامها في الحروب البلوبونيزية على يد اسبرطة في آخر القرن الخامس ق.م. وكان أفلاطون الأثيني المولد أحد هؤلاء المفكرين .

لذلك التراث المشترك .

لقد سارت بلاد اليونان في اتجاه عام من التنوع نحو الوحدة . غير أن المصير الذي كتب على اليونان شاء ألا تبلغ « دولة المدينة » أبداً الهدف الأخير وهو الوحدة التامة بين الفرد والجماعة ، أي بين الإنسان والحياة .

دولة المدينة والبحث عن تعريف للحضارة الهللينية [1] :

« الحضارة اليونانية ـ وبعبارة أصح الهللينية ـ حضارة نشأت قرب أواخر الألف الثاني قبل الميلاد ، وظلت قائمة منذ ذلك الحين حتى القرن السابع الميلادي . وقد ظهرت أولاً في حوض البحر الإيجي وانتشرت من هناك إلى المناطق الواقعة حول سواحل البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط ، ثم امتدت عبر القارة شرقاً إلى آسيا الوسطى والهند ، وغرباً إلى سواحل شمال إفريقيا وأوروبا المطلة على المحيط الأطلسي ، حتى لقد دخل في نطاقها جزء من الجزيرة البريطانية . ومن الخطأ أن نقرن الحضارة اليونانية ببلاد اليونان الأصلية وحدها ، لأن الأخيرة لم تكن إلا مركزاً واحداً من مراكزها العديدة المتناثرة في منطقة البحر المتوسط . وعلى سبيل المثال فإن ساحل آسيا الصغرى الغربي كان يمثل مركزاً رئيسياً للحضارة اليونانية مع أنه لا يقع في

---

(١) رأيت أن أدمج في هذا الفصل الموضوع الطريف المقتبس مع التعديلات الضرورية من الفصل الأول من كتاب المؤرخ العالمي الكبير أرنولد توينبي (Arnold Toynbee) بعنوان:

Hellenism : The History of A Civilization - (HUL) Oxford. 1959.

محاولاً فيه تعريف الحضارة اليونانية. وقد ترجمه السيد رمزي عبده جرجس إلى العربية بعنوان: تاريخ الحضارة الهلينية (سلسلة الألف كتاب) ـ القاهرة ، ١٩٦٣ .

بلاد اليونان بالمعنى المألوف بل يقع على ساحل تركيا الحديثة . ومن ناحية أخرى لم يندمج الجزء الشمالي المنتمي إلى القارة الأوربيـة في العالم الهلليني اندماجاً تاماً حتى القرن الرابـع قبل الميلاد .

وثمة ملاحظة جديرة بالانتباه وهي أن لفظ « إغريقي »(يوناني في العربية) مرتبط في اللغات اللاتينية والأوربية الحديثة ارتباطاً وثيقـاً باللغة الإغريقية (اليونانية في العربية) ، غير أن اللغة اليونانية والحضارة الهللينية لم تتفقا دائماً سواء من حيث العصر الذي ازدهرتا فيه أو من حيث مدى انتشارهمـا . ونجد اليوم بعدمضي حوالي ألف وثلاثمائة سنة على اندثار الحضارة الهللينية أناليونانية لا تزال لغة حية[1] ، وكانت لغة حيةلعدة قرون غير معروفة قبل ميلادالحضارة الهللينية . فمنذ الحرب العالمية الثانية استطاع أحد العلماء الإنجليز ، وهو المرحوم مايكل فنتريس ، أن يحل رموز وثائق مكتوبة باليونانية يتراوح تاريخهـا بين أواخر القرنالخامسعشر والقرن الثالث عشر [2].وقد اكتشفت هذه الوثائقفي كنوسوس بجزيرة كريت ، وميكيناي وبيلوس بشبه جزيرة المورة ، وكانتهذه ثلاثاً من عواصم الحضارة المينوية — الميكينية . والوثائق محفورة على ألواح من الطين ، وهي ليست مكتوبة بالأبجدية الفينيقية (التي أصبحت اللغـة اليونانية تكتببهامنذ القرنالثامن ق.م.)بل بأحرف الكتابة المينوية التي يسميها العلماء الخطية ب (Linear B) ، وهي ليست ألفبائية بل مقطعية . لعل اللغةاليونانية دخلت إلى البلقان حوالي عام٢٠٠٠ق.م. [أو ١٩٠٠ ق.م.] أي مع دخول الآخيين إلى بلاد اليونان لأول مرة . وأيا كان الأمر فإن اللغة اليونانية كان لها تاريخ أطول من تاريخ الحضارة الهللينية ، إذ سبقت اللغة اليونانية هذه الحضارة

---

(١) ظلت الثقافة اليونانية قائمة كعنصر أساسي في الحضارة البيزنطية حتى القرن السابع الميلادي .

(٢) راجع ما تقدم في ص ٨٨ ، حاشية ١ . وتاريخ هذه الألواح يتراوح بين عـام ١٤٠٠ (أو قبله بفترة قصيرة) وعام ١٢٠٠ ق.م.

إلى الوجود كما عمرت بعدها زمناً طويلاً . بل إنه خلال الفترة التي تعاصرت فيها اللغة اليونانية والحضارة الهللينية ، فان مناطق انتشار إحداهما لم تتطابق أبداً ومناطق انتشار الأخرى .

وخلال الشطر الأكبر من التاريخ الهلليني كانت هناك شعوب تتكلم اليونانية دون أن تكون أعضاء في المجتمع الهلليني . ومن أمثلتها تلك الشعوب التي كانت تقطن شمال بلاد اليونان وشمالها الغربي في مناطق لا تبعد كثيراً عن غرب دلفي وترموبيلاي . وهذه الشعوب لم تعتنق الحضارة الهللينية حتى القرن الرابع ق.م وعلى الجانب الآخر من البحر الإيجي نجد أن الشعوب المتكلمة باليونانية في قبرص وفي السهول الساحلية لإقليمي كيليكيا وبامفيليا على امتداد الشاطىء الجنوبي لآسيا الصغرى ، لم تصطبغ تماماً بالصبغة الهللينية حتى حوالي التاريخ المذكور ، بل إن بعض القبائل المتخلفة التي كانت تتكلم اليونانية في الركن الشمالي الغربي من طراقيا (حوال الروافد العليا لنهري استريمون وأويسكوس [إسكر]) ظلت خارج دائرة الحضارة الهللينية حتى القرن الأول الميلادي عندما فرض عليهم الرومان المتكلمون باللاتينية هذه الحضارة .

وبدهي أن الرومان كانوا أعظم الشعوب التي جذبتها الحضارة الهللينية إلى حظيرتها سواء أكانت شعوباً تتكلم اليونانية أم لم تتكلمها . لكن الرومان لم يعتنقوا الهللينية إلا في وقت متأخر . فقد اصطبغت بالحضارة الهللينية قبل الرومان أنفسهم شعوب أخرى لا تتكلم اليونانية كالمسابيين والأبوليين والأتروسكيين في إيطاليا ، والليديين في آسيا الصغرى. وفي الطرف الجنوبي من الساحل الغربي لآسيا الصغرى كانت هناك شعوب أخرى لا تتكلم اليونانية وهم الكاريون والليكيون الذين كانوا أعضاء قدامى في المجتمع الهلليني كجيرانهم من الشعوب المتكلمة باليونانية على جانبي البحر الإيجي . ولا جدال في أن الدور الذي قامت به هذه الشعوب في التاريخ الهلليني لم يبلغ أبداً في أهميته

مبلغ الدور الذي قدر للرومان أن يقوموا به ، غير أنه كان لها شرف التميز بالطابع الهليني في أسلوب حياتها منذ الفصل الأول حتى الفصل الأخير من قصة الحضارة الهلينية .

وفي الفصل الأخير لم يهيىء الرومان لكافة الهلينيين القاطنين حول سواحل البحر المتوسط الوحدة السياسية والسلم الداخلي فقط بأن بسطوا عليهم ظل حكومة واحدة بل هيأوا لهم أيضاً أداة لغوية ثانية لتكملة اللغة اليونانية وتزويدها بطاقة جديدة. لقد كان للمساواة الرسمية بين اللغتين اليونانية واللاتينية في الإمبراطورية الرومانية ما يبررها في روائع شيشرون وفرجيليوس وهوراتيوس وغيرهم من أدباء الرومان الذين انتجوا باللغة اللاتينية أعمالاً فنية هلينية الطابع تضارع أجود المؤلفات التي كتبت باليونانية . وفي ذلك العصر الإمبراطوري من التاريخ الهليني ، كان قادة الفكر يتكلمون لغتين . فقد كتب الإمبراطور ماركوس أوريليوس الذي كان ينحدر من أسرة وافدة من أسبانيا ، وكانت لغة آبائه اللاتينية ، كتب مذكراته اليومية أو « تأملاته » باليونانية. وقد نشأ المؤرخ أميانوس ماركلينوس في أنطاكية كما نشأ الشاعر كلوديانوس في الإسكندرية ، وكانت لغة الإثنين الأصلية هي اليونانية ولكن كليهما كتب مؤلفاته باللاتينية .

هذه هي بعض الأسباب التي تبين خطأ تسمية الحضارة الهلينية بالحضارة الإغريقية (= اليونانية) أو بلاد الإغريق (= اليونان) . ومع أن ألفاظ « الهلينية » و « هليني » و « هللاس » أقل شيوعاً من لفظتي « بلاد الاغريق » و « الإغريقي » إلا أن لها ميزتين الأولى أنها ليست مضللة لبعدها عن اللبس والإبهام ، والثانية أنها هي عين الألفاظ التي استخدمها الهلينيون أنفسهم للدلالة على حضارتهم وعالمهم وأشخاصهم . ويبدو أن هللاس (Hellas) كان في الأصل اسماً للمنطقة الواقعة حول رأس خليج ماليا عند الحدود التي تفصل بين

وسط بلاد اليونان وشمالها (١) ، وكانت تضم معبد « ربة الأرض » وأبوللون في دلفي ، ومعبد [ديميتير] في أنثيلا بالقرب من ترموبيلاي (وهو الممر الضيق بين البحر والجبل ، والطريق الرئيسي الذي يصل بين وسط بلاد اليونان وشمالها).

ومن المرجح أن لفظة : « الهيللينيين » بمعنى « سكان هللاس » قد اكتسبت معناها الواسع للدلالة على « أعضاء المجتمع الهلليني » عن طريق استخدامها كإسم جامع لحلف الشعوب المحلية المعروفة باسم الأمفكتيونيين (Amphictuones) أي « الجيران » والذي كان يتولى إدارة المعابد الكائنة في دلفي وترموبيلاي ، وتنظيم « الاحتفال البيثي » المقترن بهذه المعابد . وكان هذا الاحتفال أحد الاحتفالات الأربعة التي اكتسبت في العالم الهلليني صفة هللينية جامعة أي صفة « دولية » ، وليس مجرد صفة محلية . وكانت الاحتفالات الثلاثة الأخرى هي « الاحتفال الاسثمي » الذي كان يعقد في ناحية البرزخ (Isthmus) بمنطقة كورنثة ، و « الاحتفال النيمي » الذي كان يعقد في بلدة نميا (Nemea) بمنطقة افليوس بالبلوبونيز (على بعد مسافة قصيرة من الجنوب الغربي لبرزخ كورنثة) ، و « الاحتفال الأوليمبي » في بلدة أوليمبيا بمنطقة إيليس في غرب البلوبونيز . وفي هذه الاحتفالات التي اكتسبت صفة دولية كانت الجوائز التي تمنح للفائزين في المسابقات الفنية والرياضية جوائز رمزية ليس لها قيمة مادية ، أما الاحتفالات المحلية فقد كان عليها أن تجتذب إليها المتسابقين بعرض جوائز ثمينة . غير أن شرف الفوز في أحد الاحتفالات الهللينية الجامعة (الدولية) كان عظيما إلى درجة تتضاءل إلى جانبها الحاجة إلى الجوائز المادية .

ومع أن الاحتفال البيثي الدولي (بمنطقة هللاس) هو الذي أكسب

---

(١) راجع ما تقدم في ص ٧ هامش ١ ، ص ٨ حاشية .

الهللينيين تسميتهم المشتركة ، إلا أن الاحتفال الأوليمبي كان أسبق الاحتفالات إلى اكتساب صفة دولية في العالم الهلليني . فقد جرى المؤرخون الهللينيون على تأريخ الحوادث العامة بهذا الاحتفال الأوليمبي أو ذاك (وكان الاحتفال الأوليمبي يعقد مرة كل أربع سنوات) ولم يلبث أن أصبح قبول الشخص للاشتراك في مسابقات أوليمبيا بمثابة معيار لقبوله عضواً في المجتمع الهلليني . ومثال ذلك أن الإسكندر الأول ملك مقدونيا ، الذي خضع مكرهاً للإمبراطور الفارسي ، والذي نقل معلومات قيمة إلى القيادة العليا للجيوش الهللينية المؤتلفة أثناء الغزو الفارسي لبلاد اليونان بين عامي ٤٨٠ و ٤٧٩ ق م ، قد كوفىء على خدماته بأن سمح له بالاشتراك في مسابقات أوليمبيا ، لا لأن لغة آبائه المقدونيين هي اليونانية ، بل استناداً إلى نسب الأسرة المالكة المقدونية الذي جاء في الأساطير أنه ينحدر من أرجوس ، وهي مدينة تقع في شمال شرق البلوبونيز وكانت من أقدس مدن هللاس قاطبة . وسمح للرومان بالاشتراك في مسابقات الاحتفال الاسثمي كرمز للاعتراف بجميلهم إذ أسدوا للعالم الهلليني خدمة جليلة في عام ٢٢٩ باستئصالهم شأفة قراصنة إلليريا الذين دأبوا على نهب الساحل الغربي لشمال اليونان [١] .

وإذا كان من المتعذر أن نقرن الحضارة الهللينية بدولة بعينها أو بلغة بعينها فما السبيل إلى تعريفها ؟ إن جوهر الهللينية ليس جغرافياً أو لغوياً بل هو اجتماعي وثقافي . كانت الهللينية أسلوباً مميزاً من أساليب الحياة ، وقد تجسم في نظام رئيسي هو « دولة المدينة » . وكل امرىء استطاع أن يتأقلم مع الحياة على النسق الذي تجري عليه داخل دولة المدينة كان يعد هللينيا بغض النظر عن نشأته وتربيته . ومن الأمثلة البارزة على هؤلاء الهللينيين بالتبني الإسكندر الأول ملك مقدونيا واسكوليس أمير القبائل الرحل في اسكيثيا (في جنوب روسيا) في القرن الخامس ق.م . ، وفلامينينوس القائد الروماني ، ويشوع الكاهن الأكبر اليهودي في القرن الثاني ق. م .

(١) عن « دورات المباريات الدولية » ، أنظر ص ١١٢ وما بعدها فيما يلي .

غير أن تعريفنا للحضارة الهللينية ما يزال قاصراً لأن النظام المميز لها وهي دولة المدينة لم يكن مقصوراً عليها وحدها . ذلك أن دولة المدينة لم تكن ابتكاراً هللينياً بحتاً على الرغم من أن اللفظ اليوناني (polis) الدال على معنى دولة المدينة هو الذي انتقل إلى اللغات الأوروبيــة الحديثة لتشتق منها كلمات مثل (political . politics , policy). كانت دول المدن موجودة في بلاد سومر (الحوض الأدنى لنهري الدجلة والفرات) حوالي عام ٣٠٠٠ ق.م . أي قبل ميلاد الحضارة الهللينية بحوالي ألفي سنة . كذلك كانت دول المدن إحدى مميزات حضارة نشأت في أرض كنعان وكانت معاصرة للحضارة الهللينية . ومن الأمثلة الشهيرة على دول المدن الكنعانية صور وصيدا وأرواد الفينيقية التي تقع على ساحل الشام، وقادش وقرطاجنة وغيرهما من المستعمرات الفينيقية التي نشأت في جنوب أسبانيا وشمال غرب إفريقيا . وقد ورد في العهد القديم (التوراة) نص يشير إلى تحويل إقليم يهوذا إلى دولة مدينة أورشليم على يد الملك يوشيا في القرن السابع ق. م . كما انبعث هذا النظام من جديد – بعد انحلال المجتمع الهلليني – في دول الغرب المسيحي ، وهي دول ينتسب مجتمعها إلى المجتمع الهلليني. ومن الأمثلة الشهيرة على دول المدن في العصور الوسطى البندقية وميلان وفلورنسة ، ومرسيليا ، وبرشلونة . وحتى في العصر الحديث ، أي بعد مضي حوالى ٥٠٠ عام على التاريخ الذي أصبحت فيــه الدولة القومية هي النظــام المميز للعالم الغربي ، ما يزال النظام العقيم لدولة مدينة العصور الوسطى ممثلاً في بعض مدن شهيرة كهمبرج وبرين وجنيف وزيورخ وسان مارينو .والأخيرة برغم أنها صغرى هذه المدن مثيرة للدهشة إذ لا تزال متمتعة بالسيادة والاستقلال التام .

هكذا يتضح أن نظام « دولة المدينة » ليس في حد ذاته سمة مميزة لأسلوب الحياة الهلليني ، وإنما الشيء الذي يميز الحضارة الهللينية هو انتفاعها بهذا النظام كوسيلة للتعبير العملي عن نظرة خاصة إلى الكون . وقد عبر الفيلسوف اليوناني، بروتاجوراس الأبديري ، في القرن الخـــامس ق .م . عن هــذه النظرة بقوله

المأثور « إن الإنسان مقياس كل شيء » ، وهو قول معناه في لغة الأديان الكبرى (اليهودية والمسيحية والإسلام) أن الهلينيين رأوا في الإنسان « سيد الخَلْق » ،وعبدوه كإله من دون الله .

وعبادة الانسان أو مذهب الإيمان بالانسان ليست ضرباً من عبادة الأوثان يقتصر على الهلينيين وحدهم . فهناك ما يوحي بأنها كانت العقيدة المميزة للجنس البشري في طور تحضره في كل زمان ومكان . لكن ما يميز التجربة الهلينية في مجال مذهب الإيمان بالانسان عن غيرها هو أنها كانت أصدق وأصلب عبادة للإنسان سجلها التاريخ حتى يومنا هذا. هذه هي السمة المميزة للتاريخ الهليني. لقد كانت الحضارة الهلينية هي أولى الحضارات التي اعتنقت مذهب الإيمان بالإنسان اعتناقاً مطلقاً صريحاً . والحضارة الوحيدة التي فعلت ذلك حتى هذا التاريخ . وما من حضارة ظهرت بعد ذلك ، ولا حضارتنا الحديثة نفسها ، قد ارتبطت قط بمذهب الإيمان بالإنسان على هذا النحو الوثيق » .

المباريات الهلينية الدولية :

ولما كانت دورات المباريات الهلينية الجامعة ـ التي تكرر ذكرها ـ مظهراً هامـاً من مظاهر الحضارة الهلينية، فمن الملائم أن نختتم هذا الفصل بالحديث عنها . كان عدد هذه الدورات الكبرى أربعاً على النحو التالي :

١ـ **الدورة الأوليمبية** :سميت كذلك نسبة إلى بلدةأوليمبيا(Olympia) علىالضفة الشمالية لنهر ألفيوس بإقليم إيليس(غرب البلوبونيز) .وقد انشئت فيعام ٧٧٦ تمجيداً للإلهزيوس الأوليمبي.وهي أهم دورةللاحتفالات عندالإغريق. كانت تعقد مرة كل أربع سنوات(في منتصف الصيف)، وتستمر خمسة أيام.وتشتمل على مهرجانين : المواكب الدينية وتقديم القرابين ، ثم عقد المباريات . وفي أول الأمر كانت المبـاريات مقصورة على سباق المسافات القصيرة في الاستاديوم (stadium) ، وهي كلمة معناها الأصلي مسافة طولها ٢٠٠ ياردة ، وأصبحت تدل على « مرماح » أو ملعب مستطيل الشكل في مثل هذا الطول وعرضه

٣٠ ياردة ، كما أطلقت أيضاً على هذا النوع من سباق المسافات القصيرة[١]

وبعــد ذلك أدخلت مباريات سباق المسافات المضاعفة (diaulos) حيث كان على المتسابقين الجري إلى الهدف (وهو عبارة عن عمود قصير)والاستدارة حوله والعودة إلى نقطــة الانطلاق الأولى . ولم يلبث أن أدخل سباق المسافات الطويلة (dolichos) التي تتراوح بين ميلين وثلاثة أميال .

وأخيراً أدمجت المباريات فيما يسمى « بمباراة الألعاب الخمسة » أو بنتاثلون (pentathlon)،وتشمل ا – القفزالطويل ب – رمي القرص حـ رمي الرمح. ء – الجري . هـ – المصارعة وأضيفت بعـد ذلك لعبـة تجمع بين المصارعة والملاكمة في وقتواحد وتسمى بانكراتيون (pankration) . وانشئت لها حلبة خاصه تسمى باليسترا(palaestra) ونجدها في المدن اليونانية ملحقة بالنادي الرياضي الثقافي المسمى جيمنازيوم (gymnasium).

وفي فترة لاحقة أضيف إلى المبارياتفي الدورة الأوليمبية سباق العجلاتفي حلبة أو ميدان سباق الخيل المسمى هبودروموس (hippodromos) . وكان طول حلبة سباق الخيل ضعف طول مرماح الجري (الاستاديوم). ومعهذافقد كان على المتسابقين أن يقطعوا مسافة الحلبة عشر مرات في الاتجاهين (ذهابـاً وإياباً) . وكان ذلك في البداية يتم بعجلات تجرها أربعة خيول ، ثم أصبحت (بعد عام ٥٠٠ق.م) تجرها بغال ، وأخيراً صار يجرها جوادان فقط . .

كذلك كانت هناك مباريات سباق بين الصبية فقط ، وبين الرجال وحدهم، وبين الرجال وهم حاملون اسلحتهم (hoplitac) أو حاملون المشاعل (lampadêdromia) ومباريات أخـرى كان على الفرسان أن يقفزوا فيهـا من صهوات جيادهم ويجرون بجوارها وهم ممسكون بأجلتها . هذا فضلاً عن مسابقات بين المنادين ونافخي الأبواق .

---

(١) وأشهر ملاعب الجري أو الاستاديات في بلاد الإغريق هي التي كانت في أوليمبيا ودلفي وإبيداوروس وأثينا . وكان الاستاديوم في المدينة الأخيرة يسع ٥٠٠٠٠ شخص .

كانت المباريات في الدورة الأوليمبية مباحة لكل المواطنين الأحرار المتحدرين من أبوين إغريقيين صميمين ، ولم تلحق بهم أي وصمة تشين سمعتهم . وكانت محرّمة على البرابرة (الأجانب) والعبيد . غير أن الرومان كانوا لا يعتبرون من البرابرة ، وسمح لهم بالاشتراك في هذه المباريات . لكن النساء حرمن حتى من حضور هذه المهرجانات (فيما عدا كاهنة ديميتير ، ربة القمح) .

كان الإشراف على حفلات الدورة الأوليمبية وعملية التحكيم تسند إلى لجنة من الحكام يعرفون باسم هللانوديكاي (Hellanodikai)[1]. وكانوا يختارون من بين الأسرة النبيلة في إقليم إيليس (حيث تقع بلدة أوليمبيا) . وهؤلاء الحكام العشرة كانوا يحصلون إيراد الاحتفال ، ويلبسون « أرواباً » حمراء ، ولهم مقاعد مخصوصة . ويقدمون أكاليل النصر للفائزين ، ويترأسون الوليمة في ختام الدورة ، ويمارسون سلطة تأديبية على المتبارين ويوقعون الجزاءات عند خرق قواعد الألعاب .

وفي ختام الدورة الأولمبية كان الفائزون الذين تزين أكاليل الزيتون جباههم ، يقدمون قرباناً . وتقام – على نحو ما أشرنا – وليمة أو مأدبة كبيرة في دار البلدية (Prytaneum) الموجودة في « ألتيس » وهو أهم وأقدس مكان في أوليمبيا . وكان يحضرها الفائزون وأقاربهم الفخورون بهم . وفيها كانت « جوقات » من المغنين تنشد نشيداً للنصر وهو من نظم أحد كبار الشعراء . وكان كثير من الكتاب والشعراء والخطباء اليونان ينتهزون فرصة وجود جموع غفيرة من الناس في احتفالات الدورة الأوليمبية فيحضرون بقصد الإعلان عن أنفسهم وعرض انتاجهم الفكري أو للإدلاء بآرائهم حول المسائل العامة أو لالقاء خطب سياسية . لقد كانت الدورة فرصة لتبادل وجهات النظر بين مختلف الاغريق ، وتوثيق الروابط بينهم والتعرف على اتجاهات الرأي العام الاغريقي ، فضلاً عما كان يجري بالضرورة من معاملات أخرى كالبيع والشراء أو تبادل التجارة . ومما

(١) ويعرفون بأسماء أخرى في الدورات الأخرى مثل agonothetai أو athlothetai أو epimeletai .

يدل على أهمية دورات المباريات ونجاح دورة أوليمبيا - عند الاغريق - أن جميع الطرق المؤدية إليها كانت تؤمَّن بمناسبة انعقادها بمقتضى اتفاق ضمني أو هدنة مقدسة مؤقتة (ekecheiria) تتوقف فيها كل الأعمال العدوانية .

ولقد أشرت إلى ألتِس (Altis) التي وصفتها بأنها كانت أهم وأقدس مكان في كل أوليمبيا . ففيها كانت توجد غابة صغيرة مقدسة لزيوس . وكانت بمثابة حرم مقدس محاط بسياج ومزين كالمنطقة المتاخمة له بالمعابد والتماثيل والمباني الأنيقة . وكان معبد زيوس الأوليمبي(Zeus Olympios) أهم تلك المعابد . وكان يضم تمثاله الضخم الفاخر الذي يروى أن فيدياس(Pheidias) المثّال الأثيني الأشهر (مصمم البارثنون وتمثال أثينة فيه) قد نحته من الذهب والعاج (أي كساه بهما) في القرن الخامس (عصر بريكليس) . وقد اكتشفت بعثات الحفر الألمانية في القرن الماضي مجموعة كبيرة من أنقاض المباني وبقايا المنحوتات والتماثيل الفخمة في بلدة أوليمبيا .

ودليل آخر على مدى أهمية الدورة الأوليمبية هـــو أن بعض الكتاب والمؤرخين الإغريق (من أمثـــال بوليبيوس وديودور الصقلي وديونيسيوس الهاليكرنامي) اتخذوا مزبداية الدورة الأوليمبية الأولى (عام٧٧٦ ق.م) أساساً للتقويم الزمني بمعنى تأريخ الأحداث بالقيـاس إليها . فيقولون - على سبيل المثال - حدث الحادث الفلاني في السنة الثالثه من الأولمبياد الخامس . ولتحديد الأولمبياد يضرب رقمه خمسة في أربعة (المدة بين أوليمبيادوآخر)ثم يطرح حاصل الضرب من ٧٨٠ . وفي هذا المثل يكون تاريخ بداية الاولمبياد الخامس هو (٧٨٠ - ٢٠) = ٧٦٠ . وتكون السنة الثالثة منه هي ٧٥٨ ق.م. وأمـــا إذا كان الاولمبياد قـد حدث بعد الميلاد ، فيضرب رقمه في أربعة . ثم يطرح حاصل الضرب من ٧٠٦ ، فيكون الناتج هو تاريخ الاولمبياد بعد الميلاد . وعلى سبيل المثال إذا كان الحدث قد وقع في السنة الأولى من الأولمبياد رقم ٢٠٠ ، يضرب

٢٠٠ × ٤ = ٨٠٠ ثم يطرح هذا الرقم من ٧٠٦ فيكون الناتج ٩٤ ميلادية .

وقد ألغيت الدورات الاوليمبية في عام ٣٩٤ م أي في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (الاكبر) الذي أعلن المسيحية ديانة رسمية للدولة الرومانية مع تحريم سواها من الديانات والعقائد (٣٨٠ – ٣٩٢ م) . ومنذ ذلك الحين يرين على أوليمبيا التي ظلت صاخبة عدة قرون ، صمت رهيب !

٢ – **الدورة البيثية** ، سميت كذلـك نسبة إلى بيثو (Pythô) وهو اسم قديم لمعبد أبوللون ونبوءته في دلفي . إذ يروى في الأساطير أن الإله أبوللون صرع التنين أو الأفعى الضخمة بيثون (Pythôn) التي كانت تسكن كهوف برناسوس وتحرس حجر دلفي المقدس . ومن ثم فقـــد لقب الإله نفسه بلقب البيثي ، وكاهنته باسم بيثيا (Pythia) . والمدينة نفسها باسم بيثو أو بيثون. (كما ورد عند هوميروس وهيرودوت).وتقع دلفي (أو دلفوى كما تسمى في الأصل اليوناني) على السفوح الجنوبية السفلى من جبل برناسوس الشهير ، وعلى بعـد حوالي ستة أميال من الخليج الكورنثي في الجنوب . وكان يقوم فيهـا معبد لأبوللون ، إله النبوءة. وكان أقدم معابد بلاد اليونان وأقدسها إذ يرجع تاريخه إلى الألف الثاني ق.م . وكان أشهر مركز للنبوءة في العالم الهلليني . وقد أعيد تنظيم احتفال قديم – كان مرتبطاً بهذه النبوءة – في شكل دورة هللينية جامعة أي دورة دولية في عام ٥٨٢. وكانت هذه الدورة البيثية تعقد مرة كل ثلاث سنوات ، وتوافق دائماً السنة الأولى منها السنة الثالثة من الدورة الأولمبية ، وذلك في خلال شهر أغسطس/سبتمبر . وكانت تلي مباشرة الدورة الأولمبية في الأهمية . وكان يشرف على تنظيم الدورة البيثية المجلس الامفكتيوني .

ذكرت أن احتفالاً كان يقام في دلفي منذ زمن قديم مرتبطاً بهذه النبوءة .

وكان هذا الاحتفال يقام مرة كل ثماني سنوات (ولعل هذه الدورة الزمنية مأخوذة عن البابليين)، وكانت تجرى فيه مسابقة موسيقية حيث يعزف بمصاحبة القيثارة نشيد ديني لأبولون (nomos Pythicus) . لكن في عام ٥٨٢ – على نحو ما أشرت – أعيد تنظيم هذا الاحتفال كدورة هللينية جامعة (بانهللينية) تحت إشراف مجلس الحلف الامفكتيوني ، وهو حلف ديني الطابع اكتسب أهمية منذ القرن السابع وكان يتألف منذ حوالي عام ٦٠٠ من الدويـلات المتجاورة (amphictiones) في بلاد الاغريق الشمالية (ثساليا) والوسطى (بيوتيا وفوكيس ولوكريس وأيتوليا وغيرها). وكان الحلف يرتبط في بدايته بمعبد ديميتير في أنثيلا (Anthela) – بالقرب من ترموبيلاي – ولكنه ارتبط منذ أواخر القرن السابع بمعبد أبوللون في دلفي. كان القصد من الحلف الأمفكتيوني حماية معابد الأقاليم المتحالفة وصيانة مقدساتها ، والحفاظ – بالتعاون مع دلفى نفسها – على ممتلكات معبد أبوللون ومقتنياته إذ كان يزخر بكنوز الهدايا والنذور التي درج الأفراد والمدن المختلفة على تقديمها للمعبد. فكان الحرم المقدس للمعبد (temenos) يضم داخل سياجه ما لا يقل عن عشرين مبنى صغير أيسميها الاغريق كنوزاً أو خزائن (thesauros) ، وهي في الحقيقة مخازن أو بيوت صغيرة (oikoi) كانت تودع فيها السجلات والمقدسات والأدوات الثمينة ، والنذور المهداة .. الخ . وقد اعتادت بعض الدويلات الاغريقية أن ترسل كل منها تماثيل بديعة وغير ذلك من النُصب والآثار التي تخلد ذكرى انتصاراتها أو غيرها من المناسبات القومية . وكان الحلف الأمفكتيوني – على نحو ما سنرى – أداة هامة وعلى الأخص من الناحية السياسية في يد دول المدن اليونانية القوية .

وأعود إلى الدورة البيثية لأقول إن احتفالات هذه الدورة كانت تقتصر

في أول الامر على مسابقات في العزف على الآلات الموسيقية والغناء ، والتمثيل ، وإلقاء الشعر والنثر. لكن لم تلبث أن أضيفت إليها مباريات رياضية على غرار مباريات الدورة الأولمبية . وكان الاستاديوم (ملعب الجري) يوجد على مقربة من جبل برناسوس. كذلك أنشئت في سهل كريسا(Crisa)حلبة لسباق الخيل (هبودروموس) . وكانت جائزة الفائزين عبارة عن إكليل من ورق الغار (المأخوذ من أشجار وادي تمبي Tempé الجميل) .

٣ - **الدورة الاسثمية**: وهي منسوبة إلى بلد إسثموس (Ishhmus) ، أي بلدة « البرزخ » بجوار كورنثة . انشئت كاحتفال أو عيد هلليني دولي بعد الدورة السابقة بعام واحد أي من عام ٥٨١ . وكانت تقام مرة كل سنتين (وتوافق بدايتها دائماً منتصف الدورةالاوليمبية)وذلك تمجيداً لبوسيدون ، إله البحر ، الذي كانت كورنثة مرتبطة به ارتباطاً وثيقاً . وقد لوحظ إقبال الأثينيين على مشاهدة احتفالات هذه الدورة ، ولعل ذلك يرجع إلى اشتهار كورنثة بكثرة أماكن اللهو والتسلية . وكانت جائزة الفائزين في المسابقات الفنية أو المباريات الرياضية اكليلاً من الكرفس البري . وقد خلد بنداروس (Pindaros) — الشاعر البويوتي الغنائي الشهير في أوائل القرن الخامس — خلد في الكتاب الرابع من قصائده المسماة « بأهازيج النصر » (Epinicia) بعض الأبطال الفائزين في الدورة الإسثمية ،مثلما خلد أسماء كثيرين من الأبطال الرياضيين الذين أحرزوا شرف النصر لأنفسهم ولمدنهم (Olympianikai) في الدورات الهللينية الجامعة الأخرى .

٤ — **الدورة النيمية** : نسبة إلى بلد نيميا (Nemea) بأرجوليس (في البلوبونيز) . أنشئت كمهرجان أو عيد هلليني دَوْري في عام ٥٧٣ . وتنسب

نشأتها أحياناً إلى أدراستوس (Adrastus) أحد أبطال أرجوس الأسطوريين . وفي نيميا أيضاً صرع البطل الإله هيراكليس (Heracles) الأسد المفترس . وكانت هذه الدورة تعقد مرة كل سنتين ، تكريماً وتمجيداً للإله زيوس «النيمي» تحت إشراف مدن كليوناي وأرجوس وكورنثه بالتناوب . وفي هذه الدورة كانت تجري كل المباريات الرياضية المألوفة للإغريق في الدورات الأخرى ما عدا سباق العربات . وكانت جائزة الفائزين إكليلاً من البقدونس البري . وقد مجد الشاعر بنداروس ـ الشهير ببندار ـ ذكرى كثير من هؤلاء الفائزين في قصائده المسماة « بالأناشيد النيمية » .

ومن يقرأ هذه « الأناشيد » و « أهازيج النصر » لهذا الشاعر ، ويتفحص ما تبقى من آثار الإغريق المتصلة بالألعاب الرياضية ، يدرك على الفور مدى ما كان للألعاب الرياضية (وروح التنافس بوجه في أي مسابقات) من أهمية كبيرة عند الاغريق . لقد مجد الاغريق هؤلاء الأبطال الرياضيين الذين سعوا إلى إحراز الشرف والمجد والشهرة الخالدة لأنفسهم ولمدنهم المختلفة . وقد أعجبوا بالرياضة وجعلوها عنصراً رئيسياً في التربية ، بل إن التربية البدنية كانت عندهم تشكل مع التربية العقلية ، أساس التربية كله . وكان هوميروس قد أفرد للمسابقات الرياضية مكاناً ملحوظاً في الإلياذة (كاحتفالات دينية مرتبطة بالطقوس الجنائزية) ، فكأنه بذلك قد وضع للأغريق منهجاً في التربية لا يحيدون عنه[1]. وثمة ملاحظة أخرى عن مفهوم الحضارة الهللينية ، وهي أن الاغريق لم يملّوا أبداً من مشاهدة الألعاب الرياضية سواء في الدورات الهللينية الكبرى أو في نواديهم الثقافية ــ الرياضية أو بالأحرى معاهد التربية المسماة عندهم بالجيمنازيوم (gymnasium)[2].

(١) كان الإله هرميس (Hermes) هو إله الرياضة عند اليونان .

(٢) لفظ « جيمنازيوم » عند الإغريق معناه اللغوي الأصلي مكان التجرد أو التعري من الملابس لممارسة الرياضة دون ما عائق . ويقول أحد الكتاب القدامى انه لم يكن من المتصور قيام دولة مدينة يونانية بدون الجيمنازيوم (gymnasium) والأجورا (agora) وهي السوق العامة أو الميدان الرئيسي حيث يتجمع مواطنو المدينة لمختلف الأغراض .

وقد افتتنوا بالجسم الرياضي مع طول التطلع إليه ، إذ رأوه هناك مجرداً وقوياً فتياً . وأعجبوا بقوامه البديع حتى رسموه في أغلب الأحيان عارياً . ومن ثم نشأ إعجابهم بقوام الإنسان بوجه عام ، وأخيراً بالإنسان نفسه الذي اعتبروه آية ومعجزة ، وسيداً للخليقة ، فعبدوه كإله ، بل إنهم رسموا الآلهة على صورته .

الفصل الثالث

أقاليم بلاد اليونان

وتطورها السياسي

في وسعنا أن نقسم شبه جزيرة البلقان إلى ثلاثة أقسام كبرى : الشمال والوسط والجنوب التي يشتمل كل منها على عدة أقاليم . وهذه الأقاليم، باستثناء القليل ، ليست سياسية لأن كلا منها ينقسم بدوره إلى عدة وحدات مستقلة . ويرجع الأصل في انقسام البلاد إلى هذه الأقاليم إلى الأيام الأولى التي استقرت فيها القبائل اليونانية الوافدة إلى شبه الجزيرة ، كما يرجع أيضاً إلى انقسام البلاد إلى عدة إمارات في عصر الحضارة الميكينية وهي الفترة المتأخرة من عصر الحضارة الهلادية .

الشمال :

ويشمل القسم الشمالي إقليم مقدونيا وثساليا في الشرق وإلليريا وإبيروس في الغرب . وأما مقدونيا (Macedonia) فسهل كان يسكنه شعب خليط من سلالات مختلفة كالطراقية والإلليرية (الألبانية) ويتكلم لغة تنتمي إلى

أسرة اللغات الهندية - الأوربية ، ولكنها تختلف عن الفرع اليوناني . ولهذا لم تعتبر مقدونيا بلداً يونانياً ، ولو أن التصاق حدودها الجنوبية ببلاد اليونان جعلها بمرور الزمن نصف يونانية ، هذا على الرغم من تشهير ديموستنيس بملكها فيليب الثاني ، الذي يصفه الخطيب الأثيني بأنه متبربر . وترجع أهمية مقدونيا إلى سيطرتها على المداخل الشمالية لبلاد اليونان ، وإلى أنهـــا كانت موطن تلك المملكة القوية التي قدر لها أن تخضع بـــلاد اليونان وتقضي على استقلال مدنها السياسي . وأهم أنهارهـــا نهر أكسيوس Axius (الوردار) الذي يتجه من الشمال إلى الجنوب ويقسمها جزءين . ويفصل مقدونيا عن طراقيـــا (Thracia) في الشرق نهر استريمون Strymon ،(ستروما) ويفصلها في الغرب عن تساليا نهر هلياكمون (Haliacmon) . وقد نقل المقدونيون عاصمتهم من مدينة إديسا (Edessa) (أو آيجاي Aegae) إلى مدينة بللا (Pella) التي تقع في منطقة منخفضة غير استراتيجية أو صحية ، ولكنها أقرب كثيراً إلى البحر من الأولى . وأما سالونيك (Thessalonica) ، عاصمـــة مقدونيا بعد أن أصبحت ولاية رومانية ،فتحتل موقعاً ممتازاً عند رأس خليج ثرما (Therma) حيث كانت تسيطر على طريق التجارة المتجهة إلى داخل البلاد ، كما كانت تقع عند نهاية النصف الغربي من طريق إجناتيوس (Via Egnatia) ، الذي كان يبدأ من دُرّاخيوم (Dyrrachium) (وهي إبيدامنوس Epibamnus القديمة) ويصل بين البحرين الأدرياتي والإيجي ، وظل قروناً عدة خطاً رئيسياً للمواصلات بين روما وولاياتها الشرقية .

وإذا كانت مقدونيا بفضل موقعها وتضاريسها تصلح لأن تكون مقراً لدولة متحدة تحت ظل حكومة مركزية قوية وجيش قومي مدرب ، فإنهـــا كانت أيضاً معرضة من جهات كثيرة لغزو القبائل القاطنـــة بالجبال المتاخمة لها ، ولإغارات الشعوب المهاجرة من حوض الدانوب عن طريق مورافا . وقد تحقق الخطر من هذه الناحية عندما أغار الجلاتيون في عام ٢٧٩ على مقدونيا واقتحموها من

أبوابها الشمالية وأحدثوا فيها تخريباً شاملاً [1]. وقد عامل الرومان مقدونيا بعد هزيمتها بشيء من اللين والتسامح تقديراً للدور الهام الذي قامت به في حماية حضارة البحر الايجي من خطر إغارات شعوب وسط أوروبا المتبربرة.

أما شبه جزيرة خالكيديكي(Chalcidicé)[2] التي تبرز من ساحل مقدونيا في شمال البحر الإيجي فتشبه بأرجلها أو ألسنتها الثلاثة الممتدة في البحر ، شبه جزيرة البلوبونيز كل الشبه ، بل أنها تنتمي وفقاً لشكل تضاريسها ونوع نباتها إلى جنوب بلاد اليونان لا إلى شمالها. وكان من الطبيعي إذاً أن تنشأ على سواحلها منذ وقت مبكر مستعمرات يونانية كثيرة . وكما يتبين من اسمها فإن المهاجرين من خالكيس بجزيرة يوبويا هم الذين سبقوا غيرهم إلى تلك المنطقة . ويتصل اللسان الذي يقع في أقصى الشرق من شبه الجزيرة ، وهو ما يعرف باسم أكتي (Acté)يتصل بالقارة نفسها بواسطة برزخ عرضه حوالي ميل ونصف ولا تزال تشاهد عنده قناة الملك الفارسي خشيارشاي (Xerxes) . وفي هذا اللسان يقع جبل أثوس (Athos) ، وهو جبل منعزل شديد الارتفاع ، تشتد عنده العواصف والأنواء مما يجعل الملاحة خطرة جداً ، كما اتضح لمردونيوس القائد الفارسي الذي تحطم أسطوله هناك على نحو ما ذكرنا من قبل . وعند طرف اللسان الأوسط تقع مدينة توروني (Toroné)الهامة . وفي أول اللسان الغربي من شبه الجزيرة تقع مدينتان هامتان إحداهما بوتيديا (Potidaea)، إحدى مستعمرات كورنثة ، والأخرى أولينثوس (Olynthus) ، التي كانت مركزاً طبيعياً للمقاومة ضد عدوان أثينا أو مقدونيا أو اسبرطة ، وعاصمة و الحلف الخالكيديكي، في مستهل القرن الرابع، وحليفة لأثينا في آخر الأمر ضد فيليب المقدوني الذي استولى عليها في سنة ٣٤٨ وهو عدوان أثار ديموستثيس ودفعه إلى

---

(١) التواريخ كلها قبل الميلاد ما لم تقرن بما يفيد بأنها ميلادية .

(٢) تنطق الـ ch دائماً خاءاً ، وتنطق الـ c دائماً كافا .

إلقاء الخطب المشهورة باسم « الخطب الأولينثية » .

وكان سكان ثساليا (Thesalia) أقرب إلى اليونان من المقدونيين ولكنهم لا ينحدرون من سلالة يونانية خالصة . ويعتبر سهلها الخصب الفسيح الذي ينحصر بين الجبال من جميع جهاته تقريباً ، أوسع سهول بلاد اليونان . ويفصل ثساليا عن مقدونيا جبل أوليمبوس منزل الآلهة اليونانية ، وعن شمال غرب جبال اليونان سلسلة جبال بندوس . ويعزلها عن البحر الإيجي جبلان هما أسّا (Ossa) وبيليون (Pelion) اللذان ورد في الأساطير أن العمالقة وضعوا أحدهما فوق الآخر لكي يرقوا إلى السماء أثناء قتالهم ضد الآلهة . ولهذا لم تكن ثساليا على اتصال مستمر ببقية بلاد اليونان ، وقد ظلت تعتبر منطقة متخلفة حتى القرن الرابع.غير أن عزلتها لم تكن كاملة لأن قربها الشديد من دولتين قويتين مثل طيبة في الجنوب ومقدونيا في الشمال جذبها إلى محيطها السياسي وربط تاريخها بتاريخ بلاد اليونان بوجه عام . وقد أثرت طبيعة تضاريسها في تطورها السياسي. فالسهول الفسيحة المنبسطة ساعدت على تكوين الضياع الواسعة ، كما أن اقتصادها « المغلق » أخّر قيام المراكز المدنية فيها. وقد ترتب على ذلك أن تجمعت القوة السياسية في يد كبار ملاك الأراضي الأشراف الذين وجدوا في مروج نهر بينيوس (P eneus) ، وهو من أكبر أنهار بلاد اليونان ، مكاناً ملائماً لتربية الجياد على نطاق واسع ، وفرصة لاحتراف الفروسية ، مما أتاح لهم السيطرة التامة على السهول والتحكم في عبيد الضياع (Penestai) . وقد اشتهرت ثساليا في الفترة التاريخية بقوة جيشها في سلاح الفرسان حتى أنها أمدت الأسكندر الأكبر بوحدات منها في حملته على الشرق . كما أن جواده المشهور بوكيفالوس(Bucephalus) كان من سلالة ثسالية.

وفي وسعنا أن نقول إن ثساليا الأصلية كانت تنقسم سياسياً ألى أربعة أقسام رئيسية : هستيأيوتيس (Hestiaeotis) في الشمال الغربي حيث يقع جبل

أوليمبوس، وثساليوتيس (Thessaliotis) في الجنوب الغربي ويضم سهل فرساليا الذي شهد المعركة الفاصلة بين بومبي وقيصر في عام ٤٨، ثم بلاسجيوتيس (Pelasgiotis) في الشرق حيث تقع مدينتا لاريسا وفيراي القويتان ؛ وأما القسم الرابع افثيوتيس (Phthiotis) ، الذي يقع في الركن الجنوبي الشرقي من تساليا ، فكان منطقة هامة في العصور القديمة لأن ثوكيديديس يحدثنا بأنها الموطن الأصلي للجنس الهلليني كما أنها كانت مسقط رأس أخيل(Achilleus) ، بطل الالياذة [١] . ويرتبط خليج بجساي (Pagasae)[٢] الذي تطل عليه هذه المنطقة – في الأساطير اليونانية – بحملة ملاحي السفينة « أرجو » (Argo) . وقد روى أن هذه السفينة بنيت من أخشاب غابة الصنوبر الواقعة بالقرب من منحدرات بيليون ، وأنها بدأت رحلتها من موانى هذا الخليج إلى كولخيس (Colchis) بشرق البحر الأسود لاسترداد « الفروة الذهبية » . ومع أن تساليا كانت أكثر من غيرها ملاءمة لقيام دولة متحدة إلا أنها لم تتخط في تطورها مرحلة النظام الإقطاعي حتى القرن الرابع . ولم تندمج في اتحاد سياسي متين حتى فرضت عليها السيطرة الأجنبية . وكان من الممكن أن تصبح تساليا بفضل ثروتها المادية ومواردها البشرية زعيمة لبلاد اليونان ، وهو الدور الذي أعده لها ياسون (Jason) طاغية «فيراي» في أوائل القرن الرابع . ولكنها ختمت تاريخها السياسي باندماجها في اتحاد فيدرالي تحت سيطرة مقدونيا وبعدئذ تحت سيطرة روما. وقد سهل مهمة ملوك مقدونيا في السيطرة

---

(١) راجع ما تقدم في ص ٨٠٧ هوامش

(٢) هناك منطقتان أخريان يمكن إدراجها تحت اسم إقليم تساليا إحداهما مجنيسيا (Magnesia) ، وهي القطاع الطويل من الأرض الممتدة بمحاذاة البحر الإيجي من وادي تمبي (Tempê) في الشمال إلى خليج بجساي في الجنوب، والأخرى هي ذلك الوادي الصغير الضيق الذي يقع بين جبل أوثريس (Othrys) وجبل أويتا (Oeta) في أقصى الجنوب .

عليها خطان من المواصلات ، أحدهما طريق وادي تمبي (Tempe) الجبل الذي يقع بين جبلي أوليمبوس وأسًا – وهو ممر ضيق كان من المستطاع سده في وجه الغزاة لولا وجود ممرات أخرى قريبة يسهل اجتيازها ؛ والآخر هو الطريق البحري الذي يؤدي إلى خليج بجاساي . وقد أقام المقدونيون عند رأسه قلعة ديميترياس (Demetrias) لتكون – إلى جانب خالكيس وكورنثة – أحد « الأغلال الثلاثة » التي سيطروا بها على اليونان .

وتقع إلليريا أو إلوريكوم (Illyricum) إلى الغرب من مقدونيا . وهي لا تعتبر في الواقع إقليماً يونانياً ، لأنها لم تؤثر في مجرى التاريخ اليوناني أو تتأثر به إلا قليلاً . ومعظمها عبارة عن منطقة جبلية وعرة غير منتظمة التضاريس ، وتجري فيها عدة أنهار أهمها نهر آووس (Aous) ، وتتخلل ساحلها بعض سهول كانت محاصيلها هي المصدر الرئيسي لثروة المستعمرات اليونانية القريبة مثل إبيدامنوس (دوراخيوم فيما بعد) وأبولونيا (Apollonia) التي أسسها الإغريق على الساحل في القرن السادس والقرون التالية . غير أن صعوبة الاتصال بداخل إلليريا ، فضلاً عن اشتهار أهلها بحرفة القرصنة وقف حائلاً دون التوغل فيها واكتشاف أرجائها . كما أخرت كثرة قبائلها المستقلة قيام مملكة في جنوبها حتى القرن الثالث . وقد اشتبك الرومان مع هذه المملكة في حربين الإلليرية الأولى (٢٢٩) والإلليرية الثانية (٢١٩) ، عندما وجدوا أن مصالحهم تقتضي إدخال البحر الأدرياتي في دائرة نفوذهم . وقد قسم الرومان هذه المملكة بعد هزيمتها في عام ١٦٧ إلى ثلاثة أقسام .

وأما إبيروس Epirus (ومعناها القارة) فتقع على طرف بلاد اليونان وبالتالي على هامش التاريخ اليوناني . ولم يكن لها أي صلات هامة بالإغريق إلا في أيام ملكها الشهير بيروس (Pyrrhus) . وعزلتها الجغرافية وحدها

تفسر سبب عزلتها السياسية ، فساحل إيبيروس تضرب عليه الجبال ستاراً حديدياً يتعذر اختراقه ، ولا يشتمل على ميناء صالحة لرسو السفن . وعلى حدودها الشرقية تقع سلسلة جبال بندوس التي تعزلها عن تساليا عزلاً تاماً. وإذا كانت إيبيروس قد تأثرت بالحضارة اليونانية فإن ذلك قد حدث عن طريق أمبراكيا (Ambracia) وجزيرة كركيرا (Corcyra) . وتقسم المرتفعات التي تتقاطع طولاً وعرضاً وتطل على وديان عميقة ، قلب الإقليم إلى مناطق منعزلة إحداها عن الأخرى. وأعمق هذه الوديان هو خانق نهرأخيرون (Acheron) الذي يكاد يكون محجوباً عن أشعة الشمس حجباً تاماً ، حتى أن الإغريق خيل إليهم أنه الباب المؤدي إلى العالم السفلي أو عالم الموتى (Hadés) . وقد ترتب على ذلك أن الإقليم كله انقسم سياسياً إلى أربع عشرة مقاطعة تسكنها قبائل دُورية أو إلليرية الأصل. وفي خلال الشطر الأكبر من تاريخ إيبيروس لم تقم أي رابطة بين هذه المقاطعات سوى ذلك الاتحاد الفيدرالي الواهي الذي جمع بين ثلاث منها فقط .

وتقع بين جبال إيبيروس الوسطى بلدة دودونا (Dodona) التي اشتهر معبدها بأنه مركز نبوءة الإله زيوس في منطقة مليئة بغابات البلوط. وقد كانت هناك مراكز أخرى للنبوءة(oraculum)[1] في بلاد اليونان وفي خارجها،ومن أوسعها شهرة نبوءة الإله أبوللون البيثي في بلدة دلفي (Delphi)، ونبوءة الإله آمون المصري في واحته التي تعرف اليوم باسم سيوه . غير أن نبوءة

---

(١) كلمة oraculum هي اللفظ الدال على « نبوءة » في اللغة اللاتينية ، وهو شائع، وقد اشتق منه لفظ oracle في الإنجليزية والفرنسية ، لكن اللفظ الدال عليها في اليونانية هو manteion أو chrestêrion ومعناه إجابة الإله (عن طريق كاهنة أو كاهن) على أسئلة السائلين .

زيوس في دودونا كانت أقدمها جميعاً ، ولو أن تعذر الوصول إليها كان من العوامل التي جعلت نبوءة أبوللون في دلفي – على نحو ما سنفصله بعد قليل – تنتزع منها الزعامة منذ القرن السابع ق م

وعلى مقربة من دودونا كان يقع سهل خصيب ، على اتصال بأمبراكيا في الجنوب ، تشغله مقاطعة مولوسيا (Molossia) ، التي كانت بمثابة نقطة التجمع للإليرين وكان ملكها الإسكندر الأول ، والأخ غير الشقيق لفيلب الثاني ملك مقدونيا ، هو الذي حقق وحدة البلاد كلها في القرن الرابع (٣٤٢ – ٣٣٠). وقد نقل بيروس (٣١٩ – ٢٧٢) ، أشهر ملوك إيبيروس ، العاصمة من الداخل إلى أمبراكيا ، لكي يتسنى له الاتصال بالعالم الخارجي الذي كان يطمع في فتحه. غير أن فشل الحملة التي قام بها في إيطاليا لمساعدة مدينة تارنتوم (Tarentum) اليونانية (٢٨٠ – ٢٧١) كان من العوامل التي أدت إلى ضعف إيبيروس ووقوعها فريسة لهجمات آيتوليا ومقدونيا وإلليريا ، وسقوط الأسرة المالكة في مولوسيا في أواخر القرن الثالث ق.م.

الوسط :

فإذا انتقلنا إلى بلاد اليونان الوسطى نجدها تنقسم بدورها إلى عدة أقاليم . ففي الغرب تقع أكارنانيا (Acarnania) التي تشمل المنطقة الواقعة بين خليج أكتيوم (Actium) وخليج كورنثة . وهي هضبة من الحجر الجيري لا تختلف كثيراً في مناخها أو نباتها عن الأقاليم اليونانية الأخرى. وأهم ظاهرة جغرافية تتميز بها أكارنانيا هي نهر أخيلوس (Achelous) أطول أنهار بلاد اليونان، الذي ينبع من وسط إيبيروس ويصب في الطرف الغربي من الخليج الكورنثي ، ويتردد ذكره كثيراً في الأساطير ، ولكنه ليس بذي أهمية

كطريق للمواصلات . وتقع على ساحلها بعض موان صغيرة لم تستطع أن تنافس جزر البحر الأيوني القريبة في تحويل التجارة إليها. ولهذا ظلت أكارنانيا منطقة منعزلة . وقد نشأ بين مقاطعاتها ، مثلما نشأ في إيبيروس ، اتحاد فيدرالي غير متين ، وكانت عاصمته استراتوس (Stratos) مركزاً طبيعياً للمواصلات .

وإلى الجنوب الشرقي من أكارنانيا تقع أيتوليا (Aetolia) التي كان يسكنها قوم ظلوا متأخرين فترة طويلة ، ولم يتخلصوا أبداً من عاداتهم البدائية الهمجية . وليس معنى هذا أن أيتوليا كانت منطقة جدباء مقفرة ، فهي تشتمل على بعض مساحات واسعة من الأراضي الصالحة للزراعة ، وعدة بحيرات تمدها بكمية وافرة من المياه . ويربط شمالها الشرقي بوادي اسبرخيوس وخليج ماليس ممر من السهل اجتيازه . غير أن الممرات الشمالية التي تؤدي إلى ثساليا وعرة شاقة ، فضلاً عن أن جبل كوراكس الشاهق يقف كالسد المنيع بينها وبين غرب إقليم لوكريس . وتطل أيتوليا من الجنوب على خليج كورنثة ، ولكن سلسلة من الجبال الساحلية تعزل نصفها الشرقي عن البحر . وأما نصفها الغربي المطل على البحر الأيوني فكان مليئاً بالمستنقعات ويسده الطمي الذي يجرفه تيار شديد من مجرى نهر أخيلوس إلى الخليج الكورنثي. ولهذا عاش الأيتوليون مدة طويلة ، كسكان إيبيروس وأكارنانيا ، بعيدين عن تيار الحياة والتاريخ اليوناني . وقد ظل الإقليم منقسماً إلى ثلاث مقاطعات لم تكن تتعاون إلا في حالة تعرضها للغزو الأجنبي. وحتى الاتحاد الفيدرالي أو الحلف الذي قام بين هذه المقاطعات في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد لم يكن يتفق وطبيعة الإقليم الجغرافية . وكانت ثرمون (Thermon) ، مركز حكومة هذا الاتحاد ، حرماً مقدساً أكثر منه مدينة طبيعية . وعندما بنى « الحلف الأيتولي » أسطولاً ، اضطر إلى أن يستعير ميناء ناوباكتوس من لوكريس لكي ترابط سفنه

في مياهها . كما أن « الحلف الأيتولي » بعد اتساع نطاقه وامتداده في وسط بلاد اليونان بين البحرين الأدرياتي والإيجي في القرنين الثالث والثاني ، كان يجري في اتجاه مضاد لخطوط المواصلات الطبيعية . وفي الواقع إن هذا الحلف كان أشبه بالحلف العسكري منه بالاتحاد السياسي أو الاقتصادي ، إذ كانت الرابطة الأساسية فيه هي جيشه الممتاز الذي يتألف من مشاة ذوي عتاد خفيف لم يفقهم جيش يوناني آخر في سرعة الحركة .

ويلي تساليا إقليمان هما لوكريس وفوكيس . لكن ينبغي ألا نغفل ذلك الإقليم الساحلي الصغير الذي يقع بينهما وهو إقليم ميليس أو ماليس (Malis) ، حيث يجري نهر اسبرخيوس (Spercheus) . ولم تكن لوادي هذا النهر الخصيب أية أهمية سياسية سوى استخدامه كطريق بري حيوي للمواصلات . ومن الجائز أن المهاجرين الأخيين استخدموه في العصور الأولى للوصول إلى البحر الإيجي ، وأما في العصر الهللينستي فقد هيأ « للحلف الأيتولي » منفذاً إلى نفس البحر . على أن الأهمية الكبرى لوادي اسبرخيوس قد استمدها من كونه الطريق البري الوحيد الذي يصل بين تساليا ووسط بلاد اليونان ، وأنه يحرس المدخل المؤدي إلى ممر ثرموبيلاي (Thermopylae) والممرات الأخرى المتصلة به .

وأما عن ممر ثرموبولاي فهو طريق محصور بين جبل أويتا (Oeta) وخليج ماليس . وعند طرفيه الشرقي والغربي مدخلان ضيقان ، وفي وسطه منفذ لم يكن يسمح كما يقول هيرودوت إلا بمرور عربة واحدة . وقد أقام أهالي فوكيس عنده سداً من الحجر في وجه إغارات التساليين . وتنحدر حافة الجبل انحداراً شديداً في اتجاه البحر بحيث يتعذر على أي جيش أن يجتازه

بشكل منتظم . بيد أن انحسار البحر وتوغل سهل ماليس فيه بسبب رواسب النهر ، غيّر من شكل هذا الممر المشهور بحيث لم يعد من السهل أن يتبين المرء معالمه القديمة . فعند هـذا الممر صمدت قوة اسبرطية قليلة تحت قيادة الملك ليونيداس (Leonidas) أمام قوات فارسية ضخمة في عام ٤٨٠ . ولولا أن أحد الخونة الإغريق دل ملك الفرس «خشيارشاي» على ممر جانبي محاذ لمجرى نهر أسوبوس ، أتاح له أن ينفذ منه ويطوق الإسبرطيين ويقضي عليهم ، لما استطاع الفرس أن يشقوا طريقهم إلى الجنوب إلا بعد خسائر فادحة [١] .

وكان إقليم لوكريس (Locris) الذي يشغل منطقة فسيحة بـين خليج ماليس وخليج كورنثه ، موزعاً بين ثلاث قبائل تكوّن كل منها دويلة مستقلة. ولا يعنينا منها سوى لوكريس الشرقية « الأبونتية » التي تطل على قنال يوبويا ولا تشتمل إلا على مساحة صغيرة من الأراضي المزرعة . ولم تكن لهـا تجارة بحرية رائجة لأن خالكيس كانت تتحكم في مياه القنال . وترجع أهمية لوكريس الشرقية في التاريخ اليوناني إلى أنهـا كانت ، مثل وادي اسبرخيوس ، معبراً وطريقاً موصلاً إلى بلدة إلاتيا في وادي نهر كيفيسوس (Cephissus) . وأما لوكريس الغربية « الأوزولية » فتشغل المنطقة المطلة على الخليج الكورنثي وخليج كريسا في الجنوب الشرقي من أيتوليا . وفيهـا تقع مدينة ناوباكتوس (Naupactus) الهامة ، التي كانت تسيطر ، بفضل موقعها الساحلي الممتاز ، على مدخل الخليج الكورنثي من الغرب . ولمـا كان سكان لوكريس الغربية لم يهتموا بالملاحة ، فقد تركوا هذا الميناء الهام يقع في يد الأثينيين الذين أدركوا قيمته الاستراتيجية في القرن الخامس أثناء حربهم ضد كورنثة. وكانت لوكريس

(١) حدث ذلك في الحملة الثانية للفرس على بلاد اليونان في الحروب المسماة بالحروب الميدية أو الفارسية . وقد دمر فيها الفرس أثينا نفسها . ولكنها انتهت بهزيمتهم في معركة سلاميس البحرية سنة ٤٧٩ .

الغربية ، كجارتها أيتوليا ، في عزلة شبه تامة عن بقية بلاد اليونان . ولذلك ظلت منطقة متأخرة الحضارة ، غير أن الحافة الشرقية منها كانت تنتظم جزءاً من سهل كريسا (Crisa) الخصيب والطريق الواصل بين الخليج الكورنثي وثرموبيلاي . وعلى هذا الطريق تقع بلدة أمفيسا (Amphissa) ، التي اشتهرت بعداوتها لفوكيس وتحالفها مع بيوتيا ، وقامت بدور هام في «الحرب المقدسة الثالثة» التي نشبت في القرن الرابع [1] .

وأما فوكيس (Phocis) فتشغل المنطقة الوسطى من سهل كيفيسوس وشريطاً من ساحل الخليج الكورنثي إلى الشرق من خليج كريسا .وتنقسم في الواقع قسمين : الوادي الأعلى لنهر كيفيسوس ، وسلسلة جبل برناسّوس . وقد اكتسب القسم الأول أهميته من وقوع إلاتيّا (Elatea) فيه ، لأن هذه المدينة تسيطر على الطرق التي تربط بين فوكيس وبيوتيا عبر وادي كيفيسوس ، وبين فوكيس وأوبوس الواقعة على بحر يوبويا ، وبين بيوتيا وثرموبيلاي عبر جبل كالليدروموس . وهذا يفسر سبب الذعر الشديد الذي استولى على الأثينيين عندما بلغهم في عام ٣٣٩ أن فيليب المقدوني استولى على إلاتيّا ، مهدداً بذلك طيبة ، أهم مدن بيوتيا ، التي تقع على بعد أميال قليلة في الجنوب ، وأثينا نفسها التي لا تبعد عنها سوى مسيرة ثلاثة أيام.غير أن تاريخ فوكيس لا يرتكز على الحلف الفوكي بقدر ما يرتكز على مدينة واحدة فيه ، وهي دلفي(Delphi)

---

(١) هذه « الحروب المقدسة » كانت تثور بسبب طمع إحدى المدن في السيطرة على دلفي ومعبد أبوللون والاستئثار بكنوزه والانتفاع بزراعة سهل « كريسا » وكلها كانت مقدسة وموقوفة على الإله أبوللون . وقامت « الحرب المقدسة » الأولى حوالي ٥٩٠ وفيها دمر الحلف الأمفكتيوني مدينة كريسا . وقامت الحرب الثانية في ٤٤٨ وفيها أعاد بريكليس دلفى إلى فوكيس بعد أن طردتها منها أسبرطة . وقامت الحرب الثالثة في خريف عام ٣٥٥ وفيها انتصرت فوكيس أولاً تحت زعامة فيلوميلوس وبعدئذ تحت زعامة أونومارخوس على طيبة زعيمة بيوتيا وحلفائها . واتسع نطاق هذه الحرب مما أدى إلى تدخل فيليب الثاني ملك مقدونيا .

مركز نبوءة الإله أبوللون ، التي تقع على السفح الجنوبي الغربي من جبل برناسّوس (Parnassus) الشاهق (٨٢٠٠ قدم) [١]. وكان الوصول إلى دلفي رحلة شاقة مجهدة . وقد توطد مركز المدينة المالي بفضل شهرتها الدينية ، وانفصلت بوصفها مدينة محايدة عن الحلف الفوكي منذ القرن السادس . وقد رأينا كيف تصور هكاتايوس دلفي مركزاً لقرص الأرض [٢] وفي الحق إنها كانت في نظر اليونان مركزاً لدائرة بلادهم . وإذ كانت بلاد اليونان نفسها تحتل مركزاً وسطاً بين طرفي العالم القديم ، فقد اشتهرت دلفي أو بالأحرى الحجر المقدس في معبدها بأنه « سرة الأرض » (Omphalus) [٣] .

---

(١) أشتهر هذا الجبل بأنه كان ـ مثل جبل هليكون في بيوتيا ـ منزلاً لربات الفنون التسع .

(٢) راجع ص ١١ فيما تقدم .

(٣) كانت الأومفالوس (omphalos) أي السرة أسماً يطلق على الصخور أو الأحجار التي في شكل السرة . ومثل هذه الأحجار كانت مقدسة ومرتبطة بالعبادات في الديانات البدائية بمنطقة البحر الإيجي . وظلت مرتبطة بعبادات كثيرة حتى بعد أن تطورت الديانات وارتقى مستواها . وكان أشهر حجر في شكل السرة هو الموجود في قدس أقداس (adyton) معبد أبوللون في دلفي . وكان مقدساً منذ أقدم العصور ، وعثرنا على بقايا قرابين تؤيد ذلك . ولعل مكانها كان في الأصل مركزاً لعبادة الأرض بوصفها ربة الأمومة ثم أصبح فيما بعد مركزاً لعبادة أبوللون ، وموضع نبوءته الشهيرة . ويرسم أبوللون في الفن الإغريقي جالساً فوق هذا الحجر . وكان كل مكان في موضع مركزي يسمى « أومفالوس» أي « سرة المنطقة » . هكذا ساد الاعتقاد بأن حجر معبد دلفي ، القائم في وسطه ، هو علامة تميز مركز الأرض . وثمة أسطورة طريفة لتعليل ذلك تقول : أراد زيوس يوماً أن يعرف مركز الأرض فأطلق في الجو نسرين متعادلين في السرعة في نفس اللحظة ، أحدهما من الطرف الشرقي للدنيا ، والآخر من طرفها الغربي ، فالتقى النسران عند دلفي . وقد أدى ذلك إلى وضع تمثالين لنسرين من الذهب بجانب الأومفالوس ، وهما اللذان نهبهما فيلوميلوس ، القائد الأعلى لقوات فوكيس ، في « الحرب المقدسة الثالثة » عام ٣٥٦ .

وأما الكتاب المتأخرون وغيرهم ممن لا يوثق برواياتهم فيسمون « السرة » مقبرة بيثون ، الأفعى الضخمة التي صرعها أبوللون ، أو مقبرة ديونيسوس ، إله النبيذ . وقد عثر الأثريون على هذا الحجر الشهير في دلفي .

ولقد سبقت الإشارة إلى أنهـــا كانت مركزاً لأشهر النبوءات في العـــالم الهلليني [1] . ومن الخير أن نتوقف هنا لحظة لنتعرف على دلفي ومركزها الديني والسياسي الهام ، ومعبدها الشهير ، ونبوءتها الأكثر شهرة.

دلفي ونبوءة أبوللون :

كان أبوللون (Apollôn) كغيره من آلهة أوليمبوس إلهاً متعدد الاختصاصات. لكنه كان يتميز عنهم بقدرته على كشف حجب الغيب [2] . كان إلهـاً للغيب ،

---

(١) راجع ما تقدم في ص ١١٦ - ١١٧ ، ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) لا ننسى أن زيوس ، كبير الآلهة ، قد عرف أيضاً بقدرته على التنبؤ . لكن شهرته في هذا المجال كانت أقل من شهرة أبوللون ، وكان أهم مركز لنبوءة زيوس هو معبده في بلدة دودونا (Dodona) في إبيروس (راجع ما تقدم في ص ١٢٧-١٢٨) وكذلك في بلدة أوليمبيا (Olympia) في إقليم إيليس . وكانت الأولى هي أقدم النبوءات في بلاد الآغريق ، وكانت الإجابات على أسئلة السائلين يحصل عليها عن طريق تفسير حفيف أوراق شجرة بلوط قديمـــة عندما تهب عليها الرياح . وفي بعض الأحيان كانت تعلق في الشجرة أوان نحاسية لتجعل الحفيف أكثر وضوحاً ورنيناً . وأحياناً أخرى كانت الإجابات على أسئلة السائلين تقوم على تفسير هديل الحمام الواقف على الأغصان أو خرير مياه أحد الينابيع . ومن ثم فقد عرفت كاهنات معبد زيوس في دودونا أحياناً باسم الحمام (Peleiai) . لكن سرعان ما حجبت نبوءة أبوللون في دلفي نبوءة زيوس في دودونا ، وصارت أهم نبوءة في كل بلاد الإغريق ، بل في العـــالم الهلليني كله .

- ومن النبوءات الأخرى في بلاد الإغريق نفسها نبوءة أسكليبيوس (Asclepius) البطل وإله الشفاء والطب، في إبيداوروس (Epidaurus) التي تقع في شبه جزيرة نائتة من الساحل الشرقي لأرجوليس ، ومطلة على الخليج الساروني . ففي داخل هذه المدينـــة كان يوجد معبد (hieron) للإله أسكليبيوس ، ابن أبوللون ، شيد في أوائل القرن الرابع ق.م وكان المرضى يأتون إلى حرم المعبد ويتطهرون ويصومون أو يمسكون عن أكل أطعمة معينة ثم =

ومن ثم إلهاً للنبوءة . وكان أهم مركز لنبوءته هو معبده في دلفي ولا سيما قدس أقداسه (adyton) حيث كان يوجد – في وسطه – حجر مقدس في شكل

=يضحون بحيوانات ويرقدون على جلودها أو فرواتها في رواق طويل ملحق بالمعبد. وينامون الليل فيرون رؤى وأحلاماً تتضمن وصفات لشفائهم من المرض. ويسمى هذا بالرقود «incubatio». وفي الحق إن الشفاء كان عن طريق الإيمان حيث أن العلاج الطبي لا يذكر كثيراً ، أو لعل الشفاء كان يتحقق بمزيج من الإيمان والأدوية . وتؤيد الإهداءات والنذور اعتقاد بعض المرضى بأن الشفاء تم بعد أن تجلى لهم الإله في الحلم . وعثرنا على نقوش مطولة في حرم المعبد دون عليها المرضى بالتفصيل كيف تم شفاؤهم بمعجزة من الإله . وفي بعض المعابد (كمعبد الإله المصري سرابيس في جزيرة ديلوس على سبيل المثال) كان يوجد مفسرون رسميون لتأويل الأحلام ، ومداحون يسبحون بنعم الإله وآلائه. ولا شك في أن بعض الوصفات الطبية أو « الروشتات » التي وجدناها منقوشة على الحجر في حرم المعبد كانت من تحضير الكهنة ، وهي ذات أهمية في دراسة تاريخ الطب القديم وكان لأسكليبيوس معبد شهير آخر في جزيرة قوس (Cos)

– كذلك اشتهرت نبوءة أمفياراوس (Amphiaraos) ، في بلدة أوروبوس (Oropus) في إقليم بويوتيا. وكان أمفياراوس عرافاً (نبياً) وبطلاً من مدينة أرجوس . وقد تزوج أخت أدراستوس ، بطل أرجوس ، واشترك في الحرب المعروفة باسم « سبعة ضد طيبة » قبل الحرب الطروادية . وفي أثناء الحملة تعقبه العدو فهرب ولكن الأرض ابتلعته ، وكانت نبوءته في بلدة أوروبوس تقوم على تفسير الأحلام .

– وكان لتروفونيوس (Trophonius) – وهو في الأصل مهندس معماري عظيم من مدينة أورخومينوس في إقليم بويوتيا – نبوءة شهيرة جداً في بلدة ليباديا (Lebadea) في نفس الإقليم . وتقول الأسطورة إنه قام بالإشتراك مع أخيه ببناء معبد أبوللون في دلفي . وبعدئذ طالبا بالأجر فاستمهلتهما الكاهنة ثمانية أيام ناصحة إياهما بأن يعيشا هذه المدة في أقصى سعادة وسرور . لكنهما وجدا بعد انقضاء المدة ميتين في فراشهما . وفي روايه أخرى متأخرة أن الأرض انشقت وابتلعت تروفونيوس . وحدث بعد ذلك أن ابتلي إقليم بويوتيا بقحط شديد . ونصح العراف أهل الإقليم بالإتجاه إلى قبر تروفونيوس حيث أنه وحده قادر على أن ينبئهم بطريقة الخلاص من المجاعة . وقيل إن أسراب النحل هي التي دلت على مكان قبره في كهف ببلدة ليباديا. وكان تروفونيوس عند حسن ظنهم فأرشدهم إلى طريق الخلاص من المجاعة.=

السُرّة » التي تعرف في اليونانية بلفظ « أومفالوس » . وفي هذا المكان كانت كاهنة أبوللون المساة بيثيا (Pythia) هي التي تعطي الإجابات على أسئلة المتسائلين عن المستقبل . وكانت في أول الأمر إمرأة صغيرة السن ، لكن فيما بعد كانت إمرأة مُسنة . كانت الكاهنة تجلس على مقعد ذي ثلاثة قوائم أو ثلاثة أرجل يسمى تريبوس (tripous) ثم تروح فيما يشبه الغيبوبة بطريقة لا تزال خافية علينا . لعلها كانت تمضغ أوراق الغار أو تشرب سائلاً معيناً لا نعرف كنهه ، وتتقمصها روح الإله أبوللون فتهذي بالإجابات. وكان المستفسرون

= لذلك مجدوه ورفعوه إلى مصاف الآلهة . ومنذ ذلك الحين اشتهرت نبوءة تروفونيوس وأصبح كهفه في ليباديا مزاراً للناس من كل أنحاء بلاد الإغريق . كانوا يحجون إليه لاستشارة نبوءته في شتى المسائل . وكان عليهم أن يقوموا بعدة طقوس معقدة أهمها دخول السائلين الكهف ونزولهم في أغواره (أو اختطافهم في باطن الأرض مثلما اختطف تروفونيوس نفسه) حيث كانوا يتلقون الإجابات عن أسئلتهم أو يتلقون - إذا كانوا مرضى - وصفات طبية للشفاء من أمراضهم على غرار نبوءة أسكليبيوس في إبيداوروس .

- وأما عن الآلهة غير اليونانية فإن آمون ، الإله المصري ، كان له هو الآخر نبوءة في الواحة المعروفة قديماً بواحة آمون وحالياً بواحة سيوه . وقد اكتسبت هذه النبوءة شهرة واسعة في العالم الهلليني ، ويشير إليها شعراء المسرح الإغريقي في القرن الخامس ق.م. وقد تكبد الإسكندر الأكبر مشقة كبيرة لكي يزورها ويستشير الإله في مشروع حملة عندما غزا مصر (٣٣٢ - ٣٣٠) .

- وفي سوريا كانت توجد مراكز للنبوءة لآلهة يونانية أو آلهة شرقية شبهت بالآلهة اليونانية .

- وفي إيطاليا كانت أشهر النبوءات هي نبوءة الموتى في أفرنوس (Avernus) قرب بوتيولي وكوماي (عند خليج نابلي) ، ونبوءة الإله فاونوس (Faunus) ، وهي نبوءة شفاء - في بلدة تيبور Tibur (بإقليم لاتيوم) ، وأخيراً نبوءة ربة الحظ (Fortuna) في بلدة برايнستي (Praenestê) بنفس الإقليم .

عن المستقبل يتطهرون أولاً ويقدمون القرابين قبل التقدم نحو مكان النبوءة ، ويدخلون في ترتيب معين لعله كان يتم عن طريق القرعة . وكان هناك كاهن يتلقى اسئلتهم ثم يأتي لهم بإجابة الكاهنة (بيثيا) ويفسرهـا لهم . وغالباً ما كان معنى الإجابة غامضاً ويحتمل تأويلين ، لأن الإله الذي تنطق النبيّة بوحي منه معصوم من الخطأ وصادق أبداً . فإذا حدث ولم تتحقق النبوءة أو جاءت الأيام بعكس ما تكهنت به ، فإن هذا لا يرجع إلى خطأ الإله، إنما يرجع إلى أن السائل لم يفهم الإجابة على وجهها الصحيـح ، بل فهمها على وجهها الخاطىء ، إذ أخذ بتفسير تاركاً التفسير السليم الآخر . وكانت الأسئلة تدوّن كتابةً وكذلك الإجابات التي كانت تعطى كأبيات منظومـــة شعراً (من البحر المسمى بالسداسيّ hexametron) وغالباً في اليوم السابع من الشهر ، وهو عيد ميلاد أبوللون[1] . وكان الناس يأتون إلى هذا المـكان المقدس من كل فج عميق . كان يحج إليه الاشخاص العاديون التماساً لمشورة الإله قبل الإقدام على أي مشروع كالزواج ، والصفقات التجارية ، بل وعن أسباب العقم . وكذلك كانت دول المدن نفسها تبعث بوفود رسمية (theoroi) إلى دلفي لاستشارة نبوءة الإله قبل الإقدام على مشروعات هـامة أو خطيرة وفي مقدمتها تأسيس المستعمرات ودخـول الحروب[2] .

وكانت إجابات كاهنة دلفي على الأسئلة الدينية الشعائرية تتسم بالتحفظ وعدم التحيز . فـكانت النبوءة تنصح المتسائلين بأن خير وسيلة للعبادة هي

---

(١) أبوللون هو ابن زيوس من الجبارة « ليتو » . ولد بجزيرة ديلوس . وقد سبقته أخته التوأم أرتميس ، ربة الصيد ، بيوم واحد .

(٢) وثمة ملاحظة جانبية وهي أنـــه كان يمكن عتق العبيد بنذرهم للإله أبوللون في دلفي أو ببيعهم له بيعاً صورياً . ويصبحون عتقاء (apéleutheroi) إذ يصبح الإله ضامنـــاً لحريتهم . وكان من يعتقون بهذه الطريقة يعرفون أحياناً في العصر الهلليـنستي باسم « عبيد المعبد» (hierodouloi)

أن تكون وفقاً للعرف المتبع أو العادات المتوارثة في المدن التي ينتمون إليها .

كانت عبادة ديونيسوس (Dionysus) ، الشهير أيضاً باسم باكخوس (Bacchus) ، إله النبيذ ، قد وفدت متأخرة إلى بلاد الإغريق . وكانت ذات طابع يختلف جوهرياً عن العبادات الإغريقية المتسمة بالاعتدال وضبط النفس ، ومن ثم تتعارض مع المثل التي تتضمنها عبادة أبوللون . غير أن ديونيسوس وجد له مكاناً إلى جانب أبوللون في دلفي لأن طريقة الكاهنة في إعطاء النبوءة كانت تتشابه وطريقة عبادة ديونيسوس حيث كانت المتعبدات له بوجه خاص يرحن في غيبوبة بعد شراب النبيذ ، هبة هذا الإله للبشر ، والرقص على أنغام الموسيقى ، وتطويح أجسامهن يمنة ويسرة ، والصخب الشديد ، يرحن في غيبوبة فيتصورون كأن روح الإله قد تملكتهن أو أنهن قد اتحدن به تماماً ، فيصرن شبه « مجذوبات » أو « مجنونات » . ولذلك أدت وجوه التشابه هذه إلى المصالحة بين أبوللون ، الإله القديم ، وبين ديونيسوس الجديد ، وتعايش الإلهان سلمياً في دلفي . وقد ساعد ذلك على نشر عبادة ديونيسوس وعلى الأخص بين النساء والعبيد والفقراء . هكذا لقي ديونيسوس ترحيباً في حرم دلفي المقدس بل أصبح شريكاً لأبوللون في معبده حتى لقد قيل — فيما بعد — أن السرة أو الحجر الموجود في قدس أقداس المعبد كان يضم رفات ديونيسوس (١) .

وقد ازدادت أهمية دلفي وارتفع شأنها أثناء الفترة المسماة بعصر الإستعمار الإغريقي (٧٥٠ - ٥٥٠) إذ كانت دول المدن الإغريقية تبعث بانتظام بوفود رسمية (theôriai) إلى دلفي لتستطلع رأي الإله — عن طريق نبوءته — في مدى ملاءمة موقع المستعمرة المزمع إنشاؤها في الخارج ، وفي الإله الذي ينبغي أن

---

(١) راجع ص ١٣٣ حاشية ٣ .

تتخذه المستعمرة راعياً لهـا [١] . وتنسب الروايات المتواترة إلى أبوللون وضع كثير من قوانين المدن اليونانيـة كدستور ليكورجوس (Lycurgus) في اسبرطة ، على سبيل المثال لا الحصر . وبالتـالي مساهمته في تطوير الحضارة . ويتبين من التنبؤات السياسية التي صدرت عن معبد دلفي أن كهنتـه كانوا على معرفة واسعة بالأحداث الجارية والأحوال السائدة والأوضـاع القائمة في مختلف المدن الإغريقية . لقد كانت دلفي بمثابة مركز لجمع المعلومات من أنحاء العـالم الهلليني . ولذلك كانت تنبؤات معبدها صحيحة فيما عدا بعض استثناءات قليلة صارخة لا نعرف لها تفسيراً . كذلك يتبين من الإجابات ميل الدوائر المسئولة في دلفي إلى التحفظ والحياد، وإن لم تخل أحياناً من محاولات لمواءمتها دبلوماسياً مع الظروف المتغيرة . وليس من المستبعد أن يكون المعبد قد وقع أحياناً تحت تأثير عوامل قاهرة جعلته يعطي إجابات غير محـايدة [٢] . فمن المعروف أن

---

(١) كان أعضاء هذه الوفود الرسمية التي ترسلها مختلف المدن إلى مراكز النبوءة الكبرى (كدلفي مثلا) يعرفون باسم ثيوروي (theôroi) ، وهو لفظ معناه الأصلي « المشاهدون » أو المسافرون السياحة . وأصبح يطلق على السفراء الرسميين الذين كانت المدن اليونانية تبعثهم لحضور احتفالات المدن الأخرى ، ويقومون بتمثيلها هناك . وكانت الاحتفالات الهللينية الجامعة أي الدولية (كالدورة الأوليمبية) تحضرها وفود رسمية (theôriai) من كل الدويلات اليونانية. كذلك أصبح لقب ثيوروي (theôroi) يطلق على هؤلاء المبعوثين الذين ترسلهم المدن للإعلان عن موعد احتفال أو عيد ديني معين ، وعن إنشاء احتفالات رياضية دوليه جديدة (كما حدث في القرن الثالث ق.م) ، أو عن إبلاغ كل المدن عن إقامة مباريات جديدة . هكذا أصبحت كلمة « ثيوروي » لقباً لكل السفراء الرسميين المبعوثين في مهام ذات طابع ديني أو شبه ديني. وكانت المدن تعهد إلى لجنة رسمية بمهمة استقبال هؤلاء المبعوثين ، ويسمى أعضاؤهـا (theôrodokoi) .

(٢) يلاحظ أن مراكز النبوءة كانت غالبـاً في أماكن بعيدة عن الدويلات القوية ذات النفوذ الكبير .

السلطات في دلفي كانت تتعاطف مع الحكومات الأرستقراطية وتناوىء حكومات « الطغاة » الذين قاموا بانقلابات إبان الأزمات الداخلية أو الخارجية بتأييد من الجماهير وأطاحوا بالحكومات الأرستقراطية في كثير من المدن الإغريقية خلال القرنين السابع والسادس : وكانت اسبرطة تبارك حكم الطغاة وتؤيد قيامه في المدن الأخرى . لقد كان موقف دلفي من الطغاة متمشياً مع مبادىء أبوللون الذي أشتهر بمناهضة حكمهم . ذلك أن الطغاة، ولا سيما الجيل الثاني منهم تملكهم الزهو والغرور،وانقلبوا قساة، واتصفوا بالتجبر والغطرسة. وكانت الغطرسة التي يسميها الإغريق « هيبريس » (hybris)،خطيئة مذمومة لأنها تنطوي على الإفراط في الكبرياء،وتثير غضب الآلهة وتتعارض مع حكمة أبوللون في أن يعرف الانسان قدر نفسه ولا يتجاوز حدوده أو ينسى أنه بشر فيمشي في الأرض مرحاً ويتعالى حاسباً أنه قد اقترب من السماء أو صار كفواً للآلهة. لذلك قاومت دلفي أسرة الطاغية بيسستراتوس في أثينا،وأورثاجوراس في سيكيون . ومع هذا فقد تنبأت باستيلاء معظم « الطغاة » على الحكم في المدن اليونانية ، وتعاطفت مع كرويسوس ملك ليديا الغني حتى سقوطه ، وحضت الإغريق على عدم مقاومة الفرس ، وتحيزت لاسبرطة في الحروب البلوبونيزية ، وأيدت فيليب المقدوني في غزوه لبلاد الإغريق . وقد يبدو هذا الموقف غريباً ، لكنه يكشف عن وقوع دلفي أحياناً تحت تأثير عوامل قوية وتسليمها بالأمر الواقع أو وشيك الوقوع ، وعن رغبة في المهادنة حتى يكف الغزاة أيديهم عن كنوزها . وإذا كان الفرس – على عكس ما تنبأت دلفي – قد انهزموا في النهاية ، فإن هذه الهزيمة لم يكن في وسع أي إغريقي ، مهما بلغ تفاؤله ، أن يتكهن بها.ولا ينبغي أن ننسى أن بعض الدويلات الإغريقية التي تقع في شمال بلاد الاغريق ووسطها ، وتحيط بدلفي تقريباً ، وتوقعت أن تتلقى الصدمة الأولى للهجوم الفارسي ، قد وقفت على الحياد أو انحازت صراحة إلى

الفرس ضد بني وطنهم الاغريق سواء بدافع الخوف من بطش الغزاة أو تحت إغراء الرشوة .

ولما كان أبوللون هو الإله الحجة في كل ما يتصل بشعائر العبادة عند الإغريق فقد أصبح رباً للتطهير (katharsis) ، وعلى الأخص التطهير من جريمة قتل المحارم ، حيث أن اليد الملوثة بدماء ذوي القربى كانت – وفقاً للتصور البدائي – تظل دائماً ملوثة ، وتلحق الجريمة بالقاتل رجساً أو دنساً لا يزول زوالاً تاماً. وقد لوحظ أن نبوءة دلفي كانت تعنى عناية خاصة بأسئلة الأفراد المتعلقة بالسلوك الخلقي . ويبدو أنها كانت تقف بحزم في المسائل الخلقية .كانت تنادي بأن الطهارة ليست مسألة مظهرية كغسل البدن فقط أو ممارسة الطقوس الشكلية ، بل هي في الأساس طهارة الروح ، وأن النية قد تكون أهم من الفعل ، أو كما نقول نحن « إنما الأعمال بالنيات ». وبذلك تكون ديانة أبوللون – كما تمثلت في نبوءته بدلفي – قد بلغت أعلى مستوى خلقي في العالم الوثني القديم . وكانت الحكم المشهورة المحفورة في جدران معبد ابوللون في دلفي –على إيجازها وبساطتها – عظات خلقية ،مثل «إعرف نفسك»(gnôthi seauton) « وإياك والأفراط » (mèden agan) [1] .

(١) لم يكن لأبوللون مراكز أخرى للنبوءة داخل بلاد الإغريق اللهم إلا في بريوتيا .لكن هذا الإله كانت له مراكز للنبوءة خارج بلاد الإغريق الأصلية وكانت أوسعها شهرة نبوءته في معبد ديديما (Didyma) ، ونبوءته في معبد كلاروس (Claros) . كانت ديديما إحدى المدن اليونانية التي تقع على الساحل الأيوني ، على بعد أحد عشر ميلا من ميليتوس (Miletus) وقد أحرق الفرس معبد أبوللون في ديديما عام ٤٩٤ (أثناء الثورة الأيونيه التي أدت إلى قيام الحروب الفارسية). وبعد فتح الإسكندر الأكبر لمدينة ميليتوس عام ٣٣٤،أعيد تنظيم عبادة أبوللون في ديديما حيث شيد أهل ميليتوس أضخم معبد في العالم الهلليني .ومنذ ذلك =

كانت أهمية دلفي تتمثل قبل أى شيء آخر في أنها كانت نقطة التقـــاء للدول المدن الإغريقية التي مزقتها الخلافات . وقد تمتعت بمركز فريد ونفوذ شامل ، وكلاهما كان ضرورياً لكي تتمكن من أداء رسالتها في تجميع صفوف الإغريق وتسوية الخلافات بينهم (عن طريق التحكيم) . وفي الحقيقة أننا لا نستطيع أن نفسـر تفسيراً كاملاً سبب هذا المركز الفريد والنفوذ الشامل . لكن يمكن أن نعزوه إلى بضعة عوامل , أحدها هو طريقة التنبؤ المثيرة (وهي على نقيض التنبؤ الهادىء عن طريق فحص أحشاء الحيوان أو مراقبة مسار الطيور وهو ما يسمى بالعرافة او الطيَرة) ، والآخر هو الإقبال على دورة الأعياد البيثية الدولية التي انشئت ــ على نحو ما رأينا ــ بعد « الحرب المقدسة الأولى » (٥٩٠) ، وأما العامل الثالث فهو ارتباط دلفي « بالحلف الدلفي الأمفكتيوني » ، وهو حلف قوى نشأ بين الدويلات الشمالية . ولا يزال التاريخ المبكر لهذا الحلف الأمفكتيوني يكتنفه الغموض ، وإن يكن من المؤكد أن مركزه كان أصلاً في الشمال ، وأن دلفي لم تندمج فيه – على ما يرجح – إلا منذ أواخر القرن السابع . وعندما

= الوقت صارت ميليتوس تشرف على شئون العبادة في هذا المعبد إشرافاً مباشراً . وكان يعين له سنوياً كاهن يساعده أمينان لخزانة (tamiai) ومجلس تنفيذي (kosmoi) . وكانت تنطق بالنبوءة هنا كاهنة أو نبية على نحو ما كان يجري في دلفي . وقد أنشىء احتفال رياضي سنوي يسمى ديديما (Didymeia) ولم يلبث أن أصبح عيداً دوريا هلينياً عاماً لكل الإغريق منذ أوائل القرن الثاني ق.م .

وتقع كلاروس أيضاً على ساحل أيونيا بالقرب من مدينة كولوفون (بين إفيسوس ولبيدوس) . وكان يقوم فيها منذ القدم معبد لأبوللون . غير أن أقدم إشارة لدينا إلى نشاط هذه النبوءة يرجع إلى القرن الرابع ق.م ولم تحظ نبوءة أبوللون في كلاروس بشهرة واسعة إلا في عصر الإمبراطورية الرومانية .

ـ وجدير بالذكر أنه كانت هناك مراكز لنبوءة أبوللون في إقليمي ليكيا وطروادة بالأناضول .

تم الاعتراف بدلفي كمركز عام للعبادة في القرن الخامس ، أصبح مجلس الحلف (synedrion) ممثلاً للدويلات الإغريقية عامة . وقد قبلت مقدونيا عضواً في هذا الحلف نظير المساعدة التي قدمها فيليب الثاني للحلف ضد أهل فوكيس فيما يسمى « بالحرب المقدسة الثالثة » (٣٥٥ - ٣٤٦) .

وقد تدهور نفوذ دلفي والحلف الأمفكتيوني في العصر الهلينستي تدهورا سريعـــاً ، وإن كان ملوك الدول الهلينستية الجديدة ، الذين كانوا حريصين على توثيق صلاتهم ببلاد الإغريق لأسباب كثيرة ، عملوا على التقرب من دلفي واسترضائها بشتى الوسائل ، إذ كانت أيضاً لاتزال مركزاً لجمع المعلومات من أنحاء العالم الهليني . لكن دلفي كانت برغم هذا تدنو من نهايتها . فقد استولى « الحلف الأيتولي » على المدينة حوالي عام ٣٠٠ . وتعرضت دلفي لإغارة الغال في عام ٢٧٩ . ثم تعرضت في العصور التالية للتخريب على يد الغزاة المتبربرين . ولم يتورع الدكتاتور الروماني سُلاّ (٨٦ — ٨٥) عن نهب كنوز معبدهـــا ، واستغلها في خدمة أغراضه العسكرية . لكن دلفي عـادت وانتعشت انتعاشاً مؤقتاً في عصر الإمبراطور الروماني هادريان (١١٧ — ١٣٨ م) . لكن هذا الانتعاش المصطنع قصير المدى كان أشبه بصحوة الموت . ذلك أن « عـــلم التنجيم » حل محل مختلف طرق التنبؤ القديمة كالعرافة والطيرة وغيرهما . كما ظهرت مراكز أخرى منافسة لدلفي . وتلقت دلفي الضربة القاضية عندمـــا أعلنت المسيحية ديانة رسمية للدولة الرومانية في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (٣٨٠ — ٣٩٢م) .

ويشبه إقليم بويوتيا (Boeotia) إقليم ثساليا في بعض نواحيه الجغرافية لأنه بمثابة حوض نهري يكاد يكون محصوراً بين الجبال . ففي الجنوب يقع جبل هليكون (Helicôn) ، وهو امتداد لسلاسل الجبال الساحلية في بلاد اليونان

الوسطى . وقد اشتهر هذا الجبل ، الذي يبلغ ارتفاعه ٥٨٦٨ قدماً، بأنه منزل ربات الفنون التسع (Musae) [١] ، وفقاً لما ورد عند هيسيود . كما تمتـد

---

(١) كن ربات أو ملهمات الشعر والأدب والموسيقى والرقص وبعدئذ أيضاً الفلك والفلسفة وكل الهوايات الفكرية . وفي آخر العصر الروماني تحدد اختصاص وشعار كل ربة منهن :

- كالليوبي (Calliopê) ربة الشعر الملحمي (epos). وشعارها اللوحة والقلم.

- كليو (Clio) ربة التاريخ. وشعارها لفافة (بردية) منشورة أو صندوق يحتوي على لفافات بردية.

- يوتربي (Euterpê) ربة العزف على المزمار(aulos). وشعارها المزمار ذو البوصة أو البوصتين. وهذه الربة هي التي يحمل أسمها الكتاب الثاني من تاريخ هيرودوت الذي يصف فيه أحوال مصر (عند منتصف القرن الخامس ق.م.).

- تربسيخوري (Terpsichorê) ربة الرقص والغنـاء الجوقي (chorus) المصحوب بالقيثارة (cithara) . وشعارها القيثارة وريشة العزف على أوتارها .

- إراتو (Eratô) ربة الشعر الغنائي (lyric) أوالتسابيح والأناشيدالدينية(hymnoi) . وشعارها القيثارة الصغيرة أي الربابة (lyra) .

- ملبوميني (Melpomenê) ربة التراجيديا . وشعارهـا القناع أو عصا هيراكليس أو السيف .

- ثاليا (Thalia) ربة الكوميديا . شعارها القناع المضحك أو إكليـل من اللبلاب . (كذلك أصبحت ربة للشعر الرعوي ، وشعارها عندئذ هو عصا الراعي) .

- بوليهيمنيا (Polyhymnia) ربة فن التمثيل (mimos) . وليس لها شعار ، وإنما تقف وقفة المرأة المتأملة المستغرقة في التفكير.

- أورانيا (Urania) ربة الفلك . وشعارها عصا تشير إلى الأبراج السماوية .

وكان جبل برناسوس في فوكيس يعتبر هو الآخر مقدماً لهن مثلمـا كان مقدساًلأبوللون رب الموسيقى والفنون . وأشهر مكان ينسب إليهن هي دار الفنون والعـلوم بالإسكندرية المسماة في اليونانية(Mouseion) وفي اللاتينية (Museum) والتي أنشأها البطالمةفيتلك المدينة =

الجبال على حدودها الشمالية الشرقية المتاخمة لقتال يوبويا ، ويكمل هذه الحلقة جبلا كيثايرون وبارنيس . وأهم ظاهرة جغرافية في بويوتيا هي بحيرة كوبائيس (Copaîs) الكبيرة التي كانت تتوسطها ولكنها اختفت الآن . وقد كان للأبخرة المتصاعدة من هذه البحيرة تأثير سيىء في مناخها الذي كان بارداً رطباً في الشتاء وحاراً رطباً في الصيف يبعث على الكسل والخمول ولم يكن لطيفاً أبداً كما يقول هيسيود ، وهو أحد أبنائها . وليس من المستبعد أنه كان أحد العوامل التي جعلت سكان بويوتيا بلداء بطيئي الفهم بالقياس إلى جيرانهم الأثينيين . كما أن توغل بحيرة كوبائيس في سهل بويوتيا كان له أثر آخر : فقد شطرها تقريباً شطرين ، أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب . وقد نجم عن هذا الانقسام الجغرافي انقسام سياسي تأثر به تاريخها إلى حد كبير . ففي الجنوب كانت طيبة (Thebae) أكبر مدن الاقليم كله تسيطر على وادي نهر أسوبوس (Asopus)وتتوسط الممرات المتفرعة من جبلي كيثايرون وبارنيس ، فكانت بالتالي بمثابة حلقة الوصل بين بويوتيا وأتيكا أو البلوبونيز . ولما كانت طيبة هي التي أنجبت قادة بويوتيا العسكريين وزعماءها السياسيين ، فقد أهلها ذلك لأن تكون عاصمة للإقليم . وقد أثبتت جدارتها بهذا المركز عندما اضطلعت

= ليتوفر فيها الأدباء والعلماء على البحث والدراسة ،وصارت أشبه ما تكون بالأكاديمية أو الجامعة. ومن الواضح أنها كانت أصلاً معبداً لربات الفنون(Musae) ثم تحولت إلى دار للفنون والعلوم في الإسكندرية (القرن الثالث ق.م) .

ويروى في الأساطير الإغريقية أن « ربات الفنون » هن بنات أنجبهن زيوس من منيموسيني (Mnemôsyne) ، وهي ربة « الذاكرة » أو « التذكر » وأسم بناتها فى الأصل مونساي (Monsai) « بمعنى اللائي يذكرن الناس أو يلهمنهم » ثم انقلب الاسم إلى موساي Mousai وفقا لمقتضيات اللغة ، وصار فى اللاتينيـــة يكتب Musae محتفظاً بالنطق اليوناني . وتعرف ربات الفنون عند الرومان أحياناً باسم كاميناى (Camenae) .

في خلال القرن الخامس والقرون التالية بمهمة توجيه سياسة « الاتحاد الفيدرالي البويوتي ».

وفضلا عن ذلك فإن بويوتيا كاتحاد فيدرالي تحت زعامة طيبة كانت خليقة بأن تصبح القوة الموجهة في بلاد اليونان بوجه عام . ذلك أن أراضيها كانت على قدر من الخصوبة يتيح لها أن تستوعب عدداً ضخماً من السكان.وكان فلاحوها ، وهم عصب المجتمع البويوتي، من خيرة الجنود الإغريق . وقد تمتعت بميزة أخرى ألا وهي موقعها المتوسط بين دول المدن اليونانية . غير أن طيبة وجدت لها خصماً في مدينـــة أورخومينوس (Orchomenus)وهي المدينة الرئيسية في وادي نهر كيفيسوس الذي يقع في شمال بحيرة كوبائيس.ومع أن أورخومينوس لم تستطع أن تزحزح غريمتها عن مركز الزعامة ، إلا أنهـا استخدمت كنقطة تجمع للاتجاهات الانفصالية التي نشأت بين المدن الصغيرة ، وبذلك حالت دون اندماج بويوتيا كلها في دولة واحدة أو اتحاد متين . ولهذا كانت الزعامة التي أحرزتها بويوتيا قبيل منتصف القرن الرابع دوراً عابراً في تاريخها ارتكز أساساً على عبقرية رجل واحد وهو قائدها الفـــذ إبامينونداس Epaminondas (٣٧١ – ٣٦٢) .

ومن ينظر إلى الخريطة يجد أن بويوتيا تطل على ثلاثة بحار (خليج كورنثة وخليجي بحر يوبويا) . وقد يستخلص من ذلك أنه قد توافرت لها فرص عظيمة لتنمية تجارتها وترويجها في اتجاه إيطاليا والدردنيـل والشرق الأدنى . غير أن ميناءها الوحيد وهو ميناء أوليس (Aulis) كان عسر المدخل ولا يصلح مثل خليج أكتيوم ، إلا لتجمع أسطول كأسطول الأمراء الآخيين الذين ورد في الإلياذة أنهم أبحروا منه إلى طروادة تحت قيادة أجاممنون . وأما الساحل الغربي فكان معزولاً عن « الظهير » أي المنطقة الخلفية بسلسلة تكاد تكون متصلة

من الأراضي الجبلية الوعرة . ولهذا كان إشراف بويوتيا على عدة بحار، ميزة صورية أكثر منها حقيقية . وقد شارك أهل بويوتيا بوجه عام مواطنهم هيسيود في عزوفه عن البحر ، كما أن المحاولة التي قام بها إبامينونداس لكي يفرض سيطرة بلاده على البحر الإيجي أخفقت عقب الحملة الأولى.

لكن إذا كانت بويوتيا قد أخفقت في فرض زعامتها على بقية بلاد اليونان ، فإنها قامت بدور متصل في التاريخ اليوناني ولم يكن في وسعها أن تقف مثل تساليا بمعزل عن مجرى أحداثه . ذلك أن موقعها المتوسط جعل منها ممرا للجيوش، كما أن سلاسل الجبال المحيطة بها لم تكن شاهقة أو متصلة حتى تعوق اتصالها بالخارج. وقد نجم عن ذلك أن تعرضت للغزوات المتكررة من الشمال والجنوب حتى أنها سميت « بمسرح القتال » . وحسب القارىء أن يعرف أن خيرونيا (Chaeronea) وكورونيا (Coronea) وأوينوفيتا (Oenophyta) وديليوم (Delium) وليوكترا (Leuctra) ، وهي مواقع حربية شهيرة في التاريخ اليوناني ، كانت كلها تقع في بويوتيا . غير أن بويوتيا تعرضت أيضاً لتيار الحضارة اليونانية ، وأسهمت بدور في تلك الحضارة على الرغم من سخرية الأثينيين من بلادة أهلها وبطء فهمهم .

وأما يوبويا (Euboea) فكانت في الأصل أرضاً متصلة ببلاد اليونان ثم انفصلت عنها وأصبحت جزيرة. ولا يزيد عرض القنال الذي يفصلها عن الساحل الشرقي لبلاد اليونان في أضيق نقطة على ٣٠٠ قدم ، وقد أقيمت عندها قنطرة ربطت بين بويوتيا ويوبويا في آخر القرن الخامس . كما أن سلسلة جبال يوبويا هي فيما يبدو إمتداد لسلسلة الجبال الرئيسية في تساليا ووسط بلاد اليونان . وقد عرفت أضيق نقطة في قنال يوبويا باسم مضيق يوريبوس الذي سبق أن تحدثنا عن تياره القوي السريع ، وقلنا إنه لم يكن يثبت على حال حتى أنه أثار دهشة

القدماء [1] . وتقع أخصب مناطق الجزيرة في الشمال وفي سهـل ليلانتوس (Lelantus) الذي يطل على مضيق يوريبوس وكانت سفوح جبالها ولا تزال غنية بالغابات . وقد وجدت يوبويا مجالاً لتصريف منتجاتهـا في أسواق أثينا التي كانت تعتمد في بعض الأحيان اعتماداً كبيراً على ماشية هذه الجزيرة وحبوبها وأخشابها . ويحدثنا المؤرخ توكيديدس عن الأهمية البالغة ليوبويا بالنسبة لأثينا في نهاية الحرب البلوبونيزية (٤٣١ – ٤٠٤) . وتتألف ثروة الجزيرة المعدنية من النحاس والحديد اللذين كانا يستخرجان من مناجم قريبة من خالكيس (وهو اسم يتضمن معنى النحاس) ، وإليها يرجع الفضل في رخاء تلك المدينة منذ وقت مبكر . وقد لقي أيضاً الرخام الأبيـض والأخضر الذي كان يستخرج من مدينة كاريستوس (Carystus) ، وهي في جنوب الجزيرة ، رواجاً كبيراً في الأسواق الرومانية .

غير أن أهمية يوبويا ترجع على الأخص إلى موقعها الممتاز الذي يتحكم في مداخل خليج بجساي والطرق الممتدة بين شمال البحر الإيجي والخليج الكورنثي . ففي الطرف الشمالي من الجزيرة كانت مدينة هستيايا (Hestiaea) تقوم بدور المحطة على الطريق التجاري بين قنال يوبويا وتساليا ومقدونيا ، الأمر الذي جعل أثينا تطمع في الاستيلاء عليهـا . ولكن تاريخ يوبويا كان يدور حول مدينتي خالكيس (Chalcis) وإريتريا (Eretria) اللتين اقتسمتا حاصلات سهل ليلانتوس والسيطرة على مضيق يوريبوس . . وقد قامت هاتان المدينتان في الفترة الأولى للتوسع اليوناني عبر البحـار بدور هام في نقل المهـاجرين وتأسيس المستعمرات [2] . وكان من الممكن أن يقوما بدور سياسي هام في تاريخ بلاد

(١) راجع ما تقدم في ص ٣٢ .

(٢) نشطت المدينتان في تأسيس مستعمرات وعلى الأخص في شبه جزيرة خالكيديكي خلال القرنين السابع والسادس . وكانت من بينها أولينثوس ومندي وميثوني .

اليونان . غير أنها انهارتا بعد ذلك انهياراً سريعاً . ولعل ذلك يرجع إلى تحول المنافسة بينهما إلى عداوة مستحكمة ونزاع مسلح ، كما يرجع أيضاً إلى عرقلة تجارتهما على أيدي دول مدن الخليج السارونى القوية مثل آجينا وكورنثه وأثينا. ومع هذا فقد اكتسبت خالكيس وإريتريا أهمية جديدة في العصر الهللينستي كمراكز متوسطة أمن بها ملوك مقدونيا مواصلاتهم البحرية مع كورنثة التي استخدموها هي وخالكيس وديمترياس كنقط ارتكاز أو «أغلال» للتحكم في بلاد اليونان .

أتيكا :

وأما أتيكا (Attica) - حيث تقع أثينا - فهي شبه الجزيرة المثلثة الشكل التي تبرز من جنوب بيوتيا في داخل البحر . ويفصلهـــا عن بيوتيا جبلان هما كيثايرون (Cithaeron) وبارنيس (Parnes) اللذان يكونان مع بنتليكوس (Pentelicus) في الشرق سلسلة تكاد تكون متصلة من الخليج الكورنثي حتى البحر الإيجي . وإلى الجنوب من الجبل الأخير يقع جبل هيميتّوس (Hymettus) . وهذه الجبال في مجموعها غير شاهقة إذ أن أعلاها لا يزيد ارتفاعه عن ٤٧٠٠ قدم . وعبر هذه الجبال توجد عدة ممرات أهمها ممر فيلي (Phylê) الذي يسير عبر جبل بارنيس في الوسط واحتله ثراسيبولوس (Thrasybulus) قبل مهاجمة حكومة الطغاة « الثلاثين » في أثينا عام ٤٠٤ ؛ وممر بلاتيـــا (Plataea) في الغرب ، الذي يسير من طيبــــة عاصمة بيوتيا مخترقاً جبل كيثايرون حتى سهل إليوسيس ؛ وأخيراً ممر ديكيليا (Decelea) في الشرق ، الذي يسير من أروبوس (Oropus) المطلة على بحر يوبويا إلى أثينا عبر جبـــل بارنيس ، وهو طريق الغزاة الإسبرطيين في الحرب البلوبونيزية . وتقسم الشعاب المنحدرة من هذه السلسلة الجبلية إلى الجنوب إقليم أتيكا إلى أربعة سهول :

١ - سهل إليوسيس (Eleusis) أو ثريا (Thria) الذي يقع في الغرب على الساحل في مواجهة جزيرة سلاميس .

ب - سهل أثينا (أو كيفيسوس) الذي يفصله عن السهل الأول جبل أيجاليوس (Aegaleus) ويرويه نهران هما كيفيسوس وإليسوس (Ilissus) ويعتبر أكبر السهول الأربعة [١] .

حـ - سهل ميسوجَيا (Mesogaea) - ومعناه الأراضي الوسطى المعزولة عن البحر - الذي يقع بين جبلي هيميتوس وبنتليكوس .

ء - سهل مَرَاثون (Marathon) الساحلي الذي يقع في الشمال الشرقي بين بارنيس وبنتليكوس وبحر يوبويا ، وهو أصغر السهول الأربعة [٢] .

وأما الشريط الساحلي الخصب الذي ينتهي في الجنوب عند رأس سونيوم (Sunium) فكان يحمل اسم بَرَاليا (Paralia) . وكانت المنطقة التي تقع على الحدود الشمالية الشرقية بين أتيكا وبويوتيا (شمالي جبل بنتليكوس) وتطل على بحر يوبويا وهي أوروبوس (Oropus) تنتمي جغرافياً إلى بويوتيا ، غير أن أثينا حرصت دائماً على أن تضمها تحت سيطرتها لأنها كانت تقع على طريق مواصلاتها مع يوبويا ولهذا كانت أوروبوس مثار نزاع مستمر بين الدولتين .

ولعل تضاريس أتيكا التي استعرضناها تفسر أصل الأحزاب الأثينية واتجاهاتها ؛ فحزب السهل (Pediakoi) كان قوامه سكان السهول ، وهم كبار ملاك الأراضي ، الذين انحصر هدفهم في الاحتفاظ بالسلطة الرئيسية في أيديهم ؛ وحزب الجبل (Diakrioi) ، الذي ضم من يسكنون في سفوح بنتليكوس وهيميتوس والمنطقة المتاخمة لهما ، كان قوامه من الرعاة الفقراء الذين لم يكن

---

(١) تبلغ مساحته نحو ٤٣٠ كم مربعاً .

(٢) لا تزيد مساحته عن ١٥٠ كم مربعاً .

لديهم ما يخسرونه ، فانصب همهم على تغيير الأوضاع السياسية لتحسين أحوالهم؛ وأما حزب الساحل (Paralioi) ،فكان أنصاره من سكان البلاد المتاخمة للبحر، الذين يمثلون المصالح التجارية ، وكانوا نظراً لاعتدالهم في الرأي ، يحفظون التوازن أو يقفون موقفاً وسطاً بين الحزبين الآخرين .

وتعتبر أتيكا من حيث المناخ أجف أقاليم بلاد اليونان . ومعدل المطر السنوي ضئيل لا يزيد عن ٤٠ سم ، والتربة فقيرة غير خصبة بوجه عام .[١] وإذا كانت مثل هذه الظروف ملائمة لزراعة الكروم والزيتون على نطاق واسع في السهول ، فهي لا تساعد على زراعة الحبوب ، وبخاصة القمح ، إلا على نطاق لا يكفي لسد حاجة السكان . والواقع أن محصول الحبوب ، ومعظمه من الشعير [٢] ، أصبح مع مضى الزمن لا يكفي سوى ثلث عدد السكان مع التجاوز في التقدير . ولهذا كله كانت مشكلة القمح ، وهو الغذاء الرئيسي عند اليونان، من المشاكل الملحة التي كان على السلطات الأثينية أن تجد لها حلاً .

وقد تأثرت سياسة أثينا كما تأثرت نظمها الدستورية وحياتها الاجتماعية بمشكلة عدم الاكتفاء الذاتي أو بالأحرى بمشكلة نقص القمح . وليس من المغالاة أن نقول إن هذه المشكلة هي التي كانت توجه السياسة الأثينية في كثير من الأحيان وجهة معينة . ولما كانت منطقة البحر الأسود هي المصدر الرئيسي لهذه السلعة ، فقد تحتم على أثينا أن تولي وجهها شطر هذه الناحية ، وأن تعمل لا على تأمين خطوط مواصلاتها إليها فحسب،بل على مد نفوذها وبسط سيطرتها

---

(١) راجع ما تقدم في ص٣٠ وما بعدها . وقد استعان الإغريق قديماً بالري الصناعي فكانت الزراعة وكذلك فلاحة البساتين تعتمدان عليه . وكانت المياه المستمدة من نهر كيفيسوس بالقرب من أثينا تستخدم صيفاً لري مزارع الزيتون المتاخمة.

(٢) كان ما ينتج من الشعير تسعة أعشار المحصول ، بينما لا يشكل القمح إلا العشر .

على مدن الدردنيل والبسفور ، مثل سيجيوم وسيستوس (Sèstos) وبيزنطة. وقد أدرك أعداؤها نقطة الضعف هذه فعملوا على استغلالها لمصلحتهم . ونجد الإسبرطيين مثلاً يوجهون همهم في مستهل الحرب البلوبونيزية إلى تخريب حقول أتيكا وإتلاف محصولها سواء من القمح أو الكرم بغية تجويع الأثينيين وإرباك حكومتهم . وفي نهاية هذه الحرب استولت اسبرطة على آيجـــوس بوتاموي (Aigospotamoi) ، وهي بلدة تطل على الدردنيل ، في عام ٤٠٥ ، وبعدئذ على بيزنطة التي تطل على البسفور في عام ٤٠٤ قاطعة بذلك شرياناً حيوياً بالنسبة للأثينيين . وما فعلته اسبرطة فعل مثله فيليب الثاني ملك مقدونيا : فقد بدأ نضاله ضد أثينا بمحاولة القضاء على نفوذها في سواحل بحر إيجة الشمالية التي درجت قوافل السفن التجارية على السير بمحاذاتها . ولهذا وضع يده على معظم مدن خالكيديكي الهامة مثل مثوني (Methône) وأولينثوس (Olynthus)[1] ، وكذلك على أمفيبوليس (Amphipolis ؛ [2] ، وهي مدينة هامة على ساحل طراقيا كانت أثينا قد استعمرتهـــا في القرن الخامس ؛ كما وضع يده على بعض الجزر التي تعترض مدخل الدردنيل ، مثـل ليمنوس (Lêmnos) وإمبروس (Imbros) . وقد ذكرنا كيف كان يهاجم هذه الأنحاء مستغلاً فترة هبوب الرياح التجارية التي كانت تحول دون وصول سفن أثينا إلى حلفائها في الوقت المناسب[3]. وقد جاهد ديموستنيس جهاداً لإقناع بني وطنه من الأثينيين بسياسة الحرب والاستعداد لها وإنفاق كل فائض المـــيزانية في دعم الجيش والأسطول

---

(١) دمر فيليب المقدوني هذه المدينة القوية التي كانت تتزعم الحلف أو الأتحاد الكونفدرالي الخالكيديكي في عام ٣٤٨ . راجع أيضاً ص ١٢٣ .

(٢) استولى فيليب على هذه المدينة عام ٣٥٧ فسيطر بذلـــك على مناجم الذهب في جبـــل بنجايوس على الحدود المقدونية الطراقية .

(٣) راجع ص ٢٧ .

لمواجهة خطر فيليب في هذه المنطقة بدلاً من إنفاقه في إعانة فقراء المواطنين لمشاهدة الروايات المسرحية . ويتبين الاهتمام بتوفير القمح اللازم من سياسة أثينا إزاء حكام منطقة القرم [1] الذين كانت تكرمهم كل التكريم أو تمنحهم أحياناً

---

(١) القرم (Crimea) هو الأسم الحديث . لكن المنطقة كانت تسمى قديماً (في العصر اليوناني - الروماني) تاوريس أوخرسونيسوس تاوريكا (Chersonesus Taurica) أي شبه جزيرة التاوريين (Tauri) وهم سكانها الأصليون ، تمييزاً لها عن شبه الجزيرة الطراقية (Chersonesus Thracica) الواقعة في الطرف الجنوبي الغربي من البحر الأسود حيث تقع بيزنطة .

وكانت الأولى (القرم الحديثة) تعرف أيضاً باسم « مملكة البوسفور »(Bosphorus) التي كانت مدينة بنتيكابايوم (Panticapaeum) ، الواقعة على طرفهـا الغربي ، هي مركزها الرئيسي المسيطر . وقد عرفت المملكة بهذا الإسم نسبة إلى البسفور الكيمري (Cimmerius Bosphorus)التي سمى كذلك نسبة إلى قبائل الكيمريين(Cimmerii) الرحل(ونسميه نحن الآن بمضايق قرطش) تمييزاً له عن البسفور الطراقي في الجنوب (Bosphorus Thracicus) الذي نسميه الآن مضيق غاليبول (Gallipoli) ويقع بين بحر مرمرة (بروبونطيس قديماً) ومدخل البحر الأسود(وعلى جانبه الغربي أو الأوروبي تقع بيزنطة وهي القسطنطينية واستامبول فيما بعد ، وعلى جانبه الشرقي أو الآسيوي تقع خلقدونية) .

وقد أسس الإغريق وعلى الأخص إغريق مدينة ميليتوس الأيونيـة عدداً من المستعمرات في تلك المنطقة من بجنوب روسيا ، وهي منطقة غنية بالقمح ، وكان من بينهـا مدينة بنتيكابايوم السالفة الذكر والتي أسست حوالى عام ٦٠٠ أثناء فترة النشاط الاستعماري الإغريقي (٧٥٠ — ٥٥٠) . ولم يكن هناك مناص من أن ينشأ في تلك المنطقة مجتمع خليط من السكان الأصليين والإغريق المستعمرين أو على الأقل متأثر باللغة والثقافة اليونانيـة . وقد أزدهرت بنتيكابايوم أو « مملكة البسفور » كما كانت تسمى ، وأثرت ثراء واسعاً منذ القرن الخامس (ق.م) ، وذلك بفضل صيد الأسماك في المضيق الكيمري (قرطش الحالي) ، والتجارة على نهر تنائيس Tanais (حالياً نهر الدون)،وتصدير القمح إلى العالم الإغريقي (كأثينا).وقد أجريت حفائر بالمنطقة ، وأثارت مقابر أمراء « مملكة البسفور » المحفورة في الصخر ،والحافلة بالحلي الفاخرة والأدوات —

حقوق المواطنة الأثينية اعترافاً بفضلهم في مساعدتها على التخلص من أزمة تموينية أو إعفاء سفنها من الرسوم الجمركية . ونلمس هذا الاهتمام بالمشكلة في

= الذهبية والأسلحة الخ ، دهشة الأثريين . وفي أواخر القرن الثاني ق.م اتخذ مثراداتيس الأكبر، ملك بنطوس الإيراني ، المثقف بالثقافة اليونانية ، أتخذ من بنتيكابايوم عاصمة لممتلكاته في شمال البحر الأسود .

ولم يبق الكيميريون على حالهم في جنوب روسيا، بل طردهم فيما بعد (منذ أواخر القرن السابع) الإسكيثيون (Scythi) ، وهم أيضاً في الأصل قبائل رحل اشتهرت بتربية أعداد غفيرة من الجياد ، وبالتنقل في عربات مغطاة ، والمهارة في ركوب الخيل ، وإجادة رمي السهام، والبراعة في « المراوغة » عند القتال بحيث يتعذر على العدو تصيدهم . وكانوا يقطنون في الأصل بين جبال الكربات ونهر تانائيس (الدون). ولكنهم بعد مجيئهم إلى المنطقة الجديدة استقروا واشتغلوا بالزراعة وعلى الأخص في القسم الغربي منها الذي اشتهر بتربته السوداء الخصبة وانتاج القمح ولو أنهم لم ينسوا تماماً عاداتهم البدائية البدوية حتى بعد أن توثقت صلاتهم التجارية والاجتماعية بالمستعمرات اليونانية الكائنة عند مصب نهر بوريستنيس (Borysthenes) (وهو نهر الدنيبر) وعلى امتداد الساحل الشمالي للبحر الأسود . وقد اكتشفت بعض آثار الإسكيثيين ، وأكثرها استلفاتاً للنظر تلك المقابر الضخمة التي في شكل الآكام (kurgan) وتضم رفات ملوكهم وزعمائهم ورفات أتباعهم وجيادهم (التي كانت تدفن معهم) . وهي أيضاً حافلة بالحلى الذهبية (المستورد ذهبها من جبال أورال) ، وحافلة أيضاً برسوم فنية رائعة تمثل حيوانات المنطقة ومناظر الصيد ، وهي متأثرة بالفن الإغريقي . وكان الإسكيثيون كأسلافهم يصدرون القمح للمستعمرات اليونانية، ويستوردون منها الأواني الفخارية ذات الزخارف البديعة ، والمصنوعات المعدنية .

لكن لم يلبث الإسكيثيون بدورهم أن تعرضوا لإغارات قبائل رحل أخرى تمت إليهم بصلة وتعرف باسم السرماتيين (Sarmatae) الذين أخذوا منذ منتصف القرن الثالث ق . م . يتسللون من شرق نهر الدون وعبر الكربات إلى هذه المنطقة ، وكان زحفهم نحو الغرب بطيئاً استغرق ثلاثة قرون انتهت بطرد الإسكيثيين واحتلال السرماتيين للمنطقة بين مصب إستر Ister (وهو نهر الدانوب) وسهله الأوسط . وكانوا يتكلمون كالإسكيثيين لغة هندية ـ أوربية. ولا تعنينا هنا قصة علاقتهم بالإمبراطورية الرومانية . لكن حسبنا أن نقول إن السرماتيين قد تعرضوا منذ القرن الرابع الميلادي لغزوات الجرمان والقوط ، وأن الإمبراطور قسطنطين أبقى كثيرين منهم في أراضيهم . لكن الآخرين امتزج فريق منهم بالجرمان ، ونزح فريق آخر أو أجلي عن مواقعه فرحل إلى القوقاز.

التشريعات الأثينية الخاصة بتنظيم تجارة القمح ، ومراقبة أسواقه ، وتحديد أسعاره ، وحظر تصديره ، والضرب على أيدي الانتهازيين الذين يبتغون احتكار تجارته ، وأخيراً في الحرص على عدم تسلل أسماء جديدة إلى قائمة المواطنين الخُلّص حتى لا يزيد عدد المنتفعين بهبات القمح .

ولم تقتصر ثروة أتيكا على المنتجات الزراعية كالزيتون والكروم والقمح والشعير . فقد كان لديها أيضاً ثروة معدنية وحجرية تتمثل في الفضة والحجر الجيري والرخام والصلصال ، . وأما الفضة فكانت تستخرج من مناجم لاوريوم (Laurium) في الطرف الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة . وقد استغل الطاغية بيسستراتوس هذه الثروة لتدعيم مركزه بين الجماهير ، كما استغل الزعيم ثمستوكليس (Themistocles) مناجم الفضة التي اكتشفت على أيامه في تقوية الأسطول الأثيني بمائتي سفينة جديدة ، كان لها الفضل الأول في التغلب على الفرس في معركة سلاميس عام ٤٨٠ [1] ، وإحراز أثينا مركز الزعامة في « حلف ديلوس » البحري (٤٧٨-٤٠٤) فضلاً عن الأثر البعيد المدى ، ألا وهو اشتداد ساعد الملاحين ، ومعظمهم من الفقراء المعدمين ، الأمر الذي ترتب عليه تطرف الديمقراطية الأثينية . وكانت جبال أتيكا غنية بالأحجار الجيرية المتنوعة الألوان . وقد استخدم المعماريون الأثينيون هذه الأحجار في تشييد تلك المعابد الفخمة

(١) سلاميس جزيرة في خليج اليوسيس قرب ساحل أتيكا . وإلى ثمستوكليس (٤٨٣ - ٤٧١) يرجع الفضل الأول في دعم الأسطول الأثيني وقيادته إلى النصر على الأسطول الفارسي في مياه سلاميس يوم ٢٩ سبتمبر عام ٤٨٠ ق.م. وهذه المعركة كانت بالغة الأهمية بعيدة الأثر بالنسبة لتاريخ الحضارة الغربية لأنه لولا انتصار الإغريق فيها لتغير مجرى التاريخ الأوربي .

كالبارثنون(Parthenon)[1] والإرخثيوم(Erechtheum) والبوابات البديعة (Propylaea) والنوادي الثقافيـــة الرياضية (gymnasium) او المعابد ومسرح ديونيسوس (theatron) والأروقة (stoa) وغيرهـــا من قاعات الموسيقى (odeium) أو المباني الرسمية في السوق العامة (agora) الـــتي ازدانت بها أثينا على أيام بريكليس (٤٦١ – ٤٢٩) وجعلتها تختال تيهاً على غيرها من المدن . وحبت الطبيعة أتيكا بأنواع بديعة من الرخام كان معظمها يستخرج من محاجر جبلي بنتليكوس وهيميتوس . ومن هذا الرخام نحتت عبقرية اليوناني تماثيل تفيض بالرقة وتكاد تنطق بالحياة . وحبتها الطبيعة أيضاً بتربة غنية بالصلصال ـ وبخاصة في سهل أثينا(كيفيسوس) ـ الذي استخدم في صناعة الأواني الخزفية ذات الزخارف البديعة والرسوم التي تمثـــل بعض الأساطير المشهورة . وقد أعانتنا بعض هذه الأواني الفخارية التي كانت تعبأ بالزيت وتصدر إلى مختلف أنحاء العالم الهلليني ، على تأريخ بعض الأحداث ، ومعرفة مدى العلاقات التجارية بين أثينا وتلك الأنحاء ، هذا فضلاً عن قيمتها الفنية التي لا تقدر بثمن .

على أن أهم ميزة تمتعت بها أتيكا كانت الموقع الجغرافي الذي حملها على الاتجاه إلى البحر ، أي إلى التجارة والاستعمار والسياسة . فأتيكا تكاد تكون معـــزولة بالحواجز الجبلية عن وسط بلاد اليونان والبلوبونيز . ولهذا لم تحاول أثينا جدياً أن تتوسع براً في أي من الاتجاهين . صحيح أن الاتصال بينها وبين بريوتيا لم

---

(١) على هضبة أثينا المسماة (بالأكروبوليس) وقد سمي بالبارثنون نسبة إلى بارثنوس (Parthenos) أي العذراء ، وهو لقب أثينة (Athenê) ، ربة مدينة أثينا، وراعيتها، والزائدة عن حياضها. وضع تصميمه المهندسان إكتينوس وكاليكراتيس تحت إشراف المثال الشهير فيدياس واستغرق بناؤه عدة سنوات (٤٤٧ – ٤٣٨) . ولم يتم نحت الصور إلا في عام ٤٣٢ .

يكن متعذراً بفضل الممرات التي سبقت الإشارة إليها . غير أن أثينا لم تحرص إلا على تأمين أروبوس التي كانت – كما قدمنا – تتبع إقليم بويوتيا . ولكنها كانت نقطة حيوية لوقوعها عند نهاية الطريق الذي يصل بين أثيناويوبويا وتنتقل عبره المنتجات الزراعية الضرورية من تلك الجزيرة إلى أتيكا . وأما في الغرب فإن سلسلة كيراتا (Cerata) التي تمتد بين الخليج الكورنثي والخليج الساروني كانت تفصل سهل إليوسيس عن سهل مجاريس حيث تقع مدينة مجارا (Megara) التي كانت في الأصل أيونية ، ولكنها وقعت منذ وقت مبكر في يد الدوريين . ولم يكن هناك مبرر كاف للإحتكاك بينها وبين أثينا في هذه المنطقة ، وإنما نشأ النزاع بينهما حول جزيرة سلاميس (Salamis) التي تقع على مقربة من سواحلها. ولعل ما زاد من حدة هذا النزاع فيما بعد هو انضمامها إلى حلف البلوبونيز وطمع جارتها القوية كورنثة في الاستيلاء عليها في آخر الأمر . وكان يفصل بين سهل مجاريس والبرزخ الكورنثي سلسلة جبال جيرانيا (Geranea) ، التي كانت مجـارا تتحكم في ممراتها ويلي ذلك مباشرة البرزخ الكورنثي نفسه أو عنق الزجاجة الذي كانت مدينة كورنثة القوية تسيطر عليه سيطرة تامة . لهذا كله انفصلت أتيكا عن البلوبونيز انفصالاً شبه تام ، وانقسم التاريخ اليوناني بالتالي بين قوتين أثينا في الشمال ، واسبرطة في الجنوب . وإذا كانت أثينا قد أثرت تأثيراً قوياً في بلاد اليونان ، فإن هذا التأثير كان ثقافياً في جوهره ، وأما خطوط توسعها الأقتصادي والسياسي فقد اتجهت ألى البحر وعبر البحر .

وقد حبت الطبيعة أتيكا بسواحل متعرجة كثيرة الخلجان تصلح لقيام المرافىء. وفضلاً عن ذلك فإن جبال أتيكا لا تقيم حول سواحله سداً منيعاً ، بل هي متفرقة بحيث تترك ثغرات تكفي لتسهيل اتصال المرافىء بالظهير . فعلى الساحل الشرقي يقع خليج مراثون الذي تحميه من الرياح الشمالية الشرقية في الصيف بعض الحواجز الصخرية الناتئة من طرفه الشمالي . وعلى الساحل المقابل يقع

خليج فاليرون (Phaleron) الذي يحميه عند طرفيه لسانان هما مونيخيا (Munichia – Munychia) وكولياس (Colias) . وقد ظل هذا الخليج يكفي حاجة أثينا حتى اتضحت لها المزايا الفريدة التي تتوافر في الأحواض العميقة عند لسان مونيخيا. ولهذا اتخذت منذ القرن الخامس من هذه الأحواض الدائرية ترسانة لترابط فيها وحدات أسطولها . وكان ميناء بيرايوس Piraeus (بيريه) الذي يتاخم لسان مونيخيا ، يتميز بانحصاره بين هذا اللسان وثنية من الساحل الأتيكي تمتد بلسان آخر في البحر كأنه جسر طبيعي ، مما يجعل منه حوضاً مغلقاً تقريباً . وقد عمل ثيمستوكليس على تحصين منطقة الموانى وتأمين الاتصال بينها وبين أثينا ، فبنى « الأسوار الطويلة » المشهورة التي تمتد من بيريه إلى أثينا ومن أثينا إلى فاليرون . ومنذ ذلك الحين أصبحت مونيخيا قاعدة الأسطول الذي أحرزت به أثينا السيادة على البحر الإيجي ، كما أصبح ميناء بيريه أهم مركز تجاري في الجانب الشرقي من البحر المتوسط .

ومع أن أتيكا لم تتمتع كما تمتعت كورنثة ، بميزة الإشراف على بحرين أحدهما في الغرب والآخر في الشرق ، إلا أنها تميزت بموقع جغرافي وظروف طبيعية أهلتها لإحراز السيادة أو الزعامة في البحر . ولم يكن في وسع جزر بحر إيجه أن تنافسها في هذا المركز نظراً لضيق أراضيها وقلة مواردها وانقسامها على نفسها وتفشي القرصنة بينها ووقوعها في طريق الغزاة ، وهي عوامل لا تساعد على إحراز الزعامة . ولا كان في وسع أيونيا ، التي تلقت أولى مؤثرات حضارة الشرق القديم ثم حملت العَلَم - على ما يبدو - في موكب الحضارة اليونانية ، وانبثق فيها فجر الأدب اليوناني والفلسفة اليونانية ، وبزّت سواها في تأسيس المستعمرات ، لم يكن في وسعها أن ترقى إلى مرتبة الزعامة في العالم الهليني . ولا جدال في أن مدن الساحل الأيوني تمتعت بميزات إقتصادية كبيرة ، لأنها - كما قدمنا - تقع عند مصبات الأنهار الآتية من هضبة آسيا الصغرى ،

أي بالقرب من أراض خصبة التربة ، وتقع كذلك عند نهاية طريق القوافل الذي كان يجري مع وديان هذه الأنهار ، مما جعلها تتحكم في تجارة الشرق . غير أن هذه الميزة الأخيرة كانت عيباً في الوقت عينه . ذلك أن وديان هذه الأنهار كانت بمثابة المسالك التي اعتادت أن تسلكها الجيوش الزاحفة من آسيا . وهكذا تعرضت هذه المدن دائماً لخطر الغزو من الشرق ، وقد وقعت فعلاً تحت سيطرة ليديا (Lydia) . فإذا أضفنا إلى ذلك صعوبة الاتصال البري بين هذه المدن ، وانقسامها إلى أيولية وأيونية ودورية ، وعجزها عن القيام بعمل مشترك في وجه الخطر الأجنبي ، أدركنا لماذا سقطت في آخر القرن السادس فريسة في يد الفرس ، الذين قضوا على كل أمل لها في زعامة العالم الهلليني . ولم يبق إذاً إلا أن تنبع الزعامة من بلاد اليونان الأصلية . وقد كان من الجائز أن تؤول هذه الزعامة إلى دول قوية مثل اسبرطة أو كورنثة أو آيجينا ، غير أن مقومات الزعامة الحقيقية لم تتوافر في أي منها مثلما توافرت في أتيكا .

وميزة أخرى تمتعت بها أتيكا وهي أن عاصمتها أثينا (Athênae) نشأت في مكان لا يفوقه مكان آخر في ميزاته [1] ، فهذه المدينة تقع داخل أوسع منطقة صالحة للزراعة وتلتقي عندها عدة طرق للمواصلات . صحيح أن جبل أيجاليوس ، وهو شعبة ناتئة من جبل كيثايرون ، يعزلها عن سهل إليوسيس (ثريا) . لكن فيما عدا ذلك توجد ثغرة بين هيمتّيوس وبنتليكوس تيسر لها الاتصال بسهول ميسوجيا (الأراضي الوسطى) ومَرَاثون ولاوريوم

---

(١) اسم أثينا هو في اليونانية أثيناي (Athênai) . وأثيناي هو اسم الربة أثينة (Athênê) في حالة الجمع أو حالة ظرف المكان إذ يقال إن صخرة الأكروبول نفسها كانت أصلاً تسمى أثينة (Athênê) . ومن الواضح أنه اسم قديم سابق على مجيء الإغريق إلى البلقان لأن نهايته تشير إلى أنه اسم غير هندي ـ أوربي (راجع ما تقدم في ص ٨٦) .

حيث توجد مناجم الفضة . كما أن قرب أثينا من مينائي فاليرون وبيريه كان كفيلاً بترجيح كفتها على أي بلدة أخرى في أتيكا بمجرد أن يتجه سكانها إلى البحر والتجارة . ولذلك استطاعت أثينا في مرحلة مبكرة من تاريخها أن تفرض نفسها كمقر لحكومة مركزية تهيمن على كل الإقليم . وقد أعانها على ذلك أن موارد أتيكا لم تبددها الخصومات بين عدة مراكز قوية مثلما حدث في بيوتيا بين طيبة وأورخومينوس . وهكذا توافرت لأثينا كعاصمة لإقليم متحد ، من القوى البشرية والثروة الاقتصادية ما لم يتوافر لأي مدينة أخرى في بلاد اليونان .

وينبغي قبل أن نختم الكلام عن أقاليم بلاد اليونان الوسطى أن نقول كلمة عن آيجينا (Aegina) ، وهي جزيرة دورية تقع في الخليج الساروني على بعد حوالي ١٣ ميلاً من ساحل أتيكا الجنوبي ، ولكنها كانت بالنسبة لميناء بيريه « كالقذى في العين » . لقد كانت آيجينا هي أقوى منافس لأثينا في الفترة الأولى من توسعها عبر البحر . ففي هذه الجزيرة الصخرية نشأت مدينة ـ دولة سكت أول عملة يونانية في القرن السابع ، ونافست ساموس وميليتوس ، وكان لها دون سائر مدن شبه الجزيرة اليونانية جالية في نقراطيس التي أسسها في مصر إغريق من آسيا الصغرى في أواخر القرن السابع . واستطاع أسطولها أن يوقف أثينا عند حدها ، حتى اكتشفت الأخيرة مناجم جديدة للفضة في لاوريوم أمدتها بالثروة التي دعمت بها أسطولها ورجحت كفتها . وقد وقفت آيجينا إلى جانب بني جلدتها في الحروب الفارسية وقاسمت أثينا شرف الانتصار في معارك أرتميسيوم وسلاميس وبلاتيا . واستغلت ميزة موقعها الجغرافي في وسط الخليج الساروني حتى جاء وقت لم تفقها فيه أي دويلة أخرى في حمولة سفنها التجارية . غير أن التفوق التجاري عبر البحر لم يكن ليعوض على مر الزمن النقص الشديد في الموارد الطبيعية للجزيرة أو ليصمد أمام ثروة

أتيكا المادية وكثرة سكانها العددية . ولم تلبث آثينا أن هزمتها في موقعة بحرية فاصلة في عام ٤٥٩ ، ودمجتها في « حلف ديلوس » في العام التالي . وعندما نشبت « الحرب البلوبونيزية » عام ٤٣١ ، انحازت أيجينا إلى جانب اسبرطة ، مما حمل أثينا على طرد السكان من جزيرتهم وإحلال مستعمرين من الأثينيين مكانهم .

الجنوب :

وكان الجنوب يعرف قديماً باسم البلوبونيسوس (Peloponnesus) ـ ومعناها جزيرة بيلوبس – ويعرف الآن باسم شبه جزيرة المورة [١] . وهذا القسم منعزل عن بلاد اليونان الوسطى والشمالية ولا يزيد عرض البرزخ الذي يفصل بينهما ، وهو برزخ كورنثة ، في أضيق نقطة على أربعة أميال . وفضلاً عن ذلك فإن هذا البرزخ تقطعــه سلاسل جبال كيراتا وجيرانيا التي لا تترك متسعاً لإنشاء أي طريق ملائم للمواصلات على الساحلين . ومع أن البلوبونيز تقع على مقربة من طريق التجارة الرئيسي بين الشرق والغرب في البحر المتوسط ، إلا أنها لم تكن في العصور القديمة محطة هامة للسفن التجارية . فالساحل البلوبونيزي فقير في الموانى سواء في شرقه أو في غربه ، وأمــا الجنوبي الذي ينتهي برأسيْ ماليا (Malea) وتَيْنارون (Taenarum) فهو جبلي وعر . وتفصل أقاليمها الواحد عن الآخر سلاسل جبلية شاهقة ، فضلاً عن مرتفعات أركاديا غير المنتظمة . فإذا كانت البلوبونيز على الرغم من الحواجز الجبلية قد اندمجت أحياناً فيما يشبه الحلف أو الاتحــاد السياسي فإن ذلك قد يعزى إلى انعزالها

---

(١) بيلوبس (Pelops) هو أسم شخصية شبه أسطورية عند الإغريق . وهو أبو «أتريوس» وجد «أجممنون» ، القائد العام في الحملة الطروادية .

وصغر مساحتها ، فضلاً عن أن العوامل الجغرافية قد تتلاشى أحياناً أمـــام العوامل السياسية والعسكرية .

وقد يبدو لأول وهلة أن كورنثة (Corinthus) لا بد من أن تكون هي القوة الرئيسية المنظمة لمثل هذا الاتحاد نظراً لما تتمتع به من ميزات جغرافية تؤهلها لمركز الزعامة . ولم يكن أبرز هذه الميزات ذلك الشريط من الأراضي الخصبة الذي يمتد على ساحل الخليج الكورنثي ، لأن ظهير كورنثة بوجه عام كان أضيق من أن يكفي لسد حاجة العاصمة ، ولا كانت تربته الغنية بالصلصال ميزة كبيرة لأن أثينا سرعان ما انتزعت منها معظم أسواق الأواني الخزفية . وإنما كانت ميزتها الرئيسية هي موقعها عند البرزخ (Isthmus) الذي أتاح لها أن تتحكم في مدخل البلوبونيز وأن تربط ، مثلما تربط السويس أو بناما ، بين بحرين . وقد حصن الكورنثيون هذا الموقع المنيع بطبيعته ببناء « سور طويل » متصل يمتد غرباً من مدينتهم إلى الخليج الكورنثي ، وسلسلة من القلاع تمتد شرقاً حتى الخليج الساروني . وقد تبينت قيمة البرزخ الاستراتيجية أكثر من مرة في الحروب التي دارت رحاها في بلاد اليونان ، إذ كان لسكان البلوبونيز بمثابة خط الدفاع الطبيعي حتى أنهم تمسكوا بالوقوف عنده ضد الفرس لولا إصرار أثينا على ملاقاة الغزاة في الشمال عند ثرموبيلاي حماية لوسط بلاد اليونان . وقد أبلت كورنثة بلاءً حسناً ضد الفرس في معارك سلاميس وبلاتيا وميكالي (٤٨٠ – ٤٧٩) ، وكان البرزخ الكورنثي هو الذي سهل عبور جيش اسبرطة وحلفائها وغزوهم لأتيكا في الحرب البلوبونيزية (٤٣١ – ٤٠٤) ، وهي حرب نشبت بسبب التنافس التجاري الشديد بين كورنثة وأثينا ، ونزاعها المستمر حول كُركيرا وبوتيديّا المستعمرتين الكورنثيتين والذي انقلب إلى كراهية بسبب « الحملة الأثينية على صقلية » (٤١٥ – ٤١٣) لضرب سيراكيوز (سراقوصة) وهي أهم مستعمرات كورنثة في تلك الجزيرة . وكان البرزخ نفسه هو ما عاق الإسبرطيين ، فيما يعرف

« بالحرب الكورنثية » [١] ، عن التدفق من البلوبونيز شمالاً لإعادة سيطوتهم على بقية بلاد اليونان في أوائل القرن الرابع . وقد ظلت كورنثة منذ وقوعها في يد فيليب الثاني عام ٣٣٦ حتى تحريرها على يد الرومان في عام ١٩٦ في قبضة ملوك مقدونيا الذين استخدموها هي وديمتريا س وخالكيس « كأغلال » للتحكم في بلاد اليونان ، وكقاعدة عسكرية حالت دون تعاون أعدائهم في البلوبونيز مع أعدائهم في خارجها . وكانت كورنثة هي آخر معقل حاول أن يذود عن حياض بلاد اليونان ضد عدوان الرومان في عام ١٤٦ ، ولكن الرومان دمروها تدميرا .

وكان طغاة كورنثة في منتصف القرن السابع هم أول من فطنوا إلى المزايا التجارية لموقع البرزخ الكورنثي [٢] . فمنذ ذلك الحين أصبحت كورنثة ، بقلعتها المتاخمة لها (Acrocorinthus) مدينة فريدة ذات مينائين أحدهما عند ليخايوم (Lechaeum) على الخليج الكورنثي والآخر عند كنخرياي (Cenchreae) على الخليج الساروني ، وعندهما كانت تتجمع التجارة المتجهة غرباً أو شرقاً في البحار اليونانية . وكانت المدينة بالإضافة إلى ذلك تسيطر على ممر البرزخ الضيق الذي يقع بين الخليجين ويوفر الآن على السفن بعد حفره مشقة السفر مسافة لا تقل عن ١٥٠ ميلا بين بيريه (بيرايوس) في الشرق وكورفو (كركيرا) في الغرب . صحيح أن جميع المشروعات المتكررة لشق قناة عبر البرزخ لم تخرج أبداً إلى حيز التنفيذ في العصر القديم ، غير أن كورنثة ابتكرت طريقة لسحب المراكب الصغيرة عبر البرزخ وإنزالها ثانية

---

(١) ٣٩٥ - ٣٨٦ : وفيها تحالفت كورنثة مع أثينا وأرجوس وبويوتيا ضد إسبرطة للقضاء على سيطرتها واستبدادها .

(٢) كان أشهر طغاة (tyranni) كورنثة هما كيبسلوس Cypselus (٦٥٥ - ٦٢٥) ، وابنه برياندروس أو برياندر Periander (٦٢٥ - ٥٨٥) .

إلى البحر حتى تغني هذه المراكب عن الملاحـــة الطويلة الخطرة حول رأس ماليا في الجنوب .

لقد كانت كورنثة ـ وهي مدينة دُورية ـ بفضل وقوعها عند مفترق الطرق الرئيسية جديرة بأن تصبح عاصمة لبـــلاد اليونان . ولعل وقوعها في مكان مركز متوسط بين أقاليم هذه البلاد كان يساعد على اضطلاعها بهذا الدور . لقد كانت دائماً إلى جانب قيامها بدور الوسيط لتسوية المنازعات بين الدويلات الإغريقية هي المكان المختار لعقد المؤتمرات اليونانية الكبرى . ففيها التقى مندوبو دول المدن اليونانية في شبه مؤتمر عسكري للتداول في أمر مواجهة الغزو الفارسي . وكانت هي المقر الدائم للحلف الهلليني (الكورنثي) الذي أنشأه فيليب والإسكندر الأكبر(٣٣٨ - ٣٣٦) .ومنها أيضاً أعلن فلامينينوس القائد الروماني تحرير بلاد اليونان من ربقة الحكم المقدوني في عام ١٩٦ . غير أن المرة الوحيدة التي سنحت فيها لكورنثة فرصة الزعامة السياسية كانت على أيام طغاتها الأوائل ، وبخاصة على أيام الطاغية برياندر Periander (٦٢٥-٥٨٥) الذي وصف بأنه كان أقوى رجل في أوروبا . غير أن سطوة هذا الطاغية زالت بزوال حكمه . ولم تقم كورنثة من بعده بدور الزعامة ، بل انكمش دورها إلى دور الدولة التابعة التي تدور في فلك اسبرطة أو مقدونيا.

ولقد تأثرت سياستها بالحرص الشديد على مصالحها التجارية التي دفعتها إلى إيثار المحافظة على السلام بوجه عام ، وحفظ التوازن بين القوى اليونانيـــة الأخرى . وقد يكون من بين العوامل التي أدت إلى تخـــاذلها السياسي تعرض تجارتها مع الغرب والشرق لمنافسة مستعمرتها القوية كُركيرا الواقعة في البحر الأيوني من ناحية . ومنافسة آيجينا وأثينا الواقعتين عند مدخل البحر الإيجي من ناحية أخرى. غير أن هذه العقبة لم تكن كافية لمحو جميع ميزات موقعها المركزي. ولعل صغر مساحة كورنثة بوجه عام،وافتقارها إلى «ظهير» كاف لمدها بالقوى

البشرية ، كان عاملاً آخر . وفي رأي البعض أن السبب الرئيسي في هذا الدور المتواضع الذي قامت به كورنثة في التاريخ اليوناني هو افتقارها الشديد إلى الشخصيات البارزة بعد اندثار أسرة الطغاة فهي لم تنجب من بعد برياندر أي زعيم سياسي من طراز هلليني دولي . وإذا كان للعوامل الجغرافية أثر قوي في مجرى التاريخ ، فإن للشخصيات أحياناً أثراً أقوى .

وإلى الغرب من كورنثة وعلى بعد تسعة أميال منها تقع مدينة سيكيون (Sicyon) ، التي أسسها في الأصل جماعة من أرجوس وكانت دويلة مستقلة عن كورنثة . وليس من المستبعد أن رخاءها وقوتها ورقيها الفني تحت حكم طغاتها القدامى كان مستمداً من تجارتها التي راجت لفترة معينة مع غرب بلاد اليونان وجنوب إيطاليا [١] . وقد احتلت سيكيون في العصور التالية مركزاً على جانب من الأهمية داخل « الحلف البلوبونيزي » ، لأنها كانت تقوم عند رأس طريقين عبر أركاديا يتيحان للإسبرطيين (حتى بدون رضاء كورنثة) الاتصال بالبرزخ الكورنثي ، وأحدهما يمر ببلدتي أورخومينوس [٢] واستيمفالوس ، والآخر يمر بمدينتي مانتينيا وفليوس (Phlius) . وقد وقفت سيكيون بمعزل عن أخيًا التي يفصلها عنها جبل كيلليني حتى ربطها زعيمها الكبير أراتوس

---

(١) كان أشهر طغاتها هم أفراد أسرة أورثاجوراس التي حكمت المدينة حوالى قرن من الزمان (٦٦٥ - ٥٦٥) وأعظمهم جميعاً هو كليستنيس Cleisthenes (٦٠٠ - ٥٧٠) الذي حرر بلده من سيطرة أرجوس . وقام بدور رئيسي في الحرب المقدسة الأولى (راجع ص ١٣٢ ، هامش ١) حيث دمر « كريسا » وسيطر لفترة على الطريق المؤدية إلى دلفي . وذاع صيته في كل بلاد الإغريق . وتزوجت ابنته أجاريستي (Agaristê) من ميجاكليس (Megacles) الأثيني ، سليل أسرة الكمايون (Alcmaeon) الشهيرة ، التي ينتسب إليها « بريكليس » من ناحية الأم .

(٢) أورخومينوس بلدة في أركاديا شمال مانتينيا وهي غير المدينة التي تحمل نفس الاسم في إقليم بويوتيا (راجع ما تقدم في ص ١٤٦)

(Aratus) بعجلة العصبة أو «الحلف الآخي» في منتصف القرن الثالث (٢٥١ ـ ٢١٣) .

وأما إقليم آخيـا (Achaea) فهو يشغل قطاعاً محصوراً بين البحر وجبال شمال أركاديا. ولهذا يسميه هوميروس « بالأرض الساحلية »[١]. وساحل أخيـا منتظم وخلو من الموانى على نقيض الساحل الشمالي للخليج الكورنثي الذي تكثر فيه الخلجان . ولعل ذلك يفسر لماذا لم يكن لأخيـا نصيب كبير في تجارة بلاد اليونان مع الغرب . وتقسم الخوانق التي تنحدر فيهـا السيول من المرتفعات كل الإقليم إلى عدة وديان وسهول صغيرة . ولذلك كان الأتحاد الفيدرالي هو النظام السياسي الطبيعي الذي يمكن أن يقوم وسط هذه التضاريس . ولما كانت أخيـا معزولة تقريباً عن الجنوب بسلسلة متصلة من الجبال ، فإن سكانهـا لم يقتحموا معترك السياسة البلوبونيزية حتى جاء أراتوس وزج بهم فيه . وقد اتسعت دائرة الإتحـاد الفيدرالي الأخي في العصر الهلينستي حتى شملت أركاديا وأرجوليس، وبعدئذ شملت كل البلوبونيز تحت حماية الرومان ، ولم يكن ذلك ليتحقق لولا إدمـاج سيكيون التي فتحت الطريق إلى كورنثة وأرجوس وميجالوبوليس وهي المدن الرئيسية في ذلك الإتحاد الذي عرف بعد توسعه باسم «عصبة أخيـا» أو « الحلف الآخي » .

ويقع إقليم إيليس (Elis) في الركن الشمالي الغربي من البلوبونيز ويتألف من أراض مستوية تطل على البحر ويتعذر الدفاع عنهـا . وقد أشتهرت إيليس التي يجري فيها نهران هما ألفيوس (Alpheus) وبنيوس (Peneus) (وهو غير النهر الكبير الذي يجري في الشمال) ، بجودة مراعيها . وقد عزف سكانها عن البحر والتجارة لأن الجانب الأكبر من ساحلها يتعرض دائماً للرياح الشديدة والعواصف . وكانت إيليس على عكس أخيـا التي لا تلائم أراضيها قيام اتحـاد سياسي إلا على أساس فيدرالي ، منطقة غير مترابطة الأجزاء يتوسطها مركز

(١) ليس لهذا الإقليم « أخيا » علاقة « بأخيا افثيوتيس » في تساليا (راجع ص٧ «هامش» ص ١٢٥)

طبيعي للمواصلات، وهي مدينة إيليس التي تقع على نهر بينيوس . ولهذا اندمجت كل المنطقة ، مثلما اندمجت أتيكا ، في وحدة سياسية وهي دولة مدينة إيليس . ولكن إيليس انفردت بظاهرة مناقضة لما هو مألوف بين اليونان ، وهي أن سكان الريف فيها لم يقبلوا على الحياة المدنية . ولهذا لم تنشط الحياة السياسية فيها نشاطها في غيرها من دول المدن . وثمة سبب آخر يعلل هذا الركود السياسي الذي ساد إيليس ؛ ففي وسطها كانت تقع بلدة أوليمبيا (Olympia) بالوادي الأدنى لنهر ألفيوس . وفي هذه البلدة كان يقوم المعبد الرئيسي للإله زيوس وتمثال هذا الإله الرائع الذي صنعه المثال الأثيني الأشهر فيدياس (Pheidias) وطعّمه بالذهب والعاج . ولما كانت إيليس قد أسندت إليها مهمة الإشراف على دورات المباريات التي كانت تقام في أوليمبيا مرة كل أربع سنوات، فقد انشغلت بتنظيمها عن معترك السياسة اليونانية [1] . وجدير بالذكر أن هذه الدورة الأوليمبية التي بدأت في عام ٧٧٦ وكانت تشترك فيها جميع دول المدن اليونانية كانت وغيرها من الدورات الهللينية « الدولية » ، وآلهة أوليمبوس ، ونبوءة دلفي ، وإلياذة هوميروس، واللغة اليونانية، من العوامل التي ألفت بين الإغريق على الرغم من انقساماتهم السياسية .

وفي وسط البلوبونيز تقع أركاديا (Arcadia)، وهي الإقليم الوحيد في بلاد اليونان الذي لا يطل أي جزء منه على البحر . ولذلك كان إقليماً منعزلاً بكل معاني الكلمة ، تحيط به الجبال من جميع جهاته . ويرتفع سطح أركاديا عن سطح الأقاليم المجاورة لها حتى أن سهل مانتينيا يعلو عن مستوى سطح البحر بحوالي ٢٠٠٠ قدم . ويختلف غربها عن شرقها في الخواص الجغرافية . فالجزء الغربي الذي تنصرف مياهه إلى نهر ألفيوس وفروعه ، وتقع فيه مجالوبوليس

---

(١) راجع ما تقدم في ص ١١٢ وما بعدها.

(Megalopolis) ، مدينته الرئيسية ، تشغله هضبة مرتفعة غير منتظمة . وأما الجزء الشرقي ، حيث تقع مدينتا مانتينيا (Mantinea) وتجيـــا (Tegea) القويتان ، فتشغله عدة وديان مغلقة غائرة وسط الجبال ولا يتسنى صرف مياهه إلا عن طريق القنوات الجـــوفية . فإذا حدث أن انسدت هذه القنوات تحولت الوديان المغلقة إلى بحيرات ، أو تعرضت مدينة مثل مانتينيا لخطر الفيضان . وقد أثارت خيال القدماء تلك المنحدرات الشديدة التي تطوق تقريباً بحيرة استيمفالوس (Stymphalus) وبخاصة الانحدار الشديد لمجرى نهر استيكس (Styx) الذي يهبط إلى مسافة ٦٠٠ قدم في واد مظلم مقبض حتى شبه لهم أنه أحد الأنهار التسعة البغيضة التي تجرى في « هاديس » وهو العالم السفلي (عالم الموتى) . وكانت سفوح جبال أركاديا غنية بالغابات والمراعي الملائمة لتربية الخيول والبغال التي كانت ولا تزال أحسن وسائل النقل في الأجزاء النائية من بلاد اليونان . وقد اصطبغت حياة الأركاديين بصبغة رعوية واضحة كما يتبين من أساطيرهم وعباداتهم البدائية . وأما أخصب أراضيها فتقع في سهول تجيا ومانتينيا وأعالي نهر ألفيوس بالجزء الشرقي . غير أن حاصلاتها الزراعية لم تكف حاجة سكانها المتزايدين ، ممـــا حملهم على البحث عن موارد أخرى للرزق خارج إقليمهم . ولقد احترف كثير منهم الاشتغال كجنود مرتزقة في الجيوش الأجنبية .

ومع أن الأركاديين « الذين كانوا يتكلمون لهجة خاصة سابقة على قدوم الغزاة الدوريين ووثيقة الصلة بلهجة قبرص وهي « الأركادية » ، حققوا الاتحاد السياسي بينهم لفترة قصيرة في القرن الرابع تحت تأثير إبامينونداس ، زعيم طيبة ، إلا أن محاولاتهم لتكوين اتحاد فيدرالي دائم تعثرت أمام طبيعة جبالهم الالتوائية المعقدة التركيب ، وافتقارهم إلى مكان ملائم لقيام عاصمة اتحادية . وقد كان لديهم مدينتان كبيرتان ، هما مانتينيا وتجيا اللتان زاد من أهميتها وقوعهما عبر طريق

المواصلات الرئيسي بين اسبرطة وكورنثة . غير أن هذا الموقع ، الذي كان نظراً لاستواء سطحه وتوسطه مسرحاً لأشهر معارك البلوبونيز ، يعتبر نائياً بالنسبة لبقية أركاديا ، وبالتالي غير ملائم ليكون عاصمة . وفضلاً عن ذلك فإن هاتين المدينتين اشتبكتا في نزاع مستمر مرير أنهك قواهما . أما مجالوبوليس فتقع هي الأخرى في مكان بعيد عن وسط أركاديا . غير أن هذه المدينة كانت تسيطر على المنطقة الفاصلة بين نهري ألفيوس ويوروتاس ، وهي أسهل طريق للمواصلات بين اسبرطه وسائر البلوبونيز وقد أصبحت مجالوبوليس عاصمة للاتحاد الأركادي بعد تأسيسها مباشرة في عام ٣٦٩ . وتحولت إلى قلعة تذود عن الحرية ضد العدوان الإسبراطي . وفي القرن الثالث عندما اندمجت كل أركاديا في عصبة أخيا ، قامت مجالوبوليس ، وهي موطن المؤرخ الشهير بوليبيوس (Polybius)[1] ، بدور الرقيب على تحركات الإسبرطيين .

وأرجوليس (Argolis) شبه جزيرة قاعدتها في الداخل ورأسها يمتد نحو الجنوب الشرقي في اتجاه البحر الإيجي ، ولذلك فهي أشبه الأقاليم بأتيكا من حيث الشكل والموقع . غير أن الطبيعة لم تخصها إلا بأقل الميزات ، فسلاسل الجبال تعزل سواحلها عن البحر وتحرمها من الانتفاع بطريق تجاري حيوي كالخليج الساروني . ولأرجوليس على هذا الخليج مدينتان هامتان إحداهما إبيداوروس (Epidaurus) وهي الدولة المستقلة التي سيطرت مرة على آيجينا

---

(١) عاش (٢٠٣ – ١٢٠) . ساهم بنشاط في « عصبة أخيا » . سافر مع وفد إلى مصر عام (١٨١ – ١٨٠) . عاد إلى بلاده وتابع نشاطه السياسي ضد روما في الحرب المقدونية الثالثة ، ثم أخذ رهينة إلى روما بعد هزيمة مقدونيا في معركة بودنا (١٦٨) . تعرف في روما على بعض أقطابها وعلى الأخص اسكيبيو أميليانوس. ورافقه في بعض حملاته. أرخ أحداث التاريخ الروماني في فترة التوسع (٢٢٠ - ١٤٥) في أربعين كتاباً . ولعله يأتي في المرتبة الثانية بعد توكيديديس ، المؤرخ الأثيني . راجع كتابنا « مصادر التاريخ الروماني » (بيروت ١٩٧٠) ص ٥٥ – ٥٩ .

وكان بها معبد شهير ، وهو معبد أسكليبيوس (Asclepius) إله الطب[1] والأخرى هي تروزين (Troezên) التي تقع في الجنوب بعيداً عن الساحل . وأراضيها الداخلية عبارة عن مرتفعات متشابكة تكسوها الشجيرات القصيرة الجافة . وعند رأس خليج أرجوليس (أو خليج ناوبليا Nauplia) يوجد سهل غريني فسيح يزيد من أهميته أنه مركز للمواصلات في البلوبونيز . وهذا السهل كأرجوليس كلها قليل المطر حتى أن هوميروس يصفه « بالعطش » . غير أن حافته الغربية ترويها عيون كثيرة تستمد ماءها من قنوات أركاديا الجوفية (katabothrai) . والواقع أن جزءاً من هذا السهل قد يتحول في حالة إهماله إلى مستنقعات ، ولكنه قد يصبح من أخصب مناطق بلاد اليونان إذا لقي العناية اللازمة . ولذلك كان هذا الجزء من أرجوليس في وسعه أن يقيم أود عدد كبير من السكان ، ولم تكن هناك بين مدن البلوبونيز ما تفوق مدينة أرجوس (Argos) ، التي تقع في وسطه ، كثافة في السكان سوى كورنثه .

وسهل أرجوس هو أول مكان صالح لرسو السفن الآتية من رأس ماليا في الجنوب بمحاذاة الساحل الشرقي لشبه جزيرة البلوبونيز . ففي الركن الجنوبي الشرقي منه يقع ميناء ناوبليا الذي تحميه قمة الجبل المتاخم له ، وتحتمي فيه السفن من رياح الخليج الشديدة . وقد أدرك الأخيون قيمة هذا الموقع المطل على البحر في العصور الأولى ، كما تشهد بذلك الآثار التي عثرنا عليها في ميكيني وتيرينس وميديا (Mideia)[2] وبروسيمنا (Prosymna) وأسيني (Asiné) . وقد كانت هي المنفذ الرئيسي الذي دخلت منه الحضارة المينوية إلى بلاد اليونان .

---

(١) راجع ص ١٣٤ ، هامش ٢ .

(٢) وهي دندرا Dendra الحالية في البلوبونيز .

ولا يستبعد أيضاً أنهـــا كانت قاعدة لأسطول أحرز سيادة بحرية في العصور الأولى كما توحي بذلك الأسطورة الـتي تربط بين دناؤس (Danaüs) ، ملك أرجوس ، وبين مصر ، والوثائق المصرية التي تتحدث عن الدَنَاويين Danaoi ـ وهو اسم يرادف الأخيين عند هوميروس [1] ـ كشعب من « شعوب البحر » وكذلك الأسطول الذي حشده أجاممنون ملك ميكيناي ، ضد طروادة . وفي العصور التالية عندما هاجر كثير من الإغريق ـ على نحو مـــا ذكرنا ـ إلى جزر البحر الإيجي وساحـــل آسيا الصغرى ، كانت أرجوس لا تزال هي نقطة البدايـة للهجرات الدُورية ، فقـد اشتهرت بأنهـــا المدينة الأم لكثير من المستعمرات الدورية في كريت وروودس وجنوب ساحل آسيا الصغرى الغربي .

غير أن سكان أرجوس التي لا تبعد عن البحر بأكثر من ثلاثـــة أميال أولوا ظهرهم للبحر في العصور التاريخية وتركوا التجارة البحرية تتحول إلى خليج الساروني . ولعل عزوفهم عن النشاط البحري يرجع إلى انشغالهم بمعترك السياسة في البلوبونيز ، حيث كانوا يأملون دون جدوى في استرداد مركز الزعامة الذي تبوأته ميكيناى في الزمن القديم . ولم تكن أرجوس بفضل موقعها الجغرافي غير جديرة بأن تضطلع بهذا الدور لأنها تقـــع على طريق المواصلات الرئيسي بين كورنثة وجنوب أركاديا ولاكونيا ومسينيا. لقد كان هناك طريق يصل بين كورنثة وسهل أرجوس : كما يسّر هذا الطريق الذي يمر بميكيناي لأمراء هذه المدينة الاتصال بالخليج الكورنثي والسيطرة على

---

(١) الوثائق المصرية من عهد رمسيس الثالث تشير في الواقع إلى شعب باسم « الدانونا» الذي يعتقد بعض الباحثين أنه مرادف «للدناويين» وهو أحد الأسماء الثلاثة التي يطلقها هوميروس على الإغريق (كالأرجيين Argéioi والأخابويين Achaioi ، وإن كان الأخير هو أكثرها شيوعاً عنده ، راجع ٧ ، ٨ هوامش) .

كورنثة القديمة في فترة ازدهار الحضارة الهللادية (١٥٥٠ – ١١٥٠) ، فقد يسّر لفيدون (Pheidon) ، ملك أرجوس ، السيطرة عليها في أوائل القرن السابع [١]. وأما السبب في أن أرجوس لم تستطع الاحتفاظ بهذه السيطرة فيرجع إلى تفوق كورنثة في مواردها الإقتصادية والبشرية ، وليس إلى صعوبة المواصلات . وكان الأتصال بين أرجوس وأركاديا في الجنوب يتم عن طريق ممرين في جبل بارثنيون أحدهما شماليّ يؤدي إلى مانتينيا والآخر إلى تجيا . وقد استغلت أرجوس هذين الممرين لتوطيد أقدامها في أركاديا أكثر من مرة . والواقع أن فرصة زعامة أرجوس في البلوبونيز كانت ترتهن بمدى إستطاعتها توطيد أقدامها في سهول مانتينيّا وتجيا ، إذ كان التحكم في هذه المنطقة الحيوية يمكنّها من أن تقطع خط مواصلات إسبرطة مع الخليج الكورنثي ، ويجعلها تهدد وادي نهر ألفيوس ، وهو الخط الرئيسي الآخر للمواصلات بين جنوب البلوبونيز وشمالها . غير أن أرجوس لم تنجح إلا في عقد محالفة مؤقتة مع مانتينيّا وتجيا ، وبذلك أقتصر دورها على ترجيح كفة على أخرى في الميزان السياسي بالبلوبونيز ، وهو دور هام ، ولكنه لم يرق إلى دور الزعامة .

لاكونيا :

وقد جادت الطبيعة على لاكونيا (Laconia) أو لاكيدَيمون (Lacedaemon) من ناحية ، بميزة فريدة ، وهي ذلك السهل الخصيب في وادي نهر يوروتاس (Eurotas) الجميل ، الذي يرقد في وسطها مسترخياً بين سلسلة جبل تايجتوس [٢] (Taygetus) ومرتفعات أركاديا وترويه عدة جداول تنساب من هذا الجبل

---

(١) هزم فيدون الإسبرطيين ، وقيل إن انقلب الحكم في أرجوس من ملكية إلى «طغيان» ، وسك أول عملة يونانية في آيجينا ، وأشرف بنفسه على دورة الألعاب الأوليمبية في عام ٦٦٨ ، وكانت أرجوس في عهده أقوى بلاد اليونان .

(٢) النطق الأصح هو تاييجتوس .

الذي يبلغ ارتفاع قمته ٨٠٠٠ قدم وتكسوه الثلوج حتى منتصف الصيف[1]. وإنتاج هذا السهل من الحاصلات يكفي لاستيعاب عدد كبير من السكان . ولذلك لم تحتدم في لاكونيا مشكلة عدم الاكتفاء الذاتي أو مشكلة الجوع التي دفعت بالسكان في غيرها من الأقاليم إلى الاشتغال بالتجـــارة أو الهجرة لإنشاء المستعمرات أو الإقدام على مغامرات سياسية خطيرة . غير أن لاكونيا ، من ناحية أخرى ، تعد من أكثر أقاليم بلاد اليونان انعزالاً . وإذ كانت تقع في أقصى الجنوب ، كتساليا في أقصى الشمال ، فهي تبعد مسافة طويلة عن قلب بلاد اليونان. ومع أن فروع نهر يوروتاس الأعلى تشق لها طريقاً إلى وادي نهر ألفيوس ، إلا أن مرتفعات اسكيريتس (Sciritis) في جنوب شرقي أركاديا تسد في وجهها الطريق نحو خليج كورنثة . وتفصل سلسلة جبال بارنون (Parnon) ساحلها الشرقي عن المنطقة الداخلية . وأما في الغرب فتفصلها عن إقليم مسينيا سلسلة جبل تايجتوس (أو تايجتون) الشاهقة (٧٨٠٠ قدم) . والخليج اللاكوني أكثر تعرضاً للرياح من خليج أرجوليس ، وليس فيه سوى ميناء واحد ، هو ميناء جيثيوم (Gytheum) الذي يقع عند رأسه . ومع أن الطبيعة جعلت لاكونيا إقليماً منعزلاً إلا أن دولة المدينة الإسبرطية التي قامت فيها لم تخرج فقط عن مألوف العادات اليونانية ، بل خرجت أيضاً على ناموس الطبيعة ، تاركة بذلك أثراً غريباً فريداً في مجرى التاريخ اليوناني .

---

(١) كان أخصب جزء في لاكونيا هو الذي يقع بين جبل تايجتوس ونهر يوروتاس ، ووادي هذا المنحدر جنوباً حتى البحر ، والسهول الساحلية المتاخمة ، والرقعة الخصبة غربي جيثيوم (ميناء اسبرطة) . وكان هذا الجزء تتألف منه أرض الإسبرطيين الأحرار الخلص (Spartiatai) والتي كانت توزع عليهم في شكل حصص متساوية على ما يرجح ، ويقوم بزراعتها لهم أشباه العبيد. ، حيث أنهم أي الإسبرطيين الأحرار كانوا يشتغلون بالجندية فقط.

وعندما جاء الدُوريون (١١٥٠) قاومتهم قرية أميكلاي (Amyclae) الحصينة مدة طويلة فأضطروا إلى النزول في مكان يبعد عنها أربعة أميال. وهناك أسسوا مدينة إسبرطة (Sparta) وذلك بإدماج أربع قرى تقع في وسط السهل على الضفة الغربية من نهر يوروتاس . وقد زاد عدد هذه القرى إلى خمس بعد إدماج أميكلاي . ويلاحظ أن هوميروس يسمي في الإلياذة والأوديسيا إقليم لاكونيا باسم لاكيدايمون (Lacedaemon) - وهي مملكة منلاوس وهيليني - ويسمي عاصمتها اسبرطة (Sparté) ، وإن كان يفهم منه أحياناً أنه يطلق الأسمين دون تمييز في المقصود . لكن في العصر التاريخي أصبح لاكيدايمون هو الأسم الرسمي للإقليم . ولم يعد اسم اسبرطة يطلق كبديل عن لاكيدايمون بمعنى الاقليم وإنما صار يقتصر على المدينة وحدها . وبديهي أن اسبرطة التي لم تؤسس إلا بعد مجيء الدوريين (١١٥٠) لم تكن موجودة زمن الحرب الطروادية (حوالي ١٢٠٠) . لكن هوميروس (الذي عاش في القرن التاسع أو الثامن أي بعد تأسيس اسبرطة) يعود بتاريخ تأسيسها إلى الوراء ويحرّف التسلسل التاريخي، ويتصور وجودها مكان بلدة أخرى لعلها أميكلاي التي كانت موجودة في عصر الحرب الطروادية وكانت -على ما يرجح- هي عاصمة مملكة منلاوس وهليني . وفي الحق إن آثار العصر الميكيني عثرنا عليها في أميكلاي (فافيو Vaphio الحديثة) لا في موقع اسبرطة .

وبتأسيس اسبرطة يبدأ تاريخها الطويل الحافل بالمفارقات . ذلك أن اسبرطة على الرغم من عدم مناعتها الطبيعية ، ظلت على نقيض المدن اليونانية الأخرى بغير أسوار أو تحصينات دفاعية حتى عام ٢٠٠ ق.م. وكان توسعها خارج حدود لاكونيا ينطوي منذ البداية على مفارقة أخرى، أو بالأحرى يسير في اتجاه مضاد للجغرافيا . فالحروب المسينية التي استهلت بها إسبرطة ، في آخر القرن الثامن وخلال القرن السابع حركة التوسع دارت رحاها فوق أعلى سلسلة جبلية في

البلوبونيز ، إذ كان الوصول إلى أقصر ممراتها وأقلهـا انخفاضاً يستلزم الصعود مسافة ٥٠٠٤ قدم عبر خانق وعر. وقد أثار أطماع الإسبرطيين عبر هذه الحدود الوعرة سهل مسينيا الذي كان يضارع بل يفوق سهل يوروتاس في خصوبته حتى أصبح الاحتفاظ به مبدأ أساسياً في السياسة الإسبرطيـة . غير أن الإحتفاظ بالسيطرة على شعب خاضع رغم أنفه وضد مشيئته ، وبسط هذه السيطرة عبر خط من المواصلات لا يمكن احتراقـه في فصل الشتاء ، كان عبئاً ثقيلاً على الإسبرطيين اضطرهم إلى إعادة تنظيم دولتهم على أساس « اشتراكي استبدادي » تتحكم فيه السلطة المركزية في مختلف أدوار حياة جميع المواطنين الذين يدينون لها بالطاعة العمياء [1] .

وبعد الحروب المسينية [2] اتجهت حركة التوسع الإسبرطية نحو إيليس التي يفتح الطريق إليها وادي نهر ألفيوس ، وبعدئذ اتجهت نحو أرجوس و كورنثة ، مما أدى إلى تطاحن أسبرطة وتجيا في حرب مريرة في أوائل القرن السادس من أجل الاستيلاء على مرتفعات اسكيريتس في جنوب شرقي أركاديا ، والتحكم في الطريق الرئيسي المؤدي إلى أرجوس و كورنثة . غير أن اسبرطة لم تستطع أبداً أن تحرز أي سيطرة على الطريقين الرئيسيين اللذين يمران عبر شمال أرجوس وجنوبها ، فضلاً عن أن تطرف موقعها في جنوب شرق البلوبونيز جعـل من

---

(١) لم يكن النظـام الإسبرطي إشتراكيا بالمعنى الصحيح لأنه كان مقصوراً على المواطنين الإسبرطيين الأحرار الخلص (Spartiatai) ولا يشمل إنصاف المواطنين الساكنين حـول لاكونيا والمعروفين بالبريئويكي (perioeci) ولا أشباه العبيد (heilotes) لكن هـذا النظام وقى اسبرطة من «حكم الطغاة» الذي لم يقم فيها لعدم قيام مشكلة توزيع الأراضي على نقيض معظم الدويلات الأخرى . وكانت اسبرطة تناصب « الطغاة » العداء وتعمل على الإطاحة بحكمهم في المدن الأخرى .

(٢) الحرب المسينية الأولى (٧٢٥ - ٧٠٥) ، والثانية (٦٨٥ - ٦٦٨) أو (٦٤٠ - ٦٢٠ ؟) ، والثالثة (٤٦٤ - ٤٦٠) .

المتعذر عليها أن تحكم رقابتها على البلاد التابعة لها في أركاديا. صحيح أن الإسبرطيين تغلبوا إلى حد ما على مشكلة المواصلات الطويلة بقدرتهم الفائقة على التعبئة السريعة والزحف دون هوادة أو راحة. غير أنهم اضطروا، إزاء افتقارهم إلى أداة كشبكة الطرق الرومانية الرائعة، إلى الاكتفاء بفرض سيطرة على وسط البلوبونيز وشمالها أوهى بكثير من التي فرضوها على أشباه عبيدهم (Heilotes) في لاكونيا ومسينيا.

وكانت الزعامة المؤقتة التي أحرزتها اسبرطة على بلاد اليونان عقب الحرب البلوبونيزية (٤٣١ - ٤٠٤) في اتجاه مضاد للظروف الجغرافية بصورة أوضح[1]. لقد اتضح للإسبرطيين أن السيطرة على كل بلاد اليونان من منطقة نائية أمر شاق فوق طاقتهم، إذ أعوزتهم السواحل الملائمة، ولم يكن لديهم سوى أسطول رمزي، وكانوا يعتمدون على وحدات حلفائهم للإحتفاظ بسيادتهم البحرية المزعزعة. وهذه العقبات الجغرافية التي تعترض أي توسع من أجل السيطرة قد تفسر لماذا لم تتضمّن أهداف اسبرطة فرض زعامة دائمة على كل العالم الهلليني. ولقد قاتل الإسبرطيون قتالاً طويلاً مريراً من أجل دعم سيطرتهم على البلوبونيز مما كلفهم أعباء تحملوها على ثقلها؛ غير أنهم أدركوا في الوقت نفسه أن أي توسع في دائرة السيطرة على بلاد الإغريق قد يقصيهم عن مركز قوتهم ويشتت جهودهم ويعرضهم للإنهيار. وأما الحملات الإسبرطية في القرن الرابع من أجل التوسع الاستعماري فهي لا تمثل إلا إتجاهاً مؤقتاً نشأ عن أطماع قائدين طموحين

(١) من سنة ٤٠٤ (استسلام اثينا) إلى ٣٨٦ (صلح الملك) وإن كانت أسبرطة لم تهزم نهائياً إلا في عام ٣٧١ (معركة ليوكترا) على يد إبامينونداس، قائد طيبة الشهير. وهكذا انتقلت الزعامة في بلاد الإغريق من أثينا إلى إسبرطة، ثم إلى طيبة وأخيراً غزتها مقدونيا، قاضية على استقلال مدنها الحقيقي (معركة خيرونيا عام ٣٣٨ ق.م).

هما ليساندر (Lysander) وأجيسيلاوس (Agesilaus) ، لا عن سياسة قومية مرسومة .

وثمة عوامل أخرى — غير العزلة — أدت إلى تضاؤل شأن اسبرطة وتدهورها على مضي الزمن . وفي مقدمة هذه العوامل تركيز الدولة على الجانب العسكري دون سواه من الجوانب الإجتماعية أو الثقافية ، وتحكمها في رقاب المواطنين بحيث لم تدع لهم فرصة للإنطلاق والإبتكار والخلق في مجالات الأدب والفن والثقافة بوجه عام . يضاف إلى ذلك سياستها المتسمة بالتحفظ الشديد بل بالجمود وبالقسوة البالغة المجردة من الإنسانية في معاملتها للغير عندما تكون في مركز القوة ، وإغلاق الدائرة على المواطنين مما أدى إلى انكماش عددهم بالتدريج وتناقصهم بصورة ملفتة للنظر . هذا إلى جانب أطماع قوادها الشخصية من أمثال ليساندر وأجيسيلاوس . وبمرور الوقت ازداد التغاضي عن مبدأ المساواة التقليدي بين المواطنين الأحرار في الملكية الزراعية ، والإصرار على تحريم التعامل بالنقود المسكوكة ، وإباحة التصرف في الحصص الزراعية بعد أن كان محظوراً . ومن ثم فإن اسبرطة لم تنهض أبداً من كبوتها بعد هزيمة ليوكترا عام ٣٧١ ، واستقلال مسينيا عنها نتيجة لذلك .

ولقد حاول بعض ملوك أسبرطة من ذوي الهمة العالية في القرن الثالث انتشالها من الوهدة التي تردت فيها . حاول أجيس الرابع Agis (٢٤٤–٢٤١) إصلاح أمراضها الإجتماعية كالرهون الباهظة ، وتضخم الملكيات الفردية ، وضمور هيئة المواطنين ، وتراخي التدريب العسكري الصارم (agôgê) ، بإحياء دستور ليكورجوس القديم وتطبيق مواده . لكن المجلس التنفيذي في اسبرطة ، وهم الإفوروى (ephoroi) ، والذي كان بيده السلطة الفعلية ، قاوم هذه الإصلاحات وعارض التوسع في منح حقوق المواطنة الإسبرطية بحيث تشمل انصاف المواطنين (perioeci) أو الأجانب المستوطنين . بل إن هذا

المجلس قام بالتواطؤ مع القـلة القليلة من الإسبرطيين الخلّص (Spartiatai) بقتل هذا الملك . وحاول كليومنيس الثالث (Cleomenês) (٢٢٧ — ٢١٩) أن يقوم بثورة إجتماعية كأداة للتوسع الإسبرطي ، مقترحاً إصلاحات جذرية كإلغاء المجلس التنفيذي المذكور (ephoroi) ، وإلغـاء الديون ، وتوزيع الأراضي ، ورفع عدد المواطنين الإسبرطيين إلى ٤٠٠٠ بمنح حقوق المواطنة لأنصاف المواطنين والمستوطنين الأجانب . لكن استبداده في الداخل،وأطماعه التوسعية في الخارج، حدت « بالحلف الأخي » إلى التدخل واستعداءانتيجونوس دوسون ، ملك مقدونيا ، عليـه ، ولحقت به الهزيمة في معركة سيلاسيا (Sellasia) في صيف عام ٢٢٢ . وهكذا فر كليومنيس – برغم نزعتـه الإصلاحيه – من وطنه لاجئـاً إلى ملك مصر ، بطلميوس الثالث ، الملقب « بالخيّر » الذي حاول خلفه أن يتخلص من الضيف غير المرغوب فيه فسجنه. لكن كليومنيس هرب من سجنـه ، وحاول إثارة الإسكندريين ودعوتهم إلى الثورة باسم « الحرية » ، لكن هيهـات لأن كلمة الحرية لم يعد لها معنى في إسكندرية البطالمة . ولم يجد كليومنيس مناصاً من أن يقتل نفسه(٢١٩) .

وأخيراً قام نابيس Nabis (٢٠٧ ــ ١٩٢) ، الذي نادى بنفسه ملكاً على اسبرطة ،بإحياء مشروعات سلفه . وبرنامجه الإصلاحي ، وكان أكثر توفيقاً من سابقيه.لكن تحوله إلى جانب الرومان لم يشفع له إذ اتهم هو الآخر بالطغيان . وتحالف عليه كل من الرومان « والحلف الأخي» الذي كان زعيمه وقائده حينئذ فيلوبوئين (Philopoemên) ، زعيم ميجالوبوليس الأركادي ، وعدو اسبرطة (٢١٠ — ١٨٢) . تحالفوا على نابيس وأنزلوا به الهزيمـة في عام ١٩٣ . ولم يلبث نابيس أن اغتيل في انقلاب عسكري قام به الآيتوليون في اسبرطة عام ١٩٢ . وسيقت اسبرطة رغم أنفها إلى حظيرة « الحلف الأخي » ، ودارت في فلكه . ولم يلبث فيلوبوئين أن جرد اسبرطة من قوتهـا العسكرية ، وألغى دستور ليكورجوس ، ذلك الدستور العتيق ، الذي أظهر له الإسبرطيون ،

برغم قصوره وجوده ، ولاء طويل الأمد ، قد يثير الإكبـار، لكنه أيضاً يثير الدهشة إذ ساقها إلى نهاية محزنة .

وتعرف المنطقـة التي تقع غرب جبـــل تايجتوس باسم إقليم مسينيا (Messenia)، وهو يشبه لاكونيا من وجوه كثيرة ، فـساحله الجنوبي تكتنفه الجبال ، وساحله الغربي معزول عن الداخل بسلسلة أخرى من المرتفعات. وعلى الساحل الأخير يقع خليج بيلوس Pylos (نفارينو) ، وهو مرفأ صـالح لرسو السفن ، غير أن افتقاره إلى ظهير ملائم سلبه ميزاته التجارية . وفي مدينـــة بيلوس [1] التي ثبت الآن أنها أحد مراكز الحضـارة الميكينية ، ومسقط رأس نستور (Nestor) الشيخ الراوية الثرثار،أحد الشخصيات الطريفة في الإلياذة، عثر الأستاذ بليجن (C. Blegen) – كما قدمنا – في ١٩٣٩ على أنقاض قصر ، ومقابر ذات قباب في شكل خلية النحل (tholos)ترجع إلى العصر الهلادي الحديث . وكذلك على مئات من اللوحات المكتوبة بخط (Linear B) تبين الآن أنه صورة قديمة من اللغة اليونانية[2] . وأمام خليج بيلوس الذي يشبه نصف الدائرة تقع اسفاكتيريا (Sphacteria)وهي جزيرة طويلة يفصل طرفها الشمالي عن رأس الخليج مضيق صغير احتله الأثينيون في الحرب البلوبونيزية.وقد ساعد ذلك زعيمهم الديماجوجي كليون (Cleon) على أن يقتحم الجزيرة نفسهـا في عام ٤٢٥ ، ويرغم القوة الإسبرطية المرابطة على الاستسلام ويأسر رجالهـــا أحياء ، الأمر الذي أثار دهشة العالم الهلليني .

وداخل خليج مسينيا يوجد ميناءان أحدهما ما يزال نشيطاً ، وهو فاراي (Pharae) ، الذي يعرف الآن باسم كلاماتا (Kalamata) ، وتصدر منه منتجات السهل المسيني . على أن تاريخ مسينيا انحصر تقريباً في سهله الأوسط

---

(١) اسمها الحديث آنو إنجليانوس (Ano Englianos) وتقع على الطرف الشمالي من الخليج .

(٢) راجع ص ٨٨ هامش ١ فيما تقدم .

الذي كان أكبر من سهل يوروتاس وأغزر إنتاجاً حتى أن الجزء الجنوبي منه ، حيث يجري نهر باميسوس (Pamisus) ، عرف لخصوبته باسم الأرض المباركة (Makaria) . لكن هذه النعمة انقلبت إلى نقمة على أهل مسينيا ، لأنها هي التي أغرت الإسبرطيين على غزو بلادهم وتحويلهم إلى أشباه عبيد . وكان آخر معقل في يد الغزاة بعد حصار طويل وقتال مرير في الحرب المسينية الثالثة (٤٦٤ – ٤٦٠)، هو جبل إيثومى (Ithomê) الذي يقع في السهل الأوسط ويبلغ ارتفاع حافته الغربية حوالي ٢٥٠٠ قدم . ولما كان هذا المكان ملائماً لقيام مدينة حصينة فقد نشأت عنده عاصمة باسم مسيني (Messenê) بعد أن تم تحرير الإقليم كله على يد إبامينونداس ، قائد طيبة الشهير ، في عام ٣٧٠ .

الفَصْـل الـرّابع

الأساطير والآلهة

أساطير اليونان :

لقد تخلف عن العصر الهلادي الحديث المعروف بالعصر الميكيني (١٥٥٠ - ١١٥٠) تراث ضخـم من القصص . إذ خاض ملوك هـذا العصر وأمراؤه حروباً كثيرة في الداخل والخارج وقاموا بأعمـال بطولية . ومع أنها كبدتهم نفقات طائلة ترتبت عليها نتائج اقتصادية وخيمة إلا أنهـا كانت هي المادة التي صيغت منها معظم قصص البطولة الهامة التي انتقلت إلينا عبر الأجيال . وتكاد لا توجد قصة بطولية إلا وترتبط في الغالب بموقع من المواقع المعروف بأنهـا كانت ميكينية . وقد انتقل الجانب الأكبر من هذه القصص على لسان الشعراء المحترفين منشدي الأغـاني (aoidoi) الذين كانوا يترددون على قصور الأمـراء

حيث كانوا يمتدحون بطولاتهم وأمجاد أسلافهم[1]. ولم يلبث أن تطور فن رواية القصص البطولية تدريجياً واكتمل نضجه حتى صار ملاحم شعرية كالالياذة التي تعد أعظم نموذج من هذا النوع من القصص . وليس من المعروف متى دونت أي من هذه القصص الطويلة كتابة لأول مـــرة . لكن من المرجح في ضوء الكشوف الحديثة أن الأخايويين (الأخيين) قد اقتبسوا أحـــد أشكال الكتابة الكريتية (المينوية) واستعملوه على قدر استطاعتهم في تدوين سجلاتهم بلغتهم التي ثبت الآن أنها كانت صورة قديمة من اللغـــة اليونانية . لكن هذا الشكل من الكتابة (المسمى بالخطية ب Linear B) أهمل فيما بعد أو نسي خـلال العصر المسمى بالعصر المظلم (١١٥٠ ـ ٧٥٠ ق‌م) ، واستعار اليونان في القرن الثامن ق.م أبجدية إحدى اللغات السامية الشمالية التي يرجح أنهـــا الفينيقية . ووائموا بين هـــذه الأبجدية وبين طبيعة لغتهم وطوعوها لها بل جعلوها أكثر مرونة بإضافة الحروف اللينة (vowels) التي تفتقر اليها اللغات السامية . ومع أن استعمال الكتابة عندهم كان في أول الأمر مقصوراً على أغراض محددة ، إلا أنه أسهم في تثبيت مفهوم الأدب بالمعنى المستفاد من اسمه ، وفي تدوينه وحفظه حتى لا يترك للذاكرة وحدها التي قد تعرضه للتحريف أو الضياع .

كانت هناك إذن قصص كثيرة متداولة بـــين الأخيين ، وكانت أغلبها يدور حول بطولات هؤلاء الأمراء الحربية وأمجـــاد أسلافهم . لكن يسترعي النظر حقاً ما بين هذه القصص وأساطير الشرق الأدنى القديم من تشابه . وقد يقال

---

(١) المقصود منشدو الأغـــاني الذين كانوا لا يترددون فقط على قصور الأمراء بل كانوا يقيمون فيها على نحو ما تحدثنا به « الأوديسيا » : وهم غير المنشدين المتجولين (rhapsodoi) الذين كانوا فيما بعـــد يغنون القصص البطولية وعلى الأخص أشعار هوميروس ، وإن كان هوميروس نفسه يعتبر من المنشدين المتجولين .

في تعليل ذلك إن مجموعة من الأفكار الأسطورية انتشرت في كل منطقـة شرق البحر المتوسط وأثرت في أدب الشرق الأدنى وأدب اليونان ، وأن كريت ربما كانت هي حلقة الوصل بين المنطقتين . لكن عناصر الشبه أقوى وأكثر من أن يكفيها مثل هـذا التعليل أو التفسير . فقد لاحظ أكثر من باحث أوجه الشبه بين ملحمة الاليـاذة اليونانية وملحمة جلجامش السومرية الأصل . ولم يفتهم التشابه الموجود بين الملحمتين لا في بعض المواقف أو بـين الشخصيات بل بين الأفكار الرئيسـية أيضاً . ويمتد تأثير الملحمة السومرية إلى الأوديسيا كذلك[1]. ولنضرب مثلاً واحداً وهو تلك الزيارة التي قام بها أوديسيوس للعالم الآخر . فهذا المشهد مستعار من زيارة « إنكيدو » صديق جلجامش لعـالم الموتى . وتذكرنا فكرة القيـام بحملة حربية للظفر بعروس جميلة أو استعادتها الواردة في الالياذة بنفس الفكرة الواردة في ملحمة « كرت» الكنعانية (الفينيقية) . كما أن بعض الشخصيات والمواقف والتعابير في الأدب الأوجاريتي تنم عن تأثر الأساطير اليونانية بها . ونلتقي بفكرة البطل الذي تحطمت سفنه وغرق كل من معه إلا هو ، وهي قصة أوديسيوس (في الأوديسيا اليونانية) نلتقي بها قبل ذلك في القصة المصرية المسماة بقصة «الملاح الذي نجا من الغرق» (في إحدى جزر البحر الأحمر ؟) وترجع إلى ما قبل عام ٢٠٠٠ ق.م. كذلك نجـد لبعض الأساطير الوارد ذكرها في كتاب هيسيود المسمى « أنساب الآلهة » ، وقصة « أتلانتا » — التي رويناها من قبل[2] — نظائر عند الحيثيين . ولا يمكن أن تكون كل هـذه المتشابهات وليدة الصدفة وحدها . لقد تأثرت القصص والأساطير اليونانية تأثراً ملحوظاً بقصص وأساطـير الشرق الأدنى القديم

---

(1) Cf. T. B. L. Webster, From Mycenae to Homer (London, 1958), p. 88.

(٢) راجع ص ٥١ ، حاشية ١ فيما تقدم .

واقتبست بعض العناصر من أدب السومريين والبابليين والحوريين والفينيقيين والحيثيين والمصريين . صحيح أن الدراسات المقارنة في هـذا الصدد لا تزال في مراحلها الأولى . لكن لا ريب في أنها تبشر بتقدم كبير ونتائج مثيرة وستبين مدى ارتباط الحضارة الهلادية بالأسس الأدبية والدينية والتاريخية الـتي سبقتها في الأقطار المجاورة بمنطقة الشرق الأدنى القديم [١] .

ومن بين هذه القصص الأخية توجد أيضاً بعض أساطير تدور حول مغامرات أشخاص بارزين يتضح من أسمائهم أنهم غير أخيين بل كانوا من سكان البـــلاد الأصليين (البلاسجيين) السابقين على مجيء الإغريق إلى البلقان . كذلك يلاحظ أن مسرح حوادث بعض هـذه القصص الأخية لم يكن بلاد الإغريق نفسها بل جزيرة كريت . وليس من المستبعد أن يكون بعض عناصرها من نسج خيـال المينويين أي كريتي الأصل ، ولكنه تعرض لشيء من التحريف عند انتقاله من جيل إلى جيل . وعلى ذلك فإن ورثة الأخيين أو خلفاءهم وهم الإغريق قــد ورثوا ذخيرة كبيرة من الأساطير المتنوعة الأصل مثلما كان أصلهم العرقي خليطاً من الأخيين وسكان البلقان الأصليين .

وبقي أن نسأل عن نوع هذه القصص والأساطير . ويتبين من فحصها أنـه يمكن تقسيمها – بوجه عام – إلى ثلاثة أشكال أو أنواع :

---

(١) راجع :

T.B.L. Webster. op, cit, 69, 79 ff, 89, 225, 247. 252, 287,

وانظر أيضاً :

سبتينو موسكاتي « الحضارات السامية القديمة » (الترجمة العربية للدكتور يعقوب بكر) القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١٣٣ .

أ – الخرافات البحتة (Myths) .

ب – القصص البطولية (Saga) .

حـ – الحكايات الشعبية (Märchen) .

وأما الخرافة البحتة فهي وليدة التفكير الخيالي في نشأة الكون والظواهر الطبيعية وأصل الآلهة والمعتقدات والطقوس الدينية [1] . مثال ذلك محاولة تفسير ظاهرة كعبور الشمس للسماء (حسب تصورهم) كل يوم من الشرق للغرب ثم عودتها من رحلتها دون أن يراها أحد إلى مقرها لتطلع من جديد . الجواب عن الشق الأول : أنها (أي الشمس) تمتطي عربة تجرها مجموعة من الجياد اللامعة عبر السماء التي تصوروها كقبة منحنية فوق الأرض المسطحة . وأما عودة الشمس إلى مقرها دون أن يراها أحد فقد فسروها تفسيرات مختلفة أشهرها أنها كانت تبحر في كأس هائل عبر نهر عظيم يحيط بالأرض اسمه أوقيانوس(المحيط).وسؤال آخر : لماذا يؤدي الأثينيون في إليوسيس سنوياً شعائر العبادة السرية الشهيرة (Mysteria) التي تتخللها حركات غريبة شبيهة بالرقص الطقوسي وأخرى شبيهة بالتمثيلية المسرحية التي تروي حكاية اختطاف (كوري) ابنة ربة القمح وحزن أمها عليها . الجواب : لأن هاديس(بلوتون)، إله العالم السفلي ، أراد أن يتخذ لنفسه زوجة فاختطف «كوري» التي سمح لها أن تعود لتزور أمها ديميتير في العالم العلوي حيث تقضي معها شطراً من السنة وتقضي مع زوجها في باطن الأرض شطراً آخر . وقد وردت هذه الخرافة ضمن « نشيد الابتهال » لديميتير بجانب أشياء أخرى يمكن التخمين بأنها متعلقة

---

(١) هذا اللون من التفكير هو مقدمة الفضول العلمي والفروض العلمية التي كثيراً ما انتهى إلى نظريات وكشوف علمية بالغة الأهمية .

بالطقوس السرية . ونلتقي عند بعض الشعوب بخرافة كالخرافة السابقة وهي ما كان الإغريق يسمونها بالقصة المقدسة (hieros logos) ، ونجد أنها تشكل جزءاً هاماً من مراسم هـذه الشعوب الدينية ، إذ كانت تتلى في الاحتفالات الدينية التي تقام في أوقات معلومة من السنة بل وفي ساعات معينة من النهار أو الليل حيث أن تلاوة هذه الشعيرة الخرافية كان لها – حسب اعتقادهم – تأثير فعال فهي تحفظ الأشياء كما هي فتبقى دائماً على ما كانت عليه منذ نشأتها بفعل قوى خارقة في غابر الزمان . فهي تجعل – على سبيل المثال – القمح ينمو باستمرار وينضج في كل عام ، وهي تحفظ نظام الكون القائم على حاله فلا يختل ولا يرتد إلى حالته الفطرية الأولى التي ربما لم يكن فيها شمس وكان يلف الأرض ظلام دائم ؛ أو هي تصون للشعب صاحب الخرافة كيانه الإجتماعي . غير أنه لا توجد أدلة كافية على أن الإغريق كانوا من الشعوب التي استعملت الخرافات على النحو الذي أشرنا إليه . لقد ظلت الخرافات عندهم نوعاً من التأمل أو التفكير الخيالي في الظواهر الطبيعية التي لفتت أنظارهم ، والعادات وعلى الأخص العادات الدينية التي انتشرت بينهم . ومن المؤكد أن هذه الخرافات لم ترق عندهم إلى مرتبة العقائد لأن الدين الإغريقي كان خلواً من العقائد ، وكان يقتصر على أداء بعض طقوس تقليدية يظن أنها تجلب رضاء الآلهـة المعنية ولا يقوم على الايمان بهذا الشيء أو ذاك . ومع أن معظم الإغريق ولا سيما في العصور المبكرة كانوا يعتقدوا في صحة خرافاتهم إلا أنه لم يكن هناك ما يمنع الناس من اعتبارها غير صحيحة ، ولا كانت هناك عقوبة على الذين لا يمكنهم تصديقها أو يحاولون تفسيرها تفسيراً رمزياً أو يرفضونها بوصفها انحرافات في التفكير . فالكفر (asebeia) الذي كان يعد جريمة يعاقب عليها المرء في أثينا على سبيل المثال ، كان في جوهره اهمالاً أو انتهاكاً للشعائر الدينية ، أو كان أحياناً محاولة

لترويج نظريات تنكر وجود بعض الآلهة أو جميعها ، مما يهدم هدماً تاماً الباعث الأساسي على عبادتها .

وأما الشكل أو النوع الثاني من الأساطير فهي تلك القصص المتواترة عن السلف التي يطلق عليها غالباً اسم Saga (وهي كلمة اسكندناوية بمعنى قصة) وأحياناً قليلة لفظ (Legends) الانجليزي . وتختلف « الساجا » في أصلها عن الخرافات اختلافاً بيّناً . لأن الساجا مع احتوائها على قدر كبير من الخرافات تقوم على أساس من الواقع التاريخي. وبعبارة أخرى هي قصص يمتزج فيها الخيال بالحقيقة التاريخية . فهي حقائق تاريخية محرّفة بدرجات متفاوتة وغالباً ما تتضمن أعمالاً بطولية ومغامرات خارقة كالملاحم البدائية الساذجة (ملحمة جلجامش السومرية) والملاحم البطولية الأصيلة الناضجة (كملحمة الالياذة)[1]. ومن بينها ايضاً القصص اليونانية القديمة (السابقة على قصة الحرب الطروادية) كقصة حرب « السبعة ضد طيبة » وقصة « حرب الأبناء » (أبناء السبعة السالف ذكرهم ضد المدينة نفسها) ، وكذلك تاريخ أسرة بيلوبس الملطخ بالدماء. وليست أي من هذه القصص اليونانية مستحيلة أو حتى غير محتملة . فليس من المستبعد تاريخياً أن تكون مدينة مثل طيبة (بأقليم بيوتيا) قد صدت حملة شنها عليها زعماء أرجوس وحلفاؤهم ثم سقطت في الجيل التالي في يد أبناء هؤلاء الزعماء السابقين الذين اخفقوا في الاستيلاء عليها في الحملة الأولى. وليس من المستبعد ايضاً أن تكون طروادة قد حوصرت ودمرت على يد بعض الغزاة الاغريق أو أن تكون أسرة بيلوبس الملكية التي ينتمي اليها أجاممنون قد مزقتها المنازعات الشخصية المريرة والاحقاد الدفينة التي دفعت بذوي القربى إلى قتل بعضهم

(١) وتتضمن أحياناً أخرى سير الأولياء والقديسين وما لهم من معجزات وكرامات ، ومنها أيضاً « قصة الاسكندر » الذي نسجت حوله بعد موته خرافات ونسبت اليه معجزات كثيرة . ومثل هذه القصص هي التي يحسن تعريفها باللفظ الانجليزي Legends .

بعضاً . غير أن ذلك لا يقتضي منا أن نصدق – مثلا – أن عـــدداً من آلهة أوليمبوس قد اشتركوا في الهجوم أو الدفاع عن طروادة أو أن اتريوس (والد اجاممنون) قد خدع أخاه ثويستيس وجعله يأكل من لحم ابنائه .

وأما النوع الثالث وهو الحكايات الشعبية فكان قليلاً في بلاد اليونان بالقياس إلى النوعين الآخرين [1] . وغالباً ما يطلق على الحكايات الشعبية لفظ مرشن (Märchen)الذي استعارته كثير من اللغات الأوروبية من الألمانية .ولعل اللفظ الانجليزي Folk - tales . قد يدل على نفس المعنى وإن كان لا يؤدي المقصود منه تماماً وأما اللفظ الانجليزي Fairy - tales بمعنى حكاية من حكايات الجان والعفاريت والغيلان وما اليها ، فهو لفظ غير مناسب وربما يكون مضللا لأن هذه الحكايات أو القصص الشعبية لا تدور بالضرورة حول العفاريت أو غيرها من الكائنات الخارقة للطبيعة ، ولا بالضرورة حـــول حوادث أو شخصيات غير متصورة عقلا . إن الحكايات الشعبية هي ما يصفها بعض الباحثين بأنهـــا « طفولة الخيال » ، ولا يعرف لها مؤلف ، وتنتقل من فم إلى فم، بل من شعب إلى شعب ، متخطية حواجز اللغة . فنجد – على سبيل المثال – قصة العملاق ذي العين الواحدة ترد في كل من ملحمة الاوديسيالهوميروس (الذي اقتبسهامن حكاية شعبية متواترة) وقصة بلاد الاقزام المسماة «لابلاند »(شمالي اسكندناوة) . ومن ثم فإنه من الملائم أن نسمي هذه الحكايات بالقصص الشعبي . وهي تختلف عن « الخرافات البحتة » و « قصص البطولة الخارقة » في أنها نشأت عن مجرد الرغبة في التسلية والترويح عن النفس . فهي لم تنشأ لتفسير أصل شيء مجهول أو تعليل عادة طواها النسيان أو لتسجيل واقعة تاريخية أو شبه تاريخية. لكنها ترمي غالباً إلى بيان حقيقة عامة أو تأكيدها في الاذهان . ولعل أكثر الاشياء

---

(١) تحتوي قصة « ملاحي السفينة أرجو Argonautae » على قدر من الحكايات الشعبية .

استلفاتاً للنظر في هذا النوع من الأساطير هو ذلك التشابه الموجـــود بين بعض الأفكار الرئيسية في مختلف الحكايات الشعبية بأنحاء العالم المتباعدة. وقد أصبحت هذه الأفكار الرئيسية، محور دراسات علمية دقيقة في العصر الحديث. وفي وسع من يطلع على نتائج هذه الدراسات أن يميز الحكايات الشعبية عن غيرها حتى عندما تكون مستترة في ثنايا « قصة خرافية بحتة » أو « قصة بطولية » . وقد يؤدي عدم تمييز الحكاية الشعبية عن غيرها من أشكال الأساطير إلى تفسيرات خاطئة وسوء فهم لعادات الشعوب ومعتقداتها وتقاليدها الموروثة .

وقد تمتزج هذه الأنواع الثلاثة من الأساطير في أي قصة يونانية واحدة ولا سيما إذا كانت القصة طويلة متشعبة موغلة في القدم أعيدت روايتها مرات ومرات . ولنضرب مثلاً بقصة طروادة . فهذه القصة تستند أساساً إلى حرب واقعية نشبت بين الآخيين أو الاغريق القدامى (وحلفائهم من سكان بعض جزر البحر الايجي)وبين الطرواديين(وحلفائهم في بعض الامارات المجاورة لملكتهم بآسيا الصغرى) . وإلى هذا الحد تعتبر إذاً قصة بطولية (Saga) . لكنها كثيراً ما تتناول أعمال الآلهة التي تدخل في نطاق الخرافة البحتة (Myth) ، كما تتضمن من وقت لآخر وقائع تدخل في صميم الحكايات الشعبية (Màrchen) ومن الضروري أن ننتبه إلى ما بين هذه الأنواع الثلاثة من الأساطير من اختلاف في الطبيعة حتى نكون على حذر فلا ننساق وراء بعض التفسيرات الباطلة ، القديمة والحديثة ، للقصص اليونانية المتواترة .

ولا تبقى بعد ذلك سوى كلمة موجزة عن تفسير الأساطير . لقد تعددت الآراء في تفسير الأساطير منذ القدم . لكنها تشعبت وتعقدت في القرن الماضي ولا يزال الخلاف قائماً بين العلماء حول تفسيرها . وفي وسعنا أن نجمل آراءهم المختلفة في أربع نظريات رئيسية :

١ – نظرية التفسير الديني .ويرى أصحابها أن الأساطير هي في الأصل مجموعة

سوى ما كشفناه من آثار .

- ومن أبرز هذه القصص والأساطير التي نشأت حول الأحداث والحروب التي وقعت في « عصر البطولة الأول » السابق على عصر الحرب الطروادية :

١ - قصة داناوس (Danaus) ملك أرجوس وأخيه آيجيبتوس (Aegyptus) التي تلقي ضوءاً على علاقة بلاد اليونان ومصر في تلك الفترة المبكرة من العصر الميكيني .

٢ - قصة حصار كاليدون (Calydon) بسبب النزاع الذي ثار حول توزيع الغنائم بعد صيد الخنزير البري الكاليدوني، وهي قصة سردناها عند الكلام عن الصيادة العداءة الماهرة أتلانتا (Atalanta)[1] . وتعكس القصة أوضاعاً كانت لا تزال غير مستقرة ، فالاغارات لنهب قطعان ماشية الجيران مستمرة ، وحدود الامارات لا تزال مائعة لم تثبت بعد .

٣ - قصة بلليروفون (أو بلليروفونيتس) ابن ملك كورنثة الذي رحل عن بلده إلى أرجوس حيث اتهم زوراً بمراودة زوجة الملك عن نفسها فأبعد إلى ليكيا بآسيا الصغرى بقصد التخلص منه هناك . هذه القصة قد تكون صدى لعلاقات بين أرجوليس وإقليمي ليكيا وقيليقية بل قد تكون صدى لحملة قام بها إغريق ميكيني في آسيا الصغرى .

٤ - قصة ملاحي السفينة أرجو (Argonautae)، وهي رحلة بحرية خرجت من ميناء أيولكوس (في تساليا) متجهة إلى الدردنيل والبسفور ومنطقة

---

(١) راجع ص ٥١ هامش ١ فيما تقدم . وتقع كاليدون (Calydon) في إقليم أيتوليا (Aetolia)

كولخيس على الشاطىء الشرقي للبحر الاسود بحثاً عن الذهب . وكانت مغامرة هلينية جامعة وتعتبر صدى لرحلات تجارية قام بهـا الاغريق في عصر البطولة الأول إلى هذه المنطقة النائية .

٥ - قصة برسيوس (Perseus)في تيرينس وأرجوس وتأسيسه لميكيناي .

٦ - أعمال البطل هيراكليس الشاقة الاثنا عشر ومغامراته في بلاد اليونان وخارجهـا والتي تعكس توسع مملكة ميكيناي وانتشار حضارتها ،

٧ - قصة حرب « سبعة ضد طيبة » وفشل الحصار ، التي ترمز إلى صعود نجم طيبة تحت حكم أسرة لابداكوس (Labdacus) (سليل كادموس) وجد أوديب (Oedipus) . وهذه القصة كسابقاتها تدور حول أحداث وقعت في عصر البطولة الاول .

٨ - قصة تدمير طيبة على يد أبناء السبعة (Epigonoi) والتي لا تسبق الحرب الطروادية إلا بحوالي قرن ونصف من الزمان فهي تنتمي مثلها إلى عصر البطولة الثاني . وترمز القصة إلى أفول نجم طيبة .

٩ - قصة بلوبس(Pelops)ومجيئه من فريجيا بآسيا الصغرى إلى البلوبونيز حيث استولى على الحكم في ميكيناي .

ولما كان بيلوبس هو جد أجاممنون الذي تولى قيادة حملة الاغريق في الحرب الطروادية (حوالى ١٢٠٠ ق.م.) فلا بد من استعراض تاريخ هذه الاسرة قبل الحديث عن الحرب الطروادية نفسها .

آلهة اليونان :

ونعود إلى آلهة أوليمبوس لنقول إن الاغريق تصوروا آلهتهـم في صورة

البشر. وقد مر بنا كيف مجدت الحضارة اليونانية الانسان واعتبرته سيد الخلق. ولم يجد الاغريق قواماً أبدع من قوامه . ومن ثم فقد تخيلوا آلهتهم كأنهم بشر ورسموهم في صورة الانسان شكلاً وقواماً وإن تميزوا كلهم تقريباً بالقوة الخارقة والقوام البديع والجمال الرائع. وكانوا كالبشر يحتاجون إلى النوم ويأكلون ويشربون وإن اقتصر طعامهم على الامبروسيا (ambrosia) وشرابهم على النكتار (nectar) ، وهما طعام وشراب مقصوران على الآلهة دون سواهم . وكانوا يحبون ويكرهون ويفرحون ويحزنون . كانت بالاجمال تساورهم نفس المشاعر التي تساور بني الانسان، ويتزوجون وينجبون أولاداً ويعقدون علاقات مشروعة وغير مشروعة مع الآلهة ومع البشر . وقد يستبد بهم الغضب الجنوني وتنهش قلوبهم الغيرة العمياء . بل كانوا لا يتورعون أحياناً عن النفاق والمداهنة والكذب والحتال . ويسود الوئام بينهم أحياناً وأحياناً أخرى يشيع الخصام. لكنهم كانوا يتميزون عن البشر في شيء جوهري وهو أنهم كانوا يعيشون أبداً في شباب دائم فلا تتقدم بهم السن ولا يهرمون . كانوا خالدين لا يذوقون طعم الموت . وكان زيوس أكثرهم قوة وهيبة وأعلاهم شأناً ومكانة بوصفه رباً للآلهة والناس . ولذلك كان بقية الآلهة يدينون له بالطاعة ويمتثلون لأوامره ويخشون بأسه وبطشه . ومع هذا فإن ذلك لم يمنع من أن يتبع كل إله هواه وينساق وراء ميوله الخاصة وقد يتمرد على زيوس نفسه أحياناً أو يتملقه ويداهنه أحياناً أخرى . بل لقد حدث ذات مرة أن كاد له فريق منهم محاولين الإطاحة به عن عرشه. فلم يكن عرش زيوس دائماً وطيد الأركان مثله في ذلك مثل عرش الملوك على الأرض وعرش أجاممنون في ميكيناي. لكن تفوق زيوس الكبير على غيره من الآلهة كان بمثابة خطوة أولى على الطريق الطويل نحو التوحيد .

وثمة ملاحظة هامة هي أن آلهة الإغريق لم يكن لهم دخل بخلق الكون .

فالكون مخلوق من قبلهم . كل ما كان في وسعهم هو أن يتقمصوا صوراً وأشكالاً أخرى عندما يشاءون.ولم يكن لهم يد في كتابة الموت أو الحياة. وكان القدر (moira) قوة أخرى لا سيطرة لهم عليها . وفي الحق إنهم كانوا على خلاف الآلهة المحلية القديمة المرتبطة بالأرض والزراعة لا يكترثون إلا قليلاً بما يجري على الأرض ولا تعنيهم شئون البشر إلا من زوايا معينة . كانت حياتهم رغدة سهلة وينفقون معظم وقتهم فوق جبل أوليمبوس المغطى بالثلوج في مآدب وحفلات أو في تدبير المكائد ، أو قد يدعوهم زيوس بين الفينة والفينة إلى اجتماع للبت في أمر هام.وكانت الأهواءتتحكم في سلوكهم مع البشر فيقدمون العون لمن يؤثرون وينزلون غضبهم على من يبغضون . وكان معيار ذلك هو مقدار تقرب الناس إليهم بالتعبد وتقديم القرابين وحرق البخور في الهياكل والمعابد. وكثيراً ما كانت تحل نقمتهم على من لا يذكرونهم من البشر أو يضنون عليهم بالقرابين أو لا يوفون بنذور نذروها لهم . لكن مع تطور الفكر الديني أصبح آلهة الإغريق ينصرون الحق ولا يحبون الظلم ويجزون الناس عن الإحسان ويبغضون الآثام ولا سيما سفك دماء ذوي الأرحام. وبدهي أن الإغريق الأوائل لم يتخذوا من آلهتهم قدوة في حياتهم الأخلاقية. بل إن بعض المفكرين والفلاسفة لم يخفوا استنكارهم لهذه الصورة التي رسمها هوميروس للآلهة وأعلنوا احتجاجهم على سلوك آلهة أوليمبوس . وكانت التجارب الشخصية هي التي علمت الإغريق بعض مبادىء أخلاقية كالإشفاق بالغرباء وحماية المستجيرين وتبجيل الآباء والنفور من الزهو والكبرياء ، كما غرست التعاليم الدينية المتوارثة في نفوسهم روح العدالة ، ولم تلبث فضائل كالشجاعة والحكمة والفطنة والاعتدال(sophrosyné)وضبط النفس أن صارت محل اعجابهم ومثلاً عليا عندهم .

كيف استوى زيوس على عرش الكون :

إن أشهر الأساطير عن زيوس (Zeus) هي التي تدور حول صراعه الطويل ضد خصومه قبل أن يستوي على عرش الكون. ويعود بنا هذا الصراع إلى نشأة الكون نفسه .

يروي لنا هيسيود أنه لم يكن هناك في البدء سوى الفـــراغ (Chaos) ، وهي كلمة تعني فراغ الفم عند التثاؤب، وتدل الآن على معنى الغموض والفوضى والاضطراب. ومن بعد الفراغ أو الهيولي نشأت « جايا » (Gaia) أي الأرض، الربة ذات الصدر الرحب العريض ، موطن جميع الآلهة سواء من يسكنون منهم في الأعالي فوق جبل أوليمبوس أو في أغوار الأرض . وكان هناك إيروس (Erôs) أو « الحب » ، أجمل الآلهة الخالدين ، الذي يسري في أوصال الآلهة والناس ويتحكم في قلوبهم . ومن الفراغ نشأ الظلام (Erebos) . ومن الظــلام أنجب الليل (Nyx) نور السماء (Aether) وضوء النهار (Himera) .

وأما « جـايا » أو الأرض فكان أورانوس (Ouranos) أو « السماء » هو أول من أنجبته كفواً لها ليكون قرينها فيحنو عليها ويغطيها تماماً ، ويصبح منزلا أبدياً للآلهة المباركين. وقد تمخضت عن جايا كل الجبـــال التي تهوى الحوريات والعرائس (Nymphae) السكنى في تلالهـــا ، وكذلك البحار . ومن بينها البحر المزبد (Pontus) ، وكل الأنهار وفي مقدمتها أوقيـــانوس (Oceanus) النهر الإله أو إله النهر الذي تنبع منه كل الأنهار والينابيع والعيون بل والبحر نفسه ، ويجري باستمرار في حلقة دائرية حول الارض ويقوم كالحـد الفاصل بين العالم وما وراء العالم . ومن بينهم أيضاً كانت تثيس (Tethys) ، ربة البحر ، وزوجة أوقيانوس ، التي أنجبت منه ثلاثة آلاف ولد ، وهم الانهار

الذكور وعشرات البنات وهي عرائس النهر والبحر (Oceaninae)[1] أو بنات أوقيانوس. وكان من بين حفيداتها ثيتس (Thetis) سيدة البحر الكبرى، التي لا يستبعد أن يكون اسمها هو اسم جدتها نفسه محرّفا . وجميع هؤلاء الذين ذكرناهم أو فاتنا أن نذكرهم قد ولدتهم « جايا » بدون « إيروس » أي بدون الحب أي دون أن يمسها أحد .

وماذا عن أبناء « جايا » الأرض من « أورانوس » السماء ، ابنها وبعلها في الوقت نفسه ؟ لقد أنجبت ربة الأرض من رب السماء ١٨ ولداً وهم :

١ – التيتانيس (Titanes) وهم « الجبابرة » وعددهم ستة بنين وست بنات . وكانوا آلهة قدامى بدائيين يتصفون بالوحشية ومتمردين لا يرضخون لقانون . وكان أصغرهم هو كرونوس (Cronus) وأخته ريا (Rhea) . والأخيران هما والدا زيوس . وسنرى كيف يصطرع زيوس صراعاً رهيباً ضد أعمامه (وأخواله في الوقت ذاته) من التيتانيس « الجبابرة » .

٢ – الكيكلوبيس (Cyclopes) وهم مخلوقات كان لكل منهم – كما يتبين من اسمهم – عين واحدة مستديرة في وسط جبهته . وعددهم ثلاثة . وكانوا وفقاً لهوميروس وحوشاً يعيشون في المراعي النائية حيث لا حكومة ولاقانون. ولكنهم كانوا وفقاً لهيسيود صناعاً مهرة في صناعة الصواعق واسماؤهم على التوالي : الراعد والبارق والمضيء . وكثيراً ما كانوا يشتركون في بناء تحصينات المدن .

٣ – هيكاتونخيريس (Hecatoncheires) . وكان لكل منهم – كما

(١) وقد يسمون أيضاً Nymphae أي عرائس (البحر) أو حورياته ، ولم يكن خالدات بل كن يعمرن طويلاً جداً .

يتضح من اسمهم – مائة ذراع . وعددهم أيضاً ثلاثة .

وبعد انفصال « جايا » عن « أورانوس » وتآمرها مع أبنائها عليه أنجبت من دمه الذي نزف منه وسقط عليها نتيجة تمزيقه وخصيه المخلوقات الآتية :

٤ – الأرينيس (Erinyes) وهن ربات القصاص والانتقام أو هن – بعبارة أصح – اللعنات المجسدة أو أشباح الذين قتلو ظلماً .

٥ – العمالقة (Gigantes) وهم مخلوقات متوحشة سيصطرعون هم الآخرون مع زيوس وآلهة أوليمبوس صراعاً دامياً بالصخور وجذوع الشجر ، ويلقون حتفهم ويدفنون تحت رماد البراكين المنتشرة في بلاد الإغريق وايطاليا .

ثم أنجبت « جايا » من « ترتاروس » (Tartarus) وهو الظلام الكائن في أعمق أعماق الأرض ، أنجبت منه :

٦ – تيفون (Typhôn) [١] وهو تنين هائل له مائة رأس ويفح بأصوات تمثل أصوات كل الوحوش . وله مائة (أو مائتا ؟) ذراع ضخمة ، ومثلها من الأقدام . وكان من الجائز أن يحدث تيفون أضراراً جسيمة إذ سرق صاعقة زيوس وقطع أوتار عضلاته بسيفه . لكن هرميس استطاع أن يستردها . وعاجله زيوس بصاعقته وقهره وقذف به إلى حضن أبيه ترتاروس أي إلى أغوار الأرض

---

(١) ويرد اسمه أيضاً في صورة « تيفويوس » (Typhoeus) . أو تيفوس (Typhos) أو تيفاون (Typhaon) . والأخير غير « تيفاون » دلفي الذي أنجبته « ميرا » وحدها دون معاشرة زيوس وكان هو الآخر تنيناً رهيباً وكان وباءً على البشر . وقد حملته ميرا إلى دلفى حيث عهدت به إلى التنينة بيثون (Python) تلك الأفعى المائلة التي كانت تسكن كهوف جبل برناسوس وتحرس حجر دلفى المقدس ثم صرعها الإله أبولون بسهمه الذي لا يطيش . ومن ثم عرفت دلفى باسمها وكذلك الإله وكاهنته والمهرجانات الدورية التي كانت تعقد هناك . راجع ص ١١٦ ، ١٢٣ حاشية .

المظلمة . وقيل إن ثوران بركان جبل آيتنا (Aetna) في صقلية يرجع إلى تلك المعركة الرهيبة . وعلى أي حال فقد دفن تيفون تحت هذا البركان الهائل .

كان « أورانوس » ، رب السماء ، يجيء زوجته « جايا » ، ربة الأرض ، في كل مساء ليسترخي بجوارها. غير أنه كان يكره منذ البداية ابناءها الذين أنجبهم منها. كان يخشى على عرشه منهم. لذلك كان يبادر بإخفائهم بعد ولادتهم مباشرة ويقذف بهم في جوف الأرض حتى لا يروا نور الدنيا. كان يرميهم في «ترتاروس» وهو – كما ذكرنا – مكان مظلم سحيق في أعماق الأرض يبعد عن سطحها بُعد هذا السطح عن قمة جبل أوليمبوس . وبقدر ما كان « أورانوس » يبتهج بهذا العمل المرذول كانت « جايا » تبتئس بل تئن أنيناً موجعاً من ثقل حمل هؤلاء الأبناء في جوفها ، وهو حمل كاد يزهق روحها . وقد أثار مسلك أورانوس نحو ابنائها تبرمها منه وغضبها عليه. لذلك دبرت له مكيدة لكي تتخلص منه وبالتالي من عذابها المتصل . فأحضرت منجلاً من حديد حاد الأسنان ودعت أبناءها التيتانيس (الجبابرة) الاثنى عشر من بنين وبنات وفي مقدمتهم كرونوس الذي كان أصغرهم سناً وريا أخته . وناشدتهم مساعدتها في الأنتقام من أبيهم وتخليصها من شروره . وتآمروا جميعاً هم و « الكيكلوبيس » و « ذوو الأذرع المائة » على أبيهم أورانوس . وانبرى كرونوس – وكان أكثرهم خداعاً – انبرى مبديا استعداده للكيد لأبيه والتربص به في أي كمين. وأعدت له أمه الكمين ورسمت له الخطة وأعطته المنجل الحاد .

وجاءها « أورانوس » بليل مشتاقاً إلى مضاجعتها وأرخى سدوله عليها فالتحفته كدأبها في كل مساء. وعندئذ أنقض كرونوس من مخبئه بالمنجل وخصى أباه قاذفاً بعضو ذكورته (phallus) إلى مسافة بعيدة . وتسرب الدم الذي نزف من أورانوس إلى رحم « جايا » ، ربة الأرض ، فأنبتت ربات الغضب والانتقام(Erinyes) وكذلك العمالقة (Gjigantes). وأما عضو تناسل إله السماء

فقد سقط في البحر حيث اختلط به زبد الموج (aphros) الذي انبثقت منـه أفروديتي (Aphroditê) ربة الخصب والحب والجمال . ومنذ أن ارتكب كرونوس جريمته الدامية لم يقرب إله السماء ربة الأرض ولم يأت لمعاشرتها فاندثرت السلالة الأولى . وأعقبها حكم « كرونوس » الذي تربع على عرش الكون .

وقد تزوج كرونوس (Cronus) أخته ريا (Rhea) وأنجب منهـا ستة من آلهة أوليمبوس : ثلاث ربات كبيرات هن هيستيا وديميتر وهيرا ، وثلاثة أرباب كبار هم هاديس وبوسيدون وزيوس . وكما كان كرونوس أصغر أبنــاء أورانوس ، كذلـك كان زيوس أصغر أبناء كرونوس ، وإن روى هوميروس رواية مخالفة لهسيود ، مؤكداً أن زيوس كان أكبر اخوته . وقد شابه كرونوس أباه أورانوس في تخوفه من أبنائه ، فكان يبتلعهم بمجرد ولادتهم . ولعله خشي على عرشه منهم . وقد زاد من خوفه أن أبويه (جايا وأورانوس) حذراه من أن أحد ابنائه الاقوياء سوف يطيح بعرشه ولهذا أخذ حذره فكان يلتهم كل مولود تنجبه له زوجته . وقد حز ذلك في صدر ريا وجاوز ألمها حد الاحتمال . فلما اقترب ميعاد وضعها ابتهلت إلى أبويها ، الأرض والسماء ، أن يعيناها على أن تلد الطفل الجديد خفية في غفلة من أبيه اتقاء لشره ، وعلى أن تثأر أيضاً لأبنائها الآخرين الذين أخفاهم كرونوس في جوفه . واستجابت جـايا وأورانوس إلى دعاء ابنتها وكشفا لها عما خبأ القدر لزوجها وما كتبه لابنها الذي سيرى النور وشيكاً . وأرسل الوالدان ريا إلى جزيرة كريت حيث تولت أمهـا « جايا » حضانة الرضيع. وقد أخفت ريا طفلها في كهف بجبل دكتي أو إيدا(Ida)[1] وربما أيجايون . وكلها جبال تكسوها غابات كثيفة . فعلت ذلك حتى تخفيه عن أبيه كرونوس فلا يبتلعه مثلما ابتلع بقية إخوته . وقد خدعت ريا زوجهـا وقدمت له حجراً ملفوفاً في قماط فابتلعه ظناً منه أنه الطفل نفسه ولم يدر بخلده أن ابنه سيشب عن الطوق ويشتد ساعده ويطيح به ويجـرده من سلطته ويتبوأ مكانه .

(١) وهو غير جبل إيدا Ida بجوار طروادة في آسيا الصغرى .

هذه الاسطورة الكريتية عن مولد زيوس أسطورة غريبة فريدة إذ تقول إنه قامت بإرضاع زيوس الحوريات أو الحيوانات أو الطيور أو النحل . وفي مقدمتها العنزة أمالثيا (Amalthea) ، وهي أشهر مرضعاته . ورقصت حوله كائنات نصف إلهية ، أشبه ما تكون بالارواح (daimones) تعـرف باسم كوريتيس (Kouretes) أي « الصبية » ، وإن عرفت أيضاً باسم أصابع إيدا (Daktyloi Idaioi) لانها نبتت من أرض جبل « إيدا » التي ارتكزت عليها « ريا » بأصابعها عندما جاءها المخاض. هذه الكائنات أو الارواح أخذت ترقص حول زيوس بعد ولادته ، وتضرب دروعها حتى تطغي قرقعة السلاح على صراخ الطفل فلا يسمعه كرونوس [1] .

وبلغ زيوس بالفعل أشده واكتملت رجولته وقهر بالقـوة والخديعة أباه كرونوس ، بل أرغمه أيضاً على أن يلفظ من جوفه بقية اخوته . ولم يخلّص زيوس أشقاءه فقط بل حرر أيضاً أعمامه (وهم أخواله في الوقت نفسه) الذين كانوا لا يزالون في ترتاروس يرسفون في الأصفاد التي قيدهم بها أورانوس . وكان في مقدمتهم الكيكلوبيس ذوو العـين الواحدة المستديرة الذين اعترفوا بجميل زيوس عليهم فمنحوه الرعد والبرق والصاعقة وهي شعار قوته ورمز جبروته .

---

(١) وتضيف الاسطورة أن زيوس مات ودفن بجزيرة كريت. وليس ثمة شك في أنها فكرة مينوية الاصل ترمز إلى روح النبات ودورته ، غانة وموانه في كل عام .

وقد وامم الإغريق بين هذه الفكرة وبين إلههم السماوي زيوس ، بمعنى أنه كان يوجد في كريت قبل مجيء الإغريق ربة أرض أو أمومة كبرى (مثل أفروديتي وكيبيلي وغيرهما) وكان لها قرين شاب . وقد أحل الإغريق زيوس على هـذا الإله الكريتي وجعلوا منه قريناً لربة الخصب الكريتية . وابتدعت الأسطورة التي يتمثل فيها زيوس كطفل . لكنه كان في الواقع صنوا للصبية الراقصين من حوله فهو يدعى « أعظم الصبية » . وقد يتجسد زيوس الكريتي في شكل الثور المعروف بقدرته الفائقة على الأخصاب. وكان من خصائص الشبان رفقاء ربات الخصب الكبرى في الشرق أن يموتوا كل عام تمشياً مع دورة النبات السنوية. ولم يؤثر هذا التصور الإغريقي لزيوس في كريت على تصورهم له في بلاد الإغريق نفسها. ذلك أن عصر الشك لم يكن قد بدأ بعد.

محب الصيد والقتـال وتختلف بداهة عن آلهة السكان القدامى الأصليين (البلاسجيين) الذين كانت زراعة الأرض مهنتهم الرئيسية . كان دين الغزاة الأخيين دين سماء وربهم إلهاً للرعدوالبرق اللذين ينزلها على المغضوب عليهم. وكان الدين الآخر دين أرض وعبادة لخصوبة تربة الأرض ولا يخلو من طقوس سحرية ضماناً لاستمراره . وكانت الإلهـــة الرئيسية في منطقة البحر الإيجي والشرق الأدنى قبل مجيء الإغريق هي الربة الأم أو ربـــة الأمومة التي هي تجسيد للأرض المثمرة ومانحة الحيـاة والخصب للنبات والحيوان والانسان . وكانت عبادتها تتخذ بعض اشكال بدائية من الرمزية الروحية أو الغيبية تشير إلى الإعتقاد بإمكان الاتحاد بين العابد والمعبود . ومن ثم فقد تتخذ الطقوس الدينية أحياناً شكل التبني (تبني الربة للمعبود) أو المعاشرة الجنسية. وشتان بين عبادة آلهة الإغريق الدخيلة وعبادة الربة الفريجية كيبيلي (Cybelê) وعبادة الربة ديميتر في إليوسيس أو حتى عبادة ديونيسوس التي وفدت من طراقيا أو فريجيا (بالأناضول) إلى بلاد الإغريق .

لقد تصور الإغريق ـ وهم شعب خصب الخيال ـ أن كل مكان عرفوه في العالم كان مأهولاً بكائنات إلهية مختلفة الأصل . وقد وفـد بعض هؤلاء الآلهة مع الأخيين الهندو ـ أوربيين المتكلمين باليونانية عندما جاءوا إلى البلقان، وبعدئذ عندما امتـــد نشاطهم الاستعماري إلى منـــاطق أخرى في العصر التاريخي . وكان بعض هؤلاء الآلهة ينتمون إلى عصر الحضارة المينوية وقـد وجدهم الإغريق عند مجيئهم وتأثرت دياناتهم بهم تأثراً عميقـاً . وكان بعضهم الآخر آلهة محليين صغاراً موجودين في البـلاد منذ القرون المسيحية الأولى . وعلاوة على ذلك فـإن الإغريق أنفسهم لم تنتظمهم جميعاً وحدة سياسية ولم يبلغوا أبداً هـذه الوحدة . ومن المؤكد أن بعض طبقات من الغزاة الإغريق امتزجت بالسكان الأصليين . وترتب على ذلك أن نشأت مجموعة من مختلف

العبادات ومختلف المعبودات الكبيرة والصغيرة ، البدائية والمتحضرة . ونسبت لها اختصاصات أو وظائف مرتبطة على نحو أو آخر بدورة الحياة النباتية ودورة الحياة الإنسانية . ولم يكن في وسع شعب واسع الخيال كالإغريق ، وهم رواد الفلسفة ، ألا يتساءلوا عن الصلة بين هذه المعبودات المختلفة وعن الصلة بينها وبين العالم الذي تعيش فيه هي والمتعبدون لها . ومن ثم لا نجد رواية واحدة مسلماً بها أو معتمدة عن نشأة الكون أو أصل الآلهة أو بدء الخليقة . إنما نجد فقط اتفاقاً عاماً على الصورة الإجمالية أو الخطوط العريضة وهو ثمرة الخيال ونتاج التأمل الباكر في هذه الأمور . فنجد عند هوميروس الآلهة وقد انتظموا في شكل أسرة برأسها زيوس على غرار الأسر الآدمية . ونجد عند هيسيود أقدم رواية عن كيف حدث ذلك كله . وأخيراً ينبغي التنبيه إلى أن هوميروس هو الذي جعل من هؤلاء الآلهة أسرة واحدة بالرغم من اختلافهم في الأصل والنشأة . فكثير منهم لم يكن لهم في الأصل أي صلة بزيوس كبير آلهة الآخيين ، لأنهم كانوا موجودين بالمنطقة قبل قدوم هؤلاء الغزاة .

وسنفرد بقية هذا الفصل للحديث عن زيوس وإخوته الخمسة مرجئين الحديث عن أبنائه إلى الفصل التالي .

زيوس[1] : Zeus

لنبدأ بزيوس لأنه يأتي في مقدمة أرباب أوليمبوس . وفي الحق إن معلوماتنا عن الغزاة الإغريق تتلخص في كلمة هامة واحدة هي إسم زيوس . وقد شرحنا كيف استوى على عرش الكون . لكن هناك أسطورة ابتدعها خيال الأدباء تقول إن زيوس وأخويه اقترعوا على الكون فكان البحر من

---

(١) = جوبيتر (Iupiter) أو (Iuppiter) عند الرومـــان . والنطق الصحيح « يوبيتر » .

نصيب بوسيدون ، والعالم السفلي (باطن الأرض) من نصيب هاديس ، وكانت السماء والفضاء الأعلى من نصيب زيوس . وأما سطح الأرض نفسها فاعتبر مشاعاً بين الأخوة الثلاثة .

واسم زيوس (Zeus) مشتق من لفظ بمعنى الضياء واللمعان أو السماء أو السماء الصحو. فهو إله السماء أو هو السماء نفسها أو يسكن السماء التي يرسل منها المطر والبرق والرعد وينزل الصاعقة ويسيطر على الظواهر الجوية وعلى الطقس كله . فهو أيضاً رب الجو . ويصفه هوميروس بأنه جامع السحب . ويوصفه محركاً للرعد والصاعقة المخيفة فقد خلعت عليه ألقاب يتفق جرسها ورنينها مع هذه الصفة .

وكإله بهذه الصفة كان من الطبيعي أن يعتبره الإغريق الإله الأعلى، ويتصوروه في شخصية حاكم مهيب . لقد كان رب الصاعقة هو الإله الأعلى عند الشعوب البدائية. وكان وجود زيوس وعظمته من الأمور المسلم بها عند الإغريق. وقد يصطنع له كتاب الأساطير والشعراء شجرة نسب . لكن ذلك لم يترك انطباعاً قوياً في أذهان الناس . إن الصورة الرئيسية التي أنطبعت في أذهانهم هي صورة زيوس كحاكم وأب . فكلا الصفتين كانت تجتمع عادة في رئيس القبيلة البدائية. وذلك هو وضعه في الإلياذة . وقد يوصف بأنه ابن كرونوس . لكن كرونوس نفسه قلما يذكر في الإلياذة . لقد روي أن زيوس نفاه منذ زمن بعيد . لكن الإلياذة لا يتردد فيها أي صدى للصراع من أجل السلطة التي تتضمنها أسطورة كرونوس . إن زيوس هو أبو الآلهة والناس ، وهو الحاكم بين كل الخالدين . وأمامه يقف الانسان كمخلوق من طبقة أدنى ، مخلوق عاجز لا حيلة له. وزيوس خالد والإنسان فان . وهو قوي كل القوة والإنسان ضعيف . ويعيش زيوس في عالم خارجي أو بعيد عن الانسان تماماً . ولكي يتصل به الانسان أو يتقرب على

الوجه السليم فمن الضروري أن يسلم أولاً بسيادة زيوس ثم يعمل على استرضائه بالقرابين والعبادة . وزيوس حاكم وسيد لا يطيق وجود أي انداد له أو منافسين .

كان الصولجان شعاره والنسر طائره الذي يحلق في الأعالي (ملك الطيور) والصاعقة سلاحه الرهيب . وكان درعه (aegis) شيئاً لا تجسر العين على النظر إليه . إذا هزه انطلقت العاصفة والزوبعة (kataigis) . ويمثل الدرع سحابة الرعد المقبل . ويرسم في الفن كجلد الماعز (aegis) ويزين في وسطه برأس ميدوسا (Medusa) ، وهي أنثى متوحشة مجنحة تنطي رأسها الثعابين بدلاً من الشعر . ولها أسنان ضخمة . وكان من ينظر إليها يمسخ حجراً على الفور . وبدهي أن تعتبر قمم الجبال (التي يتربع زيوس على عرشها ومنها يصدر الظواهر الجوية) مقدسة لزيوس[1] . وكان النسر أيضاً مقدساً له . كذلك كانت شجرة البلوط. ذلك أن معبد زيوس في بلدة دودونا (في أبيروس) كان أقدم مركز للنبوءة (oraculum) في بلاد اليونان . وكانت الإجابات على أسئلة السائلين يحصل عليها عن طريق تفسير حفيف الرياح في شجرة بلوط قديمة موجودة هناك. كان الإله إذن يكشف عن إرادته بحفيف أوراق البلوط الذي تتولى الكاهنات تفسير معناه. وفي بعض الأحيان كانت تعلق في الشجرة أوان نحاسية لتجعل الأصوات أكثر رنيناً ووضوحاً. وكان التعرف على مشيئة الإله يتم أحياناً عن طريق تفسير هديل اليمام في الأغصان أو خرير المياه في الينابيع . وفي الحق إن كاهنات معبد دودونا كن يلقبن باليمام (Peleiai) . اوثمة أسطورة تعزو نشأة نبوءة زيوس في دودونا إلى يمامة جاءت إلى هذا المكان طائرة من طيبة (الأقصر) في صعيد مصر . لكن سرعان ما حجبت نبوءة

---

(١) في الواقع أن كلمة أوليمبوس olympos معناها « جبل » .

أبوللون في دلفي نبوءة زيوس في دودونا ، وصارت أم نبوءة في كل العالم الهليني [1] .

كانت قوة زيوس تفوق قوة الآلهة الآخرين مجتمعين . ومع هذا فلم يكن – وفقاً لتصور الكتاب – إلهاً قادراً على كل شيء أو يحيط علمه بكل شيء . وكان من الممكن – وفقاً لهوميروس – خداعه بل معارضته . ففي الإلياذة ترد قصة يمكر فيها بوسيدون وهيرا وأثينة به . وتوصف أحياناً تلك القوة الخفية وهي القدر (moira) بأنها أقوى منه ، فنجد هيرا تسأله ذات مرة في خبث أو استخفاف إن كان في وسعه أو نيته أن ينقذ من الموت رجلاً كتب عليه أن يموت في لوح القدر .

وتصوره كثير من الأساطير إلهاً يقع في حب نساء عديدات أكثرهن الهات وقليلات منهن آدميات . فنسمع عن زواجه بأكثر من واحدة غير هيرا زوجته الشرعية المستديمة . ومن ثم يخوض كتاب الأساطير في سيرته متندرين بمنازعاته المستمرة مع هيرا بسبب مسلكه المعيب الذي لا يليق بأرفع الآلهة مقاماً.ويصورون هيرا كزوجة«غيور»حائرة تنفق معظم وقتها في مراقبة زوجها والتجسس عليه لكشف حيله وألاعيبه وفضح سلوكه في السماء قبل أن يفضح في الأرض . وسنعود بعد لحظة إلى مناقشة ذلك لتمييز الغث من السمين . وأما عن نزاعه مع هيرا فمرده إلى أن زيوس كان إلهاً جديداً بينما كانت هيرا إلهة قديمة في تلك البلاد التي عرفت فيما بعد باسم بلاد اليونان . وكان لها مقامها ومكانتها. وقد مضت فترة قبل أن تتم المصالحة ويتحقق الوئام.فهذا النزاع يعكس صراعاً بين عبادتين عبادة إله الآخيين الغزاة الجدد وعبادة إلهة السكان الأصليين القدامى في البلقان .

---

(١) راجع ص ١٢٤ هامش ٢ فيما تقدم .

وأما عن زيجات زيوس بآلهات فليست كلها من نسج خيال الشعراء والأدباء . كان بعض هذه الزيجات له أساس ديني . ويسمى هذا النوع من الزواج بين إله وإلهة بالزواج المقدس (hieros gamos) . ولم يكن – كما ذكرت – وليد الخرافة اليونانية فقط بل كان مظهراً لعقيدة وعبادة قديمتين عند الإغريق . كان بعض هذه الزيجات في الواقع يعكس الاعتقاد السائد باقتران السماء بالأرض الذي يخصب الأرض . فالأرض تمثل عنصر الأنوثة والسماء تمثل عنصر الذكورة الذي يلقح الأرض بالمطر والبلل . وكان زيوس في نظر الإغريق هو إله السماء الذكر . ومن ثم فإن هذا الاعتقاد السائد يفسر عدداً من زيجات زيوس كزواجه من ديميتر وسيميلى وبرسيفوني، وكلهن آلهات أرض أي تتجسد فيهن روح الخصب. وهذا أيضاً هو التفسير المحتمل لزواجه من هيرا نفسها ولو أن الأدلة على أنها كانت أصلاً إلهة من إلهات الأرض ليست وفيرة أو بمنأى عن الاعتراض والتجريح . وكانت إلهات الأرض قديماً أو في أول الأمر يعبدن في أماكن مختلفة متباعدة . كانت أرجوس تعتقد أن هيرا هي قرينة زيوس ، وإليوسيس تعتقد أن قرينته هي ديميتر بينما كانت طيبة تعتقد أنها سيميلى . وقد أدى ذلك إلى صعوبات بمجرد أن بدأت محاولة التوفيق أو التنسيق بين مختلف الأساطير المحلية . وثمة احتمالان فإما أن زيوس كان له عدة زوجات فيما يشبه « الحريم » أو كان – إذا كانت له زوجة شرعية واحدة – رجلاً خائناً لعهد الزواج ميئوساً من صلاحه . في الواقع إن الفكرة الثانية لم يستنكرها الإغريق استنكارهم للأولى ولم تثر في نفوسهم ما تثيره الأولى من نفور واشمئزاز . كان الإغريق من الشعوب التي تمارس عادة الزواج بواحدة أي تؤمن بزوجة شرعية واحدة . لكنهم كانوا لا يضيقون ذرعاً بانحراف الأزواج ويسمحون أو يغمضون العين على العلاقات غير المشروعة . ولم يكن هناك ما يشين الأزواج أو الأبناء المولودين

خارج نطاق الزواج [١] . وعلى ذلك عندما امتزجت الأساطير المحلية وادمجت في كل واحد (بفضل شعراء الملاحم) اختيرت أو اصطفيت إلهة واحدة لتكون زوجة زيوس ، واعتبرت الأخريات خليلات له أو عشيقات [٢] . وكان هذا

(١) راجع ص ٧١ - ٧٢ فيما تقدم .

(٢) إلى جانب هيرا ، تزوج زيوس قبلها ديوني عندما كان لا يزال في دودونا وأنجب منها أفروديتي (وفقاً لرواية هوميروس) . ولعلها كانت عشيقته لا زوجته . وتزوج أختــه الأخرى ديميتير وأنجب منهـا برسفوني ، وعاشر الجبارة ليتو وأنجب منها أبوللون وأرتميس . ومن جبارة أخرى تدعى مايا (ابنــة اطلس) أنجب إبنه هرميس . وأنجب هيراكليس من الكميني وديونيسوس من سيميلي وكلتاهما توصف بأنهــا من البشر . ثم عاشر ميتس (ابنــة أوقيانوس وتثيس) التي اشتهرت بالحكمــة وحملت منه . لكنــه ابتلع الجنين أو أخفاه في رأسه . وفي رواية أخرى أنه ابتلع الأم نفسها وهي حامل في شهرها الأول خشية أن تنجب ولداً أكثر منه حكمة فيطيح به . وفيما بعد ولدت أثينة من رأس أبيها . وأما الزيجات التالية فهي زيجات رمزية وإليك بيانها :

- تزوج ثميس Themis (ومعنى اسمها الراسخة أو الثابتة أي ربة العرف الراسخ أو القانون الطبيعي الذي تسير الحياة طبقاً له) وأنجب منها :

١) ربات القدر Moirae (= Parcae) وهن : ا - لاخيسيس Lachesis التي تحدد مدة حيــاة الإنسان وعمره ب - وكلوثو Clotho الــتي تنسج خيط حيــاة الإنسان حـ - أتروبوس Atropos التي تقطع ذلك الخيط .

٢) ربات الفصول (Horae) وهن ١ - يونوميا Eunomia ربة نظام الحكم العادل أو الحكم الصالح ب - ديكي Dike وهي ربــة الجزاء العادل أو الحق حـ - أيريني Eirene ربة السلام ومــا يصحبه من رخاء . وترمز ربات الفصول هنا إلى أفكار أخلاقية وسياسية كالنظام والعدالة وما شابه ذلك لأن الفصول تأتي بانتظام ونظام معين .

غير أن الهوراي (Horae) يعتبرن في الغالب كربات يأتين مع تغـيـر الفصول ويجعلن الزهور تزدهر والنبات ينمو . وفي هــذه الحالة نجد أن أسماءهن وعددهن يختلف من مكان إلى آخر . فأحياناً هما اثنتان فقط : ثاللو Thallo (نمو النبات) وكاربو Carpo (ازدهار النبات والزهور) وقد تضاف إليهما ثالثة تسمى أوكسو Auxo (نضج النبات) . ثم أصبحن أربعة =

الوضع من شأنه أن يفسح المجال لخيال كتاب الأساطير والشعراء بغير حدود فيخترعون قصصاً أو يحرفون أخرى قديمة ويروونها بطرق مختلفة حسبما يحلو لهم ، وكلها أو معظمها لا ترتبط بالواقع إلا ارتباطاً طفيفاً أو لا ترتبط به على الإطلاق .

لكن إلى جانب خيال الأدباء كان يوجد أيضاً باعث آخر وهي نعرة التباهي بين الأسرة بعراقة أصلها وقدم نسبها إذ تملكت الأسر الأرستقراطية فيما بعد نزعة إلى ربط نسبها بالغزاة الإغريق الأوائل وعلى الأخص بزيوس إله هؤلاء الغزاة. فادعوا زواجه من نساء أسلافهم . وعندما كانت عبادة زيوس تنتشر في

= يمثلن الفصول الأربعة (الربيع والصيف والخريف والشتاء) وما يقترن بهذه الفصول من خيرات. وقد نسبن إلى هيليوس (إله الشمس) وسيليني (ربة القمر) ويرتبطن في العادة ببعض آلهة مثل ديميتير وكوري وأبوللون وديونيسوس وأفروديتي وبان كرفيقات تابعات . وكن يصعدن في أوجوس وفي أوليمبيا . ويشاهدن كضيوف في حفلات زواج آلهة أوليمبوس والأبطال . ويلقين كل ترحيب لما يخلعنه على الحفلات من بهجة وإشراق . وعندما قسم النهار إلى ١٢ قسماً متساوياً سمي كل قسم منه هورا (Hora) ، أي باسم واحدة من ربات الفصول . ومن اسم Hora اشتقت كلمة hour (في الإنجليزية) بمعنى ساعة من النهار .

– ثم تزوج زيوس يوريتومي Eurynomê (وهي إبنة أوقيانوس) وانجب منها الخاريتيس Charites (= Gratiae) وهن ربات اللطافة والرشاقة والبهاء اللاتي يرمزن للجمال الحسي أو المعنوي الذي يثير النشوة في الجسم أو البهجة في النفس . وكن يشاهدن دائماً بصحبة أفروديتي وكن صديقات أيضاً لربات الفنون وأسماؤهن هي ا ـ يوفروسيني Euphrosynê ب ـ أجلايا Aglaia ـ ـ ـ ثاليا Thalia .

– ثم تزوج منيموسيني Mnemosynê ربة الذاكرة والتذكر ومنها أنجب ربات الفنون التسع Musae اللاتي سبق الكلام عنهن (راجع ص ١٤٤ هامش ١ فيما تقدم) . ويعرفن في اللاتينية باسم كاميناي (Camenae) .

مدينة كان يوجد فيها من قبل إله أو حاكم مؤلـه ، امتزج الاثنان تدريجياً في إله واحد . وعندئذ كانت زوجة الإله المحلي أو الحاكم المؤله تؤول إلى زيوس . وعلى ذلك فإن نزعة التفاخر الأسري تفسر لنا كثيراً من قصص غرام زيوس بآدميات وعلاقاته النسـائيـــة التي لم ترق في أعين إغريق العصور التالية . ومع هذا فينبغي التنبه إلى أن بعض النسـاء الآدميات اللائي عاشرهن زيوس لم يكن أصلاً من البشر بل كن أنفسهن إلهـات أو مؤلهات . وحتى سيميلي ، أم ديونيسـوس ، جعل منهـا أهل طيبة إمرأة من البشر ونسبوها إلى كادموس (ابن ملك صور) مع أنها كانت في الأصل ربة للأرض والخصب كما يتضح من اسمها سيميلي أو زيميلي(Zemelê) .

والخلاصــة أن قصص زواج زيوس من ربات قدامى للأرض هي — في كثير من الحالات — صدى لارتباط أو اختلاط العبادات الجديدة بالعبادات القديمة . وهي تمثل من الناحية التاريخية امتزاجاً بين العقائد . كان الناس ينظرون إلى ما سميناه « بالزواج المقدس » كزواج عناصر الذكورة وعناصر الأنوثة في الطبيعـة لتخصيب الأخيرة . ومن قبل مجيء الإغريق وزيوس كانت إلهة الأرض أو إلهة الأمومة هي كل شيء بمنطقة شرق البحر المتوسط : كانت الربة الكبرى كيبيلي في فريجيا وكانت أفروديتي في بلاد الرافدين وفينيقيا ، وكانت ربـة الأرض في كريت كلهن ربات كبيرات لا منـــازع لهن . وكن جميعاً يرمزن لخصوبـة الأرض . وكان يقرن بربة الأرض ، أيا كان اسمها ، صبي أو شاب (غالباً وسيم الطلعة) أو حتى طفل ذكر (سرعان ما يكبر ويشتد عوده) . وكان تابعاً لربة الأرض يقوم بخدمتها ويأتمر بأمرها ويدور في فلكها وإن اتخذت منه عشيقاً أو قريناً . لكن بمجيء زيوس إلى بلاد البلقـان (اليونان فيما بعد) حدث تغيير في الوضع . كان زيوس بالنسبة للإغريق رب السماء الذكر ، وأب الآلهة والناس، ولا علاقة له أصلاً بالأرض أو الخصب . وكان لا بد من المواءمة بينه وبين هيرا

ربة الأرض والخصب ، أو الربة القديمة القوية التي كانت تتمتع بمكانة ومركز وطيد . ولذلك اصطنع الزواج بينهما . وكان زواجاً مقدساً بين إلهين قويين مع رجحان كفة زيوس إله الغزاة ، الذي يقوم بالدور القيـــادي في هذا الزواج . فعند هوميروس زيوس هو الملك(basileus)وليست هيرا إلا قرينة أو زوجة الملك ، الذي يجب أن تنزل عند إرادته وترضخ لمشيئته ، وإن كانت تفعل ذلك على مضض منها وغضب في بعض الأحيان . ويمكن القول — مصداقاً لما ورد عند هوميروس — بأن إله السماء الذكر الذي جاء مع الغزاة الأخيين قد نجح تماماً في فرض نفسه كشريك مسيطر في الزواج . لكن الغزاة لم يتمكنوا من طمس معالم المعتقدات أو الآلهة القديمة . فظل زيوس ذا طبيعة ثنائية أو مزدوجة أي يجمع بين عنصرين متناقضين تماماً:طبيعته كرمز للخصب التي تتضح من الأسطورة الكريتية عن مولده إذ تمثله كطفل أو شاب (kouros) أو ثور تتجسد فيـــه روح الخصب والنماء والدورة النباتيـــة ؛ وهي الأسطورة الوحيدة التي تتحدث عن موته (في كل عام ثم بعثه من جديد) [1] . وأما طبيعتــه كإله للسماء فقد أتى بها مع الإغريق الأوائل .

لكن زيوس ظل يعتبر في نظر الإغريق طوال تاريخهم كإلــه أعلى للجميـع بل إلهاً عالمياً . ويوصف في أقدم النصوص بالإله الأجل والأعظم والأكبر الذي يسكن في السماء . ولم يكن زيوس يتطلب من عباده تقديم القرابين فحسب بل إتيان العمل الصالح أيضاً « فهو لا يعين أبداً من يكذبون أو يحنثون باليمين » . لقد كانت هناك فكرتان متناقضتان عنه ، إحداهما حسنة والاخرى سيئة شأنه في ذلك شأن بقية الآلهة والآلهات . وقد ظلت الفكرتان إحداهمـــا إلى جانب الاخرى حقبة طويلة .

---

(١) واجع ص ٢٠٣ هامش ١ وترد الكلمة عند هوميروس في صورة kourés .

ولقد ذكرت أن زيوس كان رب الآلهة والبشر . لكن ذلك لا يعني أنه خالقهم ، بل يعني فقط أنه كان أب الآلهة والناس (Pater - Patroos) أي راعيهم الروحي . كان مركزه أشبه بمركز رب الأسرة عند الرومان (paterfamilias) .وتتضمن هذه الفكرة الموروثة عن الشعوب الهندية ـ الأوربية معنى أخلاقياً وهي حراسة القوانين ورعاية العرف المتوارث : كحماية اللاجئين ورعاية الغرباء ، وهي صفات ارتبطت دائماً بزيوس ، فعرف باسم حامي المتوسلين (Hikesios) وراعي الغرباء (Xenios) . ويفسر ذلك كيف أصبح زيوس رب فناء المنزل (Herkeios) الذي كان يحاط في العادة بسور لحماية سكانه من عدوان المغيرين وهجوم الحيوانات المفترسة . وأصبح زيوس رب الأسرة وحامي ممتلكاتها (Ktesios) . ولما كانت دولة المدينة ترتكز أساساً على الأسرة فقد صار زيوس ـ كما يتضح من أشعار هوميروس ـ راعياً للملك وحقوقه . وقد تصور أهل الحضارة الميكينية ربهم الأعلى والأرباب الآخرين على شاكلة ملك ميكيناي والأمراء الأقل جاهاً في المدن الأخرى . وكما كان هؤلاء الأمراء يدينون للملك ميكيناي بقدر من الاحترام والطاعة ، وقد يتنازعون معه أو يتمردون عليه في بعض الأحيان ، كذلك كان زيوس ـ على نحو ما رأينا ـ محاطاً ببعض أرباب مشاكسين ، قد يتحدونه أحياناً ولكنهم كانوا يجلونه في أغلب الأحايين . ولم يكن زيوس يحكم بمقتضى الحق والعدالة بقدر ما كان يحكم عنوة واقتداراً . وكان هوميروس هو الذي طبع صورة هذا الإله في أذهان الإغريق . ومع أن الملكية زالت من المدن اليونانية في العصر التاريخي إلا أن عرش زيوس ظل وطيد الأركان فأصبح الإله الأعلى لدولة المدينة (Polieus) جنباً إلى جنب أثينة ربتها العليا (Polias) لأنها كانت في الأصل ربة القلعة والقصر الميكيني وحامية مليكه . وكان زيوس بوصفه حامياً للحرية السياسية يدعى بالمحرر (Eleutherios) والمخلّص (Sôtêr) وانشئت له الأعياد بهذه الصفة . ومع أن زيوس لم تكن

تعنيه في العادة شئون الناس كالزراعة والحرب والحرف الأخرى إلا أن الإغريق لم ينسوا أبداً أنه حامي القانون والتقاليد. ويبتهل إليه الشاعر التعليمي هيسيود بوصفه نصير العدالة ويقرنه بالربة ديكي (Dikê) وهي ربة السلوك السوي وبعدئذ ربة الجزاء العادل أو الحق . ويبلغ زيوس أسمى مرتبة عند الشاعر المسرحي آيسخيلوس الذي يعظم من شأنه ويشيد بعدالته وتقواه وقوته الساحقة. غير أن أهمية زيوس لا تبرز أثناء العصر التاريخي في حياة الإغريق الدينية بقدر ما تبرز في الفن والأدب [1].

هيرا [2] : Hera

كانت ربة قديمة في بلاد اليونان. ولا نعرف اسمها الأصلي قبل مجيء الأخيين . لكن اسمها اليوناني هيرا (Hera) يعني « السيدة » (فهو مؤنث هيروس herôs بمعنى سيد أو فارس) . وقد جعل الإغريق منها أختاً لزيوس وزوجة شرعية . ويبدو أن أرجوس (Argos) كانت أقدم بلد عبدت فيه هيرا حتى أنها تلقب أحياناً بهيرا الأرجية (Hera Argeia) . وكان أشهر معبد لها يقوم في بلدة باسمها وهي بلدة هيرايوم (Heraeum) على بعد حوالي ستة أميال شمالي أرجوس . وكان أعظم وأشهر مركز لعبادتها بعد أرجوس هي جزيرة ساموس (Samos) حيث ولدت هيرا — على ما يروى — وعبدت منذ زمن مبكر ، وإن زعم أهل أركاديا — كما زعموا في حالة زيوس — أنها نشأت في إقليمهم . وكان يقام في ساموس احتفال سنوي يقوم الناس فيه بنقل تمثال هيرا

---

(١) من أروع تماثيله ذلك التمثال الذي صنعه له المثال الأثيني الشهير فيدياس في القرن الخامس ق.م في بلدة أوليمبيا ، مركز الدورة الأوليمبية الرياضية التي أنشئت هي الأخرى تمجيداً لزيوس في عام ٧٧٦ ق.م .

(٢) = جونو (Iuno) عند الرومان . والنطق الأصح (يونو) .

سرا من معبدها ويخفونه قرب الشاطيء . ويفسر ذلك بأنه رمز لتلك العادة القديمة التي كانت سائدة عند الشعوب البدائية حيث كان الزوج يختطف زوجته سرا (أو يتظاهر باختطافها عنوة من أحضان أمها). كذلك راجت حول هيرا أساطير كثيرة في جزيرة يوبويا حيث يقال أيضاً إنها عاشت فترة من شبابها وأنها هربت مع زيوس من هناك لكي يتزوجا عند جبل كيثايرون (قرب بلاتيا) في بيوتيا، ولو أن مدناً أخرى كيوبويا نفسها وأثينا وهرميوني وأرجوس وأركاديا وحتى كريت زعمت بأن الزواج المقدس بين هيرا وزيوس قد تمت مراسمه على أرضها . وقد راجت في بيوتيا أسطورة تقول إن هيرا تنازعت ذات مرة مع زيوس وهربت منه واختبأت قرب بلاتيا. وهدد كبير الآلهة بأنه سيتزوج بأمرأة أخرى وأتى بكتلة من خشب وجعلها في صورة عروس . وما أن سمعت هيرا بذلك حتى جن جنونها وانهالت على العروس تمزقها فلما اتضحت لها الخدعة ، حل الوئام محل الخصام وعاد الصفاء. وعلى أي حال فإن هذه الأسطورة كانت سبباً (aition) في نشأة ذلك العيد المسمى عيد ديدالا (Daedala) حيث كان ينظم موكب عرس تحمل فيه كتلة من الخشب مزركشة بأدوات زينة العروس. ويسير الموكب إلى جبل كيثايرون حيث كانت تقام كومة عالية تحرق فيها كتلة الخشب بعد تقديم القرابين لزيوس وهيرا . ولدينا أدلة وفيرة على انتشار عبادة هيرا في أنحاء كثيرة من العالم الهلليني سواء بمفردها أو مع زيوس .

كانت هيرا برغم متاعبها الزوجية بسبب عدم وفاء زيوس لعهد الزواج ، وبرغم أنها لم تنجب منه إلا إلهاً أوليمبياً واحداً ، ربة الزواج وراعية النساء وكل ما يتصل بحياتهن الجنسية كالحمل والولادة والرضاعة . وكانت بوصفها ربة للزواج تلقب بألقاب مناسبة مثل زوجيا (Zugia) أي التي تربط الرجل

والمرأة برباط الزواج ، وجاميليا (Gamelia) أي راعيـــة الزواج الشرعي المصحوب بالمراسم الدينية . وكان يوجد عند الأثينيين شهر مقدس لها يسمى جاميليون(Gamelion) أي « شهر الزواج »(ويقابل تقريباً يناير/كانون الثاني) وفيه كان يقام احتفال يسمى عيد الزواج المقدس (theogamia = heiros gamos) وكانت هيرا – على نحو ما ذكرنا – راعية للنساء وحياتهن الجنسية وولادتهن . ولقد قيل إنها كانت ربة للقمر . لكن الصحيح هو أنها اكتسبت بعض صفات ربات القمر لأن القمر – على ما يظن – له تـأثير على دورة النساء الشهرية [1] . وإذا لقبت هيرا في بلدة مثل استيمفالوس(في أركاديا)بالفتاة (Pais)والزوجة (Teleia) والأرمل (Chêra) فإن هذا لا يعني سوى أن النساء جميعاً – على اختلاف أوضاعهن - كن يبتهلن إليها ويسألنها العون في ساعات الشدة . وقد اشتهرت هيرا أيضاً – كأرتميس وهكاتي وابنتها ايليثويا – بمساعدة النساء عند الوضع (Locheia) ، وبحضانة الأطفال وإرضاعهم وتربيتهم . لكننا نعرف أن ابنتها إيليثويا (Eilithyia) أو إيليثيا كانت ربة الولادة . فما الذي حدث؟ هناك احتمالان إما أن هيرا بوصفها ربة كبرى انتحلت لنفسها اختصاص ابنتها الربة الصغرى فصارت هي ربة الولادة أو أنها (أي هيرا) كانت أصلاً صاحبة هذا الاختصاص ثم اصطنعت ربة صغيرة مستقلة وعهد إليها بهذا الاختصاص. وأياً كان الامر فقد اعتبرت هيرا صنواً لابنتها إيليثويا، أي مثلها ربة للولادة أو ربة « قابلة » تعين النساء على الوضع .

---

(١) جعل الرومان من ربتهم جونو صنوا لهيرا اليونانية . وكانت مثلها ربة للولادة وقد لقبت جونو بلقب لوكينا (Lucina) أي « ربة النور » لأنهـا كانت تساعد على أن يرى الأطفال نور الدنيا . ولعل ارتباط جونو بالولادة والنور هو ما جعل بعض القدماء والمحدثين يعتقدون بأنها كانت « ربة القمر » أو كان لها على الأقل صلة بالقمر .

ويعتقد بعض الباحثين أن هيرا لم تكن فقط ربة للزواج والولادة وما يتصل بحياة النساء الجنسية بل كانت من قبل ربة لخصب الأرض، وخصب الحيوان، أي كانت مثل كثيرات غيرها من الآلهات (والآلهة) ترمز لنمو النبات ودورته في الطبيعة، ووفرة الحيوان من مواش وأغنام لكن هذه الصفة احتجبت في العصر الكلاسيكي وراء صفتها كربة للزواج والولادة . ويسوق هؤلاء البعض من الباحثين أدلة لتأييد وجهة نظرهم هذه . ومع أنها ليست كلها مقنعة ولم تحظ بعد بإجماع المتخصصين إلا أننا لا نرى بأساً من إيرادها . ومن بين هذه الأدلة أن هيرا كانت تعبد في أرجوس باسم ربة النير Zeuxidia (الذي يشد إليه الثور) وباسم « الغنية بالثيران »، وأنه كان يحتفظ بمعبدها في هيرايوم (قرب أرجوس) بقطيع مقدس من البقر . كذلك توجد أساطير كثيرة عن تقمص هيرا شكل البقرة مثل إيو (Io) التي مسخها زيوس بقرة في حكاية أخرى كي لا تتعرف عليها هيرا لكن الحيلة لم تنطل عليها وكشفتها ولاحقت المسكينة بذبابة ظلت تلسعها حتى هربت إلى مصر . وفي الإلياذة توصف هيرا « بذات عيني الثور» . وكانت الماعزة حيواناً مقدساً لها . وكانت سنابل القمح – وفقاً لرواية كاتب متأخر من العصر البيزنطي – تسمى «زهور هيرا». ورأى الكاتب اليوناني الرحالة باوسنياس (القرن الثاني م) في أرجوس معبداً لهيرا ذات الزهور أي ربة الزهور (Hera Antheia)، وقيل عن الربة أنها كانت تهوى السوسن بوجه خاص . وعندما أدى لبن هيرا إلى نشأة المجرة (في الفلك) – وفقاً لأسطورة أخرى من العصر المسيحي – سقطت بعض قطرات منه على الأرض فنبتت زهور السوسن حيث سقطت . ويتألف الإكليل الذي يزين رأس هيرا على نقود أيليس وأرجوس من أزهار السوسن . وكانت بعض الأزهار مقدسة للربة باعتبار أن هذه الأزهار تحتوي على خصائص طبية ذات أهمية خاصة للنساء إذ تنظم مجيء الدورة الشهرية أو تستعمل كعلاج من

العقم . لعلها كانت إذاً – كما يذهب هذا الفريق من الباحثين – في الأصل ربة للأرض وخصبها . لكن هذه الصفة احتجبت وراء صفتها كربة للزواج والنساء والولادة . وليست طبيعة هيرا الأصلية بذات أهمية حيث أن الإغريق غيروها أو بالأحرى غيرها هوميروس الذي رسم لها صورة أخرى ظلت منطبعة في الأذهان . فهو الذي حدد إطارها للأجيال التالية تحدده بأنها زوجة زيوس الأوليمبية دون أي صفات متصلة بالأرض أو باطنها أو خصوبتها أو ثمارها وزهورها . لكن من الغريب أن هيرا ربة الزواج التي تساعد غيرها من النساء على الوضع لم تنجب هي نفسها من زيوس سوى إله أوليمبي واحد هو أريس (إله الحرب) ، وهو إله لا يقوم بدور كبير في الإلياذة ، بل كان إلهاً بغيضاً ومبغوضاً حتى من أبويه ، وسوى ربتين صغيرتين ضئيلتي الشأن هما هيبي (Hebê) ربة الشباب ، وإيليثيا (Eilithyia) ربة الولادة التي انتحلت أمها وظيفتها فحجبتها . بل إن عالماً كبيراً مثل فارنل يشك في أن يكون حتى هؤلاء الأبناء الثلاثة منحدرين من صلب الزوجين الملكيين زيوس وهيرا . وأما هيفايستوس فقد أنجبته هيرا دون شريك ذكر أي دون معاونة زيوس . وكان إلهاً مشوهاً تبرأت منه أمه وتبرأ هو منها .

ولا يبقى بعد ذلك سوى بعض نوادر وحكايات طريفة عن هيرا وغيرتها التي تحدث بها كل الكتاب والشعراء . إذ تظهر هيرا في كثير من الأساطير إن لم يكن في أغلبها في صورة الرقيبة على حركات زوجها زيوس وسكناته . ذلك أن زيوس كبير الآلهة لم يكن على جلال قدره وسمو منزلته زوجاً مخلصاً فكان يتحايل بشتى الطرق للاتصال بغيرها من الآلهات وغير الآلهات . ومن ثم فقد أضاعت هيرا معظم وقتها في تعقبه لكشف خدعه والإيقاع به والانتقام من عشيقاته مما انتحلن من أعذار لتبرير مسلكهن . وكان يزيد مهمتها صعوبة قدرة زيوس على أن يتقمص أي شكل يشاء ادمياً أو حيوانياً مما يجعل من المتعذر

كشفه . وليت الأمر وقف عند هذا الحد . فقد كان زيوس مزواجـــاً ، الأمر الذي أثار الغيرة الشديدة في قلب زوجته فكرست كل جهدها الكيد لزوجاتـه وابنائه منهن . وقد ناصبت هؤلاء الغريمات وابناءهن العداء الشديد ، وانطوى صدرها على حقد دفين على ليتو أم أبوللون وأرتميس وعلى سيميلى أم ديونيسوس ، وألكميني أم هيراكليس . بل إن هيرا كانت تغار حتى من الأبناء الذين أنجبهم زيوس دون الاتصال بغيرها من الآلهات . حدث ذلك مثلا عندما أنجب زيوس أثينة من رأسه على نحو ما روينا [١] . فقد حقدت عليه هيرا لأنه أنجب أثينة من رأسه دون الاتصال بها ، وهي زوجته الشرعية . وتملكهـا الغضب فسعت هي الأخرى إلى إنجاب أبناء دون معاونته ، أي بمعجزة دون أن يبـاشر لأنها بوصفها ربة للزواج والزواج المقدس لم تحاول أبداً تدنيس فراش الزوجية . فلما بلغهـا نبأ ميلاد أثينة العجيب (وهو مرسوم على إفريز معبد البارثنون) لما بلغها النبأ صاحت في مجمع الآلهة غاضبة « أنصتوا إلي ، أيها الآلهة وأيتها الآلهات ، انصتوا جميعاً وانظروا كيف يجلب لي زيوس العار والمهانة ، وهو أول من يفعل ذلـك العمل المشين بعد أن صرت زوجتـه . لقد أنجب وحده أثينة التي هي قرة عين أبيها والآلهة الخالدين بينما ابني هيفايستوس الذي أنجبتـه ، ولد مشوهاً قبيحاً فأصبح وصمة في جبين أوليمبوس . ولا أخفي عليكم أنني ألقيت به في البحر . لكن ثيتس ، ابنة نيريوس ، تلقفته وعنيت به هي وأخواتها . وليتها أدت لنا خدمة أخرى ! أي زيوس ، أيها الوحش المخـادع ، كيف اجترأت على أن تلد أثينة ؟ أو لم يكن في وسعي أن أنجب لك طفلاً ؟ أو لست أنا زوجتك ؟ إنني سأعمل من الآن على أن أنجب ابنا سوف يكون دُرّة بين الآلهة . وسأفعل ذلك

---

١ - راجع ص ٢١٩ هامش ٢ فيما تقدم.

دون أن أدنس فراشك أو فراشي . ولن أتصل بك بعد اليوم . لسوف أهجرك » .

وانتبذت هيرا مكاناً قصياً عن سائر الآلهة ثم ابتهلت ضاربة الأرض براحة يدها قائلة « أي جايا وأورانوس ، ربة الأرض ورب السماء ، استمعا إلي من عليائكما . وأنتم أيها التيتانيس الجبابرة ، استمعوا إلي يا من تسكنون في ترتاروس بأسفل الأرض ، أنتم يا أجداد الآلهة والناس ، أعيروني آذانكم جميعاً ، وهبوني أبناً لا يكون أضعف من زيوس نفسه . وكما كان زيوس أشد بأساً من أبيه كرونوس ، أجعلوا ابني أشد بأساً من زيوس » . وضربت الأرض بيدها القوية فسرت رعدة في أوصال جايا ، مصدر الحياة ، كل الحياة . وانشرح قلب هيرا لأنها أدركت أن جايا استجابت لدعائها وحققت أمنيتها . ومنذ ذلك الحين لم تضاجع هيرا زيوس عاماً بأكمله ولم تجلس بجواره حيث اعتادت أن تجلس وتشاوره الأمر . وأقامت في المعابد تستمتع بما يقدم لها من قرابين . وبعد أن مر حول جاءها المخاض فولدت مخلوقاً لا يشبه الآلهة أو الناس. وكان هذا المخلوق هو تيفاون (Typhaon) ، التنين الرهيب الذي كان وبالاً على البشر . وحملته هيرا إلى دلفي حيث عهدت به إلى التنينة بيثون (Python) ، تلك الأفعى الهائلة الرهيبة التي صرعها أبوللون ، إله السهم ، بسهمه الذي لا يطيش .

وثمة قصة أخرى عن هيرا . فقد أحست هيرا بالخزي من ابنها هيفايستوس الذي ولد فجأة مشوهاً قميئاً الأوان قبل . ولذلك نبذته منكرة أنها أمه . وأثار ذلك حقده الدفين عليها . وكان يعهد إليه بوصفه أمهر الصناع ، صناعة عروش الأرباب . وفي ذات مرة أرسل عرشاً جميلاً إلى هيرا التي اغتبطت بالهدية وجلست على العرش في زهو واعتزاز . لكنها سرعان ما وجدت نفسها مقيدة بسلاسل خفية . ولم يلبث العرش نفسه أن ارتفع بها وهي مصفدة عليه بالأغلال

إلى أعلى الفضاء . ولم يستطع أحد أن يفك أسارها . وساد الذعر بين الآلهة . وقد أدركوا جميعاً أن الحيلة من تدبير هيفايستوس فبعثوا إليه برسالة يرجونه فيها ضرورة الحضور لتخليص أمه من الشرك . لكنه أجابهم في عناد بأنه ليس له أم . وانعقد مجلس الآلهة للتشاور فيما ينبغي عمله . وخيم الصمت على الجميع ولم يدروا كيف يحملون هيفايستوس على الحضور إلى أوليمبوس . وانبرى أريس ، إله الحرب ، ليضطلع بالمهمة . وقد خاض معركة عنيفة مع هيفايستوس بالمزاريق والحراب . لكنه ارتد مدحوراً أمام اللهب الذي قذفه به رب النار والبراكين . وعاد أريس يخفي حنين منهزماً محسوراً . وأما بقية القصة فقد وصلتنا مصورة في رسوم بديعة على الأواني الخزفية . ومن هذه الرسوم يتبين أن ديونيسوس ،إله النبيذ ، وابن زيوس من سيميلي،هو الذي استطاع أن يحضر هيفايستوس إلى منزل الآلهة . فقد احتال عليه بأن قدم له نبيذاً أغله وأفقده وعيه. ثم أركبه بغلا ورافقه إلى أوليمبوس كأنه يسوقه في موكب من مواكب النصر . ولا مراء في أن الآلهة قد ضجوا بالضحك عندما شاهدوا الصانع الماهر وهو يترنح مخموراً . لكن هيفايستوس لم يكن ثملا إلى الحد الذي يحمله يطلق سراح أمه دون مقابل . فقد أصر على أن يظفر بأفروديتي زوجة له أو بربة أخرى كأثينة . غير أن هيفايستوس القبيح الأعرج لم ينل أبداً الحظوة لدى الآلهات . وعلى أي حال فقد أخلى سبيل هيرا بعد تحطيم الأغلال .

وقد اشتهرت هيرا بعداوتها لطروادة والطرواديين وبذلت قصارى جهدها لإلحاق الهزيمة بهم وتدمير مدينتهم . ولاحقت بكراهيتها آينياس الطروادي الذي نجا من حريق طروادة ، وجعل منه فرجيل ، شاعر الرومان ، بطلا للملحمة الآينيادة . ولعل كراهيتها للطرواديين ترجع إلى القصة المشهورة باسم « قضاء باريس » التي قيل إنها كانت السبب الأصلي للحرب الطروادية لأن باريس ابن برياموس ملك طروادة حكم أو قضى بأن تكون«التفاحة الذهبية»لأفروديتي

دون أثينة وهيرا مثيراً بذلك على بلده وأهله غضب هيرا وحقدهـــا الدفين .

هاديس : Hades = بلوتون : Ploutôn : [1] :

وبينما كان زيوس إله السماء والفضاء والضوء كان أخوه آئيديس (Aîdês) أو هاديس إله العالم السفلي المظلم حيث كانت تذهب أرواح الموتى وفقـاً لتصور الإغريق . كان إله الموتى لا الموت نفسـه المسمى عندهم ثناتوس (Thanatos). واسم هاديس أو آئيديس معناه غير المنظور أو الخفي الذي لا تراه العين. واسم هاديس هو اسم الإله نفسـه وأما اسم عالم الموتى فيسمى « بيت هاديس » .وقلما كان هاديس يغادر مملكته الموحشة ليزور أهله في أوليمبوس ولا كان هنـاك من يدعوه إلى زيارته إذ كان ضيفاً ثقيلاً وزائراً غير مرغوب فيه. وكان يلقب بمضيف الأرواح الكثيرة (Polydegmôn) وبغيره من ألقاب الإطراء أو المجـاملة أو المداهنة لا لشيء إلا لأن الإغريق كانوا يتحاشون الحديـث عن الموت سواء فيما يتصل بهم أو بأقاربهم وأصدقائهم وكانوا يشيرون إلى الموتى بكلمة « الراحلين » أو المباركين (makaritai) . وقلما كان اسم هاديس يرد على الألسنة فهو نذير شر فضلاً عن أنه لم يكن له دخل أو صلة بالأحياء اللهم عندما يتوسل الأحيـاء إليه من أجل أقاربهم الموتى . ويتبين من وصف الأدباء والشعراء أنه كان إلهاً متجهم الوجه ، جامد القسمات ، رهيباً ترتعد منه الفرائص فرقاً، عنيداً لا يلين صارماً لا يرحم. ولا يعني هذا أنه كان يمثل الشر أو شريراً فليس هناك شيطان في أساطير اليونان . ولا كان هو المعذب الحقيقي للمذنبين ، فتلك كانت مهمة موكلة للإرينيس (Erinyes) [2] ، ربات القصاص والانتقام أو إن شئت الدقة

(١) هاديس هو أوركوس(Orcus)، وبلوتون هو بلوتو (Pluto) أو ديس (Dis) عند الرومان . واللقب الأخير صورة مدغمـة من الصفة اللاتينية (dives) بمعنى الغني أو الثري .

(٢) من الفورياي (Furiae) عند الرومان .

من أشباح المقتولين ظلماً أو اللعنات المجسدة ، وإنما يعني أن عقابه كان شديداً على المجرمين وأنه يحكم مملكة الموتى بحزم بل بقبضة من حديد فلا يسمح لأحد بالخروج من مملكته بعد دخوله ولا بدخولها إلا لقلة قليلة من المصطفين. ولم تكن له تحت اسم هاديس عبادة في بلاد اليونان إلا في إيليس . ولا نسجت حوله أساطير سوى أسطورة قدر لها أن تكون من أهم الأساطير . وإذا كان ولا بد من أن يعبد فلتقدم له الخراف السوداء قرباناً. وكان على من يتقدم بالقربان أن يشيح بوجهه عن مذبح الإله لأن أحداً لا يجسر على التطلع إلى وجهه. ونجد رأس هاديس مرسومة على إناء فخاري وهي مدارة إلى الخلف لأنها رأس من لا ينبغي لاحد أن يمعن فيه النظر ؛ رأس الإله الرهيب الذي يوري الاحياء ويحجبهم عن الانظار. وفي الواقع إنه قلما يرسم في الفن.وإذا رسم فهو لا يختلف في شكله عن زيوس إلا في قسمات الوجه . لكنه يشبه زيوس تماماً عندما يكون الاخير مرعداً . وفي الحق إن هاديس كثيراً ما يسمى « زيوس » مع تمييزه عنه بلقب يدل على وظيفته ، بل إن زيوس يخرج أحياناً عن دائرة اختصاصه في السماء والفضاء ، ويعده إلى باطن الأرض ، إلى العالم السفلي أو عالم الأموات .

وأما عن لقبه الآخر « بلوتون » أي « الغني » فهو مشتق من لفظ بلوتوس (ploutos)اليوناني بمعنى ثروة أو ثراء.وقد لقب كذلك لأنه ملك باطن الأرض، مصدر الثروة الزراعية ولا سيما القمح . فهو « الثري » أو « مانح الثروة » . هذا سبب والسبب الآخر أنه تزوج من الفتاة « كوري » ابنة ديميتير ربة القمح . وفي التصور الإغريقي كانت وظيفتا الأرض كمستقبلة للبذرة التي تنبت فيما بعد وتصبح ثمرة ذات حياة خصبة جديدة ، وكموطن لأرواح الموتى ، كلتاهما كانت مرتبطة بالأخرى. فالإله بلوتون « الثري » أو خازن ثروة الأرض النباتية هو نفسه هاديس « إله الموتى » أو خازن أرواح الموتى . وكانت زوجته هي ابنة ديميتير التي كانت تعرف باسم كوري (Korê)أي الفتاة أو الصبية. وبهذه

الصفة كانت ترمز للحياة الشابة للزهور المتفتحة والثمار النابتة. ولعلها لم تكتسب لقب برسيفوني (Persephonê) إلا بعد اختطافها على يد خالها هاديس وزواجها منه وتربعها بجواره على عرش مملكة الموتى . ذلك أن اسم برس (Persé) وبرسيس (Pérsis) وبرسيوس (Perseus) ومشتقاته كان مستعملاً قبل مجيء الإغريق للدلالة على ملكة العالم السفلي أو عالم الموتى [١] .

ولقد ذكرت أن هاديس قلما كان يترك مملكته ليمشي في الأرض أو يزور أسرته في جبل أوليمبوس . لكنه ظهر ذات مرة على سطح الأرض . وليته ما فعل ! لقد خرج من عزلته ليبحث عن زوجة تؤنس وحشته في مملكته المقبضة . وحدث أن كانت « كوري » بنت ديميتير العذراء بارعة الجمال ووحيدة أمها ، حدث أن كانت تلعب مع بعض صويحباتها . ولا تسأل الآن من هو أبو « كوري » هذه فالسؤال أعسر من أن يجاب بسرعة . دعنا نمضي في سرد قصة اختطافها ، تلك القصة التي تمثل تأسيس مملكة الموتى وأهم من ذلك نشأة « طقوس اليوسيس السرية » . وسنسرد القصة بإيجاز إذ لنا عودة إليها عندما نتحدث عن ديميتير وهذه الطقوس السرية [٢] . كانت « كوري » تلعب مع بنات أوقيانوس ومع الربتين أثينة وأرتميس اللتين كانتا عذراوين مثلها . كن يلعبن في أحد المروج النضرة قرب بلدة هنّا أو إنّا (Enna) [٣] بوسط جزيرة صقلية . وكن يقطفن الزهور : البنفسج والسوسن والزنبق والزعفران .

(١) في الحق إن برسيفوني كانت ربة قديمة موجودة قبل مجيء الإغريق الذين قالوا عنها بكوري ، إبنة ديميتير ، ربة القمح . وكانت كوري صورة أخرى أو مزدوجة لأمها (قارن إيليثيا وهيرا كربة للولادة) وكلتاهما كانت تجسيداً للقمح عند بدء نضوجه .

(٢) وردت القصة في النشيد الديني لديميتير المنسوب خطأ لهوميروس (وتاريخه القرن السابع ق.م).

(٣) تسمى الآن كاسترو جاني (Castro Janni)

وقد فتنت « كوري » بجمال السوسن واستهواها شذاه فابتعدت مسافة عن رفيقاتها وهمت باقتطافه بكلتا يديها . وفجأة انشقت الأرض عن هاديس إله الموتى وهو راكب عربته التي تجرها جياد سوداء داكنة . ولا تنسى أن هاديس يرتبط بالخيول مثلما يرتبط بها بوسيدون (إله البحر) أكبر الظن لاقترانها بالموت في أذهان الإغريق مع أنهم عرفوها وروضوها منذ وقت مبكر . وانقض هاديس على الفتاة وحملها في عربته عنوة . ولم يأبه بمقاومتها أو صراخها الذي مزق سكون الفضاء ورجعت قنن الجبال وأغوار اليم صداه . لكن زيوس نفسه لم يسمع صراخ « كوري » – وإن كان اختطافها قد تم برضائه – لأنه كان حينئذ في مكان بعيد يتقبل القرابين بأحد معابده المختارة . وقد انفطر قلب ديميتير حزناً على إبنتها فهامت على وجهها تبحث عنها في كل مكان . ولم تجد من بين الآلهة من يدلها على مكان اختفاء إبنتها . وطفقت تمشي على غير هدى حاملة شعلتين متوهجتين (من نيران بركان إتنا) . وغمرها حزن شديد فلم تذق الربة طعم الأمبروسيا ولم ترشف شفتاها النكتار ولم تغتسل أبداً بماء . وبعد تسعة أيام أطلعها هيليوس (Helios) ، إله الشمس ، على الحقيقة كاملة ملقياً التبعة على عاتق زيوس نفسه الذي تواطأ مع أخيه وسمح له أن يتخذ من « كوري » زوجة لتشاركه عرش مملكة الموتى. وقد مرت ديميتير أثناء تجوالها بحثاً عن ابنتها ببلدة اليوسيس (Eleusis) في أتيكا حيث رحبت بها أسرة ملك المدينة وسرت عنها بعض أحزانها دون أن تعلم الأسرة شيئاً عن شخصية الربة التي بدت في صورة عجوز شمطاء رقيقة الحال زرية الهيئة . وقد كان لهذا الحدث أعمق الأثر في قلب الربة . وفاتنا أن نذكر أنه منذ أن حزنت الربة لفقد ابنتها وهجرت أوليمبوس مغضبة بحثاً عنها عم الأرض جدب شديد فلم تثمر ولم ينبت قمح أو زرع . وتهدد الدنيا القحط والمجاعة . وتوسط زيوس في الأمر . وأصرت ديميتير على استرداد ابنتها . لكن ذلك أصبح مستحيلاً إذ

كان هاديس قد احتال على « كوري » وجعلها تأكل بعض حبات من الرمان أو لعله غافلها ودس في فمها حبة رمان واحدة . ومن يأكل من رمان عالم الموتى لا بد أن يعود إلى عالم الموتي . كان لا بد إذن من التوصل إلى حل وسط . وتم الاتفاق على أن تعيش كوري أو برسيفوني مع زوجها هاديس ثلثاً من السنة ، وتعيش الثلث الآخر – وهو فصل نضوج القمح وإيناع الثمر وشيوع البهجة – مع أمها فوق سطح الأرض . وأما بقيـــة السنة فقد ترك لها أمر التصرف فيها حسبا تهوى . ولم تعد كوري عذراء كأرتميس وأثينة . ولم تنجب برسيفوني من هاديس أبداً فظل زواجها عقيماً كالموت نفسه .

وماذا عن فكرة الإغريق عن العـالم الآخر أو عالم الموتى ؟ إن تصورهم له لم يكن واضحاً أو موحداً أو متفقـاً عليه من الجميع . لقد تصوروه أحيانـاً كمكان يقع في باطن الأرض ، وأحياناً أخرى في الغرب . وقد حاول هوميروس (في الأوديسيا) التوفيق بين التصورين حيث يقول إن المدخل العادي إلى عالم الموتى يقع في أقصى الغرب وراء نهر الأوقيانوس ، وهو مدخل يؤدي إلى بيت هاديس حيث كانت تذهب أرواح الموتى لتعيش كالأطياف أو كالأشباح حياة لا لون لها ولا طعم . لكن ليس كل الموتى يذهبون إلى هـذا المكان الموحش . فهناك عدد قليل من الأبطال والأبرار ينتقلون بعد موتهم روحـاً وجسداً إلى الإليزيون (Elusion) [١] ، وهو مكان شبيه بالجنة أو الفردوس يسوده الهناء التام والنعيم المقيم . وأما عن موقعه فقد تصوره الإغريق تارة كمكان منفصل عن عالم الموتى . وهذا تصور منطقي لأن بيت هاديس كان عالم أشباح لا عالم أحياء قـد وهبوا الخلود ؛ وتصوروه تارة أخرى – كما يتبين من وصف أرسطوفانيس (وفرجيل شاعر الرومان) كمكان في العالم السفلي منعزل عن

(١) في اللاتينية Elysium .

عالم الأحياء بنهر من أنهار العالم الآخر . وعند هوميروس (القرن التاسع ق.م) أن « الإليزيون» أو الفردوس كانت دار الأبطال المصطفين من أمثال كادموس وأخيل وديوميديس ومنلاوس زوج هليني . ويلاحظ أن أغلبهم ينحدرون من صلب زيوس أو يمتون له بصلة القرابة . وقد ألحق بهم فيما بعد من قتلوا في سبيل أوطانهم مثل قتلة الطغاة في أثينا . وأما عند هسيود (القرن السابع) فهي دار المباركين . وفي الحقيقة إن هذا الشاعر هو الذي أطلق عليها اسم « جزر المباركين » ومنذ أيام بنداروس ، الشاعر الغنائي الشهير (أوائل القرن الخامس) صارت الإليزيون — مع ارتقاء الفكر الديني والمثل الأخلاقية — داراً مقصورة على الأخيار والأتقياء الذين بلغوا أسمى مراتب الفضيلة وأصبحوا أكرم الناس عند الآلهة . وأما فرجيل شاعر الرومان (القرن الأول ق.م) فقد أفسح في الإليزيون مكاناً لمن تعاظمت سيرتهم في الأرض بالبحث عن الحقيقة : الفلاسفة والكهنة والشعراء الذين ألهمت أشعارهم الناس مبادىء سامية وأفكاراً نبيلة .

وعلى نقيض «الإليزيون» أو دار النعيم كان يوجد في العالم السفلي أيضاً «ترتاروس» (Tartarus) وهو دار الجحيم حيث كان يعاقب الأشرار . وهنا أيضاً نجد أن الأفكار الأولى عند الإغريق لم تكن أخلاقية . فليس كل من يتعذبون فيه مذنبين أو مرتكبي آثام جسيمة بل هم بعض أشخاص أساءوا إلى الآلهة أو أهانوهم . وقد رأى أوديسيوس بينهم تيتيوس (Tityos) العملاق مغلولاً بالسلاسل ولا يستطيع أن يدفع عن نفسه نسرين ينهشان كبده المتجدد باستمرار . كانت جريمته هي محاولته اغتصاب ليتو (أم أبولون وأرتميس). وشاهد هناك تنتالوس (Tantalos) الجد الأول لأجاممنون ، قائد عام الحرب الطروادية . رآه هناك يتعذب بعطش دائم وجوع مستديم إذ يقف وسط بركة يصل ماؤها إلى ذقنه

ولكنه لا يستطيع أن يرتوي منه لانه ينحسر عنه بسرعة . وفوق رأسه تتدلى كل أنواع الفواكه وتتطوح عناقيدها بعيداً عن متناول يده بفعل الرياح فلا يستطيع أن يتذوق منها شيئاً. كانت جريمته ـ التي سنرويها تفصيلاً فيما بعد ـ أنه حاول أن يختبر مدى علم الآلهة وهل يحيطون حقاً بكل شيء علماً فقدم لهم في مأدبة دعاهم إليها لحم ابنه وانتظر ليرى ما إذا كانوا يستطيعون تمييز لحم البشر من لحم الحيوان. فكان مثواه دار الجحيم وبئس المصير وعذابه أبدياً رهيباً . وكان ثالث من رآهم أوديسيوس هو سيسيفوس (Sisyphos) الذي كان يتأوه من الألم المبرح إذ كتب عليه ان يشقي إلى الابد بأن يدفع بصخرة ضخمة إلى قمة تل شاهق. لكن ما إن يقترب من القمة حتى تنفلت الصخرة من يديه وتتدحرج نازلة إلى أسفل . وكان عليه إن يدفعها ثانية إلى أعلى . وهكذا دواليك ، يحاول مرة تلو الاخرى دون أن تستقر الصخرة فيظل يشقى بهـا إلى أبد الآبدين . واما إكسيون (Ixion) فقد حاول أن يراود هيرا عن نفسها فكان عقابه رهيباً إذ علق من رجليه في دولاب عجلة لا تكف عن الدوران. وتتفق المصادر اليونانية على أن البطل الأثيني ثيسيوس(Theseus) هو وزميله بريثيوس (Pérrithoos) (ملك اللابيثاي) ـ وابن إكسيون ـ كانا من بين من حقت عليهم اللعنة وادخلا الجحيم (ترتاروس) عقاباً لهما على محاولتهما اختطاف برسيفوني نفسها من العالم السفلي حتى يتزوجها بيريثيوس ! . وقد خلص هيراكليس ثيسيوس من عذابه واما الآخر فقد ظل في الجحيم يتعذب إلى الأبد لمغامرته النكراء !

ولم يكن هاديس هو قاضي العالم الآخر في أغلب الاحيان وإنما كان قضاته هم مينوس ملك كريت وأخوه ردمانثوس الفاضـل ، واياكوس (Aeacus) بطل آيجينا ، وجد أخيل . وكلهم ينحدرون من صلب زيوس . وقد يضاف

إلى قاعة القضاة كرونوس نفسه . وتختلف الروايات فيمن كان منهم قاضي دار الجحيم ومن كان قاضي دار النعيم .

ديميتير [1]: Démétèr

هي إلهة قديمة من أعظم الآلهات . كانت عبادتها موجودة في بلاد الإغريق منذ زمن بعيد أي قبل قدوم الأخيين . ولعل اسمها أصلاً كان ديو (Déo) ثم أضاف إليه الإغريق لفظ ميتير (meter) أي الأم . وأمـــا معنى « ديو » أو « دي » فهو موضع خلاف بين علماء اللغة . يقول بعضهم إنه مرادف للمقطع جي (gé) بمعنى « الأرض » وأن اسم الربة بذلك يكون « أم الأرض » أو « ربة الأرض ». ويقول البعض الآخر إن معناه نوع من القمح حيث أن اللفظ تحريف لكلمة زيا (zeia) ، ويرى فريق ثالث أنه يقابل لفظ (dèai) في لهجـــة أهل كريت وأن معناه الشعير . ويميل بعض العلماء إلى ربطه بفعل في اليونانية بمعنى « يعطي » . وأياً كان التفسير فـــإن عبادة ديميتير كانت قديمة في بلدة إليوسيس (Eleusis) بإقليم أتيكا، والتي لا تبعد عن أثينا بأكثر من ١٢ ميلاً[1] وترجع جذور عبادتها أصلاً إلى جزيرة كريت . ويتفق هذا مع ما كشفت عنه الحفائر الأثرية في قاعة الأسرار الدينية (Telestérion) في إليوسس التي تشبه « مسارح» أو « مدرجات » قصر كنوسوس وقصر فايستوس في شمال وجنوب كريت على التوالي ، ويتفق كذلك مع رأي الإغريق أنفسهم إذ يروي هيسيود (في أنساب الآلهة) أن « ياسيون جـامع ديميتير في أرض كريت الخصبة الغنية بالثمار . وعندما سألت بنات كيليوس ، ملك إليوسيس ، الربة ديميتير المتنكرة

---

(١)= كيريس (Ceres) عند الرومان ومن هذا الأسم اشتقت كلمة (cereals) في الإنجليزية بمعنى غلال أو حبوب .

(٢) راجع ص ٣٦ ، ١٤٩ فيما تقدم .

في هيئة عجوز شمطاء عن هويتها أجابت بأن اسمها دويس (Dois) وأنها من كريت .

كانت ديميتير ربة ثمار الأرض ولا سيا القمح بل إن العلامة السويدي نيلسون يرى أنها كانت ربة للقمح فقط دون المحاصيل الزراعية الأخرى. وكربة للأرض والقمح فقد ارتبطت بباطن الأرض . وبذلك ارتبطت في الأساطير بهاديس إله العالم السفلي [1] ، وهو بلوتون إله الثروة النباتية في باطن الأرض . ومن هنا نشأت ايضاً قصة اختطاف هاديس لابنتها « كوري » التي عرفت بعد زواجها منه باسم برسيفوني. وقد روينا القصة من قبل ولا يبقى سوى تفصيل حادث مرور ديميتير الحزينة بإليوسيس أثناء بحثها المضني عن ابنتها . فقد التقت ديميتير التي كانت في شكل عجوز شمطاء ببعض فتيات كن يملأن جرارهن من بئر قريبة فرثين لحالها وسألنها عن أمرها فأجابت بأنها هاربة من كريت إذ تعقبها بعض القراصنة ، وأنها لا تعرف أحداً في هذا المكان الغريب لتسأله المعونة . وقالت لها الفتيات إن أي بيت في البلدة ستسعد لإيوائها والترحيب بها . وطلبن منها أن تنتظرهن ريثما يخطرن أمهن ويعدن إليها. ولم تكن هذه الفتيات سوى بنات كيليوس (Celeus) ، ملك إليوسيس وزوجته متانيرا (Metanira) التي امرت باستدعاء المرأة الغريبة إلى القصر في الحال . وتبعت السيدة العجوز بنات كيليوس إلى القصر حيث استخدمتها متانيرا مرضعاً لطفلها الوليد لقاء أجر سخي . وما أن دخلت ديميتير القصر حتى انتشرت في أرجائه هالة من النور الرباني . وعقدت الدهشة لسان الملكة وامتلأت قلوب وصيفاتها بالرهبة . وجلست ديميتير في هدوء مسدلة غطاء رأسها على محياها السني ، واستسلمت

---

(١) ارتباطها به كإله للعالم السفلي أي عالم الموتى يتبين من إطلاق الأثينيين إسم « الديميتريين Démètrioi (أي أهل ديميتير) على « الموتى » من قبيل تلطيف العبارة.

للحزن العميق على ابنتها الوحيدة. غير أن وصيفات القصر (وعلى الأخص يامبي Iambe بفكاهاتها وحركاتها الماجنة) استطعن أن يسرين عنها حتى انجاب عن صدرها الهم وانفرجت أسارير وجهها وافترت شفتاها عن ابتسامة عذبة . وما لبثت أن ضحكت .

وتعهدت ديميتر بحضانة الطفل الملكي « ديموفون » ووعدت أن تكون له خير مرضع لأنهـا تعرف ايضاً جميع أنواع الرقى التي تقيه الشر والحسد . وأخذته بيديها المقدستين وضمته في حنان إلى صدرها العطر . ونما الطفل كما ينمو الآلهة دون طعام أو شراب . وضمخت ديميتر جسمه بالأمبروسيا ونفخت فيه من أنفاسها الذكية . وقد شاءت أن تمنحه الخلود فأخذت تعرضه كل مساء - دون علم أبويه - لوهج النار المستعرة حتى تزيل عنه طبيعته البشرية فلا تبقى إلا الطبيعة الإلهية. وأوشكت أن تكسبه الخلود والشباب الدائم لولا أن أمه الملكة متانيرا اختلست النظر ذات ليلة من باب الحجرة فرأت مـا كانت تصنعه « المرضعة » بالطفل فصرخت بأعلى صوتها صرخة مدوية ولطمت نفسها بيديها وطفقت تولول نادبة حظ ابنها الصغير. وسمعتها ديميتر فتملكها الغضب وانتزعت الطفل من النار ووضعته على الأرض قائلة للملكة في حنق ظاهر« انتم أيها البشر جهلة حمقى لا تتبينون الخير من الشر. لقد أحدثت برعونتك ضرراً بليغاً لا سبيل إلى علاجه . لقد كنت أنوي أن أهب ابنك الخلود . وأما الآن فلا مندوحة له عن الموت كسائر البشر »[1] . ثم كشفت ديميتر عن شخصيتها واستردت هيئتها الحقيقية . فلم تعد - عجوزاً مجهدة زرية الهيئة ، بل غدت سيدة باهرة الحسن يضوع الشذى من ردائها ويشع النور من جسدها وتتهدل على كتفيها

---

(١) في رواية أخرى أن اسم الطفل هو إليوسيوس أو إليوسينوس وأنه هلك بالنار وأن أباه لا أمه هو الذي انزعج من رؤيته وهو يحرق بالنار .

جدائل من الشعر الذهبي وتزخر حجرتها بالضياء والسنا . ثم أمرت الملكين بأن يبنيا معبداً وينشئا شعائر تكريماً لها . ووعدت إذا استجيبت رغبتهـــا أن تطلع أهل إليوسيس على الطقوس السرية (Mysteria) ، وهي شعائر ظلت تمارس أبداً في إليوسيس (Eleusinia) ، واكتسبت شهرة واسعة .

وفي تلك الأثناء كانت ديميتير – على نحو ما ذكرنا – قد تعرفت على مكان ابنتها وتم الاتفاق مع أخيها هاديس على مصير كوري (برسيفوني) . وعندئذ فقط وافقت ديميتير على العودة إلى أوليمبوس الذي كانت قد غادرته مغضبة . وزال حزنها فأينعت الأرض بعد جدبها وأثمرت بعد قحلها وامتلأت الحقـــول بسنابل القمح وعاد إلى الدنيا البشر والابتهاج بعد الوجوم والاكتئاب . وقد استجاب ملك إليوسيس وملكتها لمطالب الربة . وشيدا لها المعبد فاتجهت ديميتير إلى اليوسيس حيث لقنت تريبتوليموس Triptolemus (وهو ابن آخر لكيليوس ومتانيرا) لقنته أصول الزراعة وكلفته – بعد أن زودته بعربة تجرها الأفاعي الضخمة – أن يجوب الأرض كي يعلم الناس جميعاً زراعة القمح . ولقنت ملوك إليوسيس وأهلهـــا الشعائر المقدسة وأطلعتهم على أسرار العبادة، تلك الأسرار التي لا يجوز إفشاؤها لأن الربة ديميتير كفيلة بخنق الصوت في الحلق قبـل البوح بها . ألا بورك فيمن أسعده الحظ برؤية هذه الشعائر . وما أشقى من يموت دون الاشتراك فيها والاطلاع عليها ! فلن يكون له، وهو في ظلمة العالم السفلي، نصيب في نعم الربة أو نعيم الجنة !

ولقد أشرت من قبل إلى ارتباط وظيفتي الأرض في التصور الإغريقـــي إحداهما بالأخرى : وظيفتها كمستقبلة للبذرة التي تنبت فيها بعد وتصبح ثمرة ذات حياة خصبة جديدة ، ووظيفتها كمستقر لأرواح الموتى . فالإله بلوتون «الثري» أو خازن الثروة النباتية هو نفسه هاديس « إله الموتى » ، وخازن أرواحهم

وكانت زوجته هي ابنة ديميتير . وكانت بهذه الصفة تعرف باسم « كوري » أي الفتـاة البكر التي تمثل الحياة الصغيرة للقمح . وكانت تعرف على الأخص باسم « برسيفوني» عندما تمارس وظيفتها كملكة على الموتى . ومن هذا الارتباط نشأفي إليوسيس الاعتقاد بأن ديميتير كانت إلهة لا تعطي فقط الخصب للأرض بل تهب الخلود للروح الانسانية . لقدمنحت ديميتير الناس شيئين: أولهما معرفة الزراعة التي لولاها ما قامت الحضارة وثانيها الأمل في حياة أفضل بعد الموت: ويتحقق الثاني بالاشتراك في طقوس عبادتها السرية في إليوسيس (Mysteria) . وكان ذلك يمثل خطوة هامة في طريـــق تطور الفكر الديني وعلى الأخص فيما يتصل بوجود حياة أخرى بعدالموت أي بفكرة البعث وجزاء الاطهار الأخياروعقاب المجرمين الاشرار . صحيح أن هذه الطقوس السرية كانت أول الامر تستهدف الطهـارة الدينية (الشكلية) لا الكمال الخلقي ، وإن كان هناك من الشواهد ما يدل على أنها كانت تتضمن منذ البداية الحث على الاستقـامة في الحيـاة الدنيا . وأيا كان الامر فلنا عودة مرة أخرى إلى هذا الموضوع عند الكلام عن ثالوث إليوسيس الذي أصبح يتألف من ديميتير وكوري وديونيسوس. ولما كانت أثينا قد أدمجت إليوسيس في أراضيها قرب نهاية القرن السابع ق.م. فلقد تأثرت شعائر هذه العبادة ، عبادة ديميتير الإليوسية ، بالأثينيين الذين رفعوا من شأن إله مثل تريبتوليموس ، وأضافوا اشياء جديدة ، فهم الذين اضافوا –على ما يرجح – ديونيسوس (باكخوس) ، إله النبيذ ، كعضو في ثالوث إليوسيس. وظل الأثينيون يفخرون بأنهم كانوا أول من أطلعتهم الربـة على سر الزراعة وسر الطقوس الدينية بل كانوا الوحيدين الذين كشفت لهم السماء عنها ، وأنهم كانوا تبعاً لذلك – وبما جبلوا عليه من كرم – أول من لقن البشرية كلها هذين الفنين . وكان الأثينيون في الحقيقة هم الذين مزجوا فكرة الخلود القديمة المرتبطة بعبادة ديميتير وابنتها (وهي قديمة قبل الإغريق) بفكرة هوميروس عن الإليزيون

(دار النعيم) حيث كان ينتقل بعض الابطال المصطفين - بعد الموت - ويعيشون بالروح والجسد حياة أبدية هانئة [١] .

كان الاحتفال بالطقوس السرية الكبرى باليوسيس يقام في شهر بويدروميون (وهو يقابل شهر سبتمبر / أيلول) لمدة ستة أيام (١٦ — ١٧ ؛ ١٩ — ٢٢) ، وكان يقترن بذكرى عودة « كوري » إلى أمها ديميتير في مستهل الخريف عندما تكون الخضرة قد عادت إلى الحقول بعد جفاف الصيف [٢] . ومع أن طقوس إليوسيس الكبرى أصبحت جزءاً من الديانة الإغريقية إلا أنها لم تستطع أن تمحو تأثير هوميروس من نفوس الإغريق الخلّص الذين كـانوا منذ طفولتهم ينشأون في حقل الإلياذة باعتبارها عنصراً جوهرياً في تربيتهم وغذاء عقلياً ضرورياً لكل منهم .

وقد طرحنا من قبل سؤالاً تركناه دون جواب وهو من كان زوج ديميتير أم « كوري » ؟ هل كان لها قرين ؟ إن ديميتير كان لها قرين ، لكنها بوصفها ربة للأمومة أو ربة للأرض فإنه من المتعذر — بل كان من المتعذر على الإغريق أنفسهم — التوصل إلى إجابة موحدة . يقول هوميروس (في الأوديسيا) إن ديميتير جامعت ياسيون Iasion (أو ياسيوس) في حقل محروث ثلاث مرات ، وأن زيوس قتله بصاعقته لما سمع بذلك . ولا يعرف أحد معرفة اليقين من هو

(١) أنظر : W. K. C. Guthrie, The Greeks and Their Gods (Boston , 1951) , p. 291.

(٢) وأما الاحتفال بالطقوس الإليوسية الصغرى في بلدة أجراي (Agrae) فكان يقام في شهر انثستيريون (= فبراير/شباط) أي في مستهل الربيع ، وكان يمهد لحصاد الصيف وما فيه من جفاف تكون أثناءها « كوري » وهي تجسيد القمح أو بذرة القمح ، لا تزال تحت الثرى ، والقمح مخزونا في جراره الكبيرة .

ياسيون . فمن قائل بأنه طراقي الأصل وأنه شقيق دردانوس الجد الأول للطرواديين ، ومن قائل بأنه كريتي (أي مثل دردانوس الذي يقال عنه أحياناً بأنه كان أصلاً من كريت) . ولا ندري أحدث ما حدث مع الربة برضائها أم حدث غصباً. إذ يقول البعض إنه عوقب بقتله بالصاعقة وأنه مات ملعوناً . ويقول البعض الآخر أن الأمر تم بموافقة الربة وأن ياسيون عمر طويلاً بعد الحادث . وفي رأي بعض الباحثين أن ياسيون كان إلهاً قديما للزراعة قبل مجيء الإغريق الذين جعلوا منه بعد مجيئهم قريناً لديميتير . ويحدثنا هسيود (في أنساب الآلهة) بأن زيوس نفسه هو أبو برسيفوني ، وهي خرافة شمائرية موغلة في القدم قد نتعرض لها - فيما بعد - بشيء من التفصيل نظراً لعمق مغزاها . ويضيف هسيود بأن زيوس أنجب منها أيضاً ولداً يدعى بلوتوس Ploutos ، وهو غير هاديس بلوتون ، وإن كان يرتبط به ارتباطاً وثيقاً لأنه كان مثله إلهاً للثروة الزراعية لكنه صار بعدئذ إلهاً للثراء بوجه عام وكانت ديميتير وكوري ترسلانه إلى من يصطفون من الناس فيدخل على نفوسهم البهجة والطمأنينة . وفي أركاديا كان قرين ديميتير هو بوسيدون (إله البحر) بوصفه حاضن الأرض ومخصبها بالماء ومن ثم فهو زوجها . لقد كان من الخطورة بمكان أن يكون المرء زوجاً لربة من ربات الأمومة أو الأرض . وكلنا نعرف ما حدث لأنخيسيس الذي عاشر أفروديتي وأنجب منها آينياس . كانت هذه من الخصائص التي تميزت بها كل ربات الأرض . كان لهن رفقاء أو عشاق أو أقران ولهن أولاد منهن . والشيء المهم هو أن هذه الربات كن مخصبات ولودات . ولم يكن من الضروري أن يكن زوجات .

وكان من أشهر أعياد ديميتير وأوسعها انتشاراً عيد تيسموفوريا (Thesmophoria) أي عيد الربة « جالبة الكنوز » . ففي أثينا كانت النساء يحتفلن به في شهر بيانوبسيون (= نوفمبر / تشرين الثاني) لمدة ثلاثة

أيام (١١ – ١٣) وكان يشتمل على طائفة من الطقوس معظمها سحري ، وتقوم بها النساء من أجل خصب الأرض . وترسم ديميتير في الفن مرتدية ثوباً كاملاً وقوراً، وتزين رأسها بإكليل من سنابل القمح ، وتمسك في يدها بصولجان من سنابل الحنطة أو الخشخاش (أبو النوم) وكذلك بشعلة وسلة وكلتاهما من الأدوات التي كانت تستعمل في الإحتفال الكبير بالطقوس السرية الإليوسية .

بوسيدون [1] : Poseidôn

كان بوسيدون إله البحر ، على ما يبدو ، إلهاً هلليني الأصل أو هكذا يعتقد أغلب الباحثين . غير أن اسمه لا يزال مثار خلاف بينهم . ففريق يرى أن اسمه معناه « زوج الأرض» وذلك بوصفه إلهاً للماء ، والماء هو مخصب الأرض . ويرى فريق آخر أن اسمه يتضمن مقطعاً بمعنى « البلل » ويقابل المقطع الأول من كلمة بوتاموس (potamos) بمعنى النهر أو بوسيس (posis) بمعنى الشراب . وعندما اقترع الأخوة الثلاثة على الكون كانت السماء من نصيب زيوس ، وباطن الأرض من نصيب هاديس، وكان البحر من نصيب بوسيدون كما ورد في الإلياذة. كان البحر هو دائرة اختصاصه ولا منازع له فيه منذ هوميروس . وكان شعاره حربة الصيد ذات الأشواك الثلاث (tridens)[2]. وكان من يغضب هذا الإله يقع عندما يكون في البحر تحت رحمته فيذيقه صنوف العذاب مثلما تبين لأوديسيوس الذي ناصبه بوسيدون العداء لأنه قتل ابنه الوحش بوليفيموس . كان كل ملاح وكل صياد يبذل قصارى جهده لاسترضاء هذا الإله وملاطفته ، ويقدم له القربان المناسب بمجرد عودته سالماً من رحلته . هذا هو الاختصاص

---

(١) =نبتونوس (Neptunus) عند الرومان .

(٢) كان التلخينيس (Telchines) السحرة أو الأرواح في رودس هم الذين قاموا بتربية بوسيدون وصنعوا له هذه الحربة.

الأول والرئيسي لبوسيدون . لكن بوسيدون كان أيضاً محرك الزلازل (Ennosigaios) أو مزلزل الأرض (Enosichthôn) . فالزلازل من صنعه . ثالثاً أنه كان إله الخيل (Hippios) وكان قديماً في هيئة الحصان هو نفسه[1]. وبهذه الهيئة كان بوسيدون يعبد في أنحاء كثيرة من بلاد اليونان ولا سيما في أركاديا حيث نشأت أسطورة معاشرته وهو في شكل حصان لديميتير عندما كانت تطوف بالبلاد باحثة عن ابنتها « كوري » . هذه القصة تفسر كيف اكتسب بوسيدون لقب هيبيوس أي « رب الخيول » ، ولماذا كان تمثال ديميتير في فيجاليا بأركاديا يصنع في شكل إمرأة لها رأس الحصان .

ولم يكن بوسيدون إلهاً للبحر الملح فقط بل إلهاً للماء العذب أيضاً . ويعزى تفجر كثير من الينابيع إلى ضربات من حربته المثلثة الأشواك . وأشهرها الضربة التي فجرت الينبوع في صخرة الأكروبول ، وإن قيل إن هذا الينبوع قد تدفق تحت وطأة حافره . ويؤيد ذلك أن أسماء كثير من الينابيع مشتقة من لفظ هيبوس (hippos) أي « حصان » كينبوع هيبي وأجانيبي وهيبو كريني (Hippocrenê) ، وهو ينبوع ربات الفنون التسع (Musae) فوق جبل هليكون (Helicon)[2] . والدليل على أن تفجر هذا الينبوع الأخير يرجع إلى بوسيدون وليس – كما يقال أحياناً – إلى الحصان المجنح الشهير بيجاسوس (Pegasus) ، هو تلقيب بوسيدون في الإلياذة بلقب الهليكوني (Heliconius) . وعلى أي حال فإن بيجاسوس هذا يوصف عند هيسيود بأنه ابن بوسيدون .

وليس هناك حتى الآن تفسير مقنع لصلة بوسيدون بالخيول . ولا تفسير مقبول لدى الجميع لصلته بالزلازل التي كان هو إلهها على وجه اليقين . لكن لعل تفسير

(١) ومن قبل ذلك ظهر بوسيدون أيضاً في صورة الكبش كما يتبين من أسطورة مولد ، وقصة غرامه بثيوفاني بنت ملك مقدونيا قبل زواجه .

(٢) عن جبل هليكون راجع ص ١٣٣ – ١٤٤ فيما تقدم .

فيلاموفتز (Wilamowitz) هو أقربها إلى العقل . فهذا العلامة الألماني يفسر اسم « بوسيدون » بمعنى « زوج الأرض » (posis das) . وبوسيداس المعروف للإغريق باسم بوسيدون أو بوسيدان أو بوتيدان أو بغير هـذه الصور ، كان في الأصل روحاً أو إلهاً ذكراً للخصب يسكن في الأرض . وتؤيد أسطورة الجماع بينه وبين ديميتير في أركاديا هذا الافتراض . وإذا كان الأمر كذلك فكأنه كان يمثل روح ذكورة خصبة اقترنت بروح أنوثة خصبة وتمخضت عنها ذرية . وكان الناس يتخيلون مثل هذه القوى أو أرواح الذكورة القديمة في هيئة الخيـــل . وكانت أرواح الخصب هذه قديمة في شبه الجزيرة وموجودةقبل مجيء الإغريق. ثم اعتبر الإغريق الروح الذكر صنواً لبوسيدون إله البحر لأن بوسيدون كان لأسباب أخرى قد لقب « هيبيوس » أي « رب الخيول » ، وهو لقب لا يزال تفسيره مستعصياً لكن لعل قوماً كالتساليين المشترين بتربية الجياد هم الـــذين أطلقوا عليه هذا اللقب .

لكن في وسعنا أن نقول الآ تي : إذا كان بوسيدون – كما هو متفق عليه بين العلماء – إلهاً هللينياً صميماً ، أي إذا لم يكن قد نشأ أصلاً فيالبلقان وإنما جاءت به قبائل مهاجرة متكلمة باليونانية ، فليس من المحتمل أنه كان إلـــهاً للبحر في البداية . وأما الذين يقولون إنه كان إلهاً للبحر منذ البداية وأن المظاهر الأخرى في صفاته كانت في الأصل غريبة عنه ، فيميلون إلى تأكيد أصله الهلليني وإبراز التباين الشديد بينه وبين آلهة السكان القدامى في بلاد الإغريق . لكن هذا قول مردود إذ ينسى القائلون بأنه إله هلليني صميم أن الإغريق وفدوا أصلاً من جهات بعيدة عن البحر ، جهات في أقصى شمال البلقان وربما من جهات أبعد من ذلكفي الشمال أو الشمال الشرقي . فمن غير المحتمل إذن أن يكون إله البحر عند مثل هؤلاء القوم قد احتل مكانة كمكانة بوسيدون شقيق زيوس نفسه. يضاف إلىذلك أن اللغة اليونانية لم يكن فيها أصلاً لفظ يدل على « البحر » مرادف للفظ mare

اللاتيني والألفاظ المشتقة منه . وكلمة ثلاسّا (thalassa) بمعنى البحر كلمة دخيلة على اليونانية وهي غير هندية أوربية إنما استعارها الإغريق من لغة القوم الذين كانوا موجودين قبلهم في شبه الجزيرة [١] . لكن عندما استقر الإغريق على سواحل البحر المتوسط ، أطلقوا على « البحر » لفظ هالس (hals) أي « الملح » أو « المالح » أو لفظ بيلاجوس (pelagos) بمعنى« الاتساع المنبسط » أو بنطوس (pontos) بمعنى « المعبر » .

كان بوسيدون إذاً محتضناً الأرض أو زوجاً للأرض (Gaiaochos) لأنه كان يعيش في الأرض. ومن الأرض كان يفجر ينابيع وأنهاراً لتخصيب الأرض. وكان في الأصل شبيهاً بأخيه هاديس الذي كان إلهاً للعالم السفلي وظل كذلك وكان يشبه بوسيدون أيضاً في ارتباطه بالخيول أو اشتهاره بها(Klytopolos)[٢]. وإلى جانب الخيول كانت الثيران أيضاً تقدم في العادة قرباناً لبوسيدون في بعض الأماكن . ولا يشك أحد في قدرة الثور الفريدة على الإخصاب .

وكما كان الحصان يوحي في أذهان المتعبدين لبوسيدون بالارتباط بينه وبين أرواح الخصب والأنهار كذلك كان الثور يوحي بنفس الارتباط لأن أرواح الأنهار غالباً ما كان الخيال الإغريقي يتصورها في شكل الثور. كان بوسيدون القديم أو الأصلي كروح ذكر من أرواح الخصب قريناً للأرض المسماة جي (Gê) أو دا (Da) أو ديميتر (Demeter) أو (Dameter) . وقد لاحظ البعض بحق ارتباط ديميتر وبوسيدون في العبادة في كثير من الأحيان بل إن الكاتب بلوتارخوس يذهب الى حد وصف بوسيدون بشريك ديميتر في معبدها . وقد

---

(١) راجع ص ٨٦ فيما تقدم .

(٢) راجع ص ٢٣٥ فيما تقدم .

أشرنا من قبل الى أن مثل هؤلاء الأزواج كانوا يشاهدون دائماً في رفقة ربات الأرض كعشاق أو أقران أو أزواج ولكنهم كانوا تابعين لهن وخاضعين ولا يلعبون سوى دور صغير. وهذا ما يدل عليه لقب الإله الذي نحن بصدده حيث أنه – وفقاً للتفسير الذي نأخذ به – لم يكن له قبل الإغريق اسم خاص به سوى أنه كان يعرف فقط « بزوج الأرض » . ولم يصبح الهاً كبيراً إلا بعدما طوى النسيان طبيعته الأصلية واسمه الأصلي ، وصار مختصاً بالسيادة على البحر، ذلك العنصر الجديد في حياة الإغريق، الذي أصبح في القرون التالية – بعد أن وجد الإغريق انفسهم « معزولين » عن البرابرة – ، هو وسيلة اتصالهم بالأقطار الأخرى ، واصبح مصدر رزق لكثير منهم ثم عنصراً هاماً في حياتهم جميعاً لا يغيب ابداً عن أنظارهم وله سحره وله رهبته .

كانت روح الخصب الذكر التي أشرنا إليها تنتمي إلى سكان منطقة البحر المتوسط السابقين على الإغريق . ولعل بوسيدون قد شابه من بعض النواحي إلهاً من آلهة الشعوب الهندية – الأوربية . ولا عجب أن نسيت طبيعته الأصلية مع مرور الزمن ومع ما طرأ على ظروف الإغريق المعيشية من تغيير. لقد كان لزيوس نفسه ارتباط بخصب الأرض . وقد ظل هذا الارتباط قائماً في العصور التاريخية ويتمثل في تصوره كمرسل أو منزل المطر . لكن عندما هجر الإغريق موطنهم الأصلي وتحولوا عن مهنة الزراعة (في الدانوب أو غيره من المناطق الشمالية) إلى مهنة الحرب والغزو والترحال والفروسية والصيد، اكتسب زيوس إلههم الرئيسي ، اختصاصات أخرى أكثر ملاءمة لإحتياجاتهم .

إن هذا التفسير الذي سقناه ليس إلا افتراضاً قابلاً للاعتراض بل لا يسلم من الطعن . ولعل رأي القائلين بأن بوسيدون إله يوناني صميم هو الرأي الصائب إذ يرون أن المقطع الأول من اسمه هو جذر لغوي بمعنى « بلل » ، وأن

هذا المقطع هو نفسه المقطع الأول من كلمة « بوتاموس » بمعنى « نهر » . وأما العالم الإنجليزي الكبير كوك (Cook) فيفسر اسم بوسيدون بمعنى « زيوس السيد » ويسوق أدلة على أن زيوس وبوسيدون كانا في الأصل شخصاً واحداً . ذلك أن لفظ بوسيس (posis) صارت تدل على معنى « زوج » لأنها كانت أصلاً تعني « سيد » . لكن هذه التفسيرات تبعدنا عن التصور اليوناني لهذا الاله كما نعرفه الآن . ونخرج منها بنتيجة وهي أن دراسة الأصول لا تمدنا إلا بمساعدة ضئيلة على فهم الفكر الديني عند الإغريق .

ودعنا الآن نتخفف من هذه المناقشة الجافة بسرد بعض أساطير طريفة عن الإله بوسيدون في مجالات اختصاصه التي ألمنا إليها . لقد اقترن بوسيدون بأمفيتريتي (Amphitritê) وهي زوجته الشرعية التي أصبح بزواجه منها سيد البحر . كانت أمفيتريتي تعد سيدة البحر وتملك زمام أمواجه وتسيطر على وحوشه . وقد روي أن بوسيدون أبصر بها وهي ترقص مع عرائس البحر من بنات نيريوس في جزيرة ناكسوس فاغتصبها عنوة . ولم تلبث أمفيتريتي أن فرت منه إلى الطرف الأقصى من غرب البحر إما إلى قصر أوقيانوس (Oceanus) أو إلى أطلس (Atlas) ، حفيد أوقيانوس ، الذي صار جبلاً (في المغرب) كتب عليه أن يحمل السماء فوق رأسه وراحتيه . وقد تعقب بوسيدون أثرها طويلاً وأخيراً دلته الحيتان على مكان اختفائها . وفي الحق إن حوتاً هو الذي قادها إلى فراشه . وقد كوفىء الحوت بأن رفع إلى السماء ليحتل مكانه بين الكواكب فأصبح « برج الحوت » . لقد أصبح بوسيدون - كما ذكرنا - بعد زواجه من أمفيتريتي سيد البحر . وبذلك حل مكان نيريوس (Nereus) وهو إله قديم للبحر اشتهر بصدقه ونزاهته ووقاره وقدرته على التنبؤ ومهارته في تغيير شكله وتقمصه أي صورة يشاء ، شأنه في ذلك شأن بروتيوس (Proteus) [1] . وقد ظهرت هذه المهارة أثناء اصطراعه مع هيراكليس الذي استطاع في النهاية

(١) وأقدم منهما كإله البحر هو فوركيس (Phorkys) .

تقييده بالأغلال لكي يدله على مكان التفاحات الذهبية . وقد أنجب نيريوس هذا من دوريس خمسين عروساً من عرائس البحر كن يعشن معه في أعماق اليم ، ومن بينهن كانت ثيتس « Thetis » التي أرغمت على الزواج من بيليوس « Peleus » ولم ترضخ له إلا بعد أن اصطرعت معه وغلبها على أمرها . وقد أنجبت منه أخيليوس أو أخيل ، بطل الالياذة .

ومع أن بوسيدون شاد لنفسه قصراً فاخراً في أغوار اليم إلا أنه غالباً ما كان يقيم كأخوته من الآلهة على قمة جبل أوليمبوس . وبإذنه كانت تهب العواصف وبإذنه كانت تسكن . فإذا ساق عربته الذهبية على صفحة الماء هدأ هدير الموج وانكسرت شوكة الريح الصرصر ، وصار وجه البحر ملساً كخد الكاعب الحسناء . وكان الزوجان بوسيدون وأمفيتريتي يشبهان زيوس وهيرا من وجوه كثيرة فكما كان زيوس يدعى أحياناً « بزوج هيرا » كذلك كان بوسيدون يدعى « بزوج أمفيتريتي ذات المغزل الذهبي » وفي الحق إن بوسيدون كان يلي زيوس مباشرة في جلال القدر والرفعة . وفي الموكب الذي نظم بمناسبة زفاف أمفيتريتي إليه - وكان على غرار موكب عرس ديونيسوس وأريادني - لم تشترك فقط الخيول والثيران والكباش ، بل اشتركت كل وحوش البحر والبر التي جاءت حاملة فوق ظهورها عرائس البحر من بنات نيريوس .

وكان بوسيدون كأخيه زيوس إلهاً مزواجاً أو له عدة عشيقات . فقد تزوج كثيرات من « عرائس البحر » [1] « وحوريات الينابيع » [2] « والجنيات » [3] والبطلات . وأنجب منهن ابناء كثيرين قاموا بأدوار في الأساطير . ولم يكن

---

(١) Nereides
(٢) Naiades
(٣) Nymphae

من بينهم أبطال فحسب بل كان من بينهم أيضاً مخلوقات متوحشة قهرها الأبطال . ولنضرب مثلاً بواحد منهم وهو الكيكلوبس بوليفيموس « Polyphemus » ، ابن بوسيدون ، الذي سمل أوديسيوس « بطل ملحمة الأوديسيا » عينه الوحيدة المستديرة مثيراً بذلك غضب بوسيدون عليه وانتقامه منه فوضع العراقيل في وجهه أثناء عودته بحراً « بعد الحرب الطروادية » إلى وطنه إيثاكا حيث كانت تنتظره متاعب أخرى . وحسبنا أن نتكلم هنا عن أبناء بوسيدون من أمفيتريتي أو عن اثنين من أكثرهم شهرة وهما « تريتون » الاله الرهيب ، والربة « رودس » إبنة بوسيدون (من هاليا) التي سميت باسمها الجزيرة المعروفة .

وأما الأول تريتون « Triton » فيسميه هيسيود بذي القوة العريضة ، ويصفه الشاعر قائلاً بأنه إله عظيم يقطن قصراً ذهبياً بقاع البحر مع أبويه . ويمضي الشاعر قائلاً إنه كان إلهاً رهيباً ، وان كان قد انهزم على يد البطل هيراكليس . كان تريتون مخلوقاً نصفه انسان ونصفه الآخر سمكة أو حوت . وفي الامكان مقارنته بأحد الساتيريين (Satyroi » أو السيلينيين « Silenoi » ، وهم أرواح الغاب التي تصورها اليونان كمخلوقات بشرية ضامرة الجسم ، شائهة الخلقة ، بعضها في هيئة الجدي ، جامح الشهوة شديد الايذاء ، وبعضها الآخر له أذنان مدببتان وحافر وذيل حصان وأنف افطس وطبع متمرد ، وتشاهد احيانا وهي ترقص مع الجنيات او في صحبة ديونيسوس ، إله النبيذ أو « بان » « Pan » ، إله البراري والغابات أو غيرهما من الآلهة . وكان تريتون كأي سيلينوس أو ساتيروس جامح الشهوة مغتصباً للنساء بل مغتصباً للغلمان ، في وسعه أن يثير الذعر في قلوب الناس أو يضللهم ببوقه المصنوع من الصدف والمحار . وسرعان ما تكاثر تريتون وأصبح يوجد مثله عدد كبير بعضهم ذكور وبعضهم الآخر إناث . وكان الذكور يشاهدون في صحبة عرائس البحر من بنات نيريوس وهن

يسبحن في مواكب الزفاف وسط الأمواج احتفالاً بزواج كزواج بوسيدون وامفيتريتي الذي ألمعنا اليه ، أو ميلاد افروديتي او بتلك الطقوس الدينية التي قيل إن عرائس البحر أبحن بأسرارها للإنسان .

وأما قصة الربة « رودس » ابنة أمفيتريتي فتجري وسط الأمواج المزبدة ولكنها تعرفنا في الوقت نفسه بأسرة هيليوس (Helios) إله الشمس . ولا مراء في أن اسم رودس يرتبط بكلمة رودن (rhodon) بمعنى « الوردة » ، ارتباط الربة بالجزيرة سواء بسواء . ولقد روي أنه عندما كان زيوس والآلهة الآخرون يقتسمون الكون فيما بينهم كانت جزيرة رودس لا تزال مغمورة بالماء غير ظاهرة للعيان . ولم يكن هيليوس قد حضر جلسة توزيع الكون ولذلك أسقطه الآلهة من الحساب فلم يظفر بأي نصيب . وفجأة تذكروا زميلهم الغائب فاقترح زيوس إعادة النظر في التقسيم . غير أن هيليوس نفسه رفض هـذا الإقتراح وقال إنـه يستطيع أن يتبيّن من بعيد قطعة خصبة من الأرض على وشك أن تطفو فوق سطح البحر . وناشد لاخيسيس (Lachésis) ، ربـة القسمة والنصيب ، أن ترفع يديها وتحلف هي وسائر الآلهة من أبناء زيوس أن يكون من نصيبه أي شيء يبرز آنئذ من جوف الماء . ولقد صدق حدسه لأن الجزيرة انبثقت من الماء لتئول إلى رب أشعة الشمس ، سائق العجلة التي تجرها جياد تقذف باللهب . وفي الجزيرة تزوج هيليوس من الربة رودس وأنجب منها عدة أولاد . ولقد كانت الجزيرة والربة في الأصل شخصاً واحداً مثلمـا كانت ديلوس و « استيريا » ربـة النجوم ، ومثلما كانت ليمنوس وربتها الكبرى التي حملت أيضاً اسم « ليمنوس » . وتوصف ليمنوس بأنهـا جزيرة هيفايستوس وكذلك الكابيري (Cabiri) وهم آلهة الخصب القدامى الفريجيين الذين كان

الإغريق يطلقون عليهم اسم « الآلهة العظام »[1] .

لقد اشتهر بوسيدون في الأساطير والديانة الإغريقية كإله للبحر، وارتبطت عبادته بالبحر والملاحة . لكنه عبد أحياناً كإله للماء العذب . . وقد مر بنا ذكر العيون والينابيع التي تفجرت هنا وهناك بضربات من حربته مثلثة الشعاب . ومن الطبيعي أن يصبح بوسيدون بوصفه إلهاً للماء العذب رباً للنبات كذلك وأن يعبد أحياناً بهذه الصفة في أنحاء كثيرة من بلاد اليونان . وعبد كرب للزلازل ، وكان لقب « مزلزل الأرض » من أهم ألقابه ، ولعله يرمز إلى فكرة قديمة نشأت لتعليل ظاهرة الزلازل ، وهي تتجاوب والنظرية القائلة بأن للماء دخلاً بالهزات الأرضية . وأياً كان الأمر فقد شيد له أهل رودس معبداً في جزيرة ثيرا البركانية حيث عبد باسم أسفاليون (Asphalion) أي مثبت الأرض وواقيها من الهزات .

غير أنه من العسير — كما ألمنا — تفسير السبب الذي من أجله أصبح بوسيدون « رب الخيول» . ومن المستبعد أن يكون هذا اللقب قد نشأ عن تشبيه الأمواج بالجياد البيض لأن مثل هذا التشبيه لا تعرفه اليونانية ، وإن كان أحد الكتاب اليونان قد عزا السبب إلى أن السفن في البحر تشبه الجياد في البر باعتبارها وسيلة من وسائل الانتقال . غير أن هذا أمر بعيد الاحتمال لأن الألقاب الدينية قلما تتولد عن الصور البلاغية أو المحسنات البديعية . على أنه من الجائز أن يكون بوسيدون قد اكتسب هذا اللقب ، لقب إله الخيول ، من أن القوم الذين عبدوه قبل غيرهم في بلاد اليونان كانوا أنفسهم من مربي الخيول . وقد يؤيد هذا

(١) وكانت جزيرة ساموطراقيا أيضاً مركزاً هاماً لعبادة الكابيري . وقد اشتهر هؤلاء الآلهة (منذ القرن الخامس ق.م) بحماية الملاحين . ومن ثم جاء خلطهم أحياناً بالديوسكوريز (كاستور وبولليكس) ابني زيوس وشقيقي هليني وكليتيمنسترا (من الربة ليدا) .

الرأي – بعض التأييد – أن عبادة بوسيدون على هـذا النحو نشأت أصلاً في تساليا ، وهو إقليم اشتهر بتربية الخيول وبالفروسية ، وقد ساد الاعتقاد بأن بوسيدون هو الإله الذي علم الناس الفروسية ، وابتدع سباق الخيل ، وأصبح راعياً لهذه اللعبة . وكان لبوسيدون – كما ذكرنا – مغامرة مع ديميتر وهو في شكل حصان . لقد كان الاسم « دا » – كما أسلفنا – اسماً قديماً للربة « جا » أو « جايا » . ومن المحتمل أن ديميتر أو داميتر اكتسبت هذا الإسم بوصفها ربة الأرض . وقد تزوجت من بوسيدون بوصفه « زوج الأرض» . لقد جمع بين الإلهين ارتباطهما بالأرض وخصوبتها أو بالأحرى ارتباطهما بالعوامل التي تنظم شكلاً معيناً من أشكال الحياة الزراعية فاقترنت ديميتر بالقمح بينما اقترن بوسيدون بالحصان منذ دخلت تربية الخيول بلاد اليونان . وعندما ارتبطت ديميتر مع زيوس برباط الزوجية (وفقاً لرواية هيسيود)[1] ، كانت في حقيقة الأمر صورة أخرى من أمها « ريا » أو صنواً لها ، فكأنها عندما أنجبت برسيفوني قد أنجبتها من ابن « ريا » نفسه (زيوس) شقيقها ، فكأن برسيفوني كانت هي الأخرى شقيقتها أو بعبارة أخرى كأن ديميتر ولدت أختها وتمخضت عن ذات نفسها من جديد ، وهذا سرديني لم يصل منه إلى مسامع الناس إلا طرف يسير . ولكن ديميتر عندما ارتبطت ببوسيدون زوجته بوصفها « الأرض » التي تنبت الزرع والحيوان . فكان في وسعها أن تنتحل شكل سنبلة من القمح أو فرسة من الفراس .

ولقد روي أن بوسيدون عندما شرع يطارد ديميتر ويطارحها الغرام ، كانت الربة مشغولة عنه بالبحث عن ابنتها برسفوني (كوري) التي اختطفها هاديس (بلوتون) ولم يسع ديميتر إلا أن تتقمص صورة فرس وتختلط بالخيول

---

(١) راجع ص٥٤ ٢فيما تقدم.

التي ترعى في مزرعة أحد الملوك . غير أن حيلتها لم تنطل على بوسيدون الذي كشف خدعتها وعاشرها بعـــد أن تمثل لها في شكل حصان . وقد أثار ذلك حنق ديميتير فتحولت إلى ربة من ربات الغضب . وظلت تحمل هذا اللقب حتى انفثأ غضبها بالاغتسال في نهر « لادون » ، فعرف بلقب لوسيا (Lousia) أي « المغتسلة » . وقـــد أنجبت من بوسيدون ابنة لا ينبغي أن يباح باسمها خارج « قاعة الأسرار الدينية » في إليوسيس . كما أنجبت منـه أيضاً الجواد أريون (Arion) ذا العرف الأسود ، وهـو عرف ورثه عن أبيه كما ورد في أقدم الروايات . وكان حصاناً غريب الخلقة إذ كانت قدماه الاماميتان قدمي إنسان ، وكان قادراً على الكلام ، واستخدمه أبوه في جر عربته عبر البحر . وكانت سرعته مضرب الأمثال . وقد فاز أدراستوس ، ملك أرجوس ، بفضله في سباق الدورة النيميـــة ، ولذلك ارتبط الحصان أريون بهذا الملك البطل ارتباطاً وثيقاً .

كان أريون حصاناً شهيراً . لكن هناك حصان أشهر ينحـدر أيضاً من صلب بوسيدون . ولعلك لاحظت أن كثيراً من أبناء هذا الإله كانوا إما رجالاً أشداء عتاة أو وحوشاً ضارية أو خيولاً جامحة شرسة . ويرجع ذلك إلى أن كثيراً من عشيقاته كن من متوحشات البحر الذي كان هو سيده أو من متوحشات البر . فقد عشق الأنثى المتوحشة ميدوسا (Medusa) المسماة أحياناً جورجو (Gorgo) .[1] وكانت ميدوسا هذه امرأة متوحشة فعلاً ، رهيبـة ذات وجـه مستدير بشع . وتنبت في رأسها ثعابين بدلاً من الشعر . وتنمو لها لحيـة أحياناً ، وأحياناً أخرى تنبت لهـا أجنحة ضخمة . ويحيط بخصرها حزام من أنياب الخنزير البري وأدهى من ذلك وأمر أنها كانت تمسخ بعينيها حجراً كل من ينظر إليهـا . ومن حسن الحظ أنها لم تكن كأختيهـا

(١) راجع ص ٢١٦ .

« الجورجونتين » الأخريين خالدة فتمكن برسيوس ملك أرجوس ، من قطع رأسها بمساعدة أثينة وهرميس ، إذ غافلها ذات مرة وقطع رأسها وهي نائمة أو مستخدماً مرآة حتى لاتلتقي عيناها بعينيه. من هذه المتوحشة وهي تحتضر أنجب بوسيدون حصاناً مجنحاً يدعى بيجاسوس (Pegasus) . وكان شرساً جموحاً مثل أمه حتى روضه البطل بلليروفون . وكان يحمل صاعقة زيوس . في الحق إنه كان ولا يزال من أشهر الخيول في أساطير اليونان . وقد شغف الفنانون برسمه والشعراء بالحديث عنه. ونجد صورته مرسومة على عملة مدينة كورنثة[1] (الدولة البحرية الهامة) التي ارتبط بها كل من بوسيدون وبيجاسوس منذ وقت مبكر. وفي الحقيقة إن دورة الألعاب الاسثمية (في بلدة البرزخ قرب كورنثة) إنما انشئت عام ٥٨١ ق.م. تكريماً لبوسيدون. ويسوقنا الحديث عن بيجاسوس إلى ذكر إحدى مآثره فهو الذي حمل البطل بلليروفون (Bellerophon) وساعده على قتل خيايرا (Chimaera). كانت خيايرا هذه مخلوقاً مختلط التركيب فرأسها كرأس الأسد ، وأطرافها السفلى كأطراف التنين ، وجسمها كجسم الجدي (ومن هنا يأتي اسمها)[2] . وأما زفيرها فهو نار ذات لهب . وكانت تعيث في ليكيا (بآسيا الصغرى) فساداً قبل أن يصرعها بلليروفون (الكورنثي الأصل) بسهامه مستعيناً بالحصان المجنح بيجاسوس . ولقد كوفىء بيجاسوس ورفع إلى السماء ليتبوأ مكانه بين النجوم . وصار رمزاً للعبقرية الشاعرية .

ومن أشهر القصص الرائجة قصة الحصان الأول الذي خلقه بوسيدون عندما تنازع مع الربة أثينة على سيادة أتيكا والوصاية على مدينه أثينا . وقد اتفق حسماً للنزاع بين الإلهين على أن يظفر بالسيادة من يقدم للمدينة هدية أقيم من

---

(١) راجع ص ١١٨ فيما تقدم .

(٢) لكنها ترسم في الفن في شكل أسد ورأس جدي بارز من منتصف الظهر .

منافسه وضرب بوسيدون الصخر بحربته المثلثة الأسنان فتفجرت منها عين ماء ملح أجاج . لكن الرواية الأصح تقول إنه انبثق منها الحصان ، وهو حيوان نافع . وتؤيدها رواية مشابهة تقول إن الإله غلبه النعاس على صخرة في بلد كولونوس بأتيكا فسال لقاحه على الصخرة فأنبتت الحصان الأول الذي عرف باسم « الملتوى » أو وليد الصخرة (Skironites). وأيا كان الأمر فالحصان حيوان نافع . وتقدمت أثينة فضربت الأرض بقدميها فأنبتت شجرة الزيتون لأول مرة . والزيتون نبات أنفع للإغريق من الحصان . ولذلك صدر الحكم في صفها وآلت إليها السيادة على المدينة التي تشتق اسمها من اسم هذه الربة ، فهو نفسه في حالة الجمع(Athenai)أو كما يرى بعض علماء اللغة الآن أنه حالة ظرف المكان المطابقة في شكلها لحالة الجمع .

ولم تنشأ حول بوسيدون أساطير أخرى سوى أنه قام وحده (كما ورد في الإلياذة) أو مع أبوللون ببناء أسوار طروادة من أجل ملكها لاوميدون(وهو أبو برياموس) . لكن لاوميدون راوغ الإلهين بعد فراغهما من المهمة (أو فراغ أحدهما من البناء والآخر من رعي ماشيته) وامتنع عن إعطائهما الأجر الذي وعدهما به نظير هذه الخدمة . فانتقم منه بوسيدون بأن سلط على طروادة وحشاً بحرياً ضاريا عاث في أرض المدينة فساداً ولم يكن يكف عن أذاها إلا إذا قدمت له إحدى فتيات طروادة قرباناً . ومن ثم نجد بوسيدون يناصر الإغريق ضد الطرواديين في حرب طروادة كما ورد في الإلياذة. وأما في الأوديسيا فهو – كما رأينا – عدو البطل أوديسيوس لأن الأخير قتل ابنه بوليفيموس ، وهو وحش ذو عين واحدة مستديرة وسط جبهته كان بوسيدون قد أنجبه من إحدى الكيكلوبات .

وقد ارتبط بوسيدون في العصور قبل التاريخية بقوم يعرفون بالمينياسيين

Minyae (نسبة إلى الملـــك الأسطوري Minyas) ، وكانوا يسكنون في أورخومينوس بإقليم بويوتيا و كذلك في إيولكوس بشـاليا . وارتبط في العصور التاريخية بالأيونيين ، وإن كانت عبادته قد انتشرت في مناطق كثيرة من العالم الهليني . لكن على الرغم من انتشار عبادته وتمتعه بقدر كبير من الاجلال كإله وعلى الأخص بين الأسر الارستقراطية المحافظة ، الا أنه لم يتطور بتطور المثل الدينية الأخلاقية على نقيض زيوس وهاديس نفسه . ولعل من بين الأسباب أن هذه المثل اقترنت باتجاه عام نحو التوحيد . ومن ثم لم يترك زيوس متسعاً لغيره من الآلهة .

هستيا [1] : Hestia

هي ابنة كرونوس وريا ، وأخت زيوس . ولعلها كانت أخته الكبرى. كانت مثل أثينه وأرتميس ربة عذراء . وحدث بعد أن أطـــاح زيوس بعرش أبيه كرونوس أن تنافس في طلب يدهـا كل من بوسيدون وأبوللون ، وهي قصة لم تنشأ الا لأنها عبدت مـع هذين الالهين في معبديها . غير أن هستيا رفضت كل عروض الزواج التي تقدم بها الآلهة والبشر ، وأقسمت برأس زيوس أن تظـــل عذراء إلى الأبد . وقد حاول بريابوس (Priapus) [2] أن يغتصبها ذات مرة . لكن ينبغي قبل أن أمضي في سرد القصة أن أبين من هو بريابوس . لقد قيل عنه إنه كان ابن هرميس . وقيـــل عنه ايضاً إنه كان أباه . وليس من المستبعد أن يكون هو، هرمافردوتيوس ،أو أن يكون ابناً انجبته أفروديتي من ديونيسـوس

---

(١) فستا (Vesta) عند الرومان .

(٢) أحد آلهة الخصب والرعي والموسيقى .

أو أدونيس أو زيوس نفسه . وقد ولد مشوهاً مثل هيفايستوس ، وبشع الخلقة مثل « بان » ، فكان طويل اللسان منتفخ البطن جامح الشهوة الى حد أن أمه نفسها تبرأت منه وأنكرته انكاراً تاماً . وفي الحق إنه كان أحد آلهة بلدة بريابوس ، وهي ما نعرفها اليوم باسم بلدة القردنيل . هذا الاله الفظيع المظهر والجوهر حاول مرة أن يغتصب الربة الوقور هستيا أثناء حفل ريفي دعي اليه الآلهة . ويبدو أن الآلهة شربوا وأسرفوا في الشراب حتى ثملوا ولعبت الخمر برؤوسهم فغلبهم النعاس وغطوا في نوم عميق . وانتهز الفرصة فتسلل الى مكان هستيا ولكنها هبت آنئذ مذعورة على نهيق حمار وصرخت بأعلى صوتها فأطلق بريابوس ساقيه للريح دون أن ينال بغيته . ألا فليحذر من يحاول انتهاك حرمة الضيوف من النساء اللاتي يكن تحت حماية الموقد المقدس ! ويبدو أن الناس لم ينسوا هذه الحادثة فظلت الحمير تنحر قرباناً لبريابوس في أماكن عبادته .

ولم تكن العذرية وحدها هي موضع افتخار هستيا ، فقد كانت هي الوحيدة من بين الآلهة التي لم تشترك أبداً في حروب أو منازعات. ولهذا السبب استجاب زيوس إلى رغبتها في أن تكون الذبيحة الأولى من نصيبها في أي حفل عام للقرابين ، وأن تحتل في أي منزل مكانه الأوسط . وبذلك أصبحت هستيا – كما يتبين من اسمها – ربة الموقد ، رمز الحياة العائلية ، وما يسودها من تضامن وسلام وهناء . لقد كان إضرام النار في العصور القديمة عملية شاقة تستغرق وقتاً طويلاً ، ولذلك أصبح إبقاؤها مشتعلة أمراً مرغوباً فيه . ويبدو أن موقد الزعيم أو الملك كان على جانب كبير من الأهمية بين الجماعات الأولى سواء في بلاد اليونان أو في إيطاليا إما لفائدته العملية أو لأسباب تتصل بالديانة والسحر. لقد كانت النار ترادف الحياة تقريباً . كان استمرارها يرمز إلى استمرار الحياة في الأسرة والدولة . ومن ثم أصبحت عبادة الموقد الجماعي أو الموقد المقدس عامة .

غير أن هستيا ربة الموقد وناره المقدسة لم تتقمص كغيرها من الآلهة أشكالاً أخرى آدمية أو حيوانية. لهذا لم تنشأ حولها أساطير تقريباً . ولم يرد لها ذكر عند هوميروس . وإنما كانت هستيا تبسط حمايتها على من يستجيرون بالموقد المقدس سواء في منزل خاص أم في مكان عام . وحول موقد المنزل كان يطاف بالمولود الجديد في اليوم الخامس من ولادته ؛ وهو يوم الاحتفال بتسميته حتى يعترف به عضواً في بطن (phratria) القبيلة التي تنتمي إليها الأسرة [1] . وفضلا عن ذلك فإن كل وجبة من وجبات الطعام كانت تبدأ بتقديم القرابين لها. وكان اسمها أول ما يذكر عند الصلاة وأول ما ينطق به غالباً عند القسَم. وكما كان في كل بيت موقد لهستيا كان لكل مدينة موقد عام موقوف على الربة في قاعة البريتانيوم (Prytaneum) ، وهي بمثابة دار الرياسة (أو دار البلدية) حيث كان يستقبل الضيوف والأجانب . ولما كان لهستيا أيضاً موقد مقدس في معظم قاعات مجلس الشورى (Boulé) ، فإنها كثيراً ما نوديت باسم بوليا (Boulaia) أي المشيرة وصاحبة الرأي السديد . وكان المهاجرون عند تأسيس أي مستعمرة يونانية (apoikia) يحملون معهم قطعاً من فحم موقد المدينة الأم (metropolis) لكي يشعلوا به نار موقد المستعمرة الجديدة. ولقد روى أن كومة الفحم المتخلف تحولت في دلفي إلى صخرة مقدسة اشتهرت باسم « أومفالوس » أي « السرة » ، وهي التي توهم اليونان أنها مركز العالم وكثيراً ما تشاهد في زخارف المزهريات الخزفية [2] .

---

(١) راجع ص ٩٨ فيما تقدم.

(٢) راجع ص ١٢٣ حاشية ٣ .

الفصل الخامس

آلهة أوليمبوس

٢ - أبناء زيوس

هيفايستوس [1] : Hephaestus

كان هيفايستوس في الأصل إلهاً آسيوياً لنار البراكين ، وبعدئذ أصبح إله النار وبخاصة نار الحدادة ، وأخيراً إلهاً للحدادة ذاتها . ويوصف عند هوميروس بأنه ابن زيوس وهيرا ، وعند هيسيود بأنه ابن هيرا التي أنجبته وحدها بمعجزة انتقاماً من زيوس الذي أنجب أثينة من رأسه [2] . ولدينا عدة أساطير عن هذا الإله روينا بعضها عند الكلام عن هيرا وسنروي بعضها الآخر عند الكلام عن أثينة وآريس وأفروديتي . على أن أهمها ما يدور حول ميلاده وعاهته وقبحه . ولعل القارىء لم ينس أن هيفايستوس ولد قبل أوانه أي قبل اكتمال مدة الحمل الطبيعية ، فجاء إلى الدنيا بعاهة العرج لا في قدم واحدة بل في قدمين ، إذ كانت كل منهما معكوسة ، أصابعها في الخلف وعقبها في الأمام حتى أن الإله لم يكن يستطيع المشي إلا إذا دفع بكل جسمه إلى الأمام . ويظهر هذا التشويه واضحاً في رسوم الأواني الفخارية التي وصلتنا . ويعزو بعض الرواة ميلاده غير الطبيعي إلى أنه حدث في الفترة التي كانت فيها علاقة زيوس بهيرا ما تزال سراً خافياً ، وهي فترة امتدت ثلثمائة سنة . ويحدثنا هوميروس على لسان هيفايستوس نفسه كيف أن الأخير لم يخف ألمه من أن هيرا حاولت إخفاء مولده . وفي الحق أن هيرا نفسها لم تكتم خجلها منه أو ضيقها به . فقد قذفت

---

(١) فولكانوس (Vulcanus) عند الرومان .

(٢) يصف الكاتب اليوناني لوكيانوس (القرن الثاني م) هيفايستوس بأنه « ابن الريح » .

بالطفل من السماء . وكان من الجائز أن يهلك لولا أن تلقفته أيدي ثيتس وزميلة لها عندما سقط في البحر . وقد بقي هيفايستوس مع هاتين الربتين تسع سنوات صنع لهما في أثنائها أقراطاً وقلائد ومشابك وحلياً أخرى . ولم يعلم أحد من الآلهة أو الناس شيئاً عن هذا الأمر سوى الربتين .

ويروي هوميروس قصة أخرى عن سقوط هيفايستوس من السماء : فقد حاول هيفايستوس ذات مرة أن يحمي أمه من بطش أبيه فأمسك به زيوس من عقبه وقذف به من قصر الآلهة فهوى في الفضاء ، واستغرق نزوله يوماً بأكمله ، وأخيراً سقط فوق جزيرة ليمنوس (Lemnos) مع غروب الشمس . ولما بلغ الأرض كان في حالة أقرب إلى الموت منها إلى الحياة . وليس من المستبعد أن يكون سقوطه على هذا النحو هو سبب عاهته . وعلى أي حال فقد عثر عليه وعني به قوم يدعون بالسنتيين ، وهم قوم متبربرون قيل إنهم عبدوه في الجزيرة . وقد حدث ذلك في الوقت الذي تشاحن فيه زيوس وزوجته هيرا فقيدها بالأغلال وعلقها على حبل ذهبي بين السماء والأرض عقاباً لها على اضطهادها لابنه هيراكليس الذي أنجبه من إحدى عشيقاته .

ومع هذا كله فإن هيفايستوس يظهر في أشعار هوميروس محاطاً بكل مظاهر الإجلال والتوقير . وبدهي أن عاهته كانت تجعله دائماً ثقيل الحركة وتمنعه من مزاولة مهنته كالزراعة أو القنص أو الزج بنفسه في القتال ، فكان من الأوفق أن يزاول حرفة كالحدادة لا تستلزم التنقل ، مستغلاً قوة ساعديه . ويتفق هذا مع الرواية القائلة بأن هيرا لم تلق بابنها من السماء مما أدى إلى تشوهه بل أحضرته عقب ولادته مشوهاً إلى جزيرة ناكسوس حيث عهدت به إلى بعض الكيكلوبيس لتربيته وتعليمه حرفة الحدادة . ولذلك كان هيفايستوس هو الذي يصنع مختلف الأدوات والمساكن والأثاث والأسلحة والدروع للأبطال والآلهة . وكان من أشهر ما صنعه درع أخيليوس (أخيل) وصولجان أجاممنون وعقد (قلادة) هرمونيا ابنة أفروديتي من أريس ، وزوجة كادموس ملك طيبة ، وهو عقد

سيجر المصائب على كل من يقتنيه . وكان يعاون هيفايستوس في دكانه فتيات صنعهن بيديه من الذهب وأحياناً أخرى كان يعـاونه الكيكلوبيس أنفسهم . وتقول إحدى الروايات إنه هو الذي خلق بندورا (Pandora) أول إمرأة في الوجود، وتقول أخرى إنه خلق الإنسان وإن كان بروميثيوس(Prometheus) سارق النار الأولى ، والصانع الأول ونصير الإنسانية ، هو من يعزى إليه هذا الفضل في الواقع [1] . وقد تخيل شعراء الأجيال التاليـــة هيفايستوس مقيما في مكان تحت أحد البراكين وأنه هو السبب في ثورانها . ولا عجب في ذلـك فقد كان في الأصل إلهاً للنار التي في باطن الأرض. وفي الواقع أن كلمة هيفايستوس قد تؤدي معنى النار بوجه عام .

ويظهر هيفايستوس في الإلياذة كزوج لإحدى ربات البهاء واللطافة والبهجة المسميات خاريتيس (Charites)[2]، ويحدد هيسيود اسمها بأجليا (Aglaia). وأما في الأوديسيا فيظهر هيفايستوس ، أقبح الآلهة شكلا ، كزوج لأفروديتي أجمل الآلهات . لقد كان وحده دميماً قميئاً مشوهاً على نقيض جميع الآلهة الذين كانوا آية في الجمال والرشاقة وحسن القوام. وبدهي أن أفروديتي لم تكن مخلصة واستجابت لإغراء آريس ، إله الحرب ، الذي أدت مغازلته لها إلى مشاكل مع هيفايستوس . وكان هيفايستوس قد أراد الزواج من أثينا ولكنها رفضتـــه . ومع هذا فقد كان إلهاً خيراً داعياً للسلام محبوباً في الأرض وفي السماء. وكان كالربة أثينه ، يقوم بدور هام في حيـــاة مدينة أثينا . فكلاهما كان راعياً للصناعة التي تعتبر هي والزراعة دعامة الحضارة . وقد قام هو برعاية صناعة المعادن والأواني الفخارية ، بينما قامت هي برعاية صناعة النسيج بوجه خاص . وفضلا عن ذلك كان هو الإله المشرف على الاحتفالات الخاصة بادماج الشباب في هيئة مواطني المدينة .

---

(١) عن بندورا وبروميثيوس ، راجع ص ٥٦ - ٥٧ هامش فيما تقدم .
(٢) راجع ص ٢٢٠ هامش فيما تقدم .

أثينة [1] : (Athêné)

كانت أثينة في الأصل ربة مينوية وبعدئذ ربة ميكينية . وينتهي اسمها نفسه بنهاية غير مألوفة في اللغة اليونانية . وأما عن نشأة الاسم فإليك أحدث ما قيل فيه : كانت هضبة أو صخرة الأكروبول (Acropolis) تسمى أصلاً بأثينة (Athênê) ، وهو اسم غير هندي ـ أوربي(سابق على مجيء الإغريق) وشبيه في نهايته بأسماء أماكن أخرى قديمة مثل ميكيني وباليني وميتيليني ومسيني وغيرها . وصيغة ظرف المكان هي أثيناي (Athênai)، وهي تطابق تماماً صيغة الجمع أثيناي (Athênai) التي جاء منها اسم المدينة (Athênai). وقد سميت الربة نفسها باسم الصخرة لأن الربة كانت في الأصل هي الصخرة ، أي كانت ربة من ربات الجبال على غط أمهات الجبال المألوفات في الأناضول . وبعبارة أخرى أن أثينة كانت أصلاً ربة أمومة . لكنها فقدت في العصر الكلاسيكي (القرن الخامس ق.م. وما بعده) هذه الصفة إذ تحولت أمومتها إلى عذرية دائمة . كيف حدث ذلك ؟ في الحق إن وصف أثينة « بالعذراء » (parthenos) لا ينبغي أن يفهم بالمعنى الحديث وإنما بمعنى البكارة المتجددة ونضارة الشباب والقدرة التي لا تنضب على الحمل والإنجاب [2] . كانت أمومة أثينة قديماً من هذا الطراز . وسنعود إلى إيضاح هذه النقطة ، نقطة البكارة ومفهومها،عند الكلام عن الربة أرتميس.حسبنا أن نقول هنا إن أثينة كانت ربة

---

(١) مينرفا (Minerva) عند الرومان .

(٢) سبتينو موسكاتي ، « الحضارات السامية القديمة » ، ص١٢٨(في الترجمة العربية ليعقوب بكر) حيث يقول إن عنت وعشترت كانتا إلهتين تجمعان بين صفتي البكارة والامومة رغم تعارض هاتين الصفتين في الظاهر . وأنظر أيضاً حاشيته على ذلك رقم ١٥ ص ٢٧٣ في نفس المرجع .

من ربات الجبال وربة صخرة الأكروبول بوجه خاص قبل مجيء الإغريق وبهذه الصفة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بكل ما ينبت في الصخره من نبات وما يسكن من حيوان . فكل حياة تنبثق من جحور الصخرة وشقوقها كانت صنواً لحياتها . ومن ثم كان النبات والحيوان في هذا المكان موضع تقديس بوصفه آية من آيات الربة نفسها . وذلك يفسر اقتران أثينة بالزيتون والثعبان والبومة ، وكلها من سكان الأكروبول وجحوره . ولا ينكر أحد الالتحام الوثيق بين تاريخ الربة أثينة وتاريخ مدينتها الحبيبة أثينا. فإذاً سميت الربة باسم المكان بدلاً من تسمية المكان باسم الربة فإن ذلك إنما يقرن أثينة – إلى جانب قرنها بصفات أخرى – بقر سكنى محلي محدد . وهو يعزز أيضاً الاحتمال الذي توحي به أوجه الشبه مع الأناضول ، بأن أثينة كانت كربة محلية قديمة مناظرة لأمهات الجبال .

ومن ألقاب أثينة الشائعة لقب « بللاس » (Pallas) . وكان شائعاً منذ هوميروس شيوعاً يشير إلى أنه لم يكن مجرد لقب بل كان اسماً آخر للربة . فأثينة اسمها وبللاس اسمها الثاني. كان بللاس اسماً مستقلاً لا مجرد نعت أو صفة. ولقد سمي التمثال الذي قيل إنه سقط من السماء بمعجزة بللاديون (Palladion) . وما معنى « بللاس » في اليونانية ؟ في أغلب الظن بل في أكبر الاحتمال إن معناه « فتاة » أو « شابة » وشابة قوية . ونلتقي به في لغة العصر الكلاسيكي (القرن الخامس وما بعده) في صورة بللاكي (pallakê) وبللاكيس (pallakis) بمعنى محظية . ويؤدي أيضاً اللفظ نفسه أو في صورة بللاكس (pallax) معنى فتى أو شاب قوي. وهذا يرجح الاحتمال بأن الغزاة الإغريق كان عندهم ربة عذراء ولعلها كانت – تمشياً مع أسلوب حياتهم – ربة حرب ذات صفات عسكرية وأنهم جعلوها صنواً للربة المحلية القوية عندما امتزجت حضارتهم بحضارة السكان القدامى الأصليين في البلاد . ولعل ذلك يفسر تحول أثينة – إن صح إنها كانت أصلاً ربة للجبال – إلى ربة عذراء في

العصر الكلاسيكي تنفر من الحب وتعزف عن الزواج . وبناء على هذا الافتراض يكون لفظ « بللاس » مرادفاً لتلك الألقاب الأخرى مثـل كوري (korê) وبارثنوس (parthenos) ، وهي ألقاب عرفت بها أيضاً الربة أثينة [١] .

لقد شيد أشهر معبد لها على الأكروبول بأثينا مكان قصر قديم يرجع إلى العصر الميكيني ويعرف في الإلياذة باسم بيت إريخثيوس (Erechtheus) . وقد تظهر أثينة أحياناً ، مثل ربات كريت في صورة طائر وبخاصة البومة التي اقترنت بها في العبادة في العصر التاريخي وتشاهد صورتها غالباً على العملة الأثينية . ولهذا وصفت أثينة بصفة جلاوكوبيس (glaukôpis) وهي إما بمعنى « ذات العينين الشبيهتين بعيني البومـة » أو « البراقتين » أو « الخضراوين خضرة الزيتون » أو خضرة ماء البحر . وتشبه تماثيلها الغريبة ، وهي تماثيل إناث مسلحـات ، الربة الميكينية المسلحة بالدرع . ومن هذا كله نستخلص أنها كانت الربة الحارسة

---

(١) اختلفت الأساطير في أصل لقب « بللاس » الذي يقترن عادة باسم الربة أثينـة . ففي أسطورة أن والد أثينة لم يكن زيوس بل كان عملاقاً على هيئة الجدي يسمى « بللاس » . وقد حاول هذا العملاق اغتصابها ولكنها تغلبت عليه وانتزعت جلده وصنعت منه درعها ، هذا إذا لم يكن درعها الشهير (aegis) في الأصل هو جلد ميدوسا (Medusa) التي سلختها أثينة بعد أن فصل برسيوس رأسها عن جسدها (راجع ص ٢٥٨) . وفي أسطورة أخرى أن أثينة بعد أن أنجبها زيوس من رأسه على ضفاف بحيرة تريتون ، تولى هذا الإله تربيتها . وكان لتريتون إبنة تدعى « بللاس » . وحدث ذات مرة أن كانت أثينة تلعب مع بللاس لعبة الحرب . وعندما همت الأخيرة بإطلاق حربتها خشي زيوس أن تصاب ابنته في مقتل فدفع بدرعه المخيف (aegis) امامها لكي يقيها منه . وقد حول ذلك انتباه بللاس فأصابتها أثينة بحربتها إصابة مميتة . وقد حزنت أثينة على ربيبتها حزناً شديداً فحملت اسمها وصنعت لهـا تمثالاً وهو البللاديون (palladion) تخليداً لذكراها . وبهذا التمثال كان يرتهن حظ طروادة لأن استيلاء أوديسيوس وديوميديس عليه كان نذيراً بسقوطها في يد الآخيين (الاغريق) .

لملوك كريت وميكيني بالذات . ومن المرجح أن رعاياهم قد عبدوها وأخلصوا لها العبادة. وعلى أي حال فقد ظلت أثينة تحتل مكانة سامية في الأجيال التالية. لقد كان أهم آلهة أوليمبوس ثلاثة : زيوس ثم أثينة ثم أبوللون .

ويروي كهنة أثينة نفسها (فلم يكن لها كاهنات) قصة غريبة عن مولدها. يقولون إن زيوس اشتهى ميتس (Metis) ، وهي ربة بدائية من « الجبابرة » إشتهرت بالحكمة ، وهي ابنة أورانوس إله السماء وجايا إلهة الأرض[1] . غير أنها تنكرت في صور مختلفة حتى تتهرب منه . لكنه تمكن منها في آخر الأمر وحملت منه . وأعلنت نبوءة الأرض أن ميتس ستلد ذكراً ليطيح بعرش ابيه مثلما اطاح زيوس بكرونوس واطاح كرونوس بأورانوس. واحتاط زيوس للأمر فأخذ يغوي ميتس بكلام معسول حتى استكانت له ، وبغتة فغر فاه وابتلعها . هكذا كانت نهاية ميتس ، وإن زعم زيوس انها ظلت تمده بالنصيحة والرأي السديد من داخل بطنه . ونسي كبير الآلهة الحادث ومضت أيام وشهور. وبغتة أصابه صداع شديد بينما كان يسير على شواطىء بحيرة تريتون (Triton) حتى احس بأن راسه على وشك ان ينفجر . فأخذ يعوي كالمجنون عواءاً مدوياً رجعت السماء صداه. وهرع إليه هرميس الذي أدرك من فوره سبب ألمه وشكاته. وما زال بأخيه هيفايستوس حتى أقنعه بضرورة تخليص أبيها من عذابه . وعندئذ هوى هيفايستوس بفأسه على رأس زيوس وشجها فانبثقت منها أثينة. وقد خرجت الربة منها مدججة بالدرع تصيح صيحة الحرب التي ارتجت لها الأرض والسماء ، وارتاع منها الآلهة انفسهم ، وزلزل جبل اوليمبوس ، وهاج البحر وماج .

وقد أصبحت أثينة بعد مولدها العجيب أحب الأبناء إلى قلب أبيها حتى أنه

---

(١) عن ميتس ، راجع ص ٢١٩ هامش ٢ فيما تقدم.

كان يعهد إليها أحياناً بحمل درعه المخيف وترسه الرهيب وصاعقته المهلكـة . وكانت أثينة زعيمة الربات الثلاث اللائي لم يتزوجن ابداً حتى أنها لقبت بالفتاة العذراء (Parthenos) ، وعرف معبدها في أثينا بالبارثنون (Parthenon) أي « معبد العذراء ». فاذا وصفت أحياناً بالأم (Mêtêr) فان هذا ربما لايعني سوى أن الأمهات كن يتعبدن لها مثلما كانت هيرا،مع أنها زوجة زيوس، توصف بالفتاة (Pais) والزوجة (Teleia) والأرمل (Chêra)[1] أو لعله يعني أنها كانت في الأصل أي في الفترة قبل التاريخية ربة أماً ، وهـذا هو الأرجح ، وإن حاول الأثينيون طمس هذه الحقيقة لأنهم جعلوا من عذرية أثينـــة رمزاً لاستحالة قهر مدينتهم . وقد توحي الأسطورة التالية بوضع الربة القديم .

فقد رغب الإله هيفايستوس – على نحو ما أشرنا[2] – في الزواج من أثينة إما بدعوى أنه كان له فضل كبير في ميلادها أو في مقابل أسلحة صنعها لها في الحرب الطروادية عندما رفض زيوس إعارتها أسلحته لوقوفه على الحياد في هذه الحرب . وأدخل بوسيدون ، إله الحرب ، في روع هيفايستوس أن الربة راغبة فيه هي الأخرى وأن أباها راض عن زواجها منه . غير أن زيوس في الواقع ترك لابنته الخيار في أن ترفضه إذا شاءت . وعندما همّ بها هيفايستوس تمنّعت عليه، فانقض عليها يريد اغتصابهـا . وثار بينهما صراع ونزاع عنيف (eris) سقط خلاله لقاح الإله على ساقها فنفضته عنها في اشمئزاز بقطعة من الصوف(erion)، فسقط على الأرض (chthôn) ، فانبتت الأرض طفلاً نبذته ربـــة الأرض فاحتضنته أثينة وتكفلت به ، وأسمته إريخثونيوس(Erichthonios) ، ولعله هو إريخثيوس نفسه(Erechtheus)الذي يصفه هوميروس بأنه ابن ربة الأرض،

---

(١) راجع ص ٢٢٦ فيما تقدم .

(٢) راجع ص ٢٣١ ، ٢٦٥ فيما تقدم .

وإن كان البعض يرى أن هذا غير ذاك لأن ذاك يعتبر ابناً لهيفايستوس . ولكي تتحاشى أثينة شماتة بوسيدون فيها وتحرمه لذة التفكه بنجاح خدعته ، فقد أخفت هذا الطفل في سلة أو صندوق مقدس وعهدت به إلى بنات كيكروبس (Cecrops) ملك أثينا ، الذي كان نصفه إنساناً ونصفه الآخر ثعباناً لكي يحفظنه وديعة عندهن وأوصتهن بعدم فتح الصندوق . غير أن الفضول دفع البنات (أو اثنتين منهن) وأمهن إلى إزاحة الغطاء عن الصندوق ليشاهدن ما في داخله . وقد هالهن أن رأين طفلاً له ذيل ثعبان بـدلاً من الساقين ، فامتلأن رعباً وولين الفرار بل أصابتهن لوثة فقذفن بأنفسهن من أعلى الأكروبول ولقين مصرعهن . وقيل إن الفزع هو الذي تسبب في جنونهن ، وقيل إنه الثعبان ، وقيل إن أثينة هي السبب لغضبها من مسلكهن . غير أن الاحتمال الأخير هو الأضعف لأن هناك رواية تقول بأنه لما علمت أثينة بفاجعة مصرعهن ، حزنت حزناً شديداً حتى أن الصخرة الهائلة التي كانت تحملها آنئذ لتدعم بها حصن الأكروبول أفلتت من يديها فانحرفت بعيداً ونزلت حيث يقوم مكانها جبل ليكابتوس المتاخم لأثينا ! وأما الغراب الذي نقل إليها الخبر المفجع فقد استبدلت بلونه الأبيض اللون الأسود ، وحرّمت على الغربان جميعاً التحويم فوق الأكروبول . وقد لاذ إريخثونيوس بدرع أثينة التي سهرت على تربيته ودللته حتى ظن البعض أنها أمه . ولما شب طفل الأكروبول المقدس عن الطوق وصار شاباً يافعاً ارتقى عرش أثينا حيث أدخل عبادة أثينة وعلم مواطني المدينة استعمال الفضة ، وابتكر العجلة الحربية ذات الجياد الأربعة . ولهذا قيل إن صورته ظهرت في السماء بين الكواكب باسم أوريجا (Auriga) أي « السائق » .

ولم تتنازع أثينة وهيفايستوس فقط بل تنازعت أيضاً وبوسيدون ، إله البحر ، وهو نزاع مشهور ــ أشرنا اليه ــ حول السيادة على أرض أتيكا .

واحتدمت المنافسة فرأى بوسيدون أن يظهر آيته وضرب بحربته المثلثة الشعاب صخرة الأكروبول فتفجرت منها عين ماج أجاج كماء البحر ثم انبثق منهـا الحصان [1] . وأما أثينة فكانت آيتها شجرة الزيتون التي غرستها في أرض أتيكا لأول مرة . ولذلك حكم شعب أثينا أو بالأحرى ملكها كيكروبس في صالح الربة لأنها وهبت أتيكا ما هو أنفع . وأثار ذلك الحكم غضب بوسيدون فأغرق بماء البحر سهل « ثريا » ولكنه تصافى والربة في آخر الامر ورضي عن أتيكا ، وأصبح يلقى في أثينا أعظم التكريم . ولما كانت أثينة في الأصل راعية ملوك كريت وميكيناي وحامية ذمار قصورهم وحصونهم ، فقد ارتبطت بالقلاع (acropoleis) ، وبالتالي ارتبطت بالمدن نفسها (poleis) ، ولـذا اشتهرت بأنها « ربة دولة المدينة » (polias) . وربة أثينا على الأخص ، والتي لا يعدو اسمها أن يكون في الواقع اسم الربة في صيغة الجمع (Athênai) . على أنه من الخطأ الاعتقاد بأن أثينا وحدها كانت مدينتها المقدسة . فقد كانت أرجوس واسبرطة وطروادة نفسها مدناً مقدسة لدى هذه الربة .

ومع أن أثينة كان لهـا صلة وثيقة بالماء كما يتبين من لقبها تريتوجينيا (Tritogeneia) – أي ابنة تريتون البحيرة التي ولدت عندها ـ إلا أن أبرز اختصاصها كان في ميدان القتال ، مثلما كان أريس إلهاً للحرب ، وإن كان القياس مع الفارق لأنه بينما كان الأخير مكروهاً كانت أثينة محبوبة ، وكان هو أهوج بينما كانت الربة عاقلة رشيدة . وتظهر أثينة في الإلياذة كإلهة خبيرة بالخطط العسكرية ، ومقاتلة شديدة المراس (ضد الطرواديين بسبب حكم باريس في قضية التفاحة الذهبية) . وقد تلم أحياناً بالقسوة والشراسة عندما يتملكها غضب شديد . ومع هـذا فإن أثينة لم تكن تقاتل إلا من أجل بطل

(١) راجع ص ٢٥٨ - ٢٥٩ حيث تروى القصة بطريقة أخرى .

قريب إلى جنيها (مثل ديوميديس) أو فريق مختار فتقوده إلى المعركة (Promachos) أو تبسط عليـه حمايتها مثلما يبسط محارب قوي حمايته على الضعيف . بيد أن دفاع الربـة عن مدينة أثينا لم يقتصر على وقت الحرب ، بل تعداه إلى وقايتها من شتى الأخطار في وقت السلم أيضاً (Poliouchos) . ومن ثم فقد اعتبرت أحياناً مبتكرة لبعض معدات القتـــال كالعجلة الحربية وبوق الحرب واللجام الذي روض الإنسان بـه الجياد وكبح جماحها . ومع أن أثينة كانت ربة الحرب إلا أنها لم تكن تبتهج بالقتال كأريس Ares (إله الحرب) وإيريس Eris (ربة النزاع) بقدر ما كانت تبتهج بحسم النزاع ومناصرة القانون بالوسائل السلمية . فهي لم تحمل السلاح في زمن السلم . فإذا احتاجت إليه استعارته من أبيها زيوس . وكانت ربة رحيمة القلب فإذا تساوت أصوات المحلفين في قضية جنائية أمام محكمة و الأريوباجوس » (كقضية أوريستيس بن أجاممنون ، الذي قتل أمه الخائنة) أدلت بالصوت الذي يرجح كفة البراءة على الإدانة . وعندما فاجأها تيريسياس (Teiresias) ذات مرة وهي تستحم ، وضعت كفيها على عينيه فسلبته البصر ، غير أنهـا وهبته عوضاً عنه عكازاً سحرياً ليقوده وعمراً مديداً ، ووهبته فوق ذلك ، نفاذ البصيرة فأصبح من أشهر العرافين .

ولما كانت أثينة ربة لمدينة أحرزت تقدماً ملحوظاً في الصناعة فقد أصبحت أيضاً راعية الحرف والصناعات وعلى الأخص صناعة الغزل والنسيج والخزف والأشغال المنزلية النسوية بوجه عام . وفي الحق إنها غدت معبودة الصناع على اختلاف مهنهم فاعتبرها صانعو الفخار وصانعو الذهب وحتى الحدادون معلمة لهم . لا عجب إذن أن لقبت أثينـــة براعية المهن الصناعية (Erganê) ، وتداخلت اختصاصاتها إلى حد مـا واختصاصات هيفايستوس ، الأمر الذي يفسر ارتباطها بـه في الأساطير . وكان من الطبيعي أيضاً أن تتطور أثينة ،

بوصفها راعية الحرف الفنية ، إلى ربة الحكمة (sophia) في الأجيال التالية. ولعل بداية هذا التطور ترجع إلى أيام هيسيود (القرن السابع ق.م) الذي فسر مولدها من ميتس ، ربة الرأي السديد والعلم الذي فاق علم الآلهة والناس أجمعين ، ومن رأس أبيها (وهو مركز العقل) تفسيراً رمزيا . كذلك ارتبطت أثينة بربة النصر (Nikê) ذات الجناحين - وهي فكتوريا (Victoria) عند الرومان - أشهر الربات اللائي سرن في ركابها ، وما تزال أطلال معبد هذه الربة قائمة فوق الأكروبول مثلما لا تزال موجودة على أفريز البارثنون صورة مولد أثينة العجيب .

أريس[1] : Ares

كان أريس إله الحرب عند الإغريق . وهو الإله الأوليمبي الوحيد الذي أنجبه زيوس من زوجته الشرعية هيرا . لكن هوميروس يحدثنا بأن أبويه كانا يمقتانه ، ويصوره إلهاً بغيضاً حتى في الإلياذة مع أنها ملحمة حرب سجال وتتغنى بالطعن والنزال . وقد يبتهج الأبطال بخوضه المعركة ، غير أنهم غالباً ما يبتهجون بنجاتهم من غضبه . فقد كان أريس إلهاً قاسياً متحجر القلب لا يرحم . ويندد به هوميروس فيصفه بالقاتل الملطخ بالدماء وأنه لعنة على البشر (ara). ومن الغريب أيضاً أن يصفه بالإله الجبان الذي يصرخ من الألم عندما يصاب بجراح . غير أن أريس كانت له دائماً حفنة من الأتباع في ميدان القتال تعمل على بث الشجاعة في نفوس المحاربين . وتظهر إريس ، ربة الشقاق ، كأخت له في الإلياذة ، وتمشي ربة الحرب إنيو Enyo - وهي تقابل بللونا Bellona عند الرومان - تمشي إلى جانبه في معظم الأحيان ، وفي ركابها يمشي « الرعب »

---

(١) = مارس(Mars)عند الرومان .

و « الارتجاف » و « الفزع »، وفي أعقابها تتصاعد أنات المجندلين وتسيل الدماء في الأرض كالأنهار . وثمة ملاحظة أخرى وهي أن أريس ، برغم ما يروى بأنه الابن الوحيد لزيوس وهيرا ، كان يقاتل في صف الأجانب ضد الإغريق ، فتراه يناصر الطرواديين مثلما ناصر من قبل الأمازونات (Amazones) ، وهن نساء مسترجلات مستوحشات ماهرات في الفروسية والقتال حتى لقد قطعن أحد الثديين (تسهيلاً لشد القوس ورمي السهام) ومن هنا جاء اسمهن . وطردن الرجال من مملكتهن بآسيا الصغرى وعشن بدونهم فيما عدا زيارتهن لهم زيارات خاطفة حفاظاً على النسل . وقد قام البطل الأثيني ثيسيوس(Theseus) بحملة ضدهن (وساعده فيها – على ما يروى – البطل هيراكليس) وأسر ملكتهن « انتيوبي » وأنجب منها ابنه هيبوليتوس . كما اشتركن في الحرب الطروادية ضد الإغريق وقتل أخيل ملكتهن « بنثيسيليا » وإن كان قد بهره جمالها ساعة سقوطها صريعة أمامه .

ويقول بعض الباحثين إن أريس - الذي لا يزال اسمه مجهول الاشتقاق – كان في الأصل إلهاً للزراعة . ولا يجد هذا الرأي سنداً سوى أن مارس(Mars) الذي ناظره الرومان بأريس ، كان في الأصل إلهاً للزراعة عندهم. لكن مارس إله الحرب ، كان له عند الرومان شأن كبير آخر . فلم يكن كعديله اليوناني هزيلاً رعديداً بل كان إلهاً مهيباً لامع الدرع براق السلاح لا يقهر . وكان له في الديانة الرومانية مكانة سامية . في الحق إن أريس اليوناني لم يكن بالإله المحارب الذي يقود قومه – مثل مارس – للمعركة بل كان مجرد تأليه للروح العسكرية في عصر البطولة . وليس هناك ما يدل على أنه كان معبوداً عند الإغريق الأوائل . ولم يكن – على نحو ما رأينا – إلهاً محبوباً أو يتمتع بشعبية ، بل إنه لم يكن بذي أهمية إلا في طيبة وربما في أثينا حيث كانت توجد محكمة للجنايات تحمل اسمه وهي محكمة الأريوباجوس(الكائنة في صخرة أوتل أريس). لكن

إنني لا أنكر أنها جميلة ولكنها أبعد الآلهات عن الطهر والعفة » .

وتجمع الآلهة في قصره ذي الباب النحاسي . وقد حضر إليه بوسيدون وهرميس وأبوللون . وأما الآلهات فقد منعهن الحياء من الحضور فلزمن بيوتهن. ووقف الآلهة عند باب الغرفة ، وأغرقوا في الضحك عندمــا رأوا ما دبره هيفايستوس من حيلة ماكرة للإيقاع بالعشيقين . قال أحدهم للآخر « لا خير في الفحشاء ولا جدوى من المنكر . لقد أمسك البطيء بالسريع . ولا بــد للزنا من كفارة » . ثم سأل أبوللون أخاه هرميس ، أتحب يا هرميس أن ترقد مغلولاً بجانب أفروديتي الذهبية ؟ فأجابــه هرميس من فوره « آه لو أستطيع ذلك وإن قيدت بسلاسل أقوى من هذه ثلاث مرات ، وإن كان على مرأى من جميع الآلهة . فكم أتمنى أن أسترخي بجوار أفروديتي الذهبية » . وضج أرباب أوليمبوس بالضحك ما عــدا بوسيدون الذي توسل إلى رب الصناع أن يطلق سراح أريس واعــدا إياه باسم جميع الآلهة أن يكفر له أريس عن خطيئته . ووافق هيفايستوس بعد لأي وفك قيد العشيقين اللذين تنفسا الصعداء وانطلقا خارج القصر لا يلويان على شيء . وقـــد رحل أريس إلى طراقيا ، ورحلت أفروديتي إلى معبدها في بافوس بجزيرة قبرص حيث استقبلتها ربات البهـــاء والرشاقة واللطافة في ترحاب وقدنها إلى الحمام حيث اغتسلت. ثم مسحن جسمها اللدن بذلك الزيت الخالد الذي يضوع شذاه الذكي دائماً من أبدان الآلهة . ثم ألبسنها ثانية رداءها الزاهي البهيج .

أفروديتي[1] : Aphrodité

كانت أفروديتي (وفقــاً لرواية هوميروس) ابنــة زيوس من ديوني

---

(١) = فينوس (Venus) عند الرومان .

(Dione)[1]،وهي عشيقة له أو زوجة سابقة على هيرا . لكن هناك رواية أخرى (عند هيسيود) تقول إنها انبثقت من زبد البحر الذي اختلط به عضو ذكورة أورانوس ، إله السماء ، عندما مزقه أبناؤه اربـاً للتخلص منه . حدث ذلك قرب كيثيرا (جنوب البلوبونيز) حيث خرجت أفروديتي من البحر عارية ناضجة الأنوثة فاتنة . لكنها لم تلبث أن رحلت إلى قبرص حيث شيد لها في مدينة بافوس (Paphos) أقدم معبد في كل العالم اليوناني . ويؤيد أصحاب هذه الرواية رأيهم قائلين بأن إسم أفروديتي مشتق من كلمة «أفروس» اليونانية (aphros) بمعنى « زبد البحر » . غير أن كلتا الروايتين غير صحيحة . والحقيقة التي يكاد لا يرقى إليها الشك هي أن أفروديتي ليست إلا عشتر ، ربة البابليين والأشوريين ، والتي عرفت بعشترت لدى الكنعانيين . ويرد اسمها في التوراة بهذه الصيغة المفردة أو في صيغة الجمع « عشتروت » . وعلى ذلك فإن اسم أفروديتي ما هو إلا تحريف يوناني للإسم السامي عشتروت[2] . وكانت عشتر أو عشتروت عند شعوب الشرق القديم هي ربة الخصب (خصب الأرض وخصب المرأة) وبالتالي ربـة الحب ، إذ كانت ترمز للدورة الطبيعية في حياة النبات وخصوبة الأرض ، وترمز لاستمرار الحياة عن طريق التناسل . وكانت عشتروت إلهة للحرب في الوقت نفسه . وتصور في الأدب والفن القديم متعطشة إلى الدماء ويسرها تذبيح الرجال . وكانت ربة متقلبة الأهواء كثيرة العشاق الذين كانت تدنيهم منهـا ثم تقصيهم عنها فتعذبهم أو يلقون مصارعهم بسببها .

وكان عشيقها الذي هامت به هو الإله السومري « دموزي » وهو البابلي

---

(١) اسم ديوني(Dionê)وأحيانا ديا(Dia)هو في الواقع مؤنث زيوس، ومعناه ربة السماء.

(٢) ليس في اليونانية حرف العين ويقوم مكانه حرف الألف . ولا يوجد في اليونانية القديمة حرف الشين .

« تموز » الذي كان على ما يبدو فتى وسيماً غض الأهـاب . ودموزي (تموز) كلمة سومرية معناها « ابن المياه العذبة الحقة » ، أي ابن الأرض التي أخصبتها المياه العذبة . وكان دموزي (تموز) من أشهر آلهـة الخصب والنبات . وقد أطلق السومريون اسمه على أحد شهور السنة . وظل الإسم باقياً في التقويم الأكدي وبعدئذ عنـد العبريين والآراميين والعرب . فكان تموز هـو الشهر الرابع من السنة التي كانت تبدأ عند هذه الشعوب بشهر نيسان (أبريل) . وقد عرف تموز عند الكنعانيين (الفينيقيين) باسم « أدون » وهي كلمة معناها « سيد » في الفينيقية والاوجاريتية والعبرية . وكانت مدينة جبيل (بيبلوس) بوجه خاص تعبده بهذا الاسم « أدون » . وحدث أن قتلـه خنزير بري فبكته عشتارت وبكته معها كل النساء وظللن يحتفلن بالبكاء عليه كل عـام ، إذ ساد الاعتقاد بأن« أدون » كان ينزل إلى أرض الموتى في كل خريف، فيذبل النبات. ولهذا كن يبكينه حتى يعود إلى سطح الأرض مع مطلع الربيع ، فيزهر النبات من جديد . وكان من بين ألقابه الغالبة عندهم لقب « حبيب عشتار »و « حبيب ملكة السموات ». وكثيراً ما كان ينادى« بأدوني »أي « يا سيدي»و«بالراعي» و « سيد البستان » .

ولما كانت قبرص هي أقرب جزء في العالم اليوناني إلى الساحل الفينيقي، فقد اقتبس اليونان اسم عشتار(في صيغة الجمع عشتاروت) من الشرقيين وحرفـوه فصار « افروديتي » التي اشتهرت عند اليونان أيضاً باسم« القبرصية ». واقتبسوا كذلك اسم حبيبها « أدون » أو بالأحرى صيغـة المنادى « أدوني » وجعلوه أدونيس (Adonis) ليتمشى مع طبيعة لغتهم . ونشفع هذا بدليل آخر يؤيد ما نذهب اليه من أن أفروديتي ما هي إلا عشتاروت . فقد دأب الكتاب اليونان (كيوروموت وباوسنياس) على الإشارة باستمرار إلى أصل افروديتي الشرقي . وثمة قرينة على تعاطفها مع الشرقيين وهي علاقتها الشهيرة بأنخيسيس الطروادي

(Anchises)وانجابهامنه البطل آينياس(Aeneas)ووقوفها إلى جانب طروادة والآسيويين في الحرب الطروادية ضد الأخيين الاغريق . وتظهر أفروديتي في أساطير اليونان كإلهة الخصب والنبات والحب والجمال، وهي عند شعرائهم تجسيد الغريزة الجنسية وقوة الحب القاهرة . وهذه هي نفس خصائص عشترت ، إلهة الساميين . لكن أفروديتي لا تظهر مثلها كربة للحرب إلا في القليل النادر . لقد اشتركت مرة واحدة في القتال أثناء الحرب الطروادية وجرحت في يدها ، فولت مولولة صارخة ، وقيل لها في أوليمبوس إن الحرب ليست وظيفتها وإنما وظيفتها الحب وحده . ومع هذا فان الصفة الحربية الأصلية لم تغرب عن بال الاغريق ولم يغفلوها ، فقرنوا أفروديتي في الأساطير بأريس إله الحرب الذي كان يتعطش دائماً إلى المعارك ويبتهج لسفك الدماء . كانت أفروديتي – على نقيض زوجة أبيها هيرا – ربة الزواج المقدس – إلهة ضحوكاً لعوباً ماجنة ومتقلبة كأختها الشرقية عشترت التي يعيرها جلجامش عندما عرضت عليه الزواج منها – يعيرها بقصص غرامها الكثيرة قائلاً : مَن من عشاقك أحببت إلى الأبد ؟ .

ومن عجب أن اليونان زوجوا أفروديتي من هيفايستوس، ابن هيرا وحدها، القميء الأعرج ، إله النار والحدادة . وكان من البديهي أن يزيدها هذا الزواج انحرافاً ، وعلى الأخص أنها ربة الحب الجمال . وقد اتخذت لهاعدة عشاق من آلهة خالدين وبشر فانين . وكان العشيق الذي ارتبطت به أكثر من غيره هو أريس إله الحرب والدمار (وهو مارس عند الرومان) . وفي الحق إن افروديتي توصف بأنها زوجة لأريس في الأساطير المتأخرة بل عبدت كربة للحرب في أسبرطة وقبرص وكيثيرا وغيرها من الأماكن وقد عبدت كربة مسلحة محاربة بلقب « أريّا » (Areia) نسبة إلى عشيقها أريس ، إله الحرب ، وكذلك بلقب

ستراتيا (Strateia)« أي المحاربة » ولا سيا في أسبرطة وقبرص وكيثير ا[١].
وكل ذلك يشير إلى أصلهـا الشرقي حيث أن عشترت - على نحو ما ذكرت - كانت ، إلى جانب كونها ربة للحب ، ربة للحرب في الوقت نفسه . ورب سائل يسأل عن سر الجمع بين هاتين الصفتين المتعارضتين . والحقيقة هي أن عشترت في الأصل كانت تجمع بين صفتي الذكورة والأنوثة . كانت في الأصل« نجم الصباح » تارة ، ونجمة المساء تارة أخرى . وإذا كانت قد عبدت كإلهة أنثى في الشمال ، فقد عبدها عرب الجنوب (اليمن) كإله ذكر باسم عثتر (إله نجم الصباح) . في الحق إنه كان يكتنفها غموض شديد. لكن لم يلبث أن أزيل هذا التناقض بين صفتي الذكورة والأنوثة بأن اتحدت في شخص عشترت إلهـــة الحب (جانب الأنوثة) وإلهة الحرب (جانب الذكورة) . ومن الطريف أن هذا أيضاً لم يخف على الإغريق ويتردد صداه في أسطورة علاقة أفروديتي بإله آخر وهو هرميس، رسول الآلهة ومرشد أرواح الموتى إلى « العالم السفلي » . كان هذا الإله يشتق اسمه من كلمة هِرْما(herma)ومعناها حجرة أو كومة من حجر. وكان يصور دائماً كتمثال نصفي ،له رأس انسان منحوت في حجرة أسفلها في شكل عضو الذكورة (phallus).وفي الواقع أن عضو الذكورة كان شعاراً مميزاً لهذا الإله الذي كان معنياً دائماً بالخصوبة . ولعل ذلك يفسر سبب ارتباطه أحياناً بأفروديتي . ربة لخصوبة ولذلك لقبت أحياناً بلقب (Melainis)« السوداء » كباطن الأرض وكذلك بلقب حافرة القبور أو الجالسة على القبور (Epitymbia) . وكان يربطه بالخصوبة عامل آخر وهو اختصاصه كمرشد لأرواح الموتي إلى العالم السفلي

---

(١) كذلك عبدت أفروديتي كربة للبحر التي ولدت منه بلقب « بونتيا » (Pontia) أو بيلاجيا (Pelagia) ، وكربة للملاحة بلقب « يوبلويا » (Euploia) بعد أن جاءت إلى قبرص وبلاد اليونان .

لقد كان فريداً بين آلهة أوليمبوس في ارتباطه بباطن الأرض وما فوق الأرض على السواء . وأياً كان الأمر ؛ فإن الأسطورة اليونانيـــة تقول إن أفروديتي عاشرت هرميس وأنجبت منه مولوداً يجمع بين صفتي الذكورة والأنوثة كما يتبين من اسمه هرمافروديتوس (Hermaphroditus) وهو مخلوق خنثى.ويرسم عادة في صورة هرميس له نهدان بارزان ، أو في صورة أفروديتي مقرونة بأعضـاء الذكورة ، وعندئذ قد يسمى « أفروديتوس » ، أي أفروديتي الذكر .

وإذا لم تكن الأدلة السالفة مقنعة فإليك قرائن أخرى قاطعة بأن أفروديتي اليونانية هي صورة طبق الأصل من عشترت السامية . لقـد ورد في بعض الأساطير اليونانية — على نحو ما أشرت — أن أفروديتي كانت ابنة لأورانوس ، إله السماء عند الإغريق . وكانت تلقب عندهم « بالسماوية »[1] كذلك كانت عشترت — قبل أن تصبح ربة للأرض وخصوبتها — « كوكب الزهرة » عند السومريين والأكديين . وكانوا يسمونها أيضاً إنينا (Innina) أي « سيدة السماء » أو « ملكة السماء » . وكانت تأتي بعد أبيها « سين » (إله القمر) الذي كان يلقب أيضا باسم نانّا (Nanna) أي « رجل السماء » ، وبعد أخيها شمش (إله الشمس) .

وكما قرن الساميون عشترت بتموز أو « أدون » ، قرن الإغريق أفروديتي بأدونيس وجعلوا من أدونيس إبناً لكينيراس (Cinyras) ، ملك قبرص الذي أنجبه من علاقـة محرّمة بإبنته ميرّا Myrrha (لبان المر) وهو اسم حرف فيما بعد فصار سميرنا Smyrna وهي « أزمير » . وقد صرعه خنزير بري وهو يصطاد — مثلما صرع تموز وأدون — عند نهر يرجح أنه نهر إبراهيم بلبنان ،

---

(١) أورانيا (Ourania) .

أو قتله هيفايستوس ، زوج أفروديتي المخدوع أو أريس ، عشيقها الغيور . ومن ثم فقد أصبح هـذا النهر يصطبغ سنوياً بلون أحمر كلون الدم القاني الذي سال من جسد الفتى الجميل . وكما بكته نساء الشرق بكته نساء اليونان حتى يبعث حيّاً من جديد. وكانت له في بلاد اليونان أعياد سنوية تنوح فيها النساء وتندبنه متفجعات عليه . وكن يضربن صدورهن ويمزقن شعورهن ويقطعن منهـا خصلاً يعلقونها في المعابد . بل ان بعضهن وهـبن أنفسهن لأدونيس وأصبحن عاهرات في معابده ، وعلى الأخص في كورنثة . وذلك مـا يعرف « بالدعارة المقدسة » . وفي الحقيقة أن أفروديتي كانت راعية لهؤلاء النسوة ، ولقبت بربة العاهرات (Porneia) . وفي الإسكندرية كان يقـام في عهد البطالمة مهرجان فاخر يسمى أدونيّا (Adoneia) أي عيد أدونيس . وفيـه كانت المحتفلات يقمن بتزويج أفروديتي من أدونيس ثم يحملن صورته أو تمثاله إلى ساحل البحر وسط البكاء والعويل . وفي أثينا كانت النساء في احتفال أدونيس – إلى جانب النحيب – يزرعن بساتين مؤقـتة فوق أسطح المنازل . وفي جزيرة ديلوس كان هناك احتفال يقـام لأدونيس منذ القدم . غير أن الاحتفال بأدونيس كان يختلف في المضمون والتاريخ من مكان لآخر . لكنه كان يقام بأثينا أثناء القرن الخامس ق.م في شهر يوافق نيسان (أبريل) أي في الشهر الرابع من السنة ، وهو نفس ميعاد الاحتفال به عند الأكديين والعبريين الذين كان تموز عندهم هو الشهر الرابع من السنة (١) . وأما في عصر الإمبراطورية فكان عيـد أدونيس يقام دائماً في يوم ١٩ تموز (يوليو) ،ولم تطلق المدن اليونانية اسمه على أي شهر. لكن كثيراً من هذه المدن كانت تسمي أحد الشهور باسم أفروديتي . وقد لقبت

---

(١) حيث أن السنة عندهم كانت ـ كما ذكرت ـ تبدأ بشهر نيسان (أبريل) .

أفروديتي بألقاب متصلة به كلقب ذات الأزهار أو ربة الزهور (Antheia) ، وذات البساتين (en kêpois) .

وإلى جانب أريس الذي اقترنت به أفروديتي (المحاربة) في ميدان الحب، وهرميس الأوليمبي كربة الخصب في ميدان العبادة ، وأدونيس الشرقي بوصفها أيضاً ربة الخصب ولا سيا في قبرص ، فقد اقترنت كذلك لكونها ربة الجمال بالخاريتيس (Charites) ، وهن ربات يرمزن للبهاء والرشاقة واللطافة ، وبالهواري (Horac) ، وهن ربات الفصول ، وبالإله إيروس (Erôs) ، إله الحب الصغير ، وهو كوبيدو Cupido عند الرومان (وكيوبيد الآن) الذى يوصف أحياناً بأنه ابنها (من أريس) ولكنه في الواقع لا يمت إليها في الأصل بأي صلة [1] .

---

(١) يظهر إيروس (Erôs) في كتاب « أنساب الآلهة » لهيسيود (أوائـــل القرن السابع) إلى جانب « جايا » ربة الأرض و« ترتاروس » رب ظلام الأعماق ، كأحد أقدم آلهة ثلاثة . وله قوة طاغية على الآلهة والبشر ، قوة متغلغلة في الكون . ولا يظهر في أشعار هوميروس كالمتميز بهذا الاسم . لكن لفظ إيروس (erôs) يدل في الإلياذة على الغريزة الجنسية القوية (الشهوة) التي جذبت باريس إلى هليني ، وجذبت زيوس إلى هيرا ، وألهبت حواس هؤلاء الأمراء الذين تهافتوا على بينلوبي زوجة أوديسيوس أثناء غياب الأخير . لكن هذه الفكرة الحسية البحتة عن إيروس أو الحب نجدها تتطور وتمتزج بفكرة الحب الروحي عند كتاب الشعر الغنائي (الغزلي) في القرنين السابع والسادس ق.م. فنجد « إيروس » يرمز لتلك القوة التي تؤثر في الروح والجسد. ولما كانت هذه القوة قد تكون مدمرة فإن إيروس يوصف بالمكر وصعوبة الانقياد والقسوة (عند شعراء مثل ألكمان وإيبكوس وسافو) . ونراه عند أحد الشعراء (أناكريون) بل وفي رسم على إناء خزفي يصرع العاشق بالبلطة أو يلهبه بالسوط . ويأتي « إيروس » بغتة كالريح ويهز كيان ضحاياه هزا على نحو ما تقول الشاعرة سافو . وهو يرمز لكل ما من شأنه أن يثير الحب . ويمثل في صورة فتى وسيم يمشي فوق الزهور التي يصنع منها إكليله الذي يعصب به جبهته . وهو لذيذ يبعث الدفء في القلب . وتلخص سافو جوهره قائلة إنه « الحلو المر » . =

وقد ذكرت أنه كان هناك يحمل اسمها في تقاويم كثير من الدويلات اليونانية . وكان كوكبها هو الزهرة (فينوس)،وشجرتها الآس ، وطائرها اليمامة . وأما قربانها (عندما يكون أدونيس مقروناً بها) فكان الخنزير البري

= ومع أن الارتباط بين إيروس وأفروديتي يرد لأول مرة في « أنساب الآلهة»إلا أن كثيراً من العلماء يعتقدون أن هذا الأرتباط مقحم وليس وارداً عند هيسيود في الأصل . وأيا كان الأمرفلن يلبث إيروس أن يظهر هو والرغبة (Himeros) والشوق (Pothos) باستمرار في رفقة أفروديتي ، ولو أنه يمكن أن يظهر في رفقة أي إله طالما يكون الظرف متصلاً بالحب او حتى الزواج . ويصوره الشاعر المسرحي يوريبيديس كقوة قادرة على كل شيء . وهذا الشاعر هو أول من ذكر قوس رب الحب وسهامه .وأما شعراء العصر الهلينستي فيتحدثون عن خدع إيروس وتلاعبه بقلوب البشر ، وعن عذاب ومحنة من يحاولون مقاومته ، وما يلقاه « الحب »من عقاب جزاءسوء مسلكه وذنوبه . وكان « إيروس » دائماً هو إله الحب : حب الجمال سواء في المرأة أو الرجل . وهذا يفسر سبب وجود تماثيله في النوادي الثقافية الرياضية (gymnasium) ، وعبادته في مدينة مثل طيبة حيث كانت توجد « الكتيبة المقدسة » الشهيرة التي كانت تتألف من ٣٠٠ شاب انخرطوا في سلكها على أساس أن كل شابين بينهم متحابان ويعملان على إنماء الحب المتبادل والقتال سوياً ولقاء الموت معاً في الميدان (واجع ص ٦٩) . ونجد إيروس كإله للتناسل يشترك مع أفروديتي في العبادة بمعبد على المنحدر الشمالي للأكروبول بأثينا حيث عثر على أدوات شعائرية ترمز لعضو الذكورة . وكان يقام له في أثينا عيد في شهر مينيخيون(= أبريل/نيسان) وينظم موكب يسير فيه متعبدون له يطلقون على أنفسهم أسمه (Erotes) . كذلك نشأت له عبادة في بلدة ثيسپياي (Thespiae) (أهم مدينة في جنوب بويوتيا وتقع قرب جبل هليكون)حيث كان يقام له احتفال يسمى عيد إيروس (Erotidia)وكان له بالمعبد تمثال رمزي (ليس في صورة إنسان أو حيوان) ، وتمثال آخر شهير صنعه له المثال براكسيتليس .

وفي الفن لا تتقدم به السن كما تتقدم بالناس بل يقل عمره بدلاً من أن يزيد . فنراه يرسم أولاً في العصر السابق على الكلاسيكي(٧٠٠ - ٥٠٠ ق.م)في صورة شاب مكتمل الفتوة . وبعدئذ (في العصر الكلاسيكي) يرسم كغلام أو صبي . وأخيراً يصبح في الفن الهلينستي طفلاً صغيراً لاهياً أو عابثاً ممسكاً بأوزة أو واضعاً أصبعه في فمه .

الذي صرع هذا العشيق وأدمى قلبها حزناً عليه فشاطرتها حزنها كل النساء .
وكان أبدع تمثال عرفه العالم تمثالها الذي نحته المثال الشهير براكسيتيس (Praxiteles) في منتصف القرن الرابع ق.م. وكان الناس يأتون من كل مكان إلى مدينة كنيدوس(Cnidus)بآسيا الصغرى للتمتع بمشاهدةهذا التمثال الذي تظهر فيه الربة وهي تضع ثيابها بعد أن تجردت منها فوق جرة الماء قبل الاستحمام . وكان هذا التمثال هو النموذج الذي صنعت على غراره كثير من تماثيل أفروديتي في العصر الهلينستي والعصر الروماني.ولعل أشهرهذهالتماثيلهو ما كشف عنه في جزيرة ميلوس (Melos) بالبحر الإيجي ويعرف الآن باسم « فينوس ميلوس » .

ولقد قيل إن آلهات الشرق جميعاً تركزت في عشترت . وأما نظيرتها أفروديتي ، التي انتشرت عبادتها على الأخص في جزيرة قبرص (بافوس وأماثوس) وجزيرة كيثيرا ــ حيث ولدت ــ وفي كورنثة ، فقد أصبحت في بعض المدن كأثينا وطيبة وميجالوبوليس « ربة الشعب كله » (Pandemos) ، بجميع طبقاته . وكان ذلك يمثل في الواقع أقصى ما أصابته عبادتها من نجاح سياسي وعلى الأخص في أثينا .

ولست في حاجة إلى تكرار ما سبق ذكره من أن مولدها العجيب من« زبد البحر » قد حدث عند جزيرة كيثيرا (جنوب البلوبونيز) ، ثم حملتها الأمواج إلى قبرص حيث خرجت من الماء عارية ، فلقبت باسم « البارزة من الأمواج » (Anadyomené) . ومنذ ذلك الحين ارتبطت هاتان الجزيرتان ارتباطاً مقدساً بأفروديتي التي كثيراً ما لقبت « بالكيثيرية » وغالباً « بالقبرصية »(Cypria). وعندما بلغت قبرص استقبلتها « ربات الفصول » ، بنات ثيمس ، ربة القانون والنظام الذي يضبط العلاقات الطبيعية بين الجنسين ، وهي ربة كان من الطبيعي

أن تستهجن منظر العري التام الذي كثيراً ما ظهرت به أفروديتي . ولذلك أمرت بناتها بإلباس هـــذه الربة ثياباً لائقة . فامتثلن لأمرها وعصبن جبين أفروديتي باكليل من الزهر وزينها بالحلي الذهبية . وهكذا أصبح من الممكن إدماج أفروديتي في زمرة آلهة أوليمبوس . ولم يكن ذلك من قبل ممكناً وهي في تلك الهيئة الفاضحة . وعندما وقعت عليها عيون الأرباب بهرهم جمالها الأخاذ فأمطروها جميعاً بالقبلات ، وأمسكوا بيدها، وتمنى كل منهم أن يتخذها زوجة له .

ولا يبقى بعد ذلك سوى أن يروّح القارىء عن نفسه بسماع قصة من قصص ربة الحب الكثيرة أو قصتين. لقد عرفت أفروديتي الحب وهي لا تزال في البحر صبية أي حتى قبل قدومها إلى أوليمبوس . ومن بين قصص الغرام التي نسجت حولها ، قصتها مع نيريتيس (Nerites) بن نيريوس الوحيد، إله البحر القديم. كان نيريتيس هذا مخلوقاً صغيراً رائع الجمال يعيش في الماء الصافي وسط الشعاب بقاع اليم. وطالما كانت أفروديتي تقيم في البحر فقد ظلت تستمتع بقربه ، وتعيش معه كما يعيش العشاق . ومضى الوقت بسرعة كما تمضي الأوقات الجميلة وآن الأوان لكي تغادر أفروديتي البحر تلبية لنداء أبيها وتلحق بزمرة الآلهة فوق جبل أوليمبوس . وقد عز على أفروديتي الفراق فعرضت على صاحبها أن يرافقها إلى أوليمبوس . لكن نيريتيس آثر البقاء مع والده وشقيقاته الخمسين . وعرضت أفروديتي أن تمنحه جناحين ليساعداه على الطيران. لكنه رفض العرض شاكراً. وعندئذ مسخته الربة صدفة صغيرة من أصداف البحر ، واصطحبت بدلاً منه « إيروس » إله الحب الصغير الذي وهبته الجناحين .

وأما قصة بيجماليون الشهيرة فلم تكن لأفروديتي دخل مباشر بها . كان بيجماليون (Pygmalion) ملكاً في قبرص . ولا نعرف كيف كان سكان

الجزيرة القدامى ، غير الاغريق ، ينطقون اسم هذا الملك أو ماذا كان معناه . من الجائز أن يكون للأسم صلة بكلمة بيجمايون أو بيجمايوس بمعنى « القزم » . وعلى أي حال فقد روي أن هذا الملك وقع في حب تمثال لأفروديتي مصنوع من العاج وتظهر فيه الربـــة عارية كما خرجت من البحر . وقد بلغ من افتتان بيجماليون بالتمثال أنه أراد أن يتخذه زوجة له، فحمله إلى فراشه . وفي رواية أخرى أن بيجماليون هو الذي صنع من العاج تمثال إمرأة بارعة الجمال وهام به حباً . وقد برح به الهوى واستبد به اليأس فابتهل إلى أفروديتي أن ترحـــم عذابه . وعندئذ دبت الحياة في تمثـــال المرأة فتزوجها بيجماليون وأنجب منها « بافوس » الذي أسس ابنه مدينة بافوس (في قبرص) حيث شيد لأفروديتي معبد من أقدم معابدها في العالم الهلليني .

كانت أفروديتي ربة ضحوكاً لعوباً مخادعة تفتن بابتسامتها الحلوة من يقعون في شباك حبها ، فتسخر منهم دون أن يظفروا منها بطائـل . ولم يكن هناك سبيل إلى مقاومة إغراء هذه الربة التي فتنت الحكماء بل سلبت ألباب الآلهة أنفسهم. وكان لا بد أن يأتي يوم تصطلي هي فيه بنار الحب التي كثيراً مـــا أشعلتها في قلوب العشاق وكوتهم بها . لقد وقعت في حب أدونيس . وراجت قصة عشقها لهذا الفتى في أقطار الشرق كله بما في ذلك قبرص . وترتبط القصة في بدايتهـا بشجرة المر ، وهو لبان طيب الرائحة عطر الأريج . كانت ميرا (Myrrha) أو اسميرنا (Smyrna)[1] ابنة احد ملكين إما ثياس ملك لبنان أو كينيراس، ملك قبرص ، الذي أسس مدينة بافوس . وقد أولعت ميرا بأبيها ولعاً شديداً وشغفت به حباً . وقيـــل إن منشأ هذه العاطفة الأثيمة في قلبها إنما يرجع إلى غضب هيليوس إله الشمس أو غضب أفروديتي عليها لأن ميرا تباهت بأن شعرها أجمل من شعر الربة نفسها. واستطاعت ميرا أن تخدع أباها أو استطاعت أن تثمله . وجامعته موهمة إياه بأنها إحدى محظياته. وبعد أيام اكتشف أبوها

(١) وباسمها سميت مدينة « أزمير » .

على ضوء مسراج خافت من تكون رفيقته . وجن جنونه فاستل سيفه يريد أن يطيح برأسها ففرت منه مذعورة . وقد أثمر هذا الحب المحرم ثمرته.وغمر الأسى قلب ميرا واجتاحها شعور بالمذلة والخزي . وابتهلت إلى الآلهة أن يواروها عن الأنظار فلا يدعوها بين الاحياء ولا بين الموتى . وأشفق عليها رب من الأرباب لعله زيوس أو لعلها أفروديتي – فقد عرفت أحياناً بالربة الشفوقة Eleêmon – التي مسختها شجرة تنز لباناً كالمطر رائحته أو كالمسك ، وهو أدونيس نفسه . ذلك أن أدونيس قد ولد من لحاء شجرة المر هذه وكان جميلاً فاتناً بلغ من جماله وفتنته أن أفروديتي أخفته بعد مولده في صندوق وعهدت به إلى برسيفوني ، ربة العالم السفلي ، لتحفظه وديعة عندهـا . غير أن برسيفوني فتحت الصندوق ورأت الغلام الجميل فتملكتها الرغبة في ألا ترده إلى صاحبته . وثار بين الربتين نزاع أحيل على زيوس للفصل فيه فقضى بأن يترك أدونيس وشأنه ثلثاً من السنة وأن يبقى مع برسيفوني الثلث الثاني ، وتحتفظ به أفروديتي بقية السنة .

وأما عن مصرع أدونيس ، وانتقاله إلى برسيفوني في عالم الموتى أربعة أشهر في كل عام ، فإن القصة الرائجة تقول إن خنزيراً برياً هو الذي جرحه جرحـاً قاتلاً بينما كان يلهو بالصيد . وقد سال دم أدونيس وروى الأرض فأنبتت مكانه الأنيمون ، وهو زهر فاقع الحمرة ، وفاض نهر أدونيس في لبنان بالدماء القانية . ومن المعتقد أن هيفايستوس ، الزوج المخدوع أو أريس العاشق الغيور ، هـو الذي أطلق الخنزير البري على الفتى الفاتن ليفتك به ، فإذا لم يكن هـذا ولا ذاك فربما تكون أرتميس ربة الصيد هي التي أسهمت في مقتله لسبب غير معروف. وقد حزنت أفروديتي على حبيبها حزناً شديداً ، واكتوى قلبها بالشوق إليه ، وبكته بكاء مرا قبل أن تحظى بقربه أو تستمتع بهواه . وفي الحق إن الأعياد التي كان الناس يتذاكرون فيها حبها المكلوم إنمـا أنشئت لتخليد ذكرى يوم

مفارقته لها إلى الأبد . لقد هاجمه الخنزير فانطرح أرضاً ينزف الدم من جسمه بغزارة بينما وقفت أفروديتي بجانبه مشدوهة ملتاعة تجهش بالبكاء المرير . وقد حاولت أن تستبقيه . لكن عبثاً ذهبت كل ما بذلت من محاولات . وقد درجت النساء على تقديم القرابين له في صورة حدائق صغيرة يانعة (kêpoi) . وكانت هناك بين النساء في الشرق وفي كورنثة من منحن أجسادهن للغرباء في رحاب المعابد . وأما اللواتي لم يسترخصن أجسادهن فكن يهبن على الأقل شعرهن قرباناً لأدونيس الإله .

هذه القصص التي قصصناها عن ربة الحب الكبرى كان مسرحها لبنان أو قبرص . وأما القصة التالية فقد جرت أحداثها في منطقة طروادة على مقربة من مداخل الدردنيل في الركن الشمالي الغربي من الأناضول (آسيا الصغرى) . كانت هنـــاك ثلاث إلهات ليس لربة الحب سلطان عليهن : أثينة وأرتميس وهستيا ، وهن العذارى الثلاث اللاتي قيل إنهن لم يتزوجن أبداً . وأما سائر الآلهة والآلهات الأخريات فكان سلطان أفروديتي عليهم كسلطانها على البشر ولم يكن في وسعهم إلا الرضوخ لإغرائها . ولم يسلم زيوس نفسه من كيدها إذ أشعلت نار الحب في قلبه أكثر من مرة فشغف بنساء كثيرات شغلنه عن زوجته الشرعية هيرا . لهذا كاد لها زيوس وحملها على أن تقع بدورها في حب أنخيسيس (Anchises) — وهو في الحقيقة أمير طروادي — ولكنه يظهر في الأسطورة كراع كان يهش على غنمه فوق سفوح جبل إيدا (Ida) بالقرب من طروادة . وقد حبت الآلهة أنخيسيس بجمال لا يقل عن جمالهم . وأبصرت به أفروديتي فسبتها طلعته وفتنتها وسامته ومرق حبه في قلبها مروق السهم . وأسرعت الربـــة خطاها عائدة إلى قبرص ودلفت إلى معبدها في بافوس وأوصدت أبوابه . وتبعتها ربات الرشاقة والبهاء واللطافة ، وغسلنها بالمـــاء الزلال ومسحن جسمها البض بالزيت الخالد الذي يضوع شذاه دائماً من الآلهة ،

ثم ألبسنها حلة زاهية وزينها بحلى من الذهب . وفي الحق إن أفروديتي قد لقبت أيضاً بالربة الذهبية (Chryse) . ولم تلبث أن عادت أدراجها إلى طروادة واتجهت إلى جبل إيدا متلهفة على لقاء الحبيب .

وشقت أفروديتي طريقها عبر الجبال إلى المرعى . وقيل إن ذئاباً رمادية اللون قد تبعتها ، وأسوداً ودببة وفهوداً لا يرويها إلا الولغ في دم الغزلان . وابتهجت الربة برؤية هذه الوحوش فسكبت في قلوبها رحيق الحب فانتشت وهزت ذيولها طرباً ، ثم استلقت تحت ظلال الغابة أزواجاً أزواجاً ، كل ذكر يلاطف أنثاه . ودخلت أفروديتي خيمة أنخيسيس فوجدته وحده يروح ويغدو عازفاً بمزماره . وقد تمثلت له في صورة فتاة بارعة الحسن ممشوقة القد تذوب رقة ودلالا . ورآها الراعي فطاش صوابه وسال لعابه . وقد فتنه قوامها المشوق ورداؤها الفاخر . كان رداء في حمرة اللهب الذي يخطف البصر . وتلألأ نهداها فبديا ناصعين كأنها غسلا بضياء القمر . وحياها أنخيسيس ورحب بمقدمها . وصدق حدسه بأنها ربة فخاطبها في رهبة ونذر لها معبداً وقرابين ، وسألها أن تباركه وذريته . لكن أفروديتي كذبت عليه وزعمت أنها أميرة فريجية تتكلم لغة الطرواديين، وأنها ما أتت إليه إلا لتكون زوجته. فأقبل عليها وأمسك بيدها وقادها إلى فراشه . هكذا شاءت إرادة الآلهة أن يضاجع بشر فان ربة خالدة دون أن يدري من هي .ولما حان ميعاد عودة الرعاة الآخرين أيقظت أفروديتي حبيبها النائم . وتبدت له في صورتها الإلهية فارتاع أنخيسيس وأشاح بوجهه عنها وأخفاه . وتوسل إليها أن تنقذه ، فليس في وسع إنسان أن يظل سليما معافى إذا ضمه وربة فراش واحد .

ويروى أيضا أن أفروديتي تنبأت لابنها الذي أنجبته من أنخيسيس ولأحفاده

بالخير العميم . ولم يكن هذا الابن سوى آينياس (Aeneas) ، جد الرومان ومؤسس دولتهم . وقد ندمت الربة على أنهـــا وهبت نفسها لبشر . وطالبت أنخيسيس بالا يبوح لأحد بأنها أم ابنه وأنذرتــه إن هو باح بسر علاقته بهـا لتنزلن به أشد العقاب . لكن أنخيسيس نقض وعده وتباهى بين خلانه بمغامرته مع الربة فرماه زيوس بصاعقة أصابته بالعرج ، وإن كانت هنـاك رواية أخرى تقول بأن أفروديتي أطلقت عليه نحلا وخز عينيه وسلبه نعمـة البصر . هكذا عوقب بالعمى لأنه رأى الربة عارية . لكن أفروديتي كأم لآينياس ستقف إلى جانب الطرواديين ضد الإغريق في الحرب الطروادية . لا لهذا السبب فقط بل لأن باريس الطروادي قد حكم لمصلحتها في قضية « التفاحة الذهبية » .

أبوللون « [1] Apollôn

كان أبوللون أكثر آلهة أوليمبوس تجسيداً للروح الهللينية إذ كان يمثل كل ما يميز نظرة الإغريق عن نظرة الشعوب الأخرى كالبرابرة المحيطين بهـم : نظرتهم إلى الجمال في الفن والموسيقى والشعر والشباب والاتزان والإعتدال . ومع هذا فـلم يكن أبوللون في الأصل إلها إغريقياً بل كان إلهاً أجنبياً . وقد بذلـــت جهود لمعرفة معنى اسم أبوللون على أمل أن يكون ذلك نبراساً يهدينا إلى معرفة نشأة هذا الإله وموطنه الأصلي . وتعددت الاقتراحات . لكن يمكن إجمالها في اثنين أو ثلاثة : اقتراح بأن اسمه مشتق من كلمة بمعنى « حظائر الغنم » ، وهذا يفسر لماذا كان أبوللون إلهاً للرعاة . واقتراح ثان بأنه مشتق من لفظ بمعنى «الاجتماعات العامة » استناداً إلى التشابه بين اسمه وبين كلمة أبللا (apella) التي تطلق على الجمعية الشعبية عند الدوريين وبخاصة الإسبرطيين . ويفهم من هذا الاقتراح ضمناً بأن أبوللون إله جاء مع الدُوريين . وثمة اقتراح ثالث يقول بأن أبوللون ليس

---

(١) = أبوللو (Apollo) عند الرومان .

إسماً بل لقباً مشتقاً مشتق من كلمة بمعنى شجرة الحوْر السوداء وإن كان صاحب هذا الاقتراح (وهو العلامة كوك) يسلم بأن هذا الاشتقاق على افتراض صحته لا يفسر طبيعة الإله الأصلية . ويضيف « كوك » قائلاً بأن « الأسم الكامل للإله ربما يوجد في اللقب الذي يخلعه عليه هوميروس وهو فويبوس أبوللون (Phoibos Apollôn) أي « « فويبوس إله شجر الحور » . غير أن أيا من هذه الاقتراحات لم يحظ بالقبول لدى كافة الباحثين. ولا يزال معنى اسمه مثار جدل بينهم . لكن هناك الآن ما يشبه الاجماع على أن أبوللون إله أجنبي (أي غير يوناني) وفد من الخارج على بلاد الإغريق . ولو أن الآراء تعود لتتضارب حول موطنه الأصلي . ويمكن إجمال هذه الآراء في رأيين رئيسيين أحدهما يقول إن أبوللون جاء من الشمال والثاني أنه جاء أصلاً من آسيا الصغرى (الأناضول)[1]. وقد ظهر في السنوات الأخيرة رأي وسط ينادي به الأستاذ « جثري » ومؤداه أن أبوللون كان أصلاً من الشمال، لا من شمال أوروبا ، بل من شمال آسيا (سيبيريا) وأن عبادته انتقلت إلى آسيا الصغرى (الأناضول) ومنها إلى أيونيا ثم إلى بلاد الإغريق نفسها .

وترجع صعوبة تحديد الموطن الأصلي لأبوللون إلى كونه إلهاً متعدد الاختصاصات . كان أبوللون إلهاً مختلطاً كالشعب اليوناني نفسه فهو يمثل مزيجاً

---

(١) يتزعم الرأي الأول الأستاذ الإنجليزي روز (Rose) من بعد كوك (Cook) ويتزعم الرأي الثاني العالم السويدي نيلسون (Nilsson) من بعد فيلاموفيتز (Wilamowitz) الألماني .

(٢) أنظر
W. K. C. Guthrie, The Greeks and Their Gods (Boston, 1951), pp. 73 ff, 183 ff.

من عدة عناصر متباينة وخليطاً من عدة عبادات مختلفة . وقد تجمعت فيه هذه العناصر المختلفة فبدت متناقضة بل متضاربة . ومن العسير أن نتخذ من عنصر أو صفة واحدة من صفاته نبراساً يهدينا إلى موطنه الأصلي .

نظرية الأصل الشمالي :

وأما عن الحجج التي تساق لدعم الرأي الأول القائل بأن أبوللون إله وافد من الشمال فأقواها ارتباطه بشعب يسمى في الأساطير والعبادة « بالهيبربوريين » (Hyperboreani) ، وهو اسم ليس هناك اتفاق تام على معناه وإن كان من المرجح أنه يعني « سكان المنطقة وراء الرياح الشمالية ». ولم يستطع أحد قديماً أو حديثاً أن يحدد هذه المنطقة جغرافياً أو يعرف موطن هذا الشعب أو هذه القبيلة على وجه اليقين . وترد أقدم إشارة إلى الصلة بين أبوللون وهذا الشعب الغامض في كتاب لمؤلف متأخر (القرن الرابع م) نقلاً عن الشاعر الغنائي الكايوس (القرن السادس ق.م) . ومؤداها أنه عندما ولد أبوللون أرسله أبوه زيوس إلى دلفي كي يضع الشرائع للإغريق. لكن أبوللون لم يذهب إلى دلفي مباشرة بل ركب عربته التي تجرها البجع وطار بها إلى بلاد « الهيبربوريين » ، حيث أقام عاماً كاملاً عاد بعده إلى دلفي استجابة لنداء أهل دلفي الذين ناشدوه العودة لحضور عيد أو احتفال كان الشبان يتغنون له فيه بنشيد النصر (paian) ويؤدون رقصات معينة حول مقعد ثلاثي الأرجل (tripous) . وقد عاد في منتصف الصيف. ولا شك في أن هذه خرافة اختلقت لتعليل شعيرة دينية فعلية وإن يكن من العسير التيقن من اسم الاحتفال الدلفي الذي تشير اليه الخرافة . ومن المؤكد أنه كان يسود في العصر الكلاسيكي اعتقاد بأن أبوللون اعتاد أن يرحل عن دلفي في الشتاء إلى بلاد « الهيبربوريين » وإن لم يكن من عادته أن يتغيب أكثر من ثلاثة أشهر كان يعود بعدها إلى دلفي قبل منتصف الصيف .

ولم يحاول أحد من الكتاب اليونان أن يزيد معرفتنا بالهيبربوريين أو يبعدهم عن عالم الخرافة ويقربهم من الواقع الملموس . فنجد الشاعر الغنائي بنداروس (القرن الخامس ق.م) يصف بلادهم بأنها بلاد لا يستطيع الإنسان الوصول اليها براً أو بحراً . ومع هذا فقد وصل البطل برسيوس الى بلادهم حيث وجد أنهم يقدمون الحمير قرباناً لأبوللون . ويصف هذا الشاعر وغيره من شعراء الغناء (سيمونيديس وباكخيليديس) الهيبربوريين بأنهم قوم ترفرف عليهم السعادة ، وسلالتهم مقدسة ، ولا يعرفون المرض أو الشيخوخة ، ويمضون كل وقتهم في الرقص والعزف بالقيثارة (lyra) والناي (aulos) ، وإقامة المآدب البهيجة حيث يزينون رؤوسهم بأكاليل من أوراق الغار . وهم يعيشون بمنأى عن نيميسيس (Nemesis) ، ربة العقاب أو الانتقام العادل ، ويحيون حياة هانئة ناعمة خالصة من الكد والتعب خالية من التناحر والقتال . ولعل هيرودوت هو أول كاتب يصفهم لنا وصفاً يقربهم فيه من الأرض . يقول هيرودوت إن أهل ديلوس كان لديهم أوفى معلومات عن الهيبربوريين . لقد أخبروه بأن الهيبربوريين كانوا يأخذون بعض أشياء مقدسة غير محددة ملفوفة في قش القمح الى حدود بلادهم ثم يسلمونها لجيرانهم الذين كانوا يسلمونها بدورهم لآخرين وهكذا كانت تنتقل هذه الأشياء المقدسة من يد الى يد ومن بلد الى آخر حتى تصل في النهاية الى ديلوس. وترجع هذه العادة الى أن الهيبربوريين كانوا قد أرسلوا في ذات مرة فتاتين من فتياتهم حاملتين التقدمات والقرابين الى ديلوس في حراسة خمسة رجال ضماناً لسلامتها . لكن البعثة لم تعد فثار سخط الهيبربوريين . ومن ثم فقد امتنعوا عن إرسال سفراء إلى دلفي واستعاضوا عن ذلك بإرسال الهدايا والقرابين على النحو المذكور . وقد ماتت الفتاتان ودفنتا في ديلوس حيث شاهد هيرودوت قبريهما . وأما حراسها من الرجال فلا يذكر المؤرخ شيئاً عنهم سوى أنه كان يطلق عليهم

الرعاة (Nomios) ويدفع أذى هذا الحيوان عن قطعانهم . وثمة دليل آخر غير مباشر على صلة أبوللون بليكيا. ففي الإلياذة يقف أبوللون إلى جانب الطرواديين. ونجد بانداروس بن ليكاون – الذي قاتل في صفوف الطرواديين وأبلى بلاءً حسناً ونقض الهدنة المؤقتة – نجده يبتهل – بإيعاز من الربة أثينا – إلى أبوللون الليكي المولد (Lykogenês) . ولما كان ليكاون نفسه من أهل ليكيا ، فإن الابتهال كان خليقاً بأن يستجاب من إله أصله من ليكيا ، موطن المبتهل . وثمة قرينة أخرى وهي أن أبوللون كثيراً ما ينادى بابن ليتو (Lêtoides) ،نسبة إلى أمه. وكان أهل ليكيا – وفقاً لهيرودوت – يتميزون بعادة دون سواهم وهي أنهم كانوا ينسبون أنفسهم إلى الأمهات لا إلى الآباء. كما أن اسم « ليتو» (Leto) – كما يرى بعض الباحثين – ليس إلا صورة محرفة من اسم الربة الليكية « لادا » (Lada) [1] . ويقول نيلسون تعزيزاً لرأيه في أن أبوللون شرقي الأصل إن هذا

---

(١) ولو أن كلمة « لادا » هي مرادف لكلمة « إمرأة » بوجه عام عند أهل ليكيا . ومن ثم فإن بعض العلماء يرون أن إسم « ليتو » ربما يكون تحريفاً لإسم إلهة شرقية قديمة (سامية) مثل « اللات » التي كانت عبادتها (هي ومناة والعزى) شائعة في جزيرة العرب عند الصفويين واللحيانيين بين النبط (سواء في حوران أو في الحجاز) . ففي البتراء كانت زوجة الإله دوشرا (= ذو الشرى في الجاهلية) ، وهو صورة من الإله بعل ، تسمى اللات ، ومعنى الإسم « الإلهة » . وقد قرنت اللات في آثار تدمر بالربة أثينة إما لحكمتها أو على الأرجح لصفاتها الحربية . ويدخل اسمها في تركيب كثير من الأسماء التدمرية كوهب اللات (ابن زنوبيا) الذي رادفه اليونان بأثينودوروس أي « هبة أثينة » . ويقول هيرودوت إن الإغريق اعتبروا الربة أورانيا (أفروديتي ؟) صنوا لأليلات Alilat (وهي صورة أخرى من اللات Allat) . وهذا يؤيد أن اللات كانت في الأصل ألالات بمعنى « الإلهة » . وكانت اللات صنماً من أصنام العرب في الجاهلية في شكل صخرة مربعة الشكل بالطائف . وكانت ثقيف وقريش تعظمها بل وجميع العرب .ويدخل اسمها في تركيب أسمائهم مثل زيد اللات وتيم اللات وكانوا يعتبرونها هي والعزى ومناة بنات الله . وقد وردت أسماؤهن في القرآن (سورة النجم ١٨ – ١٩): أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى .

الإله يرتبط برقم سبعة إذ ولد في اليوم السابع،وكانت أعياده تقام عادة في هذا اليوم . ورقم سبعة رقم مقدس عند البابليين كما يتبين من التقويم البابلي (ويوم السبت) . ولا يستبعد نيلسون أن تكون عبادة أبوللون قد نشأت أصلاً في بابل ثم انتشرت من هناك إلى آسيا الصغرى فبلاد الإغريق. ونلتقي في الإلياذة بالربة ليتو وابنيها أبوللون وأرتميس مشتركين في معبد واحد بطروادة ، وهو ما يشير إلى أصله الأناضولي . وقد نشأت أسطورة مولد التوأمين أبوللون وأرتميس أصلاً في ليكيا . وتتحدث أخبار ديلوس في العادة عن مولد أبوللون وحده على حين يقرن مولد أخته أرتميس بمدينة إفيسوس (على ساحل آسيا الصغرى) . وكان مؤلف النشيد الديني المسمى « بنشيد ديلوس » (لتمجيد أبوللون) هو « أولين» (Olēn) الذي يقول عنه هيرودوت إنه جاء من ليكيا . وتلقى هذه الرواية تعزيزاً من الكاتب باوسنياس الذي يصف « أولين » في موضع بأنه ليكي ، وفي آخر بانه « هيبربورياني » أي من « وراء الرياح الشمالية » .

ومما يؤيد أن أبوللون أجنبي بل أنا ضولى الأصل أن كان يعتبر في معظم مراكز العبادة الكبرى في بلاد الإغريق إلهاً دخيلاً.وكان إغريق دلفى أنفسهم يسلمون بهذه الحقيقة وبأنه وافد متأخر على المدينة . ولا يعوزنا الدليل الواضح على أن أبوللون قد انتحل في معابده الأخرى عبادة كانت لإله آخر من قبله . وقد لا يكون هذا وحده بالمرشد الذي يهدينا إلى موطنه الأصلي . لكن يلاحظ أنه بينما كانت أعياد أبوللون قليلة نسبياً في بلاد الإغريق ذاتها ، كانت أعياده كثيرة في الجزر وساحل آسيا الصغرى .وكانت معابده الكبرى لا توجد في بلاد الإغريق الأصلية بل في آسيا الصغرى . ولنذكر منها ـ على سبيل المثال ـ معابده في مدن باتارا (في ليكيا) ، وديديما (في كاريا)

وكلاروس (في أيونيا) [1] ، وجرينيوم (في أيوليس) [2] . وجميع هذه المدن تقع على ساحل آسيا الصغرى الغربي اليوناني الحضارة . ولم ينقل الإغريق عبادة أبوللون إلىآسيا الصغري وإنما نقلوها هم من داخل آسيا الصغرى إلى الساحل الأيوني ومن ثم إلى بلاد اليونان نفسها . وهذا في الواقع هو ما يفهم من الكاتب باوسنياس الذي يؤكد قدم مراكز عبادة أبوللون في ديديما وكلاروس . صحيح أن معابد أبوللون التي اكتسبت أوسع شهرة بين الإغريق كانت تقع في أقدم مستعمرات أنشأوها على ساحل آسيا الصغرى الغربي . وهذا أمر طبيعي . غير أن عبادة أبوللون لم تكن مقصورة على المناطق الساحلية في آسيا الصغرى ، فقد عبد أبوللون لا في المناطق الساحلية المتأغرقة فحسب بل عبد كذلك في داخل شبه الجزيرة . كانت عبادته منتشرة في قلب الأناضول حيث اكتشفت نقوش في شكل اهداءات تكريمية للربة ليتو وابنها أبوللون في مدن مثل إكونيوم (قونية) في ليكاونيا وسينّادا في فريجيا . وتكمن قيمة هذه النقوش التي تنتمي الى المصريين اليوناني والروماني في أن مواقع اكتشافها النائية لم تكن متأثرة بالحضارة أو اللغة اليونانية إلا تأثراً طفيفاً .

لا بد أن هذا الإله ــ كما يقول العلامة فيلاموفيتز ــ كانت له عدة أسماء مختلفة بين الشعوب المختلفة التي عبدته في المنطقة الممتدة من طروادة حتى ليكيا. وقد سمع الإغريق اسم أبوللون لأول مرة في مكان ما ، وعرفوا أنه هو نفسه الإله المنتشرة عبادته في تلك الأنحاء من آسيا الصغرى . لكن أيمكن تحديد

---

(١) عن معبدي أبوللون في ديديما وكلاروس كمركزين شهيرين من مراكز نبوءته ، راجع ص ١٤١ - ١٤٢ هامش ١ فيما تقدم .

(٢) جرينيوم = جرينيون (في اليونانية) .

المكان الذي سمع فيه الإغريق اسم أبوللون لأول مرة ؟ لقد نشر العالم الجرى روزني (B. Hrozny) في عام ١٩٣٦ بعض نقوش حيثية اكتشفت في أربعة معابد قديمة بمواقع في الأناضول قريبة من قريتي « إمري غازي » « وإسكي كيشلا » الحديثتين . ومن بين الآلهة الذين ترد أسماؤهم في هذه النقوش اسم أبولوناس (Apulunas) ، الذي يوصف بأنه إله المداخل أو البوابات . ومن العسير أن يتجاهل المرء ما بين اسم هذا الإله الحيثي واسم أبوللون . ويؤيد ذلك نظرية الأصل الأناضولي للإله اليوناني . كان أبوللون الأناضولي حارساً للبوابات ، وكذلك كان أبوللون اليوناني في العصر الكلاسيكي . فقد كان بوصفه حارساً (Agyieus) يوضع له تمثال رمزي (غير بشري وغير حيواني) أمام البيوت ليدرأ عنها الشر والأذى [١] .

لقد اقتصر بحثنا حتى الآن على أصل أبوللون من الناحية المكانية أو الجغرافية . وأما عن طبيعته فلا يمكن أن نناقشها مناقشة مثمرة نظراً لما يكتنفها من غموض شديد . لكن أينا نلتقي بأبوللون نجد أنه قد انتحل عدة مظاهر من الحياة الإنسانية وجعلها من اختصاصه . ومن المتعذر القول بأن أي مظهر واحد منها يمثل الطبيعة الأصلية لهذا الإله . ولا مراء في أن عدة عناصر دينية مختلفة قد اندمجت كلها في أبوللون ، الإله الهلليني الدولي ، وأن عدة معبودات صغيرة قد انجذبت إليه ودارت في فلكه منذ زمن بعيد غير معروف .

---

(١) أنظر :

M. P. Nilsson, Greek Popular Religion (Columbia - UP - 1940), p. 79.

ويمدنا « عيد هياكينثوس » (Hyacinthia) بدليل قاطع على أن أبوللون انتحل مكان إله قديم كان موجوداً قبل مجيء الإغريق. كان هذا العيد عيداً مشتركاً يقام في أميكلاي [1] أثناء العصر الكلاسيكي تمجيداً لأبوللون وهياكينثوس (Hyacinthus) الذي ورد في الأساطير أنه كان شاباً وسيماً شغف به أبوللون حباً وبادل هو أبوللون هذا الحب . وقتله الإله بقرصه أثناء اللعب معه عن غير عمد وحزن عليه . لكن هياكينثوس كان في الحقيقة إلها قديماً موجوداً قبل قدوم الإغريق إلى شبه الجزيرة . ويكشف اسمه عن أصله غير اليوناني أو قبل اليوناني إذ ينتهي بتلك النهاية (inthos -) التي كانت شائعة في اللغة غير الهندية الأوربية بالأناضول ومنطقة البحر الإيجي قبل مجيء الاغريق[2] . وفضلاً عن ذلك فإن تمثال هياكينثوس الذي نشأت حوله عبادة في أميكلاي لم يكن — وفقاً لرواية باوسنياس — في شكل شاب وسيم بل في شكل رجل ذي لحية . ولدينا قرائن أخرى على أن هذا العيد حيث كان يحتفل بالبكاء على الإله القتيل كان عبادة قديمة (قبل الاغريق) مرتبطة بالزراعة والدورة النباتية (كعبادة تموز /أو/ أدونيس) وأن أبوللون انتحلها لنفسه [3]، فأصبح أحياناً إلها للنبات مثلما أصبح من قبل إلها للرعاة و كثيرين غيرهم .

ألقاب ابوللون واختصاصاته :

كان أبوللون في المقام الأول هو الاله الواقي من الشر (Apotropaios) سواء من الأذى البدني كالمرض أو أي أذى آخر غير ملموس ؛ وإله التطهير

---

(١) أميكلاي قرب اسبرطة في إقليم لاكونيا ، واجع ص ١٧٤ فيما تقدم .

(٢) راجع ص ٨٦ فيما تقدم .

(٣) قارن أيضاً الأعياد التالية : ا - ثارجيليا Thargelia (في أتيكا) ب - كارنيا Carneia (في لاكونيا) جـ - دافنيفوريا Daphnephoria (في طيبة).

(Katharsios) [1] ، وإله النبوءة . [2] وقد تلقى بعض هذه الصفات المميزة له ضوءاً على الشعوب والأقطار التي نقل الإغريق عنها عبادته أثناء هجرتهم إلى جنوب البلقان أو بعد استقرارهم فيه. وما ذكرناه من أدلة حتى الآن يرجح كفة الرأى القائل بأن أبوللون أناضولي الأصل . لكن ينبغي أن نأخذ أيضاً في الاعتبار بعض صفات أخرى تتصل بكاهنته « بيثيا » التي كانت تتقمصها روحه ساعة نطقها بالنبوءة بوحي منه ، وهي طريقة غيبية تشابه طريقة كهنة شمال آسيا (سيبريا) المعروفين باسم « الشامانات» . وقد يفتح هذا التشابه باباً جديداً للبحث في الموطن الأول للإله أبوللون .

كان أبوللون الذي يلي أثينة في الأهمية إلهاً متعدد الاختصاصات على نحو ما ذكرنا . وبعض هذه الاختصاصات هام وبعضها الآخر ثانوي . وقد يكون من المفيد أن نمهد لها أولاً باستعادة المعاني التي اقترحت لتفسير اسمه . ففي رأي أنه مشتق من كلمة بمعني « حظائر الغنم » ، وهو تفسير يتفق مع صفته القديمة كرب للرعاة (Nomios). وبهذه الصفة ـ على ما يبدو ـ ترتبط قصة استعباد أبوللون نفسه واشتغاله بضع سنوات كراع لماشية أدميتوس، ملك مدينة فيراي في تساليا ، وهي قصة سيأتي ذكرها فيما بعد . وفي رأي آخر أنه مشتق من كلمة أبيللا (apella) التي كانت تدل عند الدُوريين على معني « الاجتماع العام » أو المجلس الشعبي . وقد يستنبط من هذا الرأي أن أبوللون كان في الأصل إلهاً دُوريا جاء مع الدُوريين. وفي الحق إن الدُوريين — وهم آخر شعبة من الإغريق وفدت إلى جنوب البلقان (حوالي ١١٠٠ ق.م.) — قد مروا أثناء اقتحامهم البلاد من الشمال والشمال الغربي بدلفي . وكانت كاهنة معبد أبوللون فيها تختار

---

(١) عن أبوللون كإلة للتطهير ، راجع ص ١٤١ فيما تقدم .

(٢) عن أبوللون ونبوءته في دلفى راجع ص ١٣٤ - ١٤١ ـ فيما تقدم .

دائماً من أسرة دُورية الأصل . وينسب دستور أسبرطة – زعيمة الدُوريين – والمعروف بدستور ليكورجوس ، إلى أبوللون نفسه . وقد وقــف في الحرب البلوبونيزية إلى جانب اسبرطـة ضد أثينا . وانتشرت عبادته في مــدن ومستعمرات دُورية كأميكلاي وإبيداوروس وفي ثيرا ورودس وقوريني. لكن ارتباط أبوللون بالدُوريين لم يكن بأوثق منه بغيرهم. لقد كان إلهاً هللينياً دولياً لا يتبع مدينة معينة أو حتى مجموعة من المدن اليونانيــة . وأما الرأي الثالث فيقول بأن اسمه مرتبط لغوياً باسم شجرة الحَوْر ، وهو نوع من الجميز معروف بسرعة نموه واستقامة جذعه. ولا يلقى هذا الرأي سوي تأييد طفيف على الرغم من طول باع صاحبه في الديانة اليونانية القديمة . لكنـــه على أي حال يربط أبوللون بالنبات ، وهي صفة اكتسبها – على نحو ما رأينـا – من إله أو آلهـة قدامي للزراعة كانوا موجودين في بــلاد الإغريق منذ زمن بعيد . وفي الحقيقة إن أبوللون كان أكثر ارتباطاً بشجرة الغار منه بأي شجرة أخرى كما يتضح من قصة غرامه بدافني (Daphné) ، وهي حورية يؤدي اسمهـــا نفسه معنى « الغار » .

ولعل دراسة ألقــاب أبوللون تلقي أضواء على اختصاصات هذه الإله كلها أو بعضها . كان لأبوللون عدة ألقاب أولها لقب « الديلي » نسبة إلى جزيرة ديلوس التي ورد في الأساطير أنه ولد فيها هو وأخته التوأم أرتميس ربة الصيد. وسنعود إلى هــذه الأسطورة عندما يحين وقت الكلام عن أساطيره . وكان يلقب أيضاً « بالبيثي » نسبة إلى بيثو وهو اسم آخر لدلفوى أو دلفى ، أشهر مركز لعبادته ونبوءته ، وحيث قتل هو الأفعى الضخمة أو التنينة بيثون التي سميت باسمها المدينة وكاهنة المعبد ودورة المهرجانات الرياضية (البيثية) . وحمل أبوللون لقباً آخر وهو « الليكي » إما نسبة إلى إقليم ليكيا بآسيا الصغرى

أو نسبة إلى الذئب لأن أبوللون كان إلهاً ذئباً يحمي الرعاة في البراري من هــذا الحيوان المفترس . ومن ثم لقب أبوللون – كما أسلفنا – بحامي الرعاة أو ربهم (Nomios) .

وفي الحق – كما يقول الأستاذ « روز » – إن البدء بهذا اللقب الأخير ، لقب « إله الرعاة » في البراري ، قد يفسر لنــــا بعض اختصاصات أبوللون الأخرى التي ترتبط بالرعي والرعاة ارتباطاً مباشراً أو غير مباشر ومن بينهــا لقب « الإله الذئب » الذي يصد عن أغنــــامهم حين رضائه عنهم عدوان هذا الحيوان الذي يعتبر من أعدى أعدائهم أو قــــد يسلطه حين غضبــــه عليهم أو قد يرسل عليهم من السماء وباء كالطاعون يهلــك قطعانهم . وكإله قديم للرعاة أصبح أبوللون إلهاً للرماية بالقوس والسهم ، وكذلك للموسيقى (إذ يعزف الرعاة في العادة على الناي أو القيثارة لتزجية فراغهم) ، ومن ثم أصبح إلهاً للشعر . كذلك كان أبوللون إلهــــا واقياً من الأذى (Apotropaios) ، سواء الأذى البدني كالمرض أو غيره من أنواع السوء غير المحسوس . وبالتــالي أصبح إلهاً للشفاء ، فهو أول من علم النـــــاس فن التطبيب حتى لقد قيل – كما سنرى – أن أسكليبيوس البطل ، إله الطب ، كان ابناً له. وكإله للشفاء من أي أذى أو عطب ، فقد صار أبوللون إلهاً للتطهير (katharsis) . ولعل هذه الصفة يتضمنها لقب فويبوس (Phoebus) الذي يخلعــه هوميروس عليه والذي يرجح أنه يعني لا المضيء أو المنير فحسب بل المطهر أو الطـــاهر أيضاً الذي في وسعه أن يطهر من الدنس حتى من تلوثت أيديهم بدماء ذوي الأرحام . ومن ثم نفهم كيف أصبح أبوللون مختصاً بشعائر التطهير من جرائم القتــــل

---

(١) Oxford Classical Dictionary , s. v. « Apollo » ; cf. also H.J. Rose, <u>A Handbook of Greek Mythology</u> . 6 th ed. (UP 1964) p . 136.

وحجة ثقة فيما يتصل بالطقوس الدينية الصحيحة التي ينبغي للفرد أو الجماعة أن يؤدوها تجنباً لعواقب وخيمة قد تنجم عن نذر شر ودفعاً لنقمة سماوية حلت كطاعون أو بلاء آخر . ولم يكن أبوللون يدعو إلى طهارة الجسد والمظهر فقط بل كان يدعو كذلك إلى طهارة النفس والجوهر ، وبالتالي إلى نقاء السريرة وصفاء النية لأن النيات هي مقياس الأعمال [1] .

وكان أبوللون فوق ذلك إلهاً للنبوءة على نحو ما شرحنا في فصل سابق [2] . ولا يعرف أحد كيف أصبح إلهاً للنبوءة (manteion) [3] . وأياً كان السبب فإن هذه الصفة ترتبط – على ما يرجح – بلقبه « فويبوس » الذي قلت إنه قد يعني « المضيء » أو « المنير » وربما أيضاً بلقب « الليكي » الذي ذكرت أن البعض يرى فيه جذراً لغوياً (وهو - luk) بمعنى الضوء أو النور . وفي الواقع إن أبوللون كثيراً ما قرن بالشمس حتى في العصور القديمة . فمنذ القرن الخامس ق.م نشأت نظرية تقول بأنه كان إله الشمس ، وراجت هذه النظرية في العصر الهللينستي وعصر الإمبراطورية الرومانية . وقد نجح بعض العلماء المحدثين في إحيائها فترة من الزمن . لكن النظرية لا تقوم على أساس متين ويعوزها الدليل الحق الرصين . ومع هذا فلا ينكر أحد ارتباط أبوللون بالنور الذي لا يشوبه أي ظلام . فهل هذا هو الذي جعل منه إلهاً للحق لا تنطق شفتاه أبداً بالباطل ؟ وهل يفسر هذا بدوره كيف أصبح إلهاً للنبوءة التي كان معبده في دلفي أشهر مراكزها في العالم الهلليني كله ؟ وكيف أصبح عن طريق

---

(١) راجع ص ١٤١ فيما تقدم .

(٢) راجع ص ١٣٤ فيما تقدم .

(١) أو chresterion . وفي اللاتينية oraculum .

نبوءته بدلفي يقوم بدور بارز في ميدان السياسة الهللينية الدولية؟. كان أبوللون كإله للحق لا ينحاز في العادة لدولة ضد أخرى ، وإن ناصر الطرواديين ضد الإغريق لأسباب ربما تتصل بنشأته الأناضولية . ولم يخرج عن حياده المعهود إلا في الحروب الميدية التي انحاز فيها إلى جانب الفرس، وكذلك في الحرب البلوبونيزية التي ناصر فيها الاسبرطيين [١] . أم أن هذه الصفة ، وهي قدرته على التنبؤ على لسان كاهنته « بيثيا » ، قد جاء بها معه إلى بلاد اليونان من مكان بعيد في شمال آسيا كسيبيريا ؟ وأيا كان الأمر فقد كان أبوللون قوة خيرة ورباطاً مباشراً يصل بين الآلهة والناس ، وداعية للمبادىء الدينية السامية والمثل الخلقية الرفيعة ، بل اعتبر راعياً للفلسفة حتى لقد قيل إنه كان أباً لأفلاطون . وبذلك تكون ديانة أبوللون — كما سبق أن ألمحنا — قد بلغت أرفع مستوى خلقي في العالم الوثني القديم [٢] . وفي الحق إن اسمه لم يكن يذكر إلا بكل توقير [٣] . كان أبوللون هادياً للبشر ليعرفوا إرادة السماء (عن طريق النبوءة) وسبل استرضاء الآلهة (عن طريق تعليم الناس الشعائر الدينية الصحيحة) . والصفة الأخيرة جديرة بالاهتمام وتحتاج إلى مزيد من الشرح والتعليق .

كان أبوللون — كما نوهت — الإله الحجة فيما يتصل بالشعائر الدينية الواجب اتباعها لتطهير الجسد والروح . ولم يلبث أن أصبح حجة في القانون الوضعي ، ومن هنا جاء ارتباطه الوثيق بالشرائع والمدونات القانونية ، ومن ثم بتقدم الحضارة التي يقاس تقدمها عادة ويزداد رسوخها بالقوانين . لكن لنبدأ أولاً

---

(١) راجع ص ١٤٠ فيما تقدم .

(٢) راجع ص ١٤١ فيما تقدم .

(٣) فيما عدا بعض مسرحيات الشاعر الأثيني يوريبيديس هاجم فيها الإله لانحيازه الى جانب اسبرطة .

بالمثل والمبادىء الأخلاقية . كانت أبرز هذه المبادىء التي يمثلها أبولون هي صفات « كالواضح والمعقول والمحدد والمقيس » أي المضادة لصفات « الغامض والوهمي والغريب والمجرد من الشكل » . ولقد حفرت بعض مواعظه أو حكمه الاخلاقية على جدران معبده في دلفي ، ومن بينها « أعرف نفسك » ، « إياك والافراط » ، « أكبح جماح نفسك » ، « إلزم حدك » ، « اعزف عن الكبر » ، « صن لسانك » ، « أطع أولى الأمر » ، « اسجد للآلهة » ، « لا تباهي بقوتك » ، « اخضع المرأة لسيطرتك ! »

ونخرج من هذه الحكم بانطباع واضح وهو أن أبولون كان إله الاعتدال والوسط المحمود وعدم الافراط أو تجاوز الحد (peras) ، وهي صفة أخلاقية أثيرة لدى اليونان بل أساسية عندهم . ونفهم منها أيضاً لماذا اشتهر هذا الاله بكراهيته الكبر والغطرسة (hybris) ، وهي خطيئة كان يحذر منها الاغريق كل الحذر . فعلى الانسان أن يعرف نفسه أو بالأحرى يعرف أنه بشر وعلى الأخص في أوقات الهناء لأنه يكون أميل إلى نسيان أنه فان في تلك الأوقات . وعندما يبلغ المرء ذروة المجد والهناء يصبح أقرب مايكون إلى السقوط والشقاء . فالصواعق غالباً ما تصيب أعلى القمم . على الانسان اذن أن يعلم أنه خاضع للآلهة وأن يروض نفسه على الرضوخ لما تقضي به النبوءات المعبرة عن إرادة السماء . ولا ينبغي أن يرتفع ارتفاعاً شاهقاً أو يدنو من الأرباب دنواً شديداً مثلما فعل الطغاة (tyranni)[1]. فقد هوى هؤلاء الطغاة وأبناؤهم في معظم المدن اليونانية من شاهق وأوردهم الزهو موارد التهلكة

(١) حكم الطغاة نظام من الحكم الدكتاتوري قام على انقاض الحكم الأرستقراطي في كثير من دول المدن اليونانية خلال القرنين السابع والسادس ق . م نتيجة لأزمات داخلية أو اخطار خارجية . ولم يكن بالضرورة في أول نشأته حكماً سيئاً لأنه كان برغم عدم شرعيته يستهدف توزيع الأرض ورفاهية الشعب .

وعرضتهم الغطرسة لانتقام السماء العادل (Nemesis) . لذلك اشتهر أبوللون بمناوءته للطغاة (كما يتضح من موقفه منهم في أثينا وسيكيون على سبيل المثال). ولم يقف الإله هـــذا الموقف من الطغاة تمشيا مع سياسة أسبرطة فحسب[1] (التي نصرها في حرب البلوبونيز ضد أثينا) بل تمشيا أيضاً مع مبدأ عدم تجاوز الحد المرتبط بجوهر ديانته . فعلى الرغم من أن الاغريق كانوا يبغضون الطغاة إلا أنهم لم يكتموا أحياناً اعجابهم بهم بوصفهم حكاماً أقوياء بل نظراء للآلهة قد يستبيحون لأنفسهم عمل أي شيء يروق لهـم . غير أن ذلك كان يتعارض وحكمه تجنب الافراط ، وينطوي على تجاوز الحد ، ويتضمن معنى التجبر . ومن هنا جاءت مناوءة أبوللون (ونبوءته في دلفي) لهؤلاء الطغاة بوجه عام .

وأما ارتباط أبوللون بالقانون فلم يقتصر على الحِكَم والأمثال . كانت كل بلاد اليونان تتطلع اليه كمشرع ومفسر للقانون . وكان القانون في نظر الشعوب البدائية إلهياً أي منزلاً من السماء . وقد مضى على الاغريق زمن طويل قبل أن يتخلوا عن هذا الاعتقاد . وكان السفسطائيون هم الذين هدموا المفهوم الديني السائد بأن القانون من وضع الآلهة وذلك بالمناقشات المستفيضة والمباحث العقلية العميقة في الطبيعة (physis)والقانون (nomos) : الطبيعة بنواميسها الأزلية ، والقانون بقواعده العرفية التي هي من وضع الانسان والتي كانت — كما زعم السفسطائيون — تنظم حياة الدويلات اليونانية وما بينها من علاقات في عصرهم (القرن الخامس ق . م) . لكن حتى منتصف هذا القرن (الخامس ق . م) كان المشرعون الإغريق يحرصون على استشارة الآلهة عند سن القوانين أي يحرصون على الحصول على مصادقة الآلهة على هذه القوانين . وللتعرف على أرادة الآلهة كانوا يستشيرون النبوءات وعلى الأخص نبوءة دلفي . وهكذا

---

(١) ورد خطأ في ص ١٤٠ (سطر ٤ ، ٥) وصوابه: ان اسبرطة لم تكن تبارك حكم الطغاة أو تؤيده بل كانت تناصبه العداء وتعمل على الاطاحة به ، وراجــع أيضاً ص ١٧٥ ، حاشية ١ حيث ذكرنا أن اسبرطة لم تعرف حكم الطغاة وكانت تعمل على اسقاطه في الدويلات الأخرى .

وصفت دساتير بعض الدويلات بأنها صادرة عن أبوللون ولو أن ذلك كان في الواقع لا يعدو أن يكون في الغالب مجرد الحصول على مصادقة الإله على دستور تم وضعه أو مجموعة من القوانين تمت صياغتها. ولعل أشهر مثال على نشاط أبوللون في مجال التشريع هو دستور اسبرطة الذي قيل إنه وضعه للمشرع ليكورجوس ($Lycurgu_s$). ويتضح ذلك من قصائد الشاعر الإسبرطي تيرتايوس وكذلك من تاريخ هيرودوت، وإن كان الأخير يضيف إلى الأصل الإلهي للدستور الإسبرطي ملاحظة تنم عن ارتيابه فيقول «ولو ان الاسبرطيين أنفسهم يقولون إن مشرعهم ليكورجوس نقل هذا الدستور عن كريت». وتعكس رواية هيرودوت الاتجاه العقلي الذي بدأ يظهر منذ أيامه وأخذ يسود منذ السفسطائيين الذين زعزعوا الايمان بالمعتقدات والخرافات وأثاروا الشك فيها. ومن ثم فإن رواية هيرودوت إنما تعكس ما لوحظ بحق من تشابه بين دستور اسبرطة ودستور كريت. وبرغم هذا نجد أفلاطون يؤكد في كتاب «القوانين» الأصل الإلهي للدستور الإسبرطي إذ يعزوه الى أبوللون وفقاً لرواية الإسبرطيين أنفسهم، مثلما يعزو دستور كريت إلى زيوس. وعندما كتب بلوتارخوس بعد ذلك ببضعة قرون (القرن الثاني م) سيرة ليكورجوس عزا أيضاً الدستور الإسبرطي إلى نبوءة دلفي.

وفي أثينا كانت قوانين دراكون Draco (٦٢١ ق. م) - أول مشرع أثيني - الخاصة بالاغتيال والقتل متأثرة بمبادىء دلفي التي تقضي بضرورة التطهر من الدنس (miasma). كذلك روي أن كليستنيس Cleisthenes (٥٠٨ ق. م) - المشرع الأثيني الثاني - عندما اصطنع تقسيم المواطنين الى عشر قبائل قائمة على أساس محل السكنى لاغيا القبائل الأربع القديمة القائمة على أساس رابطة الدم، سماها بأسماء أبطال لقنتها له بيثيا، كاهنة أبوللون في معبده

بدلفي . ويحدثنا هيرودوت عن مدن أخرى سألت نبوءة دلفي النصيحة في مواقف مشابهة . فقد أرسل أهل قوريني - وهي مستعمرة يونانية في برقة - أرسلوا إلى دلفي وفداً ليستشير أبوللون في نوع الدستور الذي يكفل لهم أقصى حد من الرفاهية في الحياة. وقد نصحهم أبوللون باستدعاء مشرع لمعاونتهم من بلدة مانتينيا (بأركاديا) يدعى ديموناكس . وأعاد هذا الرجل تنظيم دولة مدينة قوريني . وينبه أفلاطون المشرعين إلى ضرورة الرجوع إلى أبوللون في كل ما يتصل بالتشريعات الدينية .

كان أبوللون المفسر القومي للقوانين (patrios exegetés) . وكان يعاونه في مهمته هذه عملاء من البشر يتمثلون في كهنة معابده وسدنتها وغيرهم من الوسطاء. فإلى جانب نبيته بيثيا في دلفي كان لأبوللون في المدن الأخرى كهنة يعرفون بالمفسرين أو الشراح (exégétai) . وعن طريقهم كان يعطي النصيحة للجماعات والأفراد ويجعل صوته مسموعاً في الشؤون الداخلية لدول المدن اليونانية . كان هؤلاء المفسرون أو الشرّاح يمثلون نظاماً غريباً ويعكسون مدى نفوذ دلفي وأسلوبها في التعامل مع الناس والدول . ومعلوماتنا عنهم مستمدة من أثينا وإن يكن من المرجح أنهم كانوا معروفين أيضاً في المدن الأخرى. ففي أسبرطة كان كل من الملكين يختار شارحين (أي فقيهين) ليفسرا له معنى نبوءات بيثيا كاهنة أبوللون ، ويوصف الأربعة بالأنبياء أو العرافين (theopropoi) . وكانوا يتناولون الطعام على مائدة الملكين ، ويتولون تأويل مشيئة أبوللون للمدينة . ولم تكن وظيفتهم تختلف عن وظيفة الشراح في أثينا (exegetai) الذين كانوا ينقسمون فئتين : فئة تعينها نبية دلفي (Pythochrêstai)، وفئة ينتخبها الشعب الأثيني [1] . وكان الشراح من الفئة الثانية يختارون - على ما يبدو -

---

(١) hypo tou dêmou kathestamenoi

من بين أسرتين من الأسر النبيلةذات المعرفة والنفوذ المتوارث في بعض شؤون العبادة والطقوس الدينية . وقد لوحظ أن أبوللون كان يفضل أن يحرز نفوذه في مختلف المدنلا بإزاحة آلهتها بل بإقحام نفسهبينها كإله لا بد أن يرجع إليــه الجميع فيما يتصل بأفضل الوسائل وأسلم الشعائر الواجب اتباعها في عبادة آلهة الأجداد . كانت إجاباته في الغالب تنصح باتباع العادات المحلية المستقرة أي بمراعـــاة تقاليد الأجداد أو « سُنّة السلف » (patrios nomos) . يقول يوثيديموس في حواره مع سقراط : « ليس هناك إنسان — على قدر تصوري — بقادر على أن يرد جميل الآلهة أو يجازي فضلهم الجزاء الوافي » . ويجيبه سقراط قائلاً : « لا تبتئس يا صاح فأنت تعلم أن إله دلفي كلما سأله أحد كيف يظهر عرفانه بالجميل للآلهة ، أجاب : « بإطاعة قانون المدينة »[١] .

كانت واجبات الشراح تتضمن إصدار الفتاوى في مختلف الشؤون الدينية : المعابد والطقوس والقرابين ، وعلى الأخص فيما يتصل بقواعد التطهير الواجب اتباعها في حالات جرائم القتل . ونلتقى بمثال طريف على ذلـــك في كتاب « القوانين » لأفلاطون : إذا باع أحد لآخر — دون أن يخطره — عبداً مرتكباً جريمة قتل (وبذلك يتسبب تلقائياً فى تدنيس بيت المشتري) فإن المشتري يكون له الحق فى رد السلعة إذا ما عرف الحقيقة ، وعلى البائع أن يرد الثمن مضاعفاً ثلاث مرات فضلاً عن التزامه بتطهير بيت المشتري حسب القواعد التي حددها الشراح[٢] . وكان هؤلاء الشراح يستعان بهم فى الأوقات العادية في تصريف ما يمكن أن نسميه بالأعمال الرتيبة . فكانوا يستدعون على وجـــه

---

(١) Xenophon , Memorabilia , IV. 3. 16

(٢) القوانين ، ك ١١ ، ف ٩١٦ جـ .

السرعة للاستشارة عندما تنشأ الحاجة إلى تفسير قانون أو حل مشكلة متصلة بإجراء إحدى الشعائر الرسمية وذلك بتحديد سُنّة السلف أو استجلاء نقطة غامضة فيها . وأما في الظروف البالغة الأهمية أو الاستثنائية فكانت السلطات المسؤولة في المدن ترجع إلى دلفي نفسها وتحيل المشكلة على الإله مباشرة في معبده هناك . ومن أمثلة هذه الظروف وقوع كارثة قومية كانتشار وباء أو طاعون مما يدل على أن المدينة جلبت على نفسها نقمة الإله وصار من المحتم أن تعجل بالتكفير عن إثم أو ذنب معين . ويروى أن الأثينيين ابتليت مدينتهم ذات مرة بوباء فاستشاروا كاهنة دلفي ليعرفوا أي إله كان غاضباً عليهم وما سبب غضبه . وجاءهم الرد يذكرهم بأنهم أهانوا كاهناً للربة الفريجية « الأم الكبرى » حين جاءهم ملتمساً منهم المعونة ، وأنهم طردوه من أرضهم أو رجموه – وفقاً لرواية أخرى – بالحجارة وألقوا به في الجب الكبير المسمى براثرون . فكان لا بد من أن يسترضوا « الأم الكبرى » ويعوضوها عن الإهانة التي لحقت بأحد كهنتها .لذلك أقام الأثينيون لها معبداً ، وهو معبد « أم الآلهة » (Mêtrôon) في السوق العامة [1]. وهكذا دخلت عبادة إحدى الآلهات الشرقية في أثينا لأول مرة . وثمة ظرف آخر غير عادي كان لا يكتفى فيه باستفتاء الشراح وهو شروع المدينة في تأسيس مستعمرة بالخارج . كان لنبوءة دلفي على حركة الاستعمار اليوناني (٧٥٠ – ٥٥٠ ق.م) تأثير ضخم . ذلك أن إرسال مجموعة من المواطنين للاستيطان بمستعمرة في الخارج لم يكن إجراء مدنياً بحتاً بل كان في نظر الإغريق إجراءاً يتطلب مراسم دينية هامة . وكان في مقدمتها أمر بالغ الأهمية وهو تحديد اسم الإله الذي ستكون المستعمرة الجديدة مشمولة برعايته . وعندما شرع أهل فوكايا(على ساحل آسيا الصغرى) في تأسيس مستعمرة ماسّيليا (مرسيليا الحالية) أشارت عليهم نبوءة دلفي

---

(١) Julian, Or. V , 159. Photius s.v metrôon

بوضع المستعمرة تحت رعاية الربة أرتميس أخت أبوللون التوأم .[١]

من ذلك يتضح أن أبوللون كان في المقام الأول إله الشرائع الدينية . كانت سلطته تشمل وضع قواعد إنشاء العبادات الرسمية وممارستها في كل بلاد الإغريق. ويلاحظ أيضاً أن سلطته التشريعية قد تجاوزت النطاق الديني البحت وامتدت إلى ما يمكن أن نسميه بنطاق القانون العلماني . ولم يكن هناك مناص من ذلك لأن الحد الفاصل بين ما هو ديني وما هو دنيوي لم يكن بأي حال واضحاً للإغريق مثلما هو واضح لنا الآن . ومن بين مهام أبوللون كإله مشرع نخص بالذكر سلطته في حالات القتل والاغتيال لأنها تكشف عن طبيعته المزدوجة كإله أوليمبي مرتبط بالسماء (Olympios) وإله سفلي مرتبط بعالم الموتى (chthonios). وأيا كانت الآراء السائدة في جريمة القتل - التي طرأت عليها تغييرات هامة خلال حقب التاريخ اليوناني - فإن هذه الآراء كانت دائماً بحاجة إلى مصادقة أبوللون عليها لإقرارها . وفي الحق إن أبوللون نفسه كان يغير آراءه من وقت لآخر ويطورها تمشياً مع تطور الحضارة ويقف مواقف تتسم بروح أكثر تمديناً مع مرور الزمن . كان هذا التطور يتمثل في الانتقال من مرحلة الثأر للدم على يد الأسرة إلى مرحلة محاكمة القاتل على يد الدولة حماية للمجتمع . فوفقاً لقانون أو عادة الثأر القديمة كانت روح الشخص الذي يقتل غيلة تظل معادية لأسرته حتى تنتقم له من قاتله . وقديماً جداً ساد الاعتقاد بأن القتيل الذي لا يُثار لدمه يظل محروماً من دخول عالم الموتى وأن روحه الهائمة القلقة قد تحل في جسده من جديد وتنتقم انتقاماً بدنياً رهيباً من الجاني أو من قريب القتيل الذي تقاعس عن أداء واجبه نحوه. كان الثأر تركة كالمال والعقار تورث للابن ولا مناص له من متابعته. وإلى أن تهدأ روح القتيل الغاضبة كانت أسرته تظل تحت

---

(١) Cf. W. H. Parke , A History of the Delphic Oracle (Blackwell , 1939) , Bk I, chs i - ii .

طائلة الدنس (miasma) ، وهو دنس ليس روحياً فقط بل بدني أيضاً . ولم يقتصر الدنس على الفرد بل قد يشمل الجماعة وتتأثر به المدينة كلها . وبينما ظل واجب الثأر في يد الأسرة كانت المدينة ترى أن من مصلحتها التأكد من أداء هذا الواجب . فإذا ظل الجاني غير معروف ومن ثم لا ينشأ احتمال لإثارة ضغائن شخصية أو أسرية فإن الحاكم كان عليه أن يعلن قراراً بحرمان القاتل أياً يكون من حماية القانون ونفيه ولعنه على أمل تطهير المدينة بذلك من الدنس . وكان هذا على ما يبدو أحد تعاليم أو مبادىء دلفي القديمة . ونجد أوديب (Oedipus) يستشهد بهذا المبدأ في مسرحية سوفوكليس إذ يعلن تجريد قاتل لايوس (Laius) من حماية القانون (دون أن يدري أنه هو نفسه قاتل أبيه) وإيصاد الأبواب في وجهه وعدم التحدث إليه بتاتاً أو إشراكه في الصلاة أو في تقديم القرابين للآلهة أو مياه التطهير ، مناشداً كل فرد أن يطرده بعيداً عن أبوابه حيث أنه دنس للجميع . ويضيف بأن هذا ما كشفت له عنه نبوءة الإله البيثي [1] .

كان أهم ما يعني أبوللون هو ذلك الدنس الذي ينجم عن جرائم القتل . ولما كان هو الذي يقرر وقوع مدينة أو فرد تحت طائلة الدنس فانه كان الإله الذي في وسعه أن يطهرها أو يطهره تطهيراً طقوسياً يخلصها من هذا الدنس . ومع تطور المثل الأخلاقية وازدياد سلطة الدولة ، بدأ يوضع حد للأخذ بالثأر ، وحلت محله تدريجياً مبادىء إنسانية أكثر تلاؤماً مع روح التقدم السياسي والخلقي . وتمثل قوانين دراكون الخاصة بجريمة القتل ، وهي أهم جزء في

---

(١) Sophocles, <u>Oed. Tyr.</u> 236 ff.

تشريعاته وأبقاها أثراً، مرحلة وسط بين حقوق الأسرة وحقوق الدولة، أي بين الجاهلية القديمة والاستنارة الجديدة . كان المبدأ القديم لا يفرق بين القتل العمد والقتل غير العمد. ففي كلتا الحالين على السواء كان دم القتيل ينـــادي بالثأر ، وكان الدنس الناجم عن سفك الدم يحدث تلقائياً. لكننا نجد في مدوّنة دراكون لأول مرة تفرقة بين القتل العمد وغير العمد أي أن دراكون ميز بين القتل مع سبق الإصرار والقتل دفاعاً عن النفس. وتنص قوانينه صراحةً على أن إقامة الدعوى هي من حق أسرة القتيل. فاذا ثبتت إدانة الجاني سُلّم للأسرة لتنفيذ الحكم. لكن محاكمة المتهم كانت تجري أولاً في محكمة المدينة الرسمية وبذلك يكون دراكون قد أبقى للقتيل حق مطالبة أسرته بالثأر له من القاتل ولو أن الدولة صارت تتدخل ضماناً لسلامة التحقيق وسريان العدالة . وفي أثينا كان القاتل المشتبه فيه يستطيع أن يلجأ إلى محكمة الأريوباجوس حيث كان يقسم على براءتــه ويدافع عن نفسه أمام متهميه ، فاذا برئت ساحته كان على أسرة القتيل أن تبحث عن القاتل الحقيقي .

لقد أنشئت محكمة الأريوباجوس ، وهي محكمة جنايات ، حتى لا يقتل أولياء الدم رجلا بريئاً عن طريق الخطأ وبذلك يتركون روح قتيلهم قلقة غير مستريحة ، وتدنس أرض المدينة — بقتل البريء - مرتين بدلاً من مرة واحدة. وعندما لجأ أورستيس (Orestés) بعد قتله لأمه ، التي قتلت أباه أجاممنون ، إلى محكمة الأريوباجوس حيث تولى أبوللون نفسه الدفاع عنه ، فإنه لم يقم حقه في الرحمة على هذا الأساس . فقد ارتكب هو ولا أحد غيره هـــذه الجريمة . ويعترف هو نفسه بذلك . ولا يستطيع أن يدعي بأن القتل حدث قضاء وقدراً أو لم يكن عمداً أو أنه كان في حالة دفـــاع عن النفس . ومع هذا فقد برئت

ساحة أورستيس بصوت واحد أدلت بـه الربة أثينة عندما تعادلت أصوات المحلفين. ويهدف الشاعر آيسخيلوس من هذه المسرحية الشهيرة المساة «بالغفورات» (Eumenides) حيث يصف محاكمة أورستيس بأنها أول محاكمة لجريمة قتل أخذاً بالثأر ، يهدف إلى إعـادة النظر في سلطة محكمة الأريوباجوس ، وإلى إبطال قانون الثـأر القديم الذي ينادي بسفك مزيد من الدم والذي كان يعتقد أنه لامناص منه حتى ذلك الحين ، وإلى التخفيف من صرامة قوانين دراكون (التي قيل إنها كتبت بالدم بدلاً من المداد) لأن أثينا كأم للحضارة ينبغي أن تتخلى عن هذه القوانين وتحتضن شريعة أسمى وأكثر سماحة . ولذلك جعـل الشاعر الربة أثينة تقف موقفاً يتسم بالرحمـة ، فاستطاعت أن تغير طبيعة ربات الغضب والانتقام (Erinyes) فتحولن إلى ربات رحمة صافحات غفورات . (Eumenides)

هكذا تعمق المضمون الخلقي لقوانين القتل مع تقدم الحضارة . لكن شيئاً واحداً ظل على ما هو عليـه برغم كل ما حدث من تغيير ألا وهو ضرورة التطهر من دنس جريمة القتل. كانت الدولة تحمي القاتل الذي يثبت أنه قتل آخر دفاعاً عن النفس من أولياء الدم أو أصحاب الثأر . ولم يكن ذلك يعني أن القاتل لم يعد بحاجة إلى التطهير ، وإنما كان يعني أنه قد سمح له بأن يمضي قدماً في إجراء مراسم التطهير . لقد كان الدنس نتيجة تلقائية للقتل عمداً كان أم غير عمد ، ولم يكن له صلة بالجانب الخلقي منه . ويتضح ذلك مما ورد في كتاب « القوانين » لأفلاطون وغيره من المصادر عن الاعتقاد السائد وقتذاك بأن أي اتصال بالموت أو بعالم الموتى كان من شأنه أن يسبب التلوث والدنس . وليس أدل على هذا الاعتقاد من تلك العادات الغريبة التي كانت تمارس في حالة الذين يعلن خبر كاذب عن وفاتهم أثنـاء غيابهم عن الوطن ، ثم تقام لهم بالتالي

الشعائر اللازمة حداداً عليهم . لقد كان مجرد إجراء هـذه الشعائر أو الطقوس الجنائزية يحملهم من الوجهة الدينية في عداد الموتى . وعلى ذلك فإن ظهورهم من جديد كان يتسبب في دنس كذلك الدنس الذي ينجم عن عودة شبح القتيل من قبره مطالباً بالثأر لدمه. ولهذا السبب كان لا يسمح لهم بعد العودة بمصاحبة الأحياء أو معاشرتهم حتى تزال عنهم شائبة الموت ويمحي تلوثهم به . كان يتحتم أن يولدوا من جديد . وكانت العادات المتبعة تتمثل في معاملتهم كأطفال ، فكانوا يغسلون غسلا رمزياً ويلفون في أقمطة كأنهم حديثو الولادة بل يرضعون – رضاعة صورية – من صدور بعض الأمهات . ويستشهد بلوتارخوس الذي يصف لنا هذه العادات بحالة شخص يدعى أرسطينوس إذ وجد نفسه في هذا الوضع المزعج نتيجة إذاعة خبر كاذب عن وفاته أثناء غيابه في الخارج ، فأرسل إلى دلفى ليسأل الإله عن أنجع السبل لتطهير نفسه ، وتلقى من الكاهنة بيثيا إرشادات بما ينبغي أن يفعله . بل لقد كان هناك اسم خاص يطلق على هؤلاء الذين يعودون أحياء بعد إذاعة خبر وفاتهم وهو هيسترو بوتموى (hysteropotmoi). ويقارن الأستاذ « روز » وضعهم بوضع المحتجزين في الحجر الصحي لفترة من الزمن في العصر الحديث ! . ولا بد أيضاً من أن الإحساس بالخطر الذي قد ينجم عن عدوى الموت هو مـا جعل من المحتم إجراء محاكمة حتى للأدوات الجماد التي تتسبب في قتل أحد من الناس . ففي أثينا كانت توجد محكمة خاصة فى البريتانيوم (دار الرياسة) للنظر فى القضايا من هذا النوع. فإذا وجدت الأداة مذنبة تحتمت الإطاحة بها خارج حدود المدينة . ويشهد كل من أرسطو وديموستنيس بحقيقة هذا الإجراء ويوصي أفلاطون فى كتاب « الجمهورية » بالعمل به .

هذه الأمثلة التي سقناها على الآثار الناجمة عن الموت وأي اتصال به – وفقاً

لتصور الإغريق ـ إنما قصدنا منها أن نبين ارتباط أبوللون أصلاً بالقتل ، وأن هذا الارتباط يفسر أيضاً اهتمامه به واستمرار سلطته في قضاياه . وينبثق كلاهما من طبيعته الجوهرية الأصلية كإله للتطهير (katharsis) . ولدينا أمثلة كثيرة عليها تبدأ من قصـــة أورستيس ، التي قد تكون أشهر أسطورة في الأدب اليوناني كله ، حتى قصة أرسطينوس المغمور . كان القتل وما يترتب عليه من دنس يتطلب القيام بشعائر دينية خاصة ، وهي شعائر كان أبوللون هو القادر على الإفتاء فيها وتيسيرها للناس . ولقد كانت هذه الشعائرغريبة حقاً في حالة أرسطينوس. وأما في حالة أورستيس فقد أشير عليه ـ وفقاً لرواية آيسخيلوس ـ بأن ينحر خنازير في معبد أبوللون تكفيراً عن قتله لأمه . وكانت الخنازير هي ما يقدم في العادة قرباناً لآلهة عالم الموتى . ويلاحظ أن أبوللون كإله مطهر من الدم يتجه بنظره إلى أسفل الأرض (عالم الموتى) لا إلى أعلى اوليمبوس المشرق الذي ينتسب إليه بداهة بوصفه إلهاً للجمال ، والنور والاتزان والاعتدال والنظام . وهذا الجانب من صفاته مألوف لنا ومعروف . دعنـــا ننتقل الآن إلى الجانب غير المألوف من صفاتـــه . كان أبوللون كإله للقانون يصدر أحكاماً في قضايا القتل . وتكشف سلطته في هذا المجال عن صفته كمانح للتطهير أو مانع له . ولتطهير أي قاتل كان لا بد من استرضـاء آلهة العالم السفلي وتهدئة ثائرة روح الميت التي لم تعد تذهب — كما كانت في حالة أبطال الإلياذة — إلى عالم من الأطيـــاف المسلوبة القوى . هكذا اقترنت بالجانب التطهيري من طبيعة أبوللون بعض معتقدات دينية أو خزعبلية ليس من السهل قرنها لأول وهلة بالإله الذي وصفناه في مستهل حديثنا بأنه إله « الواضح والمحدد والمقيس » أي ما هو مضاد « للغامض والغريب والمجرد من الشكل » .

ولعل أفضل السبل للتعرف على هذا الجانب في أبوللون هو استعراض سِيَر بعض أتباعه غريبي الأطوار ، وهي شخصيات أسطورية لم يكن لها صلة بأي

إله غيره لكنها كانت محوراً لقصص مدهشة يلعب فيها عنصر الغيبوبة أو مفارقة الروح للجسد (ekstasis) دوراً بارزاً . ومن بينها تلك القصة التي يرويها هيرودوت فيقول [1] : « إن أريستياس (Aristeas) الذي كان نسبه لا يقل عراقة عن أي مواطن في بلدة بروكونيسوس (بإحدى جزر بحر مرمره) دخل ذات يوم دكان أحد القصّارين (منظفي الملابس) في البلدة ومات هناك . وأغلق القصّار دكانه وذهب ليحمل الخبر إلى أقارب الميت . وعندما ذاع في البلدة خبر موت أريستياس ثم انتشر بعدئذ خارجها جاء رجل من مدينة كيزيكوس (إحدى مدن ميسيا بآسيا الصغرى) ودار بينه جدل وبين القائلين بموت أريستياس إذ أعلن أن هذا الخبر غير صحيح لأنه شاهد أريستياس متجهاً إلى كيزيكوس وقد تحدث معه . وبينما كان الجدل محتدماً حضر أقرباء الميت إلى دكان القصّار ومعهم مستلزمات نقل الجثة توطئة لدفنها . وعندما فتح الدكان لم يوجد أي أثر لأريستياس ميتا أو حيا . وبعد مرور سبع سنوات على هذا الحادث ظهر أريستياس في بلدة بروكونيسوس ونظم تلك الأشعار التي يطلق عليها الهللينيون اسم «أريماسبيا» [2] » . وما إن فرغ من نظمها حتى اختفى مرة ثانية . ويمضي هيرودوت قائلاً « إن هذا القدر من القصة كان متداولاً في هذه المدن . وأما بقية القصة فأنا أعرف أنها قد جرت في مدينة ميتابونتوم بإيطاليا بعد مرور مئتين وأربعين سنة على اختفاء أريستياس المرة الثانية على نحو ما اتضح

(١) هيرودوت : ك ٤ ، ف ١٣ .
وجدير بالذكر أن هيرودوت يقدم بطل القصة بملاحظة مؤداها أنه أتى إلى بلاد الإسيدونيين (Iasedones) متقمصاً روح فويبوس (أبوللون) . وعن الإسيدونيين ، أنظر الحاشية التالية .

(٢) نسبة إلى الإريماسبيين (Arimaspi) ذوي العين الواحدة . وهم قوم خرافيون كانوا يعيشون في بلاد مجاورة للإسيدونيين . وكلاهما كان يعيش على بعد مسافة (غير محددة) من الهيبربوريين ، شعب أبوللون المختار .

لي من ربط ما سمعته في بروكونيسوس بما سمعته في ميتابونتوم . يقول أهـــل ميتابونتوم « إن أريستياس نفسه ظهر في مدينتهم وأمرهم ببناء معبد لأبوللون وإقامة تمثال يحمل اسم أريستياس البروكونيـسي إذ أخبرهم بأن أبوللون قد حضر إلى مدينتهم دون سائر المدن الإيطالية وأنه (أي أريستياس) قد حضر عندئذ بصحبة الإله. لكنه قال إنه حضر وهو في هيئة الغراب. ويقول أهل ميتابونتوم إنه ما كاد ينتهي من كلامه حتى اختفى ، وأنهم أرسلوا إلى دلفي يسألونها في أمر شبح هذا الرجل. وقد أتاهم الرد بإطاعـة أوامر الشبح ، وبأنه من الخير لهم أن يفعلوا ذلك . واستجابوا النصيحة ونفذوا الأوامر . وهناك يقوم الآن تمثال يحمل اسم أريستياس بجوار معبد لأبوللون ومن حوله أشجار الغار. والمعبد موجود في الـسوق العامة » .

هذه القصة التي تدور حول واحد من أتباع عبـــادة أبوللون تتضمن بعض نقاط هامة أولها ظاهرة الاكستاسيس (ekstasis) التي تتمثل – بالمعنى الحرفي المباشر للكلمة [1] – في سقوط أريستياس كأنه ميت في مـــكان وظهوره في الوقت نفسه حيا في مكان آخر . لا بد أن هذا الجزء من القصة كان يستند إلى الاعتقاد (المشابه لمعتقدات سائدة بين الشعوب البدائية) في مفارقـــة الروح للجسد أثناء النوم أو المرض أو الغيبوبة لفترة معينـــة يمكن أن تظهر الروح أثناءها في صورة مرئية [2] . والنقطة الثانية هي ظاهرة تناسخ الأرواح

---

(١) كلمة ekstasis يونانية ومعناها الحرفي زحزحة ، ومن ثم فهي تؤدي معنى « تحول أو تغير » . ومن هنا جاء معنى « خروج الشخص عن ذاته » أو « تخليه عن شخصيته » أو « تحوله فجأة إلى شخصية أخرى » (تقمص) . وهي تعني أيضا ذهاب العقل من الرعب أو الدهشة أو الغضب أو فرط الانتشاء ، وهذا المعنى قريب من معنى الذهول أو الاستغراق أو الغيبوبة أو « الجذبة » وهي حالة توحي بمعنى « مفارقـــة الروح للجسد » . وفي رأي بعض الباحثين أن الكلمة لم تكن في الأصل تتضمن للمعنى الأخير .

(٢) إن اعتقاد الجسد (لو صح أن أريستياس قد زار فعلا دكان القصار وهو في صورته =

(metempsychosis) التي نلتقي في القصة باشارة إليها حيث يقول أريستياس إنه حضر إلى المدينة بصحبة الإله في هيئة الغراب . وذلك يجعل من المحتمل أن يكون للقصة صلة بالمذهب الفيثاغوري . لقد كانت ميتابونتوم ، حيث جرت أحداث هذه القصة العجيبة ، مركزاً قديماً من مراكز الفلسفة الفيثاغورية بل كانت هي المدينة التي قيل إن بيثاجوراس Pythagoras(وهو فيثاغورس عند العرب) قد نفى إليها من بلدته القريبة كروتون وفيها مات ودفن فيا بعد . وبغض النظر عن طبيعة المعتقدات التي تتضمنها القصة فهي تبرز نقطة ثالثة وهي أن ديانة أبوللون كان لها مبشروها المتحمسون . ومن الواضح أن الغرض من ظهور أريستياس الخارق أكثر من مرة في مدن مختلفة هو نشر عبادة إله دلفي الذي كان هو نفسه في الأصل إلهاً مهاجراً ولم يرتبط قط بأي مدينة يونانية واحدة أو بمجموعة من المدن . لقد كان دائماً إلهاً هللينياً دولياً ولم يكف أتباعه وأشياعه عن السعي إلى نشر عبادته ونفوذه على أوسع نطاق . وإذا كان كلا العنصرين : مفارقة الروح للجسد وتناسخ الأرواح يثير في الخاطر المذهبين الفيثاغوري والأورفي ، فإنها يذكراننا أيضاً بأن أبوللون كان الإله المختار عند فيثاغورس ، والإله الذي تحول إليه أورفيوس (Orpheus) منصرفاً عن عبادة ديونيسوس [1] ، إذ كان من أميز صفات فلاسفة المدرسة الفيثاغورية ودعاة

- الجسدية وليس في صورته الروحية أو الوهمية أي كطيف فقط) هذا الاختفاء لا تتطلبه بداهة مثل هذه القصص البدائية حول مفارقة الروح للجسد وبقائها فترة زمنية تالية أو هائة ثم عودتها إلى الجسد (غلافها المادي) . وربما كان ذلك في القصة عنصراً أقحمه عليها الذين رووها لهيرودوت بقصد تنسيقها وجعلها أكثر تشويقاً . وهذا يكفي للتنبيه إلى كثرة تداول القصة بين الناس وما قد يكون قد طرأ عليها من تحريف من جراء ذلك .

(١) أورفيوس شخصية تاريخية أو أسطورية ، ولعله كان طراقي الأصل أو هلينيا بشر في طراقيا . وقد نشأ حوله مذهب ديني وشبه فلسفي يبحث في أصل الكون وأصل الخليقة وفي

المذهب الأورفي أنهم كانوا يتجاوزون حدود الدويلات اليونانية ويتنقلون من مدينة إلى مدينة لكسب مزيد من الأنصار .

وهناك شخصيات أخرى ليست أسطورية بحتة تجمع بين صلتها بأبوللون وبين أعمال خارقة مشابهة للمعجزات التي سردناها . ومن أمثلة هذه الشخصيات « أباريس » الذي جاء من بلاد الهيبربوريين ، شعب أبوللون الخرافي. وكان يعيش بلا طعام ، ويطوف بأنحاء العالم حاملا السهم الذهبي ، شعار أبوللون ، ومبشراً جوّالاً مثل أريستياس . وهناك شخصية أخرى هي « هرموتيموس » ، أحد مواطني كلازوميناي [١] الذي تحدثنا بعض المصادر المتأخرة بأنه كان تجسيداً قديماً لفيثاغورس نفسه ، وكان في استطاعة روحه أن تغيب عن جسده عدة سنوات متصلة . وكانت تقضيها في تحصيل علم التنبؤ بالغيب . وحدث ذات مرة بينما كان منهمكاً في عمله هذا أن أحرق خصومه جسده (الخالي من الروح) حائلين بذلك دون عودة الروح إلى مكانها ، وهي قصة نجد مثيلا لها

= العلاقة بين الانسان والإله . ويؤمن بالبعث والنشور ، ويقول بالثواب والعقاب في الآخرة (العالم السفلي) ومن ثم فهو يحض على التقوى الخلقية والطهارة . وأهم من ذلك ما يتضمنه المذهب الأورفي من اعتقاد بخلود الروح البشرية وألوهيتها ، وضرورة الطهارة الدائمة في الحياة للفوز بهذا الخلود في الآخرة . وكان الشطر الأول يتحقق بديانة ديونيسوس وما فيها من اتحاد الإنسان بالإله عن طريق الطقوس السرية (teletai) ، ويتحقق الشطر الثاني بديانة أبوللون وشعائرها التطهيرية (katharmoi) . ومع أن ديونيسوس كان على ما يبدو في أول الأمر هو الإله الرئيسي عند الأورفيين إلا أنهم أعرضوا عن طقوس عبادته التهتكية المتطرفة ، واتخذوا من أبوللون ولياً لهم مبشرين بشعائره التطهيرية ومثله الداعية إلى الاستقامة والتقوى في الحياة . ومع هذا فإن المذهب الأورفي هو في الواقع مزيج من ديانة ديونيسوس وديانة أبوللون .

(١) تقع كلازوميناى (Clazomenae) في أيونيا على خليج هرمايوس ، غربي اسميرنا Smyrna (أزمير الحالية) .

عند أهل الهند والصين[1] . كما نسجت أساطير حول إبيمنيديس الكريتي (Epimenidés) الذي لا يساورنا شك في أنه كان شخصية تاريخية . فقد ورد في رواية منقولة عن أفلاطون أنه تنبأ للأثينيين بهزيمة الفرس قبل قيام الحرب الفارسية بعشر سنوات . لكن أرسطو وغيره من الكتاب اللاحقين يقولون إنه استدعي لكي يطهر المدينة (أثينا) من الدنس الذي لحق بها بسبب سفك الدماء وانتهاك حرمة المعابد أثناء قمع حركة الانقلاب التي دبرها « كيلون » لتنصيب نفسه طاغية[2] . ويُروى عنه أيضاً أنه نام في كهف سبعاً وخمسين سنة ، وأن روحه كان في مقدورها أن تفارق جسده في أي وقت تشاء. وكان نشاطه الرئيسي يتركز في مجالين : التنبؤ بالغيب والتطهير . ولا يرتبط إبيمنيديس بأبوللون ارتباطاً مباشراً أو واضحاً . كانت كريت موطنه ، وكان

(١) ترجع كل مصادر معلوماتنا عن هرموتيموس (Hermotimos) - باستثناء كتابات أرسطو - إلى ما بعد العصر الهلليستي . ويذكر أرسطو في معرض حديثه عن أناكساجوراس Anaxagoras (٥٠٠ - ٤٢٨ ق.م) الذي كان قد وفد من كلازوميناي إلى أثينا في عام ٤٨٠ ق.م واشتغل بالفلسفة وصار صديقاً لبريكليس . وقد أسهم في الفلسفة بنظريته عن العقل (nous) كشيء متميز عن الجسد ، وقوة مسئولة عن الحركة والنظام في الكون . ويضيف أرسطو أن هرموتيموس قد سبق أناكساجوراس إلى هذه النظرية . ولعل فضل السبق في ابتداع هذه النظرية قد نسب لهرموتيموس بسبب قدراته الأسطورية الخارقة (التي روينا طرفاً منها) والتي تؤكد إمكان وجود الروح منفصلة عن الجسد وتفوقها عليه . ومن الواضح أن روح هرموتيموس لم تكن شبح جسمه أو طيفه جسدي بل كانت الجزء الفلسفي فيه أي الجزء الباحث عن الحكمة والمعرفة وفقاً للمفهوم اليوناني .

(٢) تاريخ هذه الحركة الفاشلة هو ٦٣٢ أو ٦٢٨ ق.م بينما تاريخ قيام الحرب الفارسية هو ٤٩٩ ق.م . وليس من المستبعد أن يكون إبيمنيديس قد عاش ١٥٠ سنة . لكن من المستحيل أن يكون قد بلغ من العمر ٢٩٩ سنة كما يزعم أهل الكريت الذين يصفهم إبيمنيديس نفسه بأنه كذابون . وقد اشتهر الكريتيون قديماً بالكذب .

يرتبط بإله كريت وهو «زيوس» الكريتي وبعبادته ذات الطقوس الدينية المقترنة بالرقص العنيف والطبل والصخب (orgia) . ويلخص لنا بلوتارخوس معلوماته عنه قائلاً « لقد اشتهر بأنه كان مقرباً من الآلهة ، وحكيماً في الأمور الدينية ، وهي حكمة اكتسبها عن طريق التقمص أو بالأحرى « حلول الإله فيه » (enthousiasmos) [1] والطقوس الدينية السرية (mysteria) . ومن ثم فقد نسبه معاصروه إلى إحدى الحوريات ، وسموه « كوريس نيوس » (Kourés neos) أي « الصبي أو الشاب الجديد » . وكان أعظم الصبية أو « زعيم الصبية » هو إله كريت نفسه ، « زيوس » الكريتي [2] . وكان لقب « كوريس » يخلع أيضاً على كل من يشترك في طقوس عبادته السرية . غير أن

---

(١) إن كلمة enthousiasmos اليونانية لا تعني قط مفارقة الروح للجسد ، وإنما هي مشتقة من الصفة entheos التي تعني « ممتلىء بالإله » . فالكلمة تؤدي إذاً معنى « حلول الإله في الشخص » فينطق الأخير بإلهام أو وحي منه على نحو ما كان يحدث « لبيثيا » نبية أبولون إذ تصبح مليئة بروح الإله (plena deo) أي تحل فيها روح الإله الذي يستخدم صوتها كما لو كان صوته ، وهذا هو السبب في صدور نبوءات دلفي في صيغة المتكلم لا في صيغة الغائب . وينبه بعض الباحثين إلى ضرورة التمييز بين هذه الظاهرة وظاهرة الجذب أو الصرع أو الجنون التنبؤي التي ترجع إلى قدرة فطرية في الروح ذاتها تستطيع ممارستها في حالات معينة عندما تتحرر من عرقلة الجسد وسيطرة العقل عن طريق النوم أو الغيبوبة أو الشعائر الدينية . فليست الصفة المميزة للشامان (كاهن سيبيريا) هي حلول روح غريبة في جسده ، بل تحرر روحه من جسده ، فتنكشف عنها الحجب وترى الغيب . وقد تساعده في هذه الحالة قوة خارقة غير طبيعية ، لكن شخصيته الذاتية هي العنصر الحاسم . وهذه هي ما تسمى « بالشامانية » تمييزاً لها عن « التقمص » ! راجع :

E. R. Dodds, The Greeks and the Irrational (Sath. Class.Lec. 25) 1959, p. 71 & n. 43 (p. 88).

(٢) راجع ص ٢٢٢-٢٠٣ فيما تقدم . وتؤدي كلمة kourés (kouros - koros -) معنى طفل أو صبي أو شاب .

النشاطين اللذين اشتهر بهما أبيمنيديس وهمـا التطهير والتنبؤ « الجذبي » بالغيب يذكراننا بأبوللون وكهنته بالضرورة ، ولا بد أن التشابـه قد لفت أيضا نظر القدماء . وكان أبيمنيديس شخصية محبوبة في أوساط المدرسة الفيثاغورية التي كان إلهها أبوللون . ولن يدهشنا بل قد يثير اهتمامنا أن نلاحظ وجود رواية متواترة تقول إن أبوللون ـ بعد قتلهللأفعى بيثون ـ قد طهر نفسـه لا في وادي تمبي ـ كما هو سائد ـ بل في كريت على يد رجـل كريتي يدعى كارمانور . وترجع أهمية إبيمنيديس في دراستنا لأبوللون إلى جمعه بين النشاطين اللذين اعتدنا أن نعزوهما لأبوللون وأنبيائه ، فضلاً عن ولائه «لزيوس » الكريتي الذي كانت طبيعته ـ على نحو ما ذكرنا ـ ترتبط بباطن الأرض وتناقض تماما طبيعته كإله أوليمبي يرتبط بالسماء حسبما ورد عند هومبروس . ولما كان أبوللون نفسـه في الأصل إلهاً أوليمبياً (سماويا) ، وكان في إصدار نبوءاته يزعم بأنه لا يفعل أكثر من إعلان مشيئة أبيـه زيوس ، فقد كان من الطبيعي أن يكون له هو الآخر موطىء قدم في العالم السفلي أيضا .

وما دمنا بصدد كهنة أبوللون ودعاته فلا بد أن نشير ولو إشارة عابرة إلى بيثاجوراس (Pythagoras) المعروف عندنا بفيثاغورس . إن اسمـه نفسـه (المشتق من بيثو) يكشف عن صلته بالإله البيثي . لعله كان كاهناً أو نبيّاً للإله أبوللون. وقد روى أنه كان ابن أبوللون بل شاع في بلدة كروتون ـ مسقط رأسه ـ أنه كان تجسيداً لأبوللون الهيبربورياني. كان فيثاغورس صانع معجزات. ومن بين المذاهب التي يمكن أن ننسبها إليه على وجـه اليقين مذهب تناسخ الأرواح . وكان معاصراً للفيلسوف إكسنوفانيس الذي يتهكم به قائلا بأنه ـ أي فيثاغورس ـ قد صرخ ذات مرة في وجه رجل كان يضرب كلباً ، وصاح

به « كفّ عن ذلك ، لا تضرب الكلب ، إن فيه روح أحد أصدقائي . إنني أعرف صوته ! » وتتمثل في تعاليم فيثاغورس كل جوانب ديانة أبوللون : الجانب الغيبي كصنع المعجزات وتناسخ الأرواح ـ وهو مـــا يقرنه بالسحرة والمشعوذين ـ والجانب العقلي السلم حيث أن كل فلسفة فيثاغورس تقوم أساساً على تمجيد الوسط المحمود والتزام الحد والتمسك الشديد بالنظام والقانون. فالكون عند الإغريق كوزموس (kosmos) وكوزموس لفظ يوناني معناه النظام. والفلسفة ضرورة لأن المرء لا يستطيع أن يحاكي الكون الكبير ونظامه ويغرس نظاماً مماثلاً في الكائن الصغير (الإنسان) إلا بإدراك نظام الكون ، وبذلك يتحقق انضباط النفس وترويضهـا على النظام . وقد توصل فيثاغورس إلى هذه النظرية بفضل اكتشافاته في الرياضيات التي بناها على أساس اقتناعه بأن طبيعة الأشياء، محسوسة كانت أم مدركة ، إنما تكمن في النسبة والعدد . وهنا تقترن الرياضيات بالموسيقى لأنه لاحظ النسبة الرياضية بين أطوال الوتر اللازمة لإصدار الأنغام في السلم (الموسيقى) واختلافها باختلاف درجة شد الوتر. ولا ننسى أن أبوللون كان إله الموسيقى وعلى الأخص القيثارة (lyra) . وهذا أيضاً سبب واضح من أسباب ولاء الفيثاغوريين له . وأخيراً فإن فيثاغورس كان مؤسساً لجماعة أخوية دينية لها نظام محدد وقواعد معينة في الحياة ، ويتمثل هدفها في التطهير أو الطهارة ، وهي طهارة تتحقق ـ في رأيهم ـ بالامتناع عن أكل بعض أنواع من الطعام واعتبارها محرمة ، وكذلك بالفلسفة [1] ولا شك في أن الطهارة كانت تشكل رباطاً جوهرياً آخر بين جماعة فيثاغورس الدينية وبين راعيها الإله أبوللون .

---

(١) راجع ص ٢٢٩ هامش ١ فيما تقدم .

العلاقة بين أبوللون وديونيسوس :

ومن الملائم ، عند هذا الموضع، أن ندرس العلاقة بين أبوللون وديونيسوس، إله النبيذ ، الشهير أيضاً باسم باكخوس (Bacchus) ، وهي علاقة مرت الإشارة إليها عند الكلام عن نبوءة دلفي[1]. كان ديونيسوس ـ على ما يرجح ـ إلهاً طراقي الأصل وفد متأخراً على بلاد اليونان . ولذلك لم يكن من السهل أن يجد له مكاناً بين آلهة أوليمبوس. وإذا كان قد وجده فانه قلما كان يعتبر واحداً من آلهته الأصلاء . لكنه قام بدور بالغ الأهمية في حياة الإغريق ستتعرض له في موضع آخر بشيء من التفصيل . يقول هيرودوت إن الإله زَلموكسيس (Zalmoxis) ، وهو صورة أخرى من ديونيسوس الطراقي ، كان من قبل عبداً لفيثاغورس[2] . وهذا الربط بين اسم ديونيسوس واسم فيثاغورس أمر طبيعي إذا ما تذكرنا أن الإله الطراقي كان يبشر بالخلود يقيناً وبتناسخ الأرواح على ما يرجح . وكان الأورفيون أيضاً (أتباع أورفيوس) الذين اقتبس منهم فيثاغورس – على ما يحتمل – الجانب الديني في مذهبه يعبدون ديونيسوس كإله رئيسي وإن أدخلوا على عبادته الطراقية تعديلات كثيرة مستوحاة من صفات أبوللون[3] . وقد اتخذ ديونيسوس ـ بعد مجيئه إلى بلاد اليونان ـ مكاناً له في دلفي بجانب أبوللون وأصبح كأنه في موطنه وبين أهله حتى أن أحد مصادرنا ـ وهو بلوتارخوس ـ يقول إن نصيبه هناك لم يكن بأقل من نصيب أبوللون نفسه[4]. ومن الواضح أن الصلة بين الإلهين كانت وثيقة . وهذا قد يحمل المرء

---

(١) راجع ص ١٣٨ فيما تقدم .

(٢) هيرودوت ، ك ٤ ، ف ٩٤ - ٩٦ .

(٣) عن الأورفية ، أنظر ص ٢٢٧ هامش ١ فيما تقدم .

(٤) De E apud Delphos, 388c

على مسايرة الرأي القائل بأن أبوللون لم يكن في الأصل إلا إلهاً للنور والعقل والجمال والتزام الحد وعدم الإفراط ، وأن العنصر « الجذبي » في ديانته كان وليد اتصاله بديونيسوس بعد أن شق الأخير طريقه منتصراً نحو الجنوب وقد قيل هذا في الواقع كتفسير لظاهرة « الجذبة » التي كانت تعتري بيثيا وهي تنطق بالنبوءة . وهناك نوعان من التنبؤ يميز بينهما أفلاطون تمييزاً دقيقاً [١] ، أحدهما التنبؤ عن طريق العراف المكتسبة بالخبرة (والمسماة بالطيَرة أو العيافة) حيث تعلم العراف كيف يفسر الطوالع والظواهر متعرفاً على إرادة الآلهة بمراقبة مسرى الطيور أو فحص أحشاء (وعلى الأخص أكباد) الحيوانات المقدمة كقرابين . هذا العراف كان يظل دائماً واعياً مالكاً زمام نفسه تماماً وإنما يزعم بفضل ما اكتسبه من خبرة (techné) أنه قادر على قراءة مشيئة السماء؛ والنوع الآخر هو التنبؤ عن طريق الإلهام أو الوحي . فعندما يتكلم النبي فليس هو الذي يتكلم وإنما يتحول إلى شخص آخر قد تثير هيئته الفزع فيمن يراه ، وبطريقة مرهفة له هو نفسه ، إذ تتقمصه روح الإله فيصبح في تلك اللحظة مجرد أداة وسيطة لنقل الوحي الهابط عليه أو بوق ناطق بصوت الإله . كانت كاهنة أبوللون المسماة بيثيا (Pythia) من هذا النوع . كانت نبيّة حقيقية (mantis) يصدر عنها الصوت وهي في حالة « تقمص »، وهي نفس الحالة التي كانت تنتاب سيبوللا (Sibylla) ، نبيّة كوماي بجنوب إيطاليا ، التي كانت هي الأخرى تتقمصها روح أبوللون فتنطق بوحي منه [٢] .

---

(١) Phaedrus 244 a-d.

(٢) لا تزال معلوماتنا طفيفة عن الحالة التي كانت تنتاب « بيثيا » . فنحن أولاً لا نعرف على وجه اليقين كيف كانت تختار وما هي المؤهلات اللازمة لمثل وظيفتها الهامة . وكل ما نعرفه هو أن بيثيا كانت على أيام الكاتب بلوتارخوس (٤٦ - ١٢٠ م) ابنة فلاح فقير ، فتاة ذات نشأة طيبة وسيرة حسنة لكنها مفتقرة إلى التعليم والتجربة في شئون الحياة . ولا نعرف أيضاً ما إذا كانت بيثيا تتذكر ما تفوهت به في حالة الغيبوبة بعد الاستفاقة منها، وهل كان تقمصها =

ويميل العلماء الذين لا يرون في أبوللون سوى إله يمثـل كل ما هو معتدل ومعقول وإنساني ، وهاليني صمم * إلى تفسير سلوكه في نبوءة دلفي بأنه كان نتيجة لوجود ديونيسوس بجانبه هناك . ويقولون إن أبوللون استطاع أن يروض

= حالة شبيهة بحالة الذين يمشون أثناء النوم أم هي من نوع آخر . وتؤكد المصادر بأن كاهنة زيوس في دودونا كانت لا تتذكر شيئاً مما تفوهت به في غيبوبتها . أما بيثيا فليس لدينا ما يتيح لنا أن نقطع برأي في حالتها .

وفي رأي أحـد الباحثين أن غيبوبة « بيثيا » ، نبية أبوللون ، كانت تستجلب عن طريق الإيحاء الذاتي المسبوق بطقوس شعائرية معينة تساعد على تحقيقه ، وأن هـذه الغيبوبة تشابه غيبوبة الوسيط الروحاني في العصر الحالي . كانت تسبقها طقوس معينة كالاستحمام ، والشرب من نبع مقدس ، والإتصال بالإله (أبوللون) عن طريق شجرته المقدسة وهي الغار (كوسيلة ممهدة لتجلي الإله) سواء بمسك غصن منها أو تبخير الجسم (لتطهيره) بدخان أوراقها المحترقة (كما يقول بلوتارخوس) أو ربما بمضغ أوراق الغار في بعض الأحيان (كما يقول لوكيانوس) ، وأخيراً بجلوس بيثيا على مقعد أبوللون الشعائري ذي الأرجل الثلاث (tripous) لتحقيق مزيد من الاتصال بالإله ، وهذه كلها طقوس سحرية معروفة وربمـا تساعد على الإيحاء الذاتي ، لكن أياً منها لا يستطيع أن يحدث بالجسم تأثـيراً فسيولوجياً . وأما عن نظرية الأبخرة أو الغازات النتنة المتصاعدة من حفرة أو هوة معينة في دلفي والتي يعزو إليها كثير من العلماء سبب غيبوبة بيثيا وانطلاق لسانهـا بالوحي ، فهي من ابتداع كتاب العصر الهلينستي . وقد رفضها بلوتارخوس – على ما يبدو – بعد أن تبين له صعوبة قبولها . ولم تكشف الحفائر الأثريـة التي أجرتها البعثة الفرنسية في دلفي عن أية حفرة أو هوة يمكن أن تتصاعد منها مثل هـذه الأبخرة النتنة . في الحق أنه ليست هناك ضرورة إلى أي من هذه النظريات لتفسير غيبوبة بيثيا إذ يكفي الرجوع في هـذا الصدد إلى الشواهد المستمدة من الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) وعلم نفس الشواذ .

ومن البديهي أن يستنتج أصحاب نظرية استنشاق بيثيا للأبخرة أو الغازات أن هذيانها لم يكن يرتبط إلا ارتباطاً واهياً بالإجابات التي كانت تسلم في النهاية للسائلين أو المستفسرين على يد كهنة المعبد ، وأن إجاباتها كانت بالضرورة عملية قوية واعية متعمدة ، وأن ما أحرزته نبوءة دلفي من صيت إنما كان يرتكز على جهاز استخبارات ممتاز من ناحية ، وعلى تلفيق أو تزييف النبوءات بعد وقوع الأحداث » من ناحية أخرى . لكن لدينا دليل – بغض النظر عن قيمته – على أن الإجابات

ديونيسوس ويكبح إلى حد ما جماح شعائر عبادته المتطرفة وأن ديونيسوس بدوره قد لقّن بيثيا ، نبية أبوللون ، قدراً من « غيبيّته » أو « جذبتــــه » (ekstasis) . لكن من دراستنا السابقة يتبين أن العنصر الغيبي أو « الجذبي » كان أصيلا في عبادة أبوللون بدرجة كافية للاستغناء عن الإفتراض القائـــل باقتباس بيثيا له من ديونيسوس. ومن الأصوب أن نقول إنه كان مظهراً في ديانة أبوللون جعل من السهل التوفيق بينها وبين عبادة ديونيسوس ، وهو أمر تحقق بالفعل . إن قصص أريستياس وأباريس وهرموتيموس تحمل كل السمات التي تدل على أنها أساطير قديمة وأبوللونية بحتة . وليست حالة الغيبوبة الواردة في هذه القصص التي توحي بمفارقة الروح للجسد (ekstasis) ، وهي الصلة المحتمـــلة الوحيدة بينها وبين ديونيسوس ، ليست سوى شكل بدائي من أشكال ظاهرة « الجذبة » كان منتشرا في كثير من أرجاء العالم ويمكن أن يوجد في عبـادة أي إله كبير . وليس فيها ما يشير إلى أي طقوس تهتكية صاخبة (orgia)

= كانت في العصور الأولى مطابقة تماما لكلمات بيثيا، وأن السائل أو المستفسر كان يتلقى بنفسه الإجـــابة من بيثيا مباشرة وليس بواسطة أحد الكهنة المفسرين (prophétés) أو الكهنة الأطهار (hosioi) . وإذا كان السائلون في العصور المتأخرة - كما يفهم من بلوتارخوس - في استطاعتهم - على الأقل في بعض الأحيان - سماع كلمات بيثيا وهي في حالة الغيبوبة ، فإنه كان من العسير على الكاهن المفسر في تلك الأحيان تزييف ردودها تزييفاً جوهرياً . ومع هـــذا فلا يسعنا إلا أن نتفق مع القائلين بأن تاريخ دلفي يكشف عن شواهد على التزامها سياسة ثابتة مطردة، وأن هذا يكفي في حد ذاته لإقناع المرء بأن العقل البشري ممثلا في كهنة المعبد كان في إمكانه القيام في مرحلة معينة بدور حاسم في العملية . كما أن الحاجة الى ترتيب كلمات بيثيـــا وربطها بسؤال السائل ، وإلى صياغتها أحياناً - وليس دائماً - في صيغة شعرية كانت تتيح مجـــالاً واسعاً لتدخل الكهنة . وليس بوسعنا الآن سبر أغوار عقول كهنة دلفي . غير أننا قد نتهم بالإسراف في التبسيط إذا عزونا حيل هؤلاء الكهنة بوجه عام إلى التزييف المتعمد والتمويه. ذلك أن أي شخص له إلمام بتاريخ العلم الروحاني الحديث يستطيع أن يدرك مبلغ ما يمكن أن يصنعه المؤمنون بهذا العلم من حيل وخدع عن اعتقاد صادق ونية خالصة .

أو استدعاء « للجذبة » بواسطة الطبل أو الرقص أو الحركات التمثيلية المثيرة للعواطف . وليس فيها ما ينم عن أن المتعبد العادي كان يأتي بمثل هذه الحيل الباهرة . ولا نسمع شيئاً عن الاتحاد بالإله أو أن متعبداً صار هو وأبولون شخصاً واحداً على نحو ما كان المتعبد المتفاني لديونيسوس يصير (أو يتصور فعلاً أنه يصير) باكخوس . فلم يعرّف أبولون أشياعه بأي طقوس دينية سرية لهداية المريدين(teletai)سواء في القصص المشار إليها أوفي غيرهامن القصص. وهذه الإختلافات تجعل من العسير الإعتقاد بأن « الجذبة » التنبؤية في ديانة أبولون كانت مقتبسة من عبادة ديونيسوس . وفي الحقيقة أن المتعبدات اللائى كن يتفانين في عبادته ويتحدن به إتحاداً تاماً (حتى لقد عرفن بالباكخيات Bacchai نسبة إليه أو بالمجنونات maenades) لم تنسب إليهن قط القدرة على التنبؤ بالغيب . ولا تظهر الكاهنة بيثيا أو سيبوللا ، وكلتاهما نبية أيضا ، إلا مرتبطة بأبولون . غير أن الطقوس السرية الممهدة للهداية (teletai) ترتبط بطقوس التطهير (kàtharmoi) ارتباطاً وثيقا كما يتضح من محاورة « فايدروس » لأفلاطون ، وغالباً ما حققت كل منهما أغراضا متشابهة . إن الجانبين « الجذبي » و « التطهيري » في عبادة أبولون لا ينبغي تفسيرهما بأنها مجرد اقتباسات من عبادة أخرى ؛ لكن إذا فهما على الوجه الصحيح فان ذلك يساعد على تبديد الغموض الذي يكتنف موضوع التوفيق أو المصالحة التي تمت بين أبولون وبين زميله ديونيسوس إله الكروم والطبلة والمزمار الفريجي [١] .

---

(١) في الواقع أن الوظيفة الاجتماعية لشعائر عبادة ديونيسوس القديمة كانت في جوهرها تطهيرية . كانت - وفق مفهوم علم النفس - تطهر الشخص من الميول الجامحة غير المعقولة التي كانت تؤدي - في حالة كبتها - إلى فورات من الهوس بالرقص وأعراض مشابهة من الهستيريا الجماعية . فكأن الشعائر كانت متنفساً دينياً لمثل هذه الرغبات المكبوتة . وإذا كان الأمر كذلك فان ديونيسوس كان في العصر ما قبل الكلاسيكي (٧٠٠ - ٥٠٠ ق م) ضرورة اجتماعية بقدر ما كان أبولون. كان كل منهما يساهم بطريقته الخاصة في تخليص الناس من مشاعر القلق الروحي =

وكان من الأهمية بمكان أن يتحقق الوفاق بين الإلهين . لقد اتضح للإغريق أن ديونيسوس إنما جاء إلى بلادهم ليبقى سواء أرضوا أم لم يرضوا، إذ استهوت عبادته قلوب الكثيرين فتزايد عدد أشياعه بمرور الزمن ، وأسكرتهم « خمره »

= التي تميزت بها « ثقافة الشعور بالذنب » السائدة في ذلك العصر. كان أبوللون يعد الناس بالأمن : « اعرف قدر نفسك كإنسان وافعل ما يأمرك به الرب تكن آمناً في غدك » . وأما ديونيسوس فكان يوفر لهم الحرية : « إنسى الفوارق (الاجتماعية) تنـل التوحد (مع الإله) ، وأدخل في زمرة الجمعية الدينية (thiasos) ، تكن سعيداً في يومك » . كان ديونيسوس - كما يصفه هيسيود - في جوهره إله البهجة (Polygêthês) ، وباعث السرور في قلوب البشر (charma) - كما يصفه هوميروس . وكانت مباهجه في متناول جميع الناس ومن بينهم العبيد وكذلك هؤلاء الأحرار الذين أوصدت في وجوههم أبواب العبادات الوثنية القديمة . كان أبوللون لا يسير إلا في أوساط المجتمع الأرستقراطي منذ أن كان راعياً لهكتور الأمير الطروادي إلى أن أصبح راعياً لهواة الرياضة النبلاء الذين كان يسبغ على بطولاتهم صفة القداسة . وأما ديونيسيوس فكان في كل العصور إله الشعب (dêmotikos) .

كانت مباهج ديونسيوس كثيرة ومتنوعة كل التنوع، فهي تتفاوت بين لهو بسيط كلهو الفلاحين في الريف إذ يرقصون رقصة مرحة نشيطة فوق زقاق النبيذ الزلقة ، وبين انتشاء شديد كانتشاء المتعبدات له إذ يرحن في غيبوبة أو حالة من « الجذب » فيأكلن لحم ذبائح القرابين نيئاً (ômophagos charis).وديونيسوس في كل مراتب الابتهاج هو الإله المحرر(Lusios) الذي يمكنك لفترة قصيرة بوسائل بسيطة أوغير بسيطة،من أن تدع شخصيتك جانباً وبهذا يحررك من نفسك . ذلك ، فيما نظن ، هو السبب الرئيسي لإقبال الناس على عبادته في العصر ما قبل الكلاسيكي : ليس فقط لأن الحياة في ذلك العصر كانت في الغالب عبئاً يهرب الناس من مواجهته بل لأن الفرد - على وجه أكثر تحديداً - بدأ وقتئذ يتحرر من ربقة الارتباط الأسري القديم ، ووجد أن من العسير عليه تحمل عبء المسئولية وحده ، وهو عبء لم يألفه من قبل . لكن ديونيسوس كان في وسعه أن يزيح هذا العبء عن كاهله لأنه كان رب التوهمات ومعلم الصور الوهمية والخدع السحرية الذي يستطيع أن يجعل كرمة عنب تنبت من لوح خشبي من ألواح المركب ، وبوجه عام يمكن المتفانين في عبادته من رؤية الأشياء على غير حقيقتها . [وبهذه الصفة - كما يعتقد البعض - أصبح ديونيسوس راعياً لفن التمثيل . ذلك أن لبس القناع هو أسهل الطرق للتخلي عن الشخصية وانتحال شخصية أخرى . وقد نشأ استعمال القناع في مجال التمثيل عن استعماله في مجال السحر . وأصبح ديونيسوس في القرن السادس ق.م

فاستسلموا لسحر شعائره الصاخبة العربيدة (orgia) التي اثارت فيهم نوعا من العاطفة الدينية لم تستطع العبادات القديمة إثارته فيهم . ولا يرجع إقبال الناس على عبادة ديونيسوس إلى أنها كانت أكثر إثارة للعاطفة الدينية وحسب بل لأنها مهدت الطريق أيضا إلى تصور للعلاقة بين الإله والإنسان مختلف عن التصور السائد كل الاختلاف . وكانت عبادة « زيوس » الكريتي قد أخفقت وحدها في أن تفعل ذلك . وكان إخفاقها نتيجة حتمية لاعتباره صنواً لزيوس الأوليمبي . فقد تقبل الإغريق أسطورة مولد زيوس الكريتية على طريقتهم السمحة بافساح مكان لها في مجموعة أساطيرهم [1] . لكن زيوس الأوليمبي كان أثبت على عرشه من أن يتزحزح أمام الأفكار الغيبية أو الباطنية التي كانت ترتبط أصلا بالأسطورة الكريتية ، ومن ثم لم تستطع هذه الأفكار أن تحرز أي تقدم . لكن ديونيسوس لم يكن وراءه تاريخ أوليمبي . كان إلها استطاع أن يجعل المتعبدين له يتحدون به تماما ، ولم يفعل شيئا غير ذلك . لقد انتصر حيث فشل « زيوس » الكريتي بمفرده .

= إله المرح لأنه كان لمدة طويلة إله التنكر والتقنع] . وكان يدفع الناس - كما ورد عند هيرودوت (ك ٤ - ٧٩ - ٣) نقلا عن أهل اسكيثيا - إلى أن يسلكوا مسلكا جنونيا ، وهي عبارة يمكن أن تفهم بمعان كثيرة تتراوح بين « إطلاق العنان للنفس » وبين « بلوغ حالة التقمص » . وكان الهدف من عبادة ديونيسوس هو بلوغ حالة « الجذب » (ekstasis) ، وهو لفظ يؤدي أيضا معاني كثيرة تتراوح بين « التحرر من الشخصية » وبين « تغير الشخصية تغيراً عميقاً » . كانت وظيفته السيكولوجية هي إشباع نزعة رفض المسئولية وتخليص المرء منها ، وهي نزعة توجد عندنا جميعا ويمكن أن تصبح في ظروف اجتماعية معينة ، رغبة جامحة لا تقاوم .

[لكن بعد إدماج عبادة ديونيسوس ضمن إطار الديانة الرسمية احتجبت وظيفته التطهيرية تدريجيا وراء وظائف أخرى] .

(١) عن أسطورة مولد زيوس الكريتية ، راجع ص ٢٠٢ وحاشية ١ ص ٢٢٢ ، ٢٩٠ فيما تقدم .

لكن على الرغم من أن الأغريق سلّموا بانتصار ديونيسوس فإنهم لم يكونوا مستعدين لقبول ديانته قبل أن يجعلوها تتواءم بقدر الإمكان مع أفكارهم الخاصة. وقد حققوا ذلك بعدة وسائل كان من أبرزها إفراغ ديانته من مضمون هام هو الوعد بالخلود في حياة أخرى بعد الموت . وكان لا بد قبل كل شيء من إعطائه مركزاً رسمياً معترفاً به على أمل أن يحدّ ذلك من استهتاره ويكبح من جموحه الذي تميّز به عند دخوله بلاد اليونان أول مرة،وأن يجعله يتمشى بقدر المستطاع مع سُنّة السلف (patrios nomos) ، وهي تقاليد الشعب اليوناني المرعية وعرفه المتوارث . ولم يكن هناك أحد أكثر تأهيلاً للقيام بهذه المهمة من أبوللون ، المفسّر القومي لهذه التقاليد . لقد فعل الإغريق إذن ما في وسعهم أن يفعلوه فأفسحوا لديونيسوس مكاناً في دلفي.ولما كان ديونيسوس كزيوس الكريتي إلهاً من طراز الآلهة الذين يذوقون الموت (ثم يبعثون أحياء من جديد) فقد ظهر له قبر في دلفي [١] . ويشاهد ديونيسوس مرسوماً في زخارف الأواني الفخارية وهو يصافح أبوللون عبر جذع شجرة غار ، رمزاً للمصالحة بينهما والوفاق . ولم يأت القرن الخامس ق م حتى كانت صفات الإلهين - على ما يبدو- قد امتزجت تماماً إذا صح ما ورد في بعض شذرات متبقية من مسرحيات ضائعة لآيسخيلوس ويوريبيدس [٢] .

---

(١) راجع ص ١٣٨ ، وهامش ١ فيما تقدم .

(٢) Macrobius, BK I, 18, Acsch. frg. 341, Eurip. frg. 477.

كانت هناك رابطة أو جماعة دينية رسمية من النسوة المتفانيات في عبادة ديونيسوس (Thyiades) اللائي كن يطفن بمرتفعات جبل برناسوس وهن في حالة « جنب » من فرط السكر والعربدة وذلك في الاحتفال الذي كان يجري (مرة كل سنتين) خلال ثلاثة أشهر الشتاء . وكان أبوللون - حسب تصور الإغريق - يتغيب طوال هذه الأشهر عن معبده في دلفي لرحيله عنها كي يقضي هذه الفترة مع شعبه الغريب المختار المسمى بالهيبربوريين (راجع ص ٢٩٥ فيما تقدم) وكان يتخلى عن مكانه في دلفي خلال هذه المدة لزميله الإله ديونيسوس بمحض اختياره .

وفي وسعنا إجمال هذه المناقشة في الآتي : كانت النقطة المركزية في دائرة اختصاص أبوللون – حسب تصور الإغريق – هي سلطته في جرائم القتل . ومن هذه النقطة يتفرع خطان أحدهما يسير في إتجاه مضاد للآخر . فالحكم في قضايا القتل مسألة قانونية ، وهذا يعيد للذاكرة ما سميناه بالمظهر الأساسي لاختصاص أبوللون وهو احتضانه للقانون والنظام ، ونشاطه التشريعي الواسع الذي يشمل القوانين الجنائية والمدنية والدستورية أي كل شيء في الحياة الدينية أو الدنيوية أخضع للقواعد والأحكام . وتسير في نفس الاتجاه تلك الحِكم والأمثال المشهورة التي تحض على التزام الحد (peras) والاعتدال وإطاعة أولي الأمر ، وتنهي عن الإفراط بشتى صوره . وهنا يتكلم أبوللون الأوليمبي.

غير أن القتل كان – في نظر الإغريق – أكثر من مجرد جريمة تعالج بالدّية أو السجن أو الإعدام تأميناً لحياة الناس. لذا نجد الخط المتفرع من مركز دائرة اختصاص أبوللون يسير في اتجاه آخر نحو الحاجة إلى التطهير . وهنا أيضاً كان أبوللون هو السلطة النهائية . كان يدرك فظاعة الدنس (miasma) الذي ينجم عن أي اتصال بعالم الموتى. وكما يستمد بعض الناس (كالمسيحيين) راحة نفسية من مجرد التفكير في أن الإله الذي يصلون له التماساً للعون والسلوى قد شرب هو نفسه من كأس الآلام التي يتحتم على البشر أن يشربوا منها كذلك كان الوثني يستمد راحة نفسية وسلوى من قدرته على الصلاة بهذه الطريقة أي لإله عانى ما يعانيه البشر . ولهذا ساد الاعتقاد بأن أبوللون نفسه قد سفك دماً في مستهل حياته . ومع أنه لم يلحق به دنس ديني من جراء قتله الأفعى بيثون إلا أنه أضطر كأي قاتل أن يهرب ويعاني المشاق ويهيم على وجهه بحثاً عن التطهير الذي أصبح فيما بعد يفتي دائماً في شعائره ويمنحه للناس في معبده . وكانت الحاجة إلى التطهير مرتبطة – على نحو ما رأينا – بمعتقدات خرافية

مبهمة عن قدرة الموتى على العودة إلى عالم الأحياء وإنزال ويلات رهيبة بالجناة أو الأقرباء المتقاعسين عن الثأر لدمـــاء ذويهم . ويتحدث أفلاطون عن شعائر التطهير (katharmoi) والطقوس الممهدة للهداية (teletai) في موضع واحد بوصفهما وسيلتين لاتقاء لعنة الموتى . وكانت الأخيرة قبل كل شيء - كما نعلم من الطقوس الإليوسية وغيرهـا من الطقوس السرية - وسيلة للاتصال بأرواح العالم الآخر . وكانت هذه نعمة من النعم التي تسبغها على البشر قوى إلهية سفلية (بباطن الأرض) مثـل ديميتر وبرسيفوني وبلوتون وديونيسوس و« زيوس » الكريتي . وهكذا يشير ارتباط أبوللون بمسائل القتل لا إلى أوليمبوس بل إلى أعماق الأرض ويشكل جسراً فريداً بين العالمين : عالم الأحياء وعالم الموتى .

بواعث إيمان الاغريق بنبوءة أبوللون :

في العصر المصطلح على تسميته بالعصر العتيق (Archaic Age) ونسميه نحن ـ دفعاً للالتباس ـ « بالعصر ما قبل الكلاسيكي » [1] كان يساور الإغريق شعور بعدم الأمان وبالعجز (amêchania) ؛ ولهذا الشعور قرينه الديني الذي يتمثل في الشعور بعداء إلهي ، لا بمعنى تصور الإله كقوة شريرة بل بمعنى أنه

---

(١) يمتد هذا العصر بين عامي ٧٠٠ و٥٠٠ أو ٥٠٠ ق.م. وفي رأي كثير من العلماء أن هذا العصر ينتهي من الناحية السياسية بانتهاء الحروب الفارسية (٤٧٩ ق.م) ، ولكنه في نظرهم لا ينتهي من ناحية تاريخ الفكر إلا بظهور الحركة السفسطائية (عند منتصف القرن الخامس ق.م) . فشاعر كسوفوكليس - بغض النظر عن مسرحياته الأخيرة - ينتسب بأفكاره لا بصناعته الأدبية إلى العصر ما قبل الكلاسيكي . كذلك ينتسب إليه زميله هيرودوت من أغلب الوجوه ، ومن جهة أخرى فإن آيسخيلوس الذي يحاول جاهداً تفسير تراث العصر ما قبل الكلاسيكي تفسيراً عقلياً يعتبر من عدة نواح رائداً للعصر الجديد .

« قدرة » و « حكمة » مسيطرة تكبح الإنسان دائماً وتصده أبداً عن تجاوز حده . وهذا الشعور هو ما يعبر عنه هيرودوت قائلاً « إن الإله حسود دائماً ومثير للقلق »[1] ، وهي ترجمة غير موفقة تماما إذ كيف تحسد قوة إلهية غلابة كائناً ضعيفاً كالإنسان ؟ والمعنى المقصود هو أن الآلهة تنقم على أي نجاح باهر أو ثراء فاحش أو سعادة مفرطة تُنسي الإنسان – ولو للحظة قصيرة – أنه بشر فيحسب أنه غير فان وبذلك يفتئت على حق تستأثر به الآلهة .

وبدهي أن هذه التصورات لم تكن جديدة كل الجدة ، إذ نلتقي بمثلها في النشيد الأخير من الإلياذة حيث يصيح أخيل – وقد هزه في النهاية مشهد عدوه المحطم برياموس – ناطقا بالعبرة الأليمة المستخلصة من كل الملحمة فيقول « هكذا رسم الآلهة مصير البشرية البائسة ، وقضوا بأن تكون حياة الإنسان حبلاً متصلاً من الأحزان، بينما هم يعيشون بمنأى عن الهموم »[1]. ويتابع حديثه مشبها هذه الحال بجرّتين يغرف منهما زيوس نعمه ونقمه؛ فهو يعطي بعض الناس خليطاً منهما متنوعاً بينما يصيب البعض الآخر بنقم خالصة فيهيمون في الأرض معذبين « لا يبالي بهم أحد من الآلهة أو الناس »[2] . وأما النعم الخالصة فهي – على ما نفترض – من نصيب الآلهة وحدهم . وليس للجرّتين أي ارتباط بفكرة العدالة وإلا انتفت العبرة أو صارت زائفة . ذلك أن البطولة في الإلياذة لا تجلب السعادة ، وجزاؤها الوحيد الكافي هو الشهرة . ومع ذلك كله نجد أبطال هوميروس يمشون في الأرض مرحا ويجابهون أخطار المعارك بجسارة، ولا يخشون الآلهة إلا بقدر ما يخشون زعماءهم من البشر . ولا يزعجهم ما يأتي به الغد حتى عندما يعلمون – مثلما علم أخيل – أنه يحمل في طياته الهلاك المحقق .

---

(٢) ك ١ ، ب ٣٢ ، ك ٣ ، ب ٤٠ .

(١) الإلياذة : ك ٢٤ ، أبيات ٥٢٥ – ٥٣٣ .

لم يكن هذا التصور الديني أو الاعتقاد السائد في العصر ما قبل الكلاسيكي اعتقاداجديداً،وإنما أصبح له رد فعل عاطفي يختلف عما كان له في العصر السابق. ولا كان الاعتقاد بعجز الإنسان حيال قوة إلهية متحكمة جديداً ، وإنما الجديد هو نبرة اليأس الحادة ، والشعور القوي بالمرارة من عدم جدوى مساعي الإنسان لبلوغ غاياته . وطرأ بالمثل تغيير على مفهوم الاعتقاد بحسد الآلهة (phthonos) وهو أن السعادة المفرطة تجلب على نفسها غضب السماء،وعلى الأخص حين يتباهى بها الإنسان . ولهذا المعتقد — الذي له جذور عميقة في الطبيعة البشرية — نظيره عند شعوب كثيرة بدائية وغير بدائية [1] . وتتجاهل الإلياذة هذا المعتقد على نحو ما تتجاهل معتقدات خرافية شعبية أخرى . لكننا نسمع في الأوديسيا — وهي أكثر من الإلياذة تقبلاً للمعتقدات المعاصرة — نسمع إحدى الشخصيات (وهي كاليبسو) تصيح محتدة « بأن الآلهة هم أكثر الكائنات حسداً في الوجود إذ أنهم يستكثرون على المرء قدراً ضئيلاً من السعادة [2] . وعلى أي حال فإنه يتضح من إسراف أبطال الإلياذة في المباهاة دون تحفظ أنهم لا يحفلون كثيراً بحسد الآلهة وما قد ينجم عنه من مخاطر ، فمثل هذه الوساوس غريبة على عصر تسوده« ثقافة الشعور بالخجل» [3] . ولم يصبح الاعتقاد بحسد الآلهة مبعثاللضيق

---

(١) ما زلنا نشارك القدامى هذا المعتقد عندما نقول « إمسك الخشب » .

(٢) الأوديسيا ، ك ٥ ، ب ١١٨ وما بعده ، راجع أيضاً ك ٤ ، ب ١٨١ - ١٨٢ ، ك ٨ ، ب ٥٦٥ ، ك ١٣ ، ب ١٧٣ - ١٧٤ ، ك ٢٣ ، ب ٢١٠ وما بعده . وأما الأدلة التي يزعم البعض أنها موجودة في الإلياذة (ك ١٧ ، ب ١٧١ على سبيل المثال) فهي من نوع آخر ، وليست أدلة صحيحة على « الحسد الإلهي » .

(٣) ينبه العلماء المتخصصون في دراستهم علم الانسان «إلى ضرورة التمييز بين ثقافات الشعور بالخجل « وثقافات الشعور بالذنب » وتنتمي ثقافة المجتمع الذي يصفه هوميروس إلى النوع الأول . فالخير الأسمى - في نظر البطل الهوميري- لا يتمثل في كسب راحة الضمير بل في كسب احترام=

والخوف ، ومصدراً للقلق الروحي (أو تعبيراً عنه) إلا في أواخر العصر ما قبل الكلاسيكي وأوائل العصر الكلاسيكي . وهكذا هو في مؤلفات سولون وآيسخيلوس وعلى الأخص هيرودوت .

وكان كتّاب العصر ما قبل الكلاسيكي يؤلون « الحسد الإلهي » أحياناً – وليس دائماً – تأويلاً خليقاً بمعنى النقمة العادلة (nemesis) . لقد سعوا إلى إيجاد رباط خلقي بين الزلّة الأولية المتمثلة في السعادة المفرطة وبين عقابها على يد إله حسود فقالوا إن السعادة المفرطة من شأنها أن تولّد إحساساً بالشبع أو البشم (koros) وأن هذا بدوره يولد الصلف أو الغطرسة في القول أو الفعل أو حتى في التفكير . وبهذا التأويل أصبح الاعتقاد القديم «بحسد الآلهة» معقولاً نوعاً ما وإن لم يصبح مع هذا أقل إثارة للقلق والتوتر .

ويقودنا تأويل « الحسد الإلهي » على هذا النحو إلى السمة الثانية التي تميز بها التفكير الديني في العصر ما قبل الكلاسيكي ، ألا وهو الاتجاه إلى تحويل القوة الخارقة للطبيعة بوجه عام ، وزيوس بوجه خاص ، إلى قوة عادلة ، وبعبارة أخرى

=الناس وتقديرهم (timé) . يتساءل أخيل « لماذا أخوض المعركة إذا كان المقاتل الباسل لا يحظى بتقدير (أو شرف timé) أكبر من المقاتل الفاشل ؟ » . وليس أقوى وازع خلقي – في نظره – هو « مخافة الإله » بل مخافة الرأي العام بمعنى احترام شعور الآخرين (aidôs) وعدم إيذائه بعمل شائن . وهذا ما يقابل الخجل أو الخزي من أي شيء قد يستهجنه الرأي العام . يقول هكتور وهو في ذروة محنته قبيل نزوله إلى مبارزة أخيل « إنني أتهيب الطرواديين » . بمعنى استحي من نظراتهم إلي وأخجل مما قد يقولونه عني إذا لم أنزل للقتال . ثم يمضي إلى المعركة مرحباً بلقاء الموت . ففي المجتمع الهوميري كان المرء لا يحتمل أي شيء يعرضه لازدراء أو سخرية زملائه أو يشعره بالخجل أو يجلب له العار . ومن هنا أصبحت كلمة aidos تدل على معنى احترام النفس والإحساس بالكرامة أو الشرف .

حاول فكرة العدالة الإلهية على الفكرة القديمة القائلة بقوة إلهية متحكمة مستبدة. ولم يكن التفكير الديني قد بلغ بعد هذه المرحلة في زمن الإلياذة وإن كنا نلاحظ فيها شواهد متزايدة على قرب بلوغ هذه المرحلة . إن ما يقلق بال آلهة الإلياذة بوجه خاص هو النيل من كرامتهم أو المساس بشرفهم (timé) . ويثير غضبهم الاستهانة بقدرهم أو إهمال عبادتهم أو إيذاء كهنتهم . ففي عصر تغلب عليه « ثقافة الشعور بالخجل » يتميز الآلهة – كما يتميز الناس – بسرعة التأثر وسرعة الغضب من الإهانة . كذلك كانت اليمين الكاذبة مثاراً لغضب آلهة الإلياذة . ولم يكن هؤلاء الآلهة يغضبون من الكذب الصريح المباشر وإنما كانوا يستنكرون الحلف بأسمائهم زوراً. لكننا نلتقي في الإلياذة بتلميحات متناثرة إلى ما هو أبعد من ذلك : فالاعتداء على الوالدين يشكل جريمة منكرة تقتضي عقاباً خاصاً يضطر معه آلهة العالم السفلي إلى التدخل ومباشرة الأمر بأنفسهم . وجاء في الإلياذة مرة واحدة أن زيوس قد غضب من قضاة أصدروا أحكاماً غير نزيهة . غير أن هذه العبارة – بصرف النظر عن اعتبارها مقحمة على النص – لا يوردها الشاعر إلا على سبيل التشبيه .

وأما في الأوديسيا فتتسع دائرة اهتمامات زيوس اتساعاً واضحاً فهو لا يحمي فقط المستجيرين به (الذين لا يتمتعون في الإلياذة بمثل هذه الحماية) بل إن كل الغرباء والسائلين هم من لدنه . وفي الواقع أنه يبدأ في الظهور كمنتقم للفقراء والمظلومين . وفضلا عن ذلك فإن زيوس – كما تصوره الأوديسيا – يصبح إلهاً حساساً سريع التأثر بالنقد الخلقي ، فهو يشكو من أن الناس ينحون دائماً باللائمة على الآلهة « زاعمين بأننا مصدر متاعبهم على حين أنهم (أي الناس) هم الذين بأعمالهم الشريرة يجلبون على أنفسهم من المتاعب ما يفوق طاقتهم »[1] . وقد

(١) الأوديسيا ، ك ١ ، ب ٣٢ وما بعده.

عرّض خطّاب « بينلوبي » أنفسهم للهلاك بأفعالهم المشينة ، وأما أوديسيوس (زوجها) ، الذي أصغى إلى التحذيرات الإلهية ، فقد تغلب عليهم جميعاً على الرغم من كثرتهم . لقد أثبتت عدالة السماء وجودها .

ولا يتسع المقام بداهة لأن نتتبع بالتفصيل تطور المراحل التالية لتعاليم زيوس الأخلاقية ، ومن الممكن دراستها على ضوء مؤلفات هيسيود وصولون وآيسخيلوس. لكن لا مناص هنا من التنويه بنقطة واحدة شائكة ترتبت عليها نتائج تاريخية هامة . ذلك أن الإغريق – برغم نزعتهم الخيالية – لم يصلوا في عدم واقعيتهم إلى حد إغماض أعينهم على الحقيقة الواضحة وهي أن الأشرار كانوا لا يقعون دائماً تحت طائلة العقاب بل كانوا يفلحون أحياناً في حياتهم فلاحاً كبيراً. وقد أثار ذلك انزعاج شعراء كهيسيود وصولون وثيوجنيس وبنداروس [1] . لقد كان من السهل إثبات فكرة العدالة الإلهية في قصة خيالية كالأوديسيا ، لكن ذلك لم يكن أمراً سهلاً في الحياة الواقعيـة . كان من الضروري لتأييد صحة الاعتقاد بأن الأشرار لا يفلتون أبداً من القصاص الإلهي التخلص من الحد الزمني الذي يضعه الموت على حياة الإنسان . فاذا نظرنا إلى ما وراء هذا الحد ففي وسعنا أن نتصور أحد أمرين: إما أن المذنب الذي أفلت من العقاب سوف يعاقَب من بعده واحدٌ من سلالته بدلاً منه ، أو أنه سوف يعاقب هو نفسه في في حياة أخرى (بعد الموت). ولم يبرز التصور الثاني كمذهب إلا في نهاية العصر ما قبل الكلاسيكي ، ومن المحتمل أنه كان محصوراً في أوساط اجتماعية معينة .

---

(١) تاريخ هيسيود (Hesiodus) حوالي عام ٧٠٠ ق.م. وصولون (Solon) المشرع والشاعر ، حوالي ٥٩٤ ق.م. وثيوجنيس (Theognis) حوالي ٥٤٤ – ٥٤١ ق.م. وبنداروس (Pindaros) ٥١٨ - ٤٣٨ ق.م.

وسنرجيء الكلام عنه إلى موضع آخر. وأما التصور الأول فقد حظي في العصر ما قبل الكلاسيكي بانتشار واسع وصار مذهبه المميز ، ويرد ضمن تعاليم هيسيود وصولون وثيوجنيس وآيسخيلوس وهيرودوت الذين لم يغب عن بالهم ما يتضمنه هذا المذهب من معني أخذ البريء بجريرة المذنب ، ومن ثم فانـــه لم يسلم من نقدهم أو اعتراضهم ، فيقرل صولون « بعدم مسئولية » ذرية من اقترف الذنب. ويعترض ثيوجنيس على مذهب جائر ينجو فيه المجرم من العقــاب بينما يحيق العقاب بشخص آخر من ذريته فيما بعد . وأما آيسخيلوس فيحاول التخفيف من قسوة المذهب قائلاً إنه من الممكن انقطاع حبل اللعنة المتوارثة . غير أن قبول هؤلاء الكتاب لمذهب توارث الذنب وتأجيل العقاب إنما يرجع إلى ذلــك الاعتقاد بالترابط الأسري الذي كان سائداً في بلاد الإغريق أثناء العصر ما قبل الكلاسيكي وتشاركها فيه مجتمعات باكرة أخرى بل وكثير من المجتمعـــات البدائية في العصر الحديث. كان المذهب جائراً لكنه كان يبدو لهم كأنه قانون من قوانين الطبيعة ولا مناص من الإذعان له . ذلـــك أن الأسرة كانت وحدة معنوية،ولم تكن حياة الابن إلا امتداداً لحياة أبيه فكان يرث ديونه الروحية على نحو مايرث ديونه المادية سواء بسواء ، ولا بد من استيفاء الدين عاجلاً أو آجلاً.

كانت فكرة العدالة السماوية أرقى من الفكرة القديمة القائلة بقوى إلهيـــة متحكمة في مصائر الناس تحكما مطلقا . وقد هيأت للإغريق جزاء كفيــلا بتنظيم قواعد السلوك الخلقي الجديدة في مدنهم الناشئـة . لكن من سوء الحظ أن هذه الفكرة التقدمية اقترنت عنـدهم بفكرة الترابط الأسري البدائية . وكان من شأن الترابط الأسري وما يسانده من شعور ديني بل وقانون ديني ، أن يقف حجر عثرة فيوجه ظهور أي مبدأ تقدمي جديد ينادي باستقلال الفرد عن الأسرة وتمتعه بحقوق شخصية وتحمله مسئوليات ذاتيـة . لكن هذا المبدأ

ظهر أخيراً في القانون المدني الأثيني. وكان تحرير الفرد من ربقة العشيرة والأسرة هو أحد المنجزات الكبرى للمذهب العقلي الذي يعزى الفضل في نشأته (على يد السفسطائيين) إلى ازدهار الديمقراطية الأثينية في القرن الخامس « ق م. ». لكن شبح الارتباط الأسري القديم ظل مخيما على عقول المتدينين ويؤرق بالهم فترة طويلة بعد تحرر الفرد من إسار الأسرة تحررا كاملاً في نظر القانون. ويتضح من مؤلفات أفلاطون أن في القرن الرابع«ق.م.» كانت الأصابع لا تزال تشير إلى الشخص الذي يلاحقه ذنب متوارث . وكان هذا الشخص مستعداً لأن يدفع الثمن لأي كاهن مختص كي يطهره من الدنس تطهيرا شعائريا ويخلصه مما يعانيه من قلق روحي . ويسلّم أفلاطون نفسه بالذنب الديني المتوارث في حالات معينة .

وكان من سوء الحظ أيضا أن نسبت إلى القوى الخارقة ـ بعد تأويلها تأويلاً خلقياً ـ نسبت إليها في العصر ما قبل الكلاسيكي ، مهام أو اختصاصات كانت في أغلبها ـ إن لم تكن كلها ـ جزائية « عقابية » . فنسمع كثيراً عن الذنب المتوارث ، وقليلاً عن البراءة المتوارثة ؛ وكثيراً عن عقاب الأشرار فيما يشابه « الجحيم » أو المطهر »، وقليلاً عن ثواب الأخيار. فالتأكيد دائماً على العقوبات. وهذا لا شك يعكس أفكار العصر القانونية: فالقانون الجنائي قد سبق القانون المدني ، وكانت مهمة الدولة في الأصل قهرية . يضاف إلى ذلك أن القانون الديني كالقانون الوضعي المبكر لم يأخذ في اعتباره ما نسميه بالباعث أو الدافع على ارتكاب الجريمة ، ولم يتجاوز عن الضعف الإنساني . كان مجرداً من تلك الصفة الخيّرة التي يسميها الإغريق بالرأفة أو الرحمة (philanthrôpia) . كان المثل السائر في ذلك العصر والذي يقول « إن العدل جماع كل الفضائل » لا ينطبق فقط على الناس بل على الآلهة سواء بسواء ، ولم يعد في قلوب هؤلاء أو أولئك سوى قليل من الشفقة . ولم يكن الأمر كذلك في الإلياذة . ففي هذه الملحمة

نجد زيوس يرثي لمصير هكتور المحتوم ويأسف على نهاية ساربيدون المفجعة ، بل إنه ليشفق على أخيل حين يسمع نحيبه على فقد صديقه باترو كلوس . لكن زيوس تجرد من إنسانيته بعد أن صار تجسيداً للعدالة السماوية . ومن ثم اتجهت ديانة آلهة أوليمبوس في صورتها الأخلاقية إلى أن تصبح ديانة خوف ، وهو إتجاه ينعكس على معجم المفردات الدينية . فليس في الإلياذة لفظ بمعنى « مخافة الإله ». لكن الصفة التي تؤدي معناه (theoudês) ترد في الأوديسيا ويعتبر التحلي بها فضيلة عظيمة . وكان المرادف لهذه الصفة في لغة النثر(deisidaimon) يستعمل في التعبير عن المدح حتى عصر أرسطو . وأما « محبة الاله » فلا يوجد لفظ يدل على معناها في المعجم اليوناني الباكر . وقد وردت الصفة المؤدية لمعناها (philotheos) – أول ما وردت – في مؤلفات أرسطو (أواخر القرن الرابع ق .م) . ولعل الربة أثينة – دون سائر أرباب أوليمبوس الكبار – هي التي كانت تثير في قلوب المتعبدين عاطفة يمكن وصفها « بالمحبة » .

وبذلك ننتقل إلى السمة أو الظاهرة العامة الأخيرة التي نريد تأكيدها وهي الخوف العام من الدنس (miasma)[١] وما يلازمه من تلهف عام على التطهير الشعائري (katharsis) . وهنا أيضاً ينبغي ملاحظة الاختلاف بين عصر هوميروس والعصر ما قبل الكلاسيكي . ولا نستطيع مسايرة الرأي القائل بعدم وجود فكرة التطهير الديني في ملحمتي هوميروس . فمن المؤكد أنها تتضمنان إشارات طفيفة إلى الشعائر التطهيرية . لكن هذه الشعائر كانت بسيطة ويقوم بها أفراد عاديون(من غير الكهنة). والبون شاسع بين هذه الشعائر وشعائر العصر ما قبل الكلاسيكي الطويلة المربكة التي كان يجريها كهنة تطهير محترفون (kathartai) . ويتضح لنا مدى اتساع الثغرة إذا قارنا أسطورة أوديب كما

---

(١) يعرف الدنس في أبشع صوره في اليونانية بلفظ (agos) .

رواها هوميروس بالأسطورة ذاتها كما رواها سوفوكليس . ففي الرواية الأخيرة - وهي المألوفة لنا - يصبح أوديب منبوذاً نجساً وطريداً دنساً يرزح تحت عبء إثم كبير « لا يمكن أن ترضى عنه الأرض أو ماء السماء المقدسة أو ضياء الشمس » . لكن في القصة التي عرفها هوميروس يبقى أوديب ملكاً على طيبة بعد اكتشاف جريته النكراء ، ويلقى حتفه أخيراً في إحدى المعارك ، ويدفن دفنـــاً يليق بمقامه الملكي . وكان أحد شعراء « الحلقة الملحمية » ومؤلف الملحمة المعروفة باسم « قصة طيبة Thebais »هو الذي ابتدع شخصية أوديب«رجل الأحزان» المنكوب ، ثم استقى منه سوفوكليس مادته في كتـــابة مسرحيته الشهيرة (أوديب ملكاً) .

ولا يتردد في أشعار هوميروس أي صدى للمعتقد القائل بأن الدنس كان معدياً أو متوارثاً . لكنه أصبح معدياً ومتوارثاً في العصر ما قبل الكلاسيكي . ومن هنا تولـّد الشعور بالفزع منه : إذ كيف كان يتسنى لأي شخص التأكدمن أنه لم يصب بالدنس نتيجة لاتصال عارض أو لم يرثه من وزر ارتكبه أحدأسلافه البعيدين ؟ ومثل هذا الفزع أو القلق كان أشد إيلاماً من سواه نظراً لغموضه إذ كان من المستحيل إرجاعه إلى سبب يمكن إدراكه وبالتالي معالجته . وقديكون من الغلو في التبسيط أن نعزو إلى هذا الأعتقاد بخطر التلوث من الجريمة وما يترتب عليه من دنس مقلق أصل الشعور بالذنب الذي ساد في العصر ما قبـل الكلاسيكي . لكن من المؤكد أنه كان تعبيراً واضحاً عن هذا الشعور .

وثمة عامل آخـر كان له تأثيره في أهل ذلك العصر ، ألا وهو الخوف من الأرواح (daimones) وعلى الأخص الشريرة الخداعة (alastores) . كانت هذه الأرواح - وفقاً لتصورهم - هي التي تفقد المرء صوابه وتسدل الغشاوة على عينيه وتعمي بصيرته . وبعبارة أخرى كانت تفتنه وتضلـّه فيتصرف بحماقة ويسلك سلوكاً طائشاً . ويعبّر الإغريق عن تلك الحالة العقلية التي يغيب المرء

فيها عن وعيه أو يطيش فيها صوابه بكلمة ate ، وهي كلمة تؤدي في الواقع معنى الجنون الجزئي المؤقت الناشيء عن تدخل قوة خارقة أو قوة روحية . وغالباً ما يعزى سبب هذه الحالة إلى روح أو إله مجهول ، ونادراً ما يعزى إلى إله أوليمبي معيّن . ولعل زيوس هو الإله الوحيد بين آلهة أوليمبوس الذي يعزى إليه بمفرده سبب هذه الحالة في كل الإلياذة[1]. وتنسب أحياناً – كما في أشعار هوميروس بوجه عام – إلى ربات الغضب أو اللعنات المجسدة (Erinyes)[2] أو إلى القدر (moira) . ونجدها تعزي مرة واحدة – في الأوديسيا – إلى الإفراط في شرب النبيذ .

ولم يكن لكلمة (atê) في الأصل ارتباط بالإثم أو الجريمة، فهي لا تتضمن في الإلياذة معنى الجريمة الخلقية الملموسة أو العقاب الالهي المترتب عليها . لكن معنى الكلمة تطور فأصبحت تؤول – غالباً وليس دائماً – تأويلاً خلقياً بمعنى « عقاب » . ولا ترد بهذا المعنى في الإلياذة إلا مرة واحدة[3]. وبعدئذ استعمل هيسيود الكلمة بمعنى «عقاب» على الغطرسة . وهذا العقاب كأي عقاب سماوي

---

(١) إلا في مرة واحدة تنسب فيها سبب حالة الجنون المؤقت atê التي أصابت باتروكلوس إلى الإله أبوللون .

(٢) إن الـ Erinyes ـ وفقاً لرأي قديم – هي لعنات أرواح الموتى المجسدة . لكن يعارض على هذا الرأي بأنها لا تعاقب قط جريمة القتل العمد في أشعار هوميروس وبأن الآلهة والبشر لكل منهم روحه المنتقمة (erinys) . فهذه الأرواح ـ على سبيل المثال ـ تحمي مركز الأم بمعاقبة ابنها العاق . ولعلها اللعنة أو الغضب المجسد (في صورة شخصية) التي تنزل على الأشخص بمن ينتهك قانون الطبيعة أو سنة القدر (moira) . ومن هنا يأتي ارتباط الروح المنتقمة (erinys) بالقدر (moira) .

(٣) الالياذة ، ك ٩ .

آخر ، قد ينزل بأي فرد من ذرية الآثم إذا لم يكن هذا قد عوقب على الإثم في حياته . ومن هذا التصور نشأ مفهوم أوسع للكلمة فصارت لا تدل فقط على الحالة العقلية لمرتكب الإثم بل على المصائب الملموسة الناجمة عنه أيضاً . فسفن الفرس التي أغرقت في معركة سلاميس نتيجة لتهور أو غطرسة ملكهم ، والأغنام التي ذبحها البطل أياس (أجاكس) بسبب اللوثة العقلية التي أصابته ، وحتى البنات اللائي أنجبهن أوديب من زواج محرم ، جميع هذه الكوارث توصف بأنها (atai) وهكذا اكتسبت كلمة atê معنى « الهلاك » الذي تحتمه قوة خارقة . ثم ازداد مفهوم الكلمة اتساعاً فصارت تعني أحياناً أداة أو واسطة الغضب الإلهي أو الغضب الإلهي مجسداً (كحصان طروادة الخشبي على سبيل المثال لا الحصر) .

وقد نشأ تفسير لاهوتي دقيق يختلف عن التفسيرات سالفة الذكر لكلمة atê ، هذا التفسير لا يجعلها فقط بمعنى العقاب المفضي إلى المحنة المادية المحسوسة ، بل بمعنى الإغواء المتعمد الذي يغوي الضحية على ارتكاب خطايا جديدة ، خلقية أو عقلية ، من شأنها أن تعجل بهلاكه تمشياً مع المذهب الرهيب القائل « بأن الإله يذهب أولاً بعقل من يريد هلاكه » . وتوجد في الاليـــاذة إشارة إلى هذا المذهب حيث يصف أجاممنون تهوره (atê) بأنه ضلال أو خدعة مشئومة (apatê) من تدبير زيوس [٢] . وفيما عدا ذلك لا نجد في أشعار هوميروس أو هيسيود شيئاً مفصلاً عن هذا المذهب . لكننا نلتقي بفقرات في مؤلفات شعراء الفترة التالية تؤكد هذا المعتقد : يقول أحدهم – وهو ثيوجنيس – إن كثيراً من الناس الذين يسعون في طلب « الفضيلة » و « المنفعة » تضلهم عمداً أرواح تجعلهم يختارون الشر بدلاً من الخير ، والضار بدلاً من النافع . ويقول شاعر آخر إنه

---

(1) quem deus vult perdere , prius dementat .

(٢) الإلياذة ، ك ٩ ، ب ٢١ .

عندما ينزل غضب الأرواح على أحد من الناس ملحقاً به الأذى ، فــإن هذا الغضب يسلبه أولاً الإدراك السليم ويسوقه إلى الضلال فلا يرى أخطــاءه . ولا نلحظ هنا أي تأويل خلقي لعمل الأرواح فهي تبدو فقط كأرواح شريرة تزين للإنسان الشر وتقوده إلى الهلاك . ومثل هذه الأرواح الشريرة كانت مثـــاراً للخوف في العصر ما قبل الكلاسيكي. ويؤيد ذلك أيضاً ما يرد في بعض مسرحيات آيسخيلوس . ففي مسرحية «الفرس» نسمع أن خشيارشا (Xerxès) ، ملك الفرس ، أثناء حملتهم الثانية على بلاد الإغريق [1] ، قد أغوته روح شريرة (alastor) ؛ لكن الشاعر أكثر دراية بالسبب فيضيف - على لسان شبح دارا (Darius) ، ملك الفرس في حملتهم الأولى [2] ، بأن الغواية كانت عقاباً له على غطرسته . ومعنى هذا أن ما يراه الأحياء بالعين القاصرة كعمــل من تدبير روح شريرة ، يدركه الموتى بالبصيرة النافذة كمظهر للعدالة السماوية. وفي مسرحية «أجاممنون» نلتقي مرة أخرى بنفس التفسير من وجهتين : فما يراه الشاعر مرهوناً بإرادة زيوس القاهرة التي تنفذ وفقاً لقانون خلقي صارم ، لا تراه شخصيات المسرحية إلا عالماً مليئاً بالجن ومسكوناً بأرواح شريرة خبيثة .

إن هذا الجو الخانق المشحون بالأرواح الذي تتحرك فيـــه شخصيات آيسخيلوس يبدو أقدم بكثير من الجو الصحو المشرق الذي عاش فيه أبطـــال وآلهة الإلياذة . ولذلك وصف أحد الباحثين المحدثين آيسخيلوس « بالعائد من ميكيناي » (وإن أضاف أن الشاعر كان أيضاً مرآة عصره) . كما قـــال عنه باحث آخر إنه « أحيا عالم الأرواح وعلى الأخص الأرواح الشريرة » [3]. لكن

---

(١) عام ٤٨٠ ق.م .

(٢) عام ٤٩٠ . وقد توفي دارا الأول عام ٤٨٦ ق.م .

(٣) المقصود عصر الحضارة المينوية أو الحضارة الميكينية السابق على الحرب الطروادية وكان عصراً يسوده الاعتقاد بوجود الأرواح والأشباح الشريرة .

مثل هذا القول يسيء فهم هدف آيسخيلوس والمناخ الديني للعصر الذي عاش فيه . ذلك أن آيسخيلوس لم يكن بحاجة إلى إحياء عالم الأرواح والأشباح لأنه وُلد في ذلك العالم . ولم يكن يهدف إلى العودة ببني قومه إلى أجواء عالم الأرواح بل كان - على النقيض من ذلك - يهدف إلى إقتيادهم عبره وإخراجهم منه . وقد سعى إلى تحقيق هدفه لا بإثارة الشك حول حقيقة ذلك العالم بالبرهان العقلي والمنوي على نحو ما فعل يوريبيديس ، بل بإثبات أنه يحتمل تفسيراً أسمى ، وباظهاره كما فعل في مسرحية « الفوريات » - في صورة متبدلة إذ حوّله - بوساطة الربة أثينة - إلى عالم جديد تسوده عدالة معقولة أي مشربة بالرحمة .

لقد كان للأرواح - كقوى متميزة عن القوى الإلهية - دور كبير في المعتقدات الشعبية عند الإغريق خلال مختلف فترات تاريخهم . وتحتجب هذه الأرواح في الإلياذة فلا نصادفها إلا قليلاً لأن الشاعر يستبعدها من الملحمة . أو لعله شاء أن يتجاهلها هي وكثيراً من المعتقدات والعادات السائدة لأنها كانت لا تروق في أعين سادة الإغريق الأمراء فلم يذكر منها إلا القليل الذي انتقاه لأنه يتلاءم ومزاج ثقافة الطبقة العسكرية الارستقراطية . لكن هذه الأرواح تبرز في الأوديسيا حيث نجد الناس ينسبون كثيراً مما يتعرضون له - عقلياً أو بدنياً - في الحياة إلى « عمل » أرواح مجهولة غير مسماة . ومع هذا فإننا نخرج من الأوديسيا بانطباع مؤداه أن هؤلاء الناس لا يأخذون دائماً هذه الأرواح مأخذ الجد . لكن يبدو أنه في الفترة ما بين تأليف الأوديسيا وتأليف « ثلاثية أورستيس » (Oresteia) [1] ازدادت الأرواح اقتراباً وصارت أكثر إلحاحاً وخداعاً وأذى . وكان الشاعر ثيوجنيس ومعاصروه لا يستهينون بأمر تلك الأرواح التي

---

(١) نظمت الأوديسيا في القرن التاسع أو الثامن ق.م. وكتبت « ثلاثية أوريستيس » المؤلفة من « أجاممنون » و « حاملات القرابين » و « الفوريات » في عام ٤٥٨ ق.م .

تغوي الناس إغواء وتضلهم عن سواء السبيل (atê)[1] . وقد ظل هـــذا الاعتقاد راسخاً في أذهان العامة من الناس مدة طويلة بعد زمن آيسخيلوس[2]. ففي مسرحية « ميديا » للشاعر يوربيديس تقول الحاضنة إنها تعرف أن الغواية المدمرة (atê) هي من عمل روح غاضبة ، وربطها بفكرة « الحسد الإلهي » القديمة : إذ تتعاظم الغواية بقدر تعاظم شأن الأسرة . ولا يسلم منها إلا المغمورون[3] .

والشبه شديد بين الغواية (atê) وبين هذه النزعات غير المعقولة التي تثور في نفس الانسان رغم إرادته وتتمكن من إغوائه . ويسميها بعض الكتـــاب « بالأرواح الخطرة » بينما يشبهها البعض الآخر بالقوى التي تضل الانسان وتحيد به عن الرشد إلى الغيّ ومن ثم إلى هلاكه . ولا تشكل هذه النزعات غير المعقولة ـ وفقاً للتصور الهوميري ـ جزءاً من ذات الإنسان حيث أنها خارج نطاق سيطرته الواعية . ولكنها ذات طاقة حيوية كامنة ومن ثم فهي تستطيع أن ترغم الانسان ـ كما لو كانت آتية من خارجه ـ على انتهاج سلوك غريب عنه .

وهناك نوع آخر من الأرواح التي يجسمهـــا ظرف معين فتبدو كحقائق ملموسة . فالأرواح الشريرة ـ كما يقول باحث في معتقدات الشعوب القديمة ـ ليست في الغالب سوى الشر مجسّداً ومزوّداً بقوة . وهكذا تصوّر الإغريق المجاعة والوباء « كإلهين » . وهكذا أيضاً يعتقد الأثينيون في العصر الحديث بأن

---

(١) ازدهر ثيوجنيس حوالي ٥٤٤ ـ (٥٣ ق.م . وهو شاعر أخلاقي وسياسي من ميجارا.

(٢) تاريخ آيسخيلوس هو ٥٢٥ ـ ٤٥٦ ق.م .

(٣) تاريخ مسرحية « ميديا » هو ٤٣١ ق.م .

صدعاً معيناً في تل « الجنيّات » (بالأكروبول) مسكون بثلاث أرواح أسماؤهن على التوالي « كوليرا » و « جدري » و « طاعون » . وهـــذه قوى قادرة ، والانسان في قبضتها عديم الحيلة .

وثمة نوع ثالث من الأرواح عرف لأول مرة في العصر ما قبل الكلاسيكي، وهو ما يلازم إنساناً معيناً منذ ولادته في الغالب ، ويقرر كل مصيره الشخصي أو بعضه . ونلتقي به أولاً عند هيسيود وشاعر آخر يدعى فوكيليديس . وتقابل الروح من هذا النوع « قسمة » المرء أو « نصيبه » (moira) الذي يتحدث عنه هوميروس وإن يكن في الصورة المجسدة التي كانت تروق لمخيلة الإغريق في عصره . ولا يعدو هذا أن يكون غالباً ما نسميه « حظ» الإنسان أو « بخته». غير أن هذا « الحظ » لم يكن – في تصور الإغريق – حدثاً عارضاً أو طارئاً غريباً عن الإنسان بل كان جزءاً من صفاته الطبيعية كالجمال أو القبح والذكاء أو الغباء . ولا يخفي ثيوجنيس ضيقه من أن مصير الانسان يرتهن « بالروح » الملازمة له أكثر مما يرتهن بأخلاقه ؛ وإذا كانت هذه « الروح » خبيثة فلن ينفع المرء تقديره السليم وستذهب مساعيه هباء. وقد حاول هيراقليطوس – دون جدوى – معارضة ذلك بمذهبه القائل إن «أخلاق المرء هي قدره»وأن « مصيره مرهون بطباعه». لكنه عجز عن القضاء على المعتقد الوهمي السائد[1]. ولا يرى هيرودوت في المصير الذي انتهى إليه الملوك والقواد – من أمثال ملتيادبس الأثيني وغيره – حدثاً عارضاً أو طارئاً أو نتيجة لسلوكهم الخلقي بل يرى فيه أمراً مقضياً وقدراً محتوماً . وكان هيرودوت قدرياً يؤمن بمذهب « الجبر » في التاريخ .

---

(١) هيراقليطوس (Heraclitus) فيلسوف من مدينة إفسوس ازدهر نشاطه حوالي عام ٥٠٠ ق.م. وقد تصور الكون كصدام بين أضداد تهيمن عليه عدالة أبدية ، ويعتبر رائداً الفلسفة العقلية .

تلك إذاً هي بعض « الأرواح » التي كانت تشكل جزءاً من التراث الديني الذي آل إلى القرن الخامس (ق. م.) من العصر السابق عليه وكان هذا العصر السابق (ما قبل الكلاسيكي) قد شهد تغييرات ثقافية جوهرية ، وتطورت فيه المعتقدات الدينية تطوراً كان من أبرز سماته ازدياد الشعور بالقلق والخوف .وقد يكون من الصحيح أن الافكار المتعلقة بالدنس والتطهير والحسد الالهي كانت جزءاً من التراث الأصلي القديم للشعوب الهندية ـ الاوربية . غير أن العصر ما قبل الكلاسيكي هو الذي أعيدت فيه صياغة قصص أوديب وأورستيس وصُبّت في قالب جديد من الرعب وسفك الدماء ، وهو العصر الذي صار التطهير فيه موضع الاهتمام الرئيسي لدى نبوءة دلفي ، وهي أعظم مراكزه الدينية ، كما تضخمت فيه أهمية الحسد الالهي (phthonos) حتى أصبح في نظر كاتب كهيرودوت هو النمط الاساسي المتكرر في كل التاريخ .

في الحق إنه ليس لدينا تفسير كامل لهذه المظاهر سالفة الذكر ، وإن يكن في استطاعتنا فقط أن نخمن بعض إجابات جزئية استناداً إلى واقع الأحوال الاجتماعية السائدة . ففي بلاد الإغريق الأصلية كان العصر ما قبل الكلاسيكي عصر اضطراب شديد بحيث لم يعد الأفراد يأمنون على حياتهم أو مستقبلهم . كانت دويلات المدن الصغيرة قد أصبحت مكتظة بالسكان . وقد بدأت تكافح للتخلص من آثار الخراب والفاقة التي تخلفت عن الغزو الدُوري عندما واجهتها متاعب جديدة ، إذ أخذت الأزمة الاقتصادية الحادة التي نشبت في القرن السابع (ق.م) تطحن طبقات برمتها . وجاء في أعقابها التطاحن السياسي الماثل في القرن السادس(ق.م)، وهو تطاحن انتقل بالأزمة الاقتصادية إلى مرحلة الصراع الطبقي الدامي . وقد نجم عن ذلك تحول اجتماعي كبير دفع بالعناصر المغمورة من السكان إلى مركز الصدارة . ولعل هذا قد شجع على إحياء أنماط ثقافية قديمة لم تكن قد انطمست تماماً أو إنمحت كلية من ذاكرة جماهير العامة . وفضلاً عن

ذلك فإن ظروف الحياة غير الآمنة قد تساعد في حد ذاتها على ترويج اعتقـــاد « بالأرواح » نابع من الإحساس بعجز الانسان وضعفه واتكاله على قوة عليـــا متقلبة الأطوار. وهذا بدوره قد يشجع على زيادة الاستعانة بالطقوس السحرية، ذلك إن صح ما يقوله بعض علماء الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) بأن الوظيفة البيولوجية للسحر هي التفريج عن مشاعر الكبت واليأس التي لا تجد لها متنفساً منطقياً معقولاً. ومن المحتمل أيضاً أن طول معاناة الانسان من الاضطهاد قد حدا ببعض الناس إلى الاعتقاد بأن هناك عدالة في السماء عوضاً عن الظلم في الأرض . ولا ريب في أنه ليس من قبيل المصادفة أن يكون أول إغريقي بشّر بالعدالة الإلهية هو هيسيود الذي وصف بأنه شاعر الهيلوتيين (عبيد الأرض) ، وعانى هو نفسه من فساد ذمة القضاة . ولا هو من قبيل المصادفة أن يصبح في هذا العصر توعد الأغنياء بسوء المصير موضوعاً أثيراً لدى الشعراء ، وهو يناقض تماما ما نجده عند هوميروس الذي ينحو الأغنياء عنده إلى أن يكونوا صالحين فضلاء .

هذه العوامل التي ذكرناها صحيحة في جملتها ولكنها لا تكفي لتفسير تطور الشعور الديني في العصر ما قبل الكلاسيكي وعلى الأخص ظاهرة ازدياد الشعور بالذنب . واستكمالاً لهذه العوامل لا بد من أن نسلك طريقاً أطول لا يبدأ من المجتمع بعامة بل من الأسرة . كانت الأسرة – كما مر بنا – هي حجر الزاوية في بناء المجتمع، وأول وحده منظمة فيه ، وأول محيط للتشريع . وكان نظامها أبويا كشأنه في كل المجتمعات الهندية – الأوربية . وكان قانونها يتمثل في السلطة الأبوية (patria potestas) التي تجعل من رب البيت ملكا عليها . وفي الحق أن وضعه في الأسرة كان لا يزال يوصف في أيام أرسطو بأنه مناظر لوضع

الملك [1] . وكانت له في العصور الأولى سلطة مطلقة على أبنائه فكان من حقه التخلص منهم بتركهم في العراء وهم أطفال ، وطردهم من العائلة وهم رجال لانحرافهم أو عصيانهم مثلما طرد ثيسيوس ابنه هيبوليتوس ، وطرد ستروفيوس ابنه بيلاديس، ومثلما نبذ زيوس نفسه ولده هيفايستوس قاذفاً به خارج أوليمبوس لانحيازه إلى جانب أمه . كانت هناك واجبات على الإبن إزاء والده ولم تكن له حقوق . وكان يعتبر قاصراً طوال حياة أبيه . وقد ظل هذا الوضع قائماً في أثينا حتى مطلع القرن السادس (ق.م) عندما أدخل صولون على القانون الأسرى بعض بنود تحفظية للحد من تعسف الآباء . غير أن الاعتقاد بما للأسرة من سلطة شرعية على أبنائها كان لا يزال قوياً بعد مرور قرنين على صولون حتى أن أفلاطون ـ الذي لم يكن قطعاً من المعجبين بالنظام الأسري ـ قد أفسح للأسرة مكاناً في كتاب « القوانين » [2] .

وكان بقاء هذا النظام الأسري مرتهناً ببقاء المفهوم القديم للترابط الأسري راسخاً غير مهتز ، وبتأدية الإبن لأبيه واجب الطاعة العمياء التي ينتظرها هو من أبنائه في الوقت المناسب . لكن مع تراخي الرباط الأسري وتزايد مطالبة الفرد بحقوقه الشخصية ومسئوليته الشخصية ، تكشفت مشاعر الضيق المكبوتة . ويمكن أن نستخلص من تدخل صولون لتعديل التشريعات الخاصة بالأسرة أن هذه المشاعر قد بدأت في الظهور علانية في القرن السادس (ق.م) . لكن لدينا

---

(١) تاريخ أرسطو ٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م .

(٢) Laws 878 DE , 929 A - C.

عاش أفلاطون بين سنتي ٤٢٩ - ٣٤٧ ق.م. ويرجح أنه كتب « القوانين » في الفترة الأخيرة من حياته.

أيضاً وفرة من القرائن غير المباشرة على ما كان لهذه المشاعر من تأثير خفي غير ظاهر . فالهلع الشديد الذي كان الإغريق ينظرون به إلى الجرائم المرتكبة ضد الآباء ، والعقوبات الدينية الرهيبة التي كان من المعتقد أن الآثمين من الابنـــاء يتعرضون لها إنما توحي في حد ذاتها بمشاعر كبت شديد كما توحي بمثـل هذه هذه المشاعر كثير من القصص التي تتمخض فيها عن لعنة الأب عواقب وخيمة ونهاية بشعة للأبن المغضوب عليه ، كقصة هيبوليتوس ، وقصة بيلوبس وذريته ، وقصة أوديب وأبنائه ، وكلها قصص ألفت – على ما يبدو – في فترة زمنيـة متأخرة نسبياً حين بدأ مركز الأب في الأسرة يتزعزع ولم يعد وطيداً كما كان من قبل . ونستشف نفس مشاعر الكبت – على نحو آخر – من قصة كرونوس وأورانوس البشعة التي يحتمل أن الاغريق اقتبسوها في عصرهم قبل الكلاسيكي من مصدر حيثي [1] . ففي هذه القصة الخرافية تتحقق الصورة الذهنية للرغبات

---

(١) عن هذه القصة ، راجع ص ٢٠١ - ٢٠٢ فيما تقدم .

وتوجد لأسطورة كرونوس وأورانوس نظائر عند كثير من الشعوب القديمة ، غير أن إحدى هذه الأساطير - الواردة ضمن ملحمة كوماربي (Kumarbi) الحورية الحيثية - تشابهها حتى في التفاصيل إلى درجة تجعلنا نرجح الرأي القائل باقتباس الإغريق لها من الحيثيين. ولا يقلل ذلك من أهمية الأسطورة اليونانية . لكن في هذه الحالة يثور سؤال عن الباعث الذي دفع الاغريق إلى إعطاء هذه الخرافة الحيثية المغرقة في الغرابة والبشاعة مكاناً رئيسياً بين أساطيرهم الإلهية. والرأي الغالب - وربما كان صحيحاً - هو أن «انفصال» اورانوس عن جايا إنما يرمز أسطورياً إلى إنفصال جسدي متخيل بين السماء والأرض اللتين كانتا في الأصل جسماً واحداً . غير أن الباعث على إخصاء الأب ليس عنصراً طبيعياً ومن المؤكد ليس ضرورياً في خرافة كهذه . ويتعذر تفسير وجوده في أساطير الإغريق والحيثيين عن أصل الآلهة إلا بأنه انعكاس لرغبات إنسانية لاشعورية أو مكبوتة . وربما نجد لهذا الرأي تعزيزاً في مولد أفروديتي من عضو ذكورة الإله القديم (أورانوس) بعد أن بتره ابنه كرونوس من جسده وألقى به في البحر ، وهو ما يمكن تفسيره بأنه رمز لحصول الإبن على حريته في الممارسة الجنسية عن طريق التخلص من أبيه المزاحم له . والأمر المؤكد هو أنه في العصر الكلاسيكي كثيراً ما كان يضرب المثل بأسطورة كرونوس على عقوق الإبن وتمرده على أبيه .

اللاشعورية على نحو واضح تماما ربما لمسه أفلاطون عندما قال إن هذه الأسطورة لا يجوز تلقينهـــا إلا لفئة قليلة من الناس ضمن طقوس سرية غير عادية (mysteria) وانه يجب حجبها عن صغار السن بكل الوسائل [١] . غير أن أهم دليل له مغزاه في نظر علماء النفس هو ما نستمده من بعض النصوص الواردة ضمن مؤلفات كتّاب العصر الكلاسيكي حيث يتعرضون للأحلام وأحلام اليقظة أو أفكار التمني التي تنشأ عن كبت الرغبات أو توقف العقـــل مؤقتا عن أداء وظيفته [٢] . ولعلنا لا نجافي الصواب إذا استخلصنا من تشابه الأعراض تشابهاً في أسبابها ، وانتهينا إلى أن موقف الأسرة من أبنائها قديماً – كموقفها منهم في العصر الحديث – قد تسبب لهم أثناء طفولتهم في صراعات نفسية ظلت آثارها مترسبة في العقل الباطن حتى بلوغهم سن المراهقة . وبظهور الحركة السفسطائية (وهي حركة فكرية مستنيرة زعزعت كثيراً من القيم والمعتقدات القديمـــة) أصبحت هذه الصراعات واعية وبدأ الشبان في كثير من الأسر يدّعون بأن لهم « حقاً طبيعياً » في عصيان آبائهم . لكن مثل هذه الصراعات النفسية كانت – في أغلب الظن – موجودة عند مرتبة اللاوعي منذ زمن أسبق من ذلك بكثير وأنها ترجع في الواقع إلى أولى ثورات الفرد غير المعلنة من أجـــل تحرره من ربقة الأسرة .

ويحدثنا علماء النفس بأن سبباً قويـاً من أسباب الشعور بالذنب هذا الضغط الناجم عن الرغبات المكبوتة ، وهي رغبات كامنة في اللاوعي أو العقل الباطن

---

(١) Republic 377 E - 378 A

(٢) Aristophanes Av. 1337 ff. Nub. 1399 ff. Sophcles, Oed. Tyr. 981 f. Plato, Rep. 571 c. Herodotus VI, 107, 1.

ولا تطفو إلا في الأحلام وأحلام اليقظة لكنها قادرة على أن تولد في النفس شعوراً عميقاً بالقلق الروحي الذي غالباً ما يكتسب مظهراً دينيا . فمن ناحية ، كان لرب الأسرة في الأرض منذ أقدم العصور مثيله في السماء : زيوس « الأب » (Pater) الذي ينتمي إلى التراث الهندي ـ الأوربي كما يتضح من اسم نظيره عند الرومان (lupiter) ونظيره عند الهنود القدماء (Dyaus Pita). وقد ثبت أن مركز زيوس (بل وسلوكه) عند هوميروس مستوحى من مركز (وسلوك) رب الأسرة عند هذا الشاعر [1] . وفي العبادة أيضا يظهر زيوس كرئيس إلهي للأسرة فهو يرعى الأسرة بوصفه أبا الناس (Patroos) ويحمي مسكنها بوصفه ربا لفناء المنزل (Herkeios) ، ويصون ممتلكاتها بوصفه حافظا لهذه الممتلكات (Ktesios) [2].وكان من الطبيعي أن تُسقط على الأب الإلهي تلك المشاعر المختلطة الغريبة التي كانت تجيش في صدر الابن نحو أبيه الآدمي ، وهي مشاعر كان يكبتها ولا يجسر على البوح بها لأحد . ولعل هذا يفسر جيداً سبب ظهور زيوس في العصر ما قبل الكلاسيكي كقوة مبهمة مستغلقة على الفهم تسبغ النعم والخيرات تارة ، وتنزل النقم والويلات تارة أخرى ؛ إذ يظهر كالإله الحسود الذي يضن على أبنائه بما يشتهون ، ثم يظهر أخيراً كالقاضي الرهيب ، العادل لكن في صرامة ، الذي يعاقب بلا رحمة خطيئة كبرى كالغطرسة . ومن ناحية ثانية ، كان التراث الثقافي الذي شاركت فيه بلاد الإغريق أثناء عصرها ما قبل الكلاسيكي ، كلاً من إيطاليا والهند يتضمن طائفة من المعتقدات الخاصة

---

(١) إن كلمة paterfamilias اللاتينية بمعنى « رب الأسرة » ورادفها في اليونانية عند هوميروس oikoio anax بمعنى رب البيت أو سيد الأسرة ، أنظر الأوديسيا ، ك ١ ، ب ٣٩٧ .

(٢) راجع ص ٢٢٣ فيما تقدم .

بالدنس ، وهو دنس أمدنا بتفسير طبيعي للشعور بالذنب المتولد عن الرغبات المكبوتة . وكان الإغريقي الذي يعاني من مثل هذا الشعور في وسعه أن يكسبه شكلا ملموساً بإقناع نفسه بأنه لا بد وقد لامس دنساً معيناً (miasma) ، أو أن ذنبه موروث عن جريمة دينية اقترفها أحد أسلافه . وأهم من ذلك أنه كان وسعه أن يتحلل من الشعور بالذنب بالسعي إلى تطهير نفسه تطهيراً شعائرياً . ومن الجائز أن يكون هذا مفتاحاً لفهم الدور الذي لعبته فكرة التطهير (katharsis) في الثقافة اليونانية ، وما تطور عنها تدريجياً من أفكار عن الخطيئة والتكفير من ناحية ، والتطهير النفسي الذي يتكلم عنه أرسطو من ناحية أخرى، وهو تطهير تتخفف به من الشعور بالذنب عن طريق تصوره كواقع ملموس في عمل فني كمسرحية من المسرحيات التراجيدية .

كانت الغاية من هذا الاستطراد هي البحث عن البواعث الكامنة وراء إيمان الإغريق بنبوءة دلفي . فمن الأمور المثيرة للدهشة حقاً هو قلة عدد من جاهروا بالشك فيها قبل العصر الروماني . كانت نبوءة أبولون في دلفي تتمتع بنفوذ راسخ. وقد ظلت محتفظة به حتى بعد موقفها الشائن من الإغريق أثناء الحروب الفارسية[١]. ففي تلك المناسبة لم يظهر أبولون أي علم مسبق أو روحاً وطنية . ومع هذا فإن قومه (الإغريق) لم يعرضوا عنه ساخطين بل إنهم — على النقيض من ذلك — تقبلوا بدون ارتياب أعذاره السقيمة لتغطية انسحابه وسحب كلامه. وليس معنى هذا أن الاغريق لم يفطنوا إلى احتمال حدوث خداع وتمويه في بعض الحالات ، وقصور وسطاء الإله وعدم عصمتهم من الخطأ . لكن هذا لم يزعزع من إيمانهم بوجود إلهام إلهي . ولا يمكن تعليل هذه الظاهرة إلا في ضوء أحوال

---

(١) راجع ص ١٤٠ فيما تقدم، حيث ذكرنا أن أبولون كان قد تنبأ بانتصار الفرس ، ولكن الإغريق خرجوا من الحرب منتصرين.

العصر ما قبل الكلاسيكي الاجتماعية والدينية التي مر بنا شرحهـا . ففي عصر كانت تسوده - كما نوهنا - « ثقافة الشعور بالذنب » كانت الحاجة أشد مـا تكون إلى قوة خارقة ، وسلطة عليا متجاوزة سلطة الانسان ، لـكي تبعث الطمأنينة في قلوب الناس.ولم يكن عند الاغريق « كتاب مقدس » أو« كنيسة» ولهذا السبب جاء أبوللون كوكيـل في الأرض عن رب السماء كي يسد هذا الفراغ . وبدون دلفي كان من المتعذر على المجتمع أن يتحمـل ضغط الظروف المتوترة التي تعرض لها في العصر ما قبل الكلاسيكي : فالإحساس الطاغي بجهالة الإنسان ، وضعفه ، وافتقاره للأمان ، والرهبة من حسد الآلهة ، والرعب من الدنس ، والعبء المتراكم من هذه المشاعر ، لم يكن من المستطاع احتماله بدون اليقين الذي يمكن أن يبثه في قلوبهم مفتٍ إلهي عليم بكل شيء كأبوللون : اليقين من أنه كان هنالك وراء الجهل والفوضى علم وغاية . كان أبوللون قادراً - بما أوتي من علم إلهي - على أن ينبئك بما ينبغي أن تفعله عندما ينتابك قلق أو خوف ، إذ كان يعرف القواعد المعقدة في السلوك الذي يسلكه الآلهـة إزاء البشر . وكان أبوللون هو أعظـم إله واقٍ من السوء . وقد آمن به الاغريق وبنبوءته لا لأنهم كانوا قوماً سذجاً بلهاء مستسلمين للخزعبلات بل لأنهم لم يكن في وسعهم الاستغناء عن هذه النبوءة . وعندما تضاءل شأن نبوءة دلفي - على نحو ما حدث في العصر الهلينستي - لم يكن السبب الرئيسي أن النـاس قد أصبحوا أكثر تشككاعن ذي قبل (كما ظن شيشرون) بل لأن طقوساً أخرى لتحقيق الاطمئنان الروحي قد أصبحت ميسورة .

أساطير أبوللون :

ولا يبقى بعد ذلك سوى أن نسرد بعض أساطير أخرى نسجها خيـال

الإغريق حول أبولون : مولده وخصوماته وغرامياته وابنه اسكليبيوس . كان أبولون – كإله أوليمبي – يعتبر ابنـــاً للإله زيوس الذي أنجبه من الربة ليتو (Leto) ، المنحدرة من صلب الجبابرة[1] . ويحكى أن ليتو هذه هامت على وجهها وهي حامل في أبولون فجابت بلاد اليونان ، دانيها وقاصيها ، وطافت بكل جبالها ، وتنقلت بين جزرها المتاخمة في البحر الإيجي . ذلك لأن الربة لم تجد مكاناً واحداً يقبل استضافتها أو يرحب بوليدها المنتظر. وتختلف الروايات في السبب فإحداها (وهي النشيد الديني الهوميري لأبولون) تقول إن كل مكان كان يخشى أن يكون المولود إلهاً جباراً رهيباً . والأخرى(وهي متأخرة زمنياً لكنها أقرب إلى العقـــل) تقول إن كل مكان كان يخشى نقمة هيرا الغيور التي حذرت الجميع من استقبال غريمتها، بل قررت ألا تلد ليتو في أي بقعة من الأرض تسطع عليها الشمس . وأخيراً رضيت ديلوس[2] ، وهي أصغر جـــزر البحر الإيجي وأجدبها وأحقرها شأناً ، بإيواء ليتو . وتتضارب الروايات مرة أخرى حول سبب ذلك . تقول إحداها إن ديلوس ما قبلت الترحيب بليتو إلا بعد أن أقسمت الربة للجزيرة بنهر استيكس – وهو قَسَم عظيم – بأنها ستكون أول مكان يقام فيه معبد لابنها المرتقب ، وبالتالي سوف تتدفق عليها الثروة مع ألوف الحجاج الوافدين لزيارة هذا المعبد . وهكذا استطاعت أن تبدد بعض مخاوف الجزيرة التي رحبت بها ترحيباً لا يخلو من الرهبة إذ سمعت هي الأخرى أن الوليد سيكون إلهاً جباراً رهيباً ، فتوجست خيفةً من أن يفتـــح الإله عينيه على صخورها المقفرة فينظر إليها شذراً أو يشيح بوجهه عنها ضجراً فيلكزها بعيداً

---

(١) راجع ص ٢٢١ فيما تقدم .

(٢) تسمى ديلوس – في الأساطير – أورتيجيا Ortygia ، وهو أسم قديم لها ، وإن كان قد أطلق أيضاً على أماكن أخرى مثل افسوس .

أو يدوسها فتغوص في أعماق اليم، وعندئذ لن يسكنها الناس بل تسكنها عجول البحر ويهجرها الإله غير نادم . وفي رواية أخرى أن ديلوس ما رضيت باستضافة ليتو وهي حامل إلا لأن ديلوس كانت وقتئذ جزيرة عائمة غير ثابتة في مكان واحد . وقد أبقاها بوسيدون مغمورة بمياه البحر مانعاً بذلك أشعة الشمس من السطوع عليها حتى وصلت إليها ليتو. وهكذا وجدت ديلوس نفسها في حِلٍّ من قرار هيرا [1] .

واستسلمت ليتو لآلام الوضع . غير أن ولادتها تعسرت فظلت تتوجع سبعة أيام وسبع ليال وجعاً جاوز حد الاحتمال . وأقبلت عليها جميع الإلهات ما عدا هيرا التي دفعها الحقد إلى احتجاز ابنتها إيليثويا ، ربة الولادة ، ويقال إنها أخفتها وراء ستار من السحب فوق جبل أوليمبوس حتى لا ترى شيئاً مما يجري فتتحرك نخوتها [2] . وعندئذ أوفدت الإلهات من الجزيرة الرسولة إيريس (Iris) لاستدعاء إيليثويا ، واعدات بمكافأة الربة على خدماتها بعقد ثمين [3] . ولم تتردد ربة الولادة في قبول العرض وجاءت هي وإيريس طائرتين إلى ديلوس، في شكل يمامتين . وما إن وطئت أقدامها أرض الجزيرة حتى وضعت ليتو أولاً أرتميس ثم أخاها التوأم أبولون . ويروى أنه عندما جاءها المخاض أمسكت بجذع شجرة من أشجار النخيل وعجنت بقدميها طين أرضها التي أصبحت رخوة . وقد تضاحك الثرى من تحتها ووثب الإله من رحمها وتصايحت الإلهات

---

(١) إن اختيار « ديلوس » التي تشغل موقعاً وسطاً ولكنه عديم الأهمية السياسية كمسقط رأس لأبولون إنما يرجع إلى أنها كانت مركز الاحتفال الأيوني الجامع الكبير المسمى Panionia.

(٢) عن إيليثويا أو إيليثيا ، راجع ص ٢٢٦ .

(٣) كانت إيريس Iris رسولاً إلهياً لزيوس وهيرا . ويرد اسمها كثيراً في الإلياذة ولكنها لا يرد أبداً في الأوديسيا حيث يمارس الإله هرميس اختصاصها .

وتلقفن الوليد مبتهجات وغسلنه بماء أقاح ولففنه بقماط ناصع البياض. ولم ترضعه أمه بل أرضعته « ثميس » بالنكتار والأمبروسيا [1] . فما إن رشف من الرحيق الرباني وذاق طعم الغـذاء الإلهي حتى دبت فيه القوة فتملص من قماطه في لمح البصر . وقال للإلهات المتجمعات من حوله « إن القيثارة والقوس أثيران إلى نفسي ، ولسوف أعلن للناس في نبوءاتي مشيئة زيوس التي لا محيص عنها ولا راد لها » . وفغرت الإلهات أفواههن مشدوهات . وتألقت ديلوس تألـق الذهب الإبريز ، وأينعت الجزيرة أيما إيناع، وانبعث من جنباتها أريج شذي ، وطاف حولها البجع سبع مرات مترنما بأعذب الأنغام . ويقول البعض إن الشجرة التي استندت إليها ليتو لم تكن شجرة نخيل بل شجرة من أشجار الزيتون التي كانت تنمو بالجزيرة كالنخيل سواء بسواء. ويدعمون قولهم هذا بالشعيرة الدينية الغريبة التي كان يمارسها أهل ديلوس إذ كان المتعبدون هناك يحاولون ، وأيديهم موثقة خلف ظهورهم ، قضم لحاء شجرة الزيتون المقدسة التي أمسكت بها الربة ليتو عندما جاءها المخاض . وقد فسّرت هذه الشعيرة بأنها كانت في الأصل لعبـة ابتكرتها إحدى حوريات الجزيرة لتسلية الإله الطفل .

ورحلت ليتو مع طفليها أبوللون وأرتميس عن ديلوس متجهة إلى دلفي التي كانت تعرف وقتئذ بإسم « بيثو » وحيث كانت توجد منذ القدم نبوءة لإلهـة ميكينية ـ مينوية جعلها الإغريق صنواً لجايا ، ربة الأرض . وفي هذه الرحلة نسمع عن أول أعداء قهرهم أبوللون بعد ولادته بفترة وجيزة . وكان هـذا هو العملاق تتيوس (Tityos) الذي ينسبه هوميروس إلى زيوس من إحدى عشيقاته بينما تنسبه رواية أخرى إلى « جايا » ربة الأرض . ويبدو أن كلتا الروايتين

---

(1) عن « ثميس » (Themis) ، أنظر ص ٢١٩ حاشية ٢ ، فيما تقدم.

صحيحة [1] . فقد روى أنه بينا كان لا يزال في بطن أمه تضخم حجمه تضخماً أفضى إلى وفاتها ؛ ولذلك ولدته « الأرض » التي كان أبوه قد أخفاه في جوفها. وهاجم تتيوس الربة ليتو وهي في طريقها إلى دلفي محاولاً اغتصابها . وتصدى أبوللون للدفاع عن أمه وصوّب نباله إلى صدر العملاق وصرعه . وفي رواية أخرى أن أرتميس هي التي صرعته بنبالها . وقد هوى العملاق إلى «ترتاروس» في جوف العالم السفلي ، وانطرح جسمه الضخم أرضاً شاغلاً مساحة ضخمة بينا أخذ رختّان ينهشان أبداً كبده الذي كان ينمو من جديد كلما ظهر القمر.

ولم تنته متاعب الآلهة الثلاث بصرع العملاق تتيوس . فما إن بلغ الركب الإلهي دلفي حتى تصدت له التنينة (أو التنين في روايات لاحقة) بيثون . وكانت تسكن في عرين بكهف قريب من أحد الينابيع ، ولعلها كانت متكورة حول شجرة من أشجار الغار . ويروي أن هذه التنينة (أو التنين) كانت قد طاردتِ ليتو وهي حامل كي تمنعها من الولادة بتحريض من هيرا . وأياً كان السبب فقد نشب صراع رهيب وانتقم أبوللون من بيثون وقتلها بنباله شر قتلة . ومن المعروف أن من بين الصيحات الشعائرية التي كان أبوللون ينادي بها هي صيحة HIE أو IE ، وهي أداة نداء مجهولة الأصل من الناحية اللغوية . لكن نظراً التشابه الصوتي بينها وبين كلمة hiei اليونانية بمعنى « إضرب ! » (أي أطلق النبل أو السهم) فقد نسج الخيال حولها تفسيراً بأنها هتاف صدر عن المشاهدين عندما رأوا أبوللون يهاجم بيثون فصاحوا به «إضرب ! إضرب !» . وليست هذه بالأسطورة بل مثل من أمثلة الاشتقاق اللغوي الباطل الذي كان

---

(١) عن « تتيوس » ، راجع ص ٢٢٧ فيما تقدم .

سائداً قبل عصر العلم . وعلى أي حال فقد انتصر أبوللون واستولى على المعبد القديم الذي تعاقبت على سيادته من قبل ثلاث إلهات : جـــايا وثميس وفويبي (Phoibê) والأخيرة هي أم ليتو ، ويشابه اسمهالقب فويبوس (Phoibos) ، أشهر ألقاب أبوللون. وكانت دلفي ـ بالإضافة إلى قدسيتهاـ أحد الأماكن التي بدت في عين الإغريق كأنها مركز للأرض أو سرتها (Omphalos) . وقد روينا من قبل أسطورة النسرين اللذين أطلقهما زيوس من شرق وغرب في وقت واحد ، والتقائهما عند دلفي ، متوصلا بذلك إلى تحديدها كمركز للارض . وقد تبدد مؤخراً الأمل في أن بعثة الآثار الفرنسية قد عـــثرت على صخرة « الأومفالوس ». [1] واتخذ أبوللون من دلفي مركزاً لنبوءته التي أصبحت أهم مراكز النبوءة وأشهرها في العالم الهلليني . لكن التنينة كانت مخلوقاً مقدساً . لذلك وجد أبوللون نفسه مضطراً إلى تطهير نفسه من دنس القتل . ذلك لأن القتل ـ أياً كان نوعه ـ كان من شأنه أن يلوث تلقائياً يد القاتل بدم القتيل . وكان أنصار عبادةأبوللون ـ على نحو ما ذكرنا ـ [2]يحيون ذكرى هذه المناسبة في « عيد الأكاليل » (Stepteria) الذي كان يحتفل به في دلفي مرة كل ثماني سنوات [3] .

---

(١) راجع ما قلناه في ص ١٣٣ (حاشية ٣) فيما تقدم .

(٢) راجع ص ٢٩٨ ـ ٣٠٠ فيما تقدم .

(٣) وجدير بالذكر أن هذه الفترة ـ فترة السنوات الثماني ـ كانت ذات أهمية في ضبط التقويم اليوناني . كانت الشهور عند الإغريق قمرية ، وكانت السنة تتكون من ١٢ شهراً كل منها يتألف من $\frac{1}{2}$ ٢٩ يوم على وجه التقريب ، أي أن السنة القمرية المؤلفة من ٣٥٤ كانت تنقص عن السنة الشمسية بحوالي $\frac{1}{4}$ ١١ يوم . وكان هذا الفرق يزيد في خلال ثماني سنوات فيبلغ ٩٠ يوماً .وقد عملوا على تدارك ذلك بإضافة ثلاثة شهور قمرية كل ثماني سنوات . ومن هنا نشأ الاعتقاد بأن ثماني سنوات ، أو حتى أربع ، هي فترة زمنية طبيعية مقابلة للسنة أو الشهر .

وقد رويت عن علاقات أبوللون الغرامية قصص كثيرة وإن كانت لا تنتهي دائماً بنهايات سعيدة بل إن معظمها ـ وأوسعها شهرة ـ ينتهي بنهاية مفجعة سواء أكان المحبوب فتى أم فتاة . كان هياكينثوس (Hyacinthus) – الذي مر بنا ذكره [1] – إلهاً قديماً موجوداً قبل مجيء الإغريق . وكان يعبـــد في بلدة أميكلاي (المتاخمة لموقع أسبرطة) بإقليم لاكونيا . وفي أكبر الظن أنه كان في الأصل إلهاً للنبات ويرمز – مثل أدونيس – للدورة الزراعية . ولما جاء أبوللون ارتبطت عبادة هياكينثوس بعبادته إن لم يكن أبوللون قد انتحل لنفسه هذه العبادة فأصبح أحياناً إلهاً للنبات . لكن خيال الإغريق ربط بين الإلهين ربطاً أسطورياً جاعلاً من هياكينثوس فتى وسيماً وحبيباً لأبوللون وإن ظل يظهر في الفن الديني المحلي كرجل ذي لحية (كاشفاً بذلك عن أصله). ويظهر في الأساطير كغلام رقيق تتنافس ربات الفنون في حبه ، ويرسم أحياناً راكباً بجعة ، وهي طائر – كالغراب – أثير لدى أبوللون . وقد عشق أبوللون هذا الصبي الجميل . وكان يلعب معه أحياناً لعبة رمي القرص . وفي أحد الأيام أصاب أبوللون حبيبه بالقرص إصابة قاتلة عن غير قصد ، وإن قيل أيضاً أن زفيروس (Zephyros) إله رياح الغرب ، ومزاحم أبوللون في حب هياكينثوس ، هو الذي جعل القرص ينحرف فجأة ويصيب الفتى في رأسه إصابة مميتة . وأياً كان الأمر فقد حزن عليه أبوللون حزناً شديداً فسعى جاهداً إلى تأليهه . ومن ثم فقد نبتت من دمه المسفوك زهرة لاتزال تحمل اسمه وهي الهياسنث hyacinth ، تخليداً لذكراه ، وإن كانت تلك الزهرة لا تطابق هذا النبات البصلي ، بل هي في الواقع زهرة من نوع السوسن أو الياسمين البري ، وتظهر على أوراقها علامات تقارب في شكلها حرفي ألفا وأيوتا اليونانيين AI AI واللذين يؤديان معنى « واحسرتاه ! » . وقد عُبد هياكينثوس بعد مصرعه كبطل وقُرنت عبادته – كما ذكرنا – بعبـــادة

---

(١) راجع ص ٣٠٧ فيما تقدم .

أبوللون ، وأنشىء احتفال ديني(Hyacinthia)تمجيداً له [1] ، كما أطلقت بعض المدن الدُورية اسمه على شهر من شهور السنة .

وكانت دافني (Daphnê)— ومعنى اسمها الغار — هي أول فتاة مس حبها شغاف قلب أبوللون . كانت أمها — على ما يرجح — هي جايا نفسها ربة الأرض. وأما أبوها فتختلف الروايات في أمره ، فهو تارةً الإله النهر « لادون » بإقليم أركاديا ، وتارة أخرى « بينيوس » ، الإله النهر ، سيد وادي تمبي بإقليم تساليا، وتارةً ثالثة « أميكلاس » أحد أنهار لاكونيا . وكانت فتاة فطرية كالطبيعة ، عذراء كأرتميس التي لقبت هي الأخرى بدافنيا (Daphnia)في بعض الأحيان. ولم يكن أبوللون وحده هو الذي أحب دافني ، فقد أحبهـا أيضاً شاب عريق الأصل هو ليوكيبوس بن أوينوماوس ملك بيسا (بإقليم إيليس) . وقد تنكر ليوكيبوس في شكل فتاة كي يستطيع مرافقة دافني دون حرج . وأثار ذلك غيرة أبوللون فأوعز إليها أن تقبل الاستحمام مـع فتاها في أحد الأنهار ونزلت دافني ذات يوم لتستحم مع بعض الحوريات. لكن سرعان ما اكتشفت صويحباتها حيلة ليوكيبوس . ولقي المسكين حتفه بغتةً أو اختفى إلى الأبد فقـد صرعته الصائدات العذراوات من رفيقات أرتميس أو أغرقته الحوريات . ومع هذا فإن دافني لم ترضخ لأبوللون الذي ظل يتعقبها من مكان إلى مكان. وحدث في يوم أن طاردها حتى أوشك أن يظفر بها فتوسلت إلى أمها وربة الأرض، أن تنقذها منه فمسختها شجرة غار . ومنذ ذلك الحين أصبحت هـذه الشجرة عزيزة على نفس أبوللون حتى أنه كان يزين جبينه دائماً بغصن منها [2].

وكان غرام أبوللون بكاسَندرا Cassandra (أو أليكساندرا) ابنة

---

(١) راجع ص ٣٠٧ فيما تقدم .
(٢) ومن ثم لقب هو الآخر بدافنايوس (Daphnaios)

بريأموس ، ملك طروادة ، إحدى قصص حبه المفجعة . فقد شغف الإله بهـا حباً فغمرها بعطفه وأغدق عليها الكثير . وكان من بين ما وهبه لها القدرة على التنبؤ بالغيب . لكن كاسندرا تمنعت عليه ورفضت في النهاية الاستسلام له . ولما كان أبولون – بوصفه إلهاً – لا يسترد ما وهبه ، فقد صمم على الانتقام بطريقة أخرى . لقد أبقى لها القدرة على التنبؤ لكنه جعل من هذه القدرة نقمة عليها بدلاً من أن تكون نعمة . ذلك لأن الإله لم يدع أحداً من الناس يصدق كاسندرا أبداً على الرغم من أنها كانت لا تنطق إلا بصادق التكهنات . فقـد نبهت بني قومها – مثلاً – إلى الخطر الذي كان يتهدد طروادة وحذرتهم فعلاً من إدخال « الحصان الخشبي » إلى المدينة . لكن تحذيرها لم يلق منهم قـط آذاناً مصغية بل قوبل بالاستنكار أو السخرية . ومن المستحيل الآن أن ندرك كنه شخصية كاسندرا الغامضة وإن كانت من أكثر الشخصيات تأثيراً في النفس. وليس من المستبعد أنها كانت امرأة حقيقية وسيدة طروادية من أسرة عريقة ، رفيعة المقام . ولعلها كانت ذات قدرات معينة أهلتها لأن تكون « وسيطة روحانية » . وفي الحق أنها كانت تبدو شاردة اللب ، ملتاثة العقل وكأنهـا « مجذوبة » أو تقمصتها روح كالنبيّة بيثيا أو سيبوللا . وقد تناقلت الأجيال التالية ذكرى قدراتها الغريبة . كانت كاسندرا ساعة سقوط طروادة فتاة عزباء لم تتزوج بعد . وقد استجارت بعد سقوط المدينة بمعبد الربة أثينة في إليون (طروادة) . لكن أياس الأصغر ، وهو بطل إغريقي من لوكريس الشرقية[1] ، اقتحم المعبد وجرجر كاسندرا بعيداً عن تمثال الربة الذي لاذت بحماه ثم اغتصبها

---

(١) وهو غير أياس (أجاكس) الأكبر ، البطل الشهير من سلاميس . ولوكريس الشرقية هي المسماة أحياناً « الأبونتية » ، راجع ص ١٢١ فيما تقدم.

عنوة [1] . وبسبب تدنيس أياس لحرمة المعبد فقد اضطر قومه من سكان لوكريس الشرقية أن يرسلوا من بعده في كل عام بعض فتيات من أعرق البيوتات لكي يعملن كخادمات أو إماء في معبد أثينة في طروادة . فإذا اتفق أن وقعن وهن في طريقهن إلى المعبد في أيدي أهل طرواة ، فإنهن كن يقتلن على الفور . وأما إذا بلغن المعبد سالمات فإنهن كن يُكرَهن على القيام بأحط الأعمال وأوضعها لمدى الحياة . وليست هذه أسطورة بل حقيقة تاريخية . ولدينا الدليل المستمد من المؤلفات ومن النقوش على إرسال هؤلاء الفتيات البائسات إلى طروادة ، وعلى استمرار أهل لوكريس أو على الأقل عشيرة أياس (الأصغر) في التكفير عن ذنبه مدة طويلة استغرقت ألف عام ، ولم تنقض هذه المدة إلا قبل عام ١٠٠ بعد الميلاد. ولا يمكن أن تتصرف أسر نبيلة من لوكريس على هذا النحو تحت تأثير الوهم فقط . والاستنتاج المعقول الوحيد هو أن جريمة أياس كانت حقيقة واقعة . ومن ثم فمن المحتمل أن يكون اسم ضحيته — بل ونسبها العريق — قد ظل عالقاً بذاكرة الناس دون تحريف .

ولعل القصة الوحيدة التي انتهت نهاية سعيدة هي قصة حب أبولون الفتاة كيريني (Cyrênê) ، حفيدة الإله النهر بينيوس . كانت كيريني (أو قوريني) صيّادة عذراء أشبه ما تكون بأرتميس التي قيل إنها أهدتها كلبين من كلاب

---

(١) إن هوميروس قلما يشير إلى كاسندرا في الإلياذة ، ولا يذكر شيئاً عن قدرتها على التنبؤ. لكن الملحمة الصغيرة المسماة « تدمير إليون » — وهي إحدى ملاحم « الحلقة الملحمية » — تذكر واقعة اغتصاب أياس لكاسندرا. ومن المحتمل أن يكون هوميروس قد سمع عن هذه القصة حيث يقول (في الأوديسيا ، ك ٤ ، ب ٥٠٢) إن الربة أثينة كانت تكره أياس . ولعل بنداروس ، الشاعر الغنائي (في أوائل القرن الخامس ق.م.) هو أول من تحدث عن كاسندرا كعرافة قادرة على التنبؤ بالغيب .

الصيد . وكانت تعيش في غابات جبل بيليون (في شمال تساليا) ، وتحرس أغنام أبيها من الوحوش المفترسة . وحدث ذات مرة أن رأى أبولون الفتاة تصارع وحدها أسداً وهي عزلاء من السلاح. وتملكه إعجاب شديد بها سرعان ما انقلب إلى حب جارف . ولم يلبث أن اختطفها في عربته التي يجرها البجع وحملها إلى شمال إفريقيا حيث أسس بعض الإغريق فيما بعد مدينة تحمل اسمها وهي قوريني (Cyrênê) في ولاية برقة [1] . وهناك أنجبت منه طفـــلا اسمه أريستايوس (Aristaeus) ، ومعناه « خـــير كائن في الوجود » . واشتهر أريستايوس بإتقانه عدة حِرَف ريفية كرعي الأغنام وحراسة الماشية ، وعصر الزيتون ، والمهارة في نوع معين من الصيد . ويقال إنه ابتدع تربية النحل . وفي أسطورة – رواها فرجيل ، شاعر الرومان – نجد أريستايوس هذا يهيم حباً بيوريديكي ، زوجة أورفيوس ، ويطاردها فتهرب منه . وتطأ قدماها ثعباناً ساماً فيلدغها لدغة مميتة . وقد انتقمت أخوات يوريديكي الحوريات منه بأن دمرن كل خلايا النحل الذي كان يربيه . ونصحته أمه باستشارة بروتيوس ، إله البحر القديم ، الذي شرح له سبب مصيبته . وعندئذ حثته أمه (كيريني) على أن ينحر بعض عجول ويقدمها قرباناً للحوريات استرضاءً لهن . وعندما هدأ غضبهن عليه عاد بعد تسعة أيام ليجد رمم العجول تعج بأسراب النحل من جديد . وقـــد عُبد أريستايوس كإله أو بطل في تساليا ، حيث نشأت عبادته ، وفي قوريني ، وكيوس (Ceos) ، وبويوتيا وأماكن أخرى .

---

(١) أسس هذه المدينة إغريق دوريون من جزيرتي تيرا وكريت حوالي عام ٦٣٠ ق٠م٠ وتسمى « قوريني » الآن ببلدة « الشحات » التي تبعد عن بنغازي حوالي ساعتين بولاية برقة في ليبيا .

وما دمنا بصدد مغامرات أبوللونفلا ينبغي أن ننقل قصة ميلاد ابنه الشهير أسكليبيوس(Asclepius) [1] ، الطبيب الإلهي أو إله الطب المداوي [2] . ولا يزال الخلاف قائماً حول طبيعة أسكليبيوس ، وهل كان في الأصل بطلاً أم إلهاً، وإن لم يكن هناك شك في أنه عُبِد كإله منـــذ العصر الكلاسيكي . وخلاصة القصة أن فتاة تُدعى كورونيس(Coronis)ـوهي ابنة فليجياس ملك إحدى القبائل الأسطورية في شرق تساليا ـ كانت تغسل قدميها ذات مـــرة في بحيرة بويبيس (Boibéis) قرب جبل أسّا . ورآها أبوللون فأعجب بها . وتم اللقاء بينهما وحملت منه . واتفق أن جاء وقتئـــذ من أركاديا ضيف يدعى إسخيس (أي القوي) Ischys ابن إيلاتوس . ولم تستطع كورونيس مقـــاومة إغراء الزائر الجديد فاستسلمت له في الخفاء أو قبلت الزواج منه .وحمل نبأ هذا الزواج إلى أبوللون طائر محبب إليه وهو الغراب الذي كـــان ذا لون أبيض فبدّله الإله فيسورة غضبه لوناً أسود[3].وفي رواية أخرى أن أبوللون الذي وسع علمه كل شيء قد عرف الخبر من تلقاء نفسه . وعلى أي حال فإن خيانة كورونيس لم تخف على الإله الذي عهد إلى أخته أرتميس بالانتقام منها فرمتها بنبالها القاتلة، وفي رواية أخرى أنه هو الذي صرعها بسهمه . لكن حب كورونيس تحرك في قلبه فجأة فحاول انقاذها دون جدوى إذ كان الأوان قد فـــات وبدأت كورونيس تلفظ أنفاسها الأخيرة . وعندئذ أشفق على مصير الجنين الذي في

---

(١) حرف هذا الأسم اليوناني وصار يكتب Aesculapius في اللاتينية عندما أدخلت عبادة أسكليبيوس في روما عام ٢٩٣ ق.م. للاستعانة بالإله على التخلص من وباء شديد.

(٢) راجع ص ٢١٠ ، ٣٢٤ - ٣٢٥ ، حاشية ٢ فيما تقدم

(٣) راجع ، مع هذا ، ص ٢٧١ فيما تقدم حيث ينسب تبديل لون الغراب إلى الربـــة أثينة .

بطنها ولم يتحمل أن يراه يهلك مع أمه ، فبادر بانتزاعه من جثتها . هكذا كان مولد اسكليبيوس الذي سلمه أبوه لخيرون (Cheiron) ، وهو أشهر القناطرة (Centauri) ، وأكثرهم حكمة[1]. ولقنه خيرون فن الطب . وأتقن أسكليبيوس هذا الفن الذي بلغ على يديه ذروته . وذاع صيته كطبيب قادر على شفاء مختلف الامراض .

وقد تزوج أسكليبيوس وأنجب ولدين ورثا عنه مهنته[2] . ولا نسمع في الإلياذة عنه مباشرة وإنما عن هذين الولدين وهما بوداليريوس (Podalirius)

---

(١) القناطرة (Centauri) مخلوقات خرافية يصفها هوميروس بأنها حيوانات متوحشة ، لكنها تظهر في الأساطير كمخلوقات نصفها الأعلى في هيئة البشر ، ونصفها الأسفل في هيئة الخيل . ويقال أحياناً إنها تنحدر من صلب « إكسيون » الذي حاول مرة اغتصاب هيرا نفسها فحاق به عذاب أليم (راجع ص ٢٣٨) . وكانت تعيش عند جبل بيليون في تساليا . وقد عرفوا بجموح الشهوة والشغف بالنبيذ ، والهمجية . واشتهر القناطرة بصراعهم مع اللابيثيين (Lapithae) ، وهم شعب خرافي كان يسكن أيضاً في جبال تساليا ، وكان بريثوس (Pirithoos) ـ وهو أخ غير شقيق لإكسيون ـ ملكاً عليهم (راجع ص ٢٣٨) . وعندما تزوج بريثوس أقيم حفل كبير دعي إليه القناطرة ، ولكنهم حاولوا اغتصاب العروس وغيرها من نساء اللابيثيين . ونشبت معركة رهيبة انتهت باندحار القناطرة وطردهم . ولعل نشأة الاعتقاد بشكل القناطرة العجيب ، يرجع إلى اشتهار أهل تساليا بتربية الخيول ومهارتهم في الفروسية واعتيادهم صيد الثيران وهم ممتطون صهوات الجياد . وقد نحت المثالون الإغريق صورة المعركة بين القناطرة واللابيثيين على المربعات أو الفضاءات (metopes) التي تزين إفريز معبد البارثنون فوق الأكروبول بأثينا . ومقص (pediment) معبد زيوس في أوليمبيا ، وسطح « مزهرية فرنسوا » الشهيرة . وترمز هذه المعركة إلى صراع الإغريق ضد الفرس وانتصار مدنية الإغريق على همجية البرابرة (الفرس) .

(٢) ومن بنات أسكليبيوس الرمزيات : هيجيايا Hygieia (ربة الصحة) وياسو Iaso (ربة الشفاء) ، وبناكيا Panacea (ربة العلاج العام أو الدواء لكل داء).

وماخاؤون (Machaon) اللذان يقول الشاعر إنهما وفدا من بلدة تريكا Trikka (على نهر بينيوس بإقليم ثساليا) [1] . وكانا كأبيهما طبيبين ماهرين ، ورافقا الجيش الإغريقي إلى طروادة لمعالجة المرضى ومداواة الجرحى . ويوصف أسكليبيوس في قصيدة المثيلات« Eoiai » لهسيود بأنه طبيب آدمي أنجبه أبوللون من فتاة آدمية هي كورونيس .ويتحدث عنه الشاعر بنداروس كبطل في وسعه أن يشفي جميع الأمراض . وفي الحق أن المقدرة على الشفاء لم تكن مقصورة على أسكليبيوس إذ كان في وسع بعض آلهة آخرين – وفي مقدمتهم أبوه القادر على الشفاء – وبعض أبطال مثل هيراكليس ، شفاء المرضى .

وقد ذكرت أن فن الطب بلغ الذروة على يد أسكليبيوس . وزادت ثقة الطبيب بنفسه حتى ذاع في الحي أنه كان قادراً لا على شفاء كل الأمراض وحسب بل على إحياء الموتى أيضاً. وتوسلت اليه الربة أرتميس أن يعيد صفيّها هيبوليتوس إلى الحياة بعد مصرعه [2] . وشفعت توسلها اليه بأن وعدته بأجر

---

(١) تقع تريكا (Trikka) في ثساليا ولكنها ليست في شرقها (حيث تقع بحيرة « بويبيس » . ويرجح الباحثون أن تريكا كانت مسقط رأس أسكليبيوس أيضاً .

(٢) هيبوليتوس(Hippolytus)ـ في الأساطير ـ هو ابن البطل الأثيني ثيسيوس Theseus (راجع ص ٩١ حاشية ١) من زوجته أنتيوبي (Antiopé) ، ملكة الأمازونات (راجع ص ٢٧٥) أو من أختها هيبوليتي (Hippolyté) . ولما ماتت تزوج ثيسيوس من فايدرا (Phaedra) ، أخت أريادني ، ابنة مينوس ، ملك كريت . وقد اشتهر هيبوليتوس بقيادة العجلات الحربية والصيد ، وكان أثيراً لدى قلب أرتميس ، إلهة الصيد . وقد وقعت فايدرا ، زوجة أبيه ، في حبه، لكنه لم يبادلها غرامها الأثم وأعرض عنها في ازدراء رافضاً تدنيس فراش أبيه . وعندئذ اتهمته زوراً عند أبيه بأنه راودها عن نفسها وحاول اغتصابها ، وصدقها أبوه فلعنه وطرده داعياً عليه بالهلاك. واستجاب له بوسيدون، إله البحر ، الذي كان قد وعده بتحقيق ثلاث من أمنياته . ورحل هيبوليتوس راكباً عربته وسار بمحاذاة شاطىء ترويزن (إحدى مدن أرجوليس). وخرج وحش من البحر فارتاعت الجياد واضطربت وفقد هيبوليتوس سيطرته عليها،=

سخى إن هو حقق رغبتها . وبالفعل تمكن أسكليبيوس من إحياء الميت . هكذا تجاوز أسكليبيوس حده كبشر ، وانتهك ناموس الطبيعة ، وافتأت على حق الآلهة مثيراً بذلك حسد زيوس ونقمته ،فعاقبه كبير الآلهة بأن أرسل عليه صاعقة أردته قتيلا.

ومن ثم نشأ تأليه أسكليبيوس البطل فصار إلهاً . وعلى هذا النحو كان يعبد منذ القرن الخامس ق.م وقد أصبحت بلدة إبيداوروس (Epidaurus) بإقليم أرجوليس ، أهم مركز لعبادته حتى راجت قصص تزعم بأنها كانت مسقط رأسه . وقد شيد فيها منذ أوائل القرن الرابع ق . م معبد (hieron) لاسكليبيوس كان المرضى يترددون عليه التماساً للشفاء . وكان المرضى – بعد القيام بشعائر دينية معينة – يرقدون في رواق ملحق بالمعبد مفترشين جلود الأضاحي ، وينامون الليل فيرون رؤى وأحلاماً تتضمن وصفات علاجهم من الأمراض ، أو قد يتجلى الإله نفسه لهم أثناءها ويشفيهم من أمراض كالشلل والعمى . وهذا ما سبق أن وصفناه « بالرقود » (incubatio) [1] ولعل هذه

=وتشابكت حول جسمه أعنتها فهوى على الأرض وظلت الخيل تجرجره حتى قضى نحبه . وقد شنقت فايدرا نفسها خزياً وندماً . ويروى أن ثيسيوس لم يكتشف الحقيقة إلا في لحظة موت ابنه . وقيل إن أرتيميس هي التي أطلعته عليها لأنها كانت تحب هيبوليتوس لتفانيه الشديد في الصيد، ولعفته وطهارته .

(١) راجع ص ١٣٤ – ١٣٥ ، حاشية ٢ فيما تقدم . وقد أمدتنا مجموعة من النقوش اليونانية اكتشفت في المنحدر الجنوبي للأكروبول بأثينا ، وفي معبد إبيداوروس بمعلومات وفيرة عن هذا الموضوع . وكلها ترجع إلى أواخر القرن الرابع أو أوائل القرن الثالث ق . م . وفي أكبر الظن أن شفاء المرضى كان مرده إلى الإيمان والإيحاء الذاتي ، فضلا عن بعض وصفات طبية معينة كالحمامات ونظام غذائي معين وتدريبات صحية أخرى . لقد كان معبد أسكليبيوس في إبيداوروس أشبه ما يكون بالمصحة (sanatorium) . وقد وصف لنا الشاعر الكوميدي أرسطوفانيس في رواية إله الثروة Ploutos (أبيات ٦٥٣ – ٧٤٧) ظاهرة « الرقود » وصفاً شائقاً لا يخلو من الفكاهة والتندر بكهنة المعبد .

الحقيقة ، إلى جانب ارتباط الثعبان بأسكليبيوس (وهو حيوان يقترن عادة بآلهة العالم السفلي) هو ما حمل بعض الباحثين على الاعتقاد بأن أسكليبيوس كان في الأصل إلهاً . لكن ما سقناه من شواهد لا يدعم هذا الرأي ، بل هي تشير إلى أنه كان في الأصل بطلاً صغيراً ثم صار إلهاً كبيراً . وأما اقتران صُور الإله بعصا يلتف حولها ثعبان فيرجع إلا الاعتقاد قديماً بأن الثعبان خواص شفائية مثله في ذلك مثل الكلب الذي يشاهد أحياناً مرسوماً برفقة أسكليبيوس [1] . وكان الديك قربانه المفضل ، إذ كان من المعتقد ـ ولا يزال في بعض الأقطار ـ أن للديك قدرة على الوقاية من السوء وطرد الأرواح الشريرة بل ومحاربة السحر الضار [2] . ومن هنا يغلب استخدامه في أعمال الشعوذة . وكثيراً ما يلقب أسكليبيوس بالمنقذ (Sôtêr) . وقد دخلت عبادته أثينا عندما انتشر فيها وباء (لعله الطاعون) عام ٤٣٠ ق . م أي بعد سنة من قيام الحرب البلوبونيزية . وقيل إنه دخل المدينة برفقة ثعبانه المقدس ، وهذا معناه أن الأثينيين صنعوا تمثالاً لإله الطب في صورة ثعبان . ورحب الأهالي بقدم أسكليبيتوس ، ونظم بعض الشعراء أناشيد في تمجيده (paeanes) وقد شيد أول معبد له بالمدينة عام ٤٢٠ ق . م .

وقد مر بنا كيف تجرأ أسكليبيوس على إحياء أحد الموتى مما أثار عليه غضب زيوس فصرعه بصاعقته . ولم يستطع أبولون أن يثأر لابنه من زيوس نفسه ، فاكتفى بالثأر من أعوانه « الكيكلوبيس » ، صانعي الصواعق ، وقتل ثلاثتهم جميعاً أو قتل أبناءهم [3] . هكذا لوّث أبولون يديه بدماء أفراد من

(١) كان من المعتقد أن لعقة الثعبان أو الكلب الجرح الصلب تساعد على شفائه ومن المعروف أن الطب له خواص علاجية . راجع :

(٢) راجع: Dodds , The Greeks and the Irrational (1959) , p. 114
Dodds, op. cit. pp.291 ; 304, n. 63.

(٣) عن « الكيكلوبيس » ، راجع ص ١٩٩ فيما تقدم .

عشيرته الإلهية ، فحقت عليه عقوبة النفي كأنه مـــواطن عادي يسري عليه القانون اليوناني ، وطُرد من السماء فترة من الزمن . وكان عليه أثناء هذه الفترة أن يعاني بعض المشاق كالعمل في خدمة واحد من البشر وذلك تكفيراً عن الذنب وتطهيراً من أي رجس رُبمـــا لحق به تلقائياً نتيجة القتل [1].

وكان من حسن حظ أبولون أنه قضى فترة العقوبة بالاشتغال كخادم أو عبد عند أدميتوس (Admetus) ، ملك مدينة فيراي في ثساليا . وكان أدميتوس معروفاً بالتقي والعدل والكرم . وقـــد كلف أبولون برعي ماشيته وتربية جياده [2] . وأحسّ أبولون بطيب معاملة الملك له فتفانى في خدمته فتكاثرت ماشيته وتحسنت جياده . وكان أدميتوس يريد أن يظفر بيد ألكيستيس (Alcestis) ، ابنة بلياس ، ملك مدينة إيولكوس [3] (على خليج بجَسَاي بثساليا) التي اشترط أبوها على راغب الزواج منها أن يأتيه وهو يقود عربـــة يجرها أسد وخنزير بري . وأعان أبولون سيده أدميتوس على إنجاز هذه المهمة العسيرة والفوز بيد ألكيستيس .

ويُروى أن أدميتوس نسي في حفل زواجه تقديم القرابين لأرتميس . فلما دخل غرفة نومه وجدها مليئة بالثعابين [4] . ولمـــا كان الثعبان كما ألمحنا

---

(١) راجع ص ٢٩٩ ، ٣٢١ - ٣٢٢ ، ٣٤١ فيما تقدم.

(٢) راجع ص ٣٠٨ فيما تقدم.

(٣) إيولكوس Iolcus هو الميناء الذي خرجت منه حملة ملاحي السفينة « أرجو » ، راجع ص ١٩٤ ، وأنظر أيضاً ص ١٢٥ فيما تقدم .

(٤) لكن مسرحية « الكيستيس » لشاعر يوريبيديس ، يقع هـــذا الحدث بعد سنوات من الزواج وكانت الكيستيس قد أنجبت خلالها ابنين تعزا سن الطفولة .

يقترن غالباً بالعالم السفلي ، فإن ذلك كان نذيراً بقرب رحيل أدميتوس عن هذه الدنيا إلى عالم الموتى . وإذ كانت روابط المودة - إن لم تكن المحبة - قد توثقت بين أبوللون وبين سيده فقد تدخل لمساعدته . ولجأ إلى الحيلة فدعى ربات القدر (Moirai)[1] إلى الشراب معه وأسكرهن حتى وافقن على إرجاء ساعة موت أدميتوس ، بل إنه تمكن من أن يحصل منهن على وعد بأن يبقين أدميتوس على قيد الحياة لو وجد شخصاً آخر يموت بدلاً منه. ولم يجد أدميتوس أحداً بين جميع أفراد أسرته (ولا أحداً من والديه اللذين كانا على قيد الحياة) لم يجد أحداً يقبل افتداءه سوى زوجته التي قبلت مختارةً أن تموت عوضاً عنه، واهبةً بقية عمرها لتكون امتداداً لعمره ، وضاربة بذلك المثل الأعلى في التضحية ونكران الذات . وماتت ألكيستيس في اليوم الموعود. ولم يطرأ على بال رواة هذه الأسطورة - قبل الشاعر يوريبيديس - ما ينطوي عليه سلوك أدميتوس من خِسّة وأنانية . لقد بدا لهم هذا السلوك طبيعياً لا غبار عليه لأن الرجل كان يعتبر بوجه عام أكثر قيمةً من المرأة ، فما بالك إذا كان ملكاً! ولم يكن مبدأ المساواة بين الجنسين قد ظهر بعد . واتفق أن هيأت الظروف لأدميتوس في تلك الآونة فرصة لتأكيد ولائه لأحد الأبطال الذين لا يقلون شأناً عن الآلهة ، إذ نزل هيراكليس البطل ضيفاً عليه بينما كان في بداية حداده وذروة محنته . لكنه أخفى حزنه عنه واحتفى به احتفاء كبيراً وأمر خدمه بالسهر على راحته، متظاهراً بأن الميت ليس واحداً من أفراد أسرته وإنما هو عابر سبيل غريب عنه . ومع هذا فقد اكتشف هيراكليس الحقيقة فازداد إعجابه بأدميتوس ، وأكبر صنيعه ، ورأى أن يرد له الجميل فتدخل في الأمر .

---

(١) عن « ربات القدر » ، راجع ص ٢١٩ هامش ٢ فيما تقدم .

ويروى أنه اصطرع مع هاديس ، إله العالم السفلي ، أو مع مَلاك الموت نفسه المسمى ثناتوس (Thanatos) ، وأرغمه على التخلي عن فريسته . ودبت الحياة في ألكيستيس من جديد وعادت سالمة إلى أسرتها. ولا ريب أن المغزى المقصود من القصة هو أن أخلص صديق للرجل هي زوجته المحبة . ويتبين من هـــذه الحكمة البدائية ومن بقية التفاصيل : كإمكان الاحتيال على « ربات القدر » بإسكارهن ، وقهر « الموت » ـ المتصور كقوة مادية مجسمة على يد بطل مفتول العضلات ، أن الأسطورة وليدة الخيال الشعبي ، وأنهـــا في الحقيقة « حكاية شعبية » .

أرتميس [1] : Artemis

في وسعنا أن نلاحظ في تاريخ أرتميس تغيراً كاملاً في صفتها ـ كشأنه في حالة أخيها أبوللون ـ من ربة غير إغريقية إلى ربة إغريقية . فاسمها ـ على ما يبدو ـ غير يوناني . وكانت الربة التي تحمل هذا الاسم من عصر قديم جداً ملكة أو سيدة « الحيوانات البرية » (potnia thêrôn) كما يلقبها هوميروس . وكانت إحدى الآلهـــات الكبريات بل كبرى المعبودات اللواتي عبدهن سكان البلقان قبل مجيء الإغريق ، وسكان الاناضول ، وأهل كريت المينوية . ونجد صورها مرسومة على عدد من القطع الأثرية ومن حولها حيوانات كالأسود . ومن أقدمها صورتها المرسومة على خاتم كريتي ، ثم صورتها على مزهرية من بويوتيا ترجع إلى القرن الثامن ق . م . ، وكـــذا الرسم البارز المنقوش على قطعة من العاج اكتشفت في اسميرنا (أزمير) أو بالقرب منها . ولا بد من أنها كانت تعرف بأسماء كثيرة لأنها عبدت في مناطق مختلفة يتكلم سكانها لغات مختلفة . فكانت تعرف في فريجيا باسم « كيبيلي » (Cybelê) [2] ، وباسم

---

(١) هي ديانا (Diana) عند الرومان .

(٢) عن كيبيلي ، أنظر ص ٣٨٩ هامش ٢ فيما يلي .

« ما » (Ma) في كبادوكيا . ولعلها كانت تحمل في كريت الاسم الذي حرفه الإغريق في لغتهم إلى بريتومارتيس (Britomartis) . ومن العسير أن نعرف أين سميت بأرتميس لأول مرة . ولعل اسم « أرتميس » الذي احتفظت به الربة في إفسوس (Ephesus) اليونانية لا يختلف كثيراً عن اسمها الأصلي على نحو ما احتفظت الربة – على الرغم من الإغريق – بكثير من صفاتها غير الإغريقية . لكن عبادة الربة القديمة تحت هذا الاسم كانت ترجع في أركاديا أيضاً إلى زمن بعيد .

كانت أرتميس كربة للحيوانات البرية تحمل لقب أجروتيرا (Agrotera) أي سيدة البراري، وهو لقب نلتقي به في الأدب اليوناني منذ الإلياذة . كانت على الأخص تشمل صغار الحيوانات برعايتها . ويعرف قراء الأدب اليوناني مدى غضب أرتميس من رؤية نسرين يلتهمان بقسوة أرنبة برية حبلى وما في بطنها من أجنة لم تولد بعد. ونسمع في إحدى الابتهالات الموجهة إليها ما معناه « أنت يا من تحنين على الأشبال الصغيرة من أبناء الأسود ، وتترفقين بصغار الحيوانات التي ترضع من ضروع أمهاتها الهائمة في القفار » . كانت أرتميس بوصفها راعية للحيوانات البرية ، راعية أيضاً للصيادين . ولا ينطوي ذلك على تناقض شديد كما يبدو لأول وهلة . فالصياد لا يعتبر نفسه عدواً لما يصطاد من حيوان . والثعلب ـ على ما يقال ـ يهوى المطاردة . وكثيراً ما يتحدث أصحاب الضياع عن « حفظ » الصيد والإبقاء على ما في أرضهم من حيوانات ويودون لو استطاعوا معاقبة من يزعجونها في الوقت غير المناسب وبالطريقة الخاطئة . وفي العصر الحديث يفرض القانون جزاء معيناً على مخالفي قواعد الصيد . لكن في العصور القديمة كان لدين يتكفل بالجزاء . ولعل أقدم مثال على حماية الحيوانات هو حرج أرتميس حيث قتل أجاممنون أيلاً أو غزالاً فحق عليه غضب حارسة

مرتع الصيد الإلهية . ونلتقي في كتاب « الصيد » للكاتب اكسنوفون بملاحظة مفادها أن الارانب البرية دون سن معينة يدعها هواة الصيد وشأنها بوصفها مقدسة للربة (أرتميس) [١] .

إن حماية أرتميس لصغار الحيوان من كل نوع ومن بينها المواليد من بني الإنسان إنما يرجع إلى سبب وجيه جداً وهو أنها كانت في الأصل أماً لهم [٢] . وكان هذا المظهر من صفاتها ، مظهر الأمومة ، أبرز في آسيا الصغرى منه في أي منطقة أخرى لأن ديانة أوليمبوس التي كان لها — بفضل هوميروس — تأثير قوي في بلاد الإغريق لم يكن لها مثل هذا التأثير في آسيا الصغرى فلم تستطع طمس طقوس العبادة الأكثر قِدماً . ولا تدع تماثيل أرتميس في إفسوس (Ephesus) مجالاً للشك في أمومتها . كانت أرتميس حيثما ُعبدت وتحت أي إسم ُعبدت هي نفس الربة « الأم » . ويمكن أن نتتبع آثار أمومتها في إقليم كاركاديا ، وهي أقدم مركز لعبادتها في بلاد الإغريق ، حيث ارتبطت في العبادة ارتباطاً وثيقاً بديميتر وبرسيفوني . وكان الشاعر آيسخيلوس — وفقاً لرواية هيرودوت — يسمي أرتميس بابنه ديميتر جاعلاً إياها بذلك صنواً لكوري ، ربة القمح عند بدء نضوجه [٣] . كان النبات والحيوان يدخل كلاهما في مجال

---

(١) Xenophon, Cyneg. V, 104
وعن اكسنوفون، راجع ص ٥٠٤ ، هامش ١ فيما تقدم

(٢) لا بد أن ألقاب أرتميس التي كانت تنادي بها في العبادة مثل Paidotrophos (حاضنة الأطفال) ومثل Kourotrophos (مربية الأطفال) ومثل Philomeirax (محبة الصغار) كانت قديمة . وقد لاحظ بعض العلماء أنها كانت تشارك الإلهات ديميتر وجايا وليتو وهكاتي وهستيا لقب « مربية الأطفال » (Kourotrophos) .

(٣) راجع ص ٢٣٤ ، هامش ١ ، وأنظر أيضاً ص ١٠٩ فيما تقدم حيث ذكرنا أنه كان يوجد للربة (ديميتر) معبد في أنتيلا قرب ترموبيلاي . ويوصف هذا المعبد أحياناً بأنه معبد (أرتميس) .

اختصاصها . ويخلص العلاّمة فارنل من دراسته لهذا الموضوع – استناداً إلى أدلة أقل مما يتوافر لنا الآن – إلى أن أرتميس كانت في الديانة الإغريقية الباكرة ربة" للأرض ، مرتبطة ارتباطاً جوهرياً أصيلاً بالحيوانات البرية ، ونبات الأرض ، ومواليد البشر . وإذا كانت الدراسات الحديثة قد اتجهت إلى نقض رأيه القائل بأن أرتميس كانت في الأصل ربة" إغريقية فإنها لم تزعزع رأيه فيما يتعلق بوظيفة هذه الربة وصفاتها الأصلية .

هذه إذاً هي الربة التي وجدها الإغريق في كل مكان احتلوه بعد مجيئهم سواء في البلاد التي سميت باسمهم أو في كريت أو في ساحل الأناضول . لقد اتضح لهم عدم جدوى محاولة تجاهلها أو إبطال عبادتها إذ كانت أقدام أرتميس أرسخ من أن تتزحزح وجذور عبادتها أعمق من أن تقتلع . لكن لا بد من أن هذه العبادة قد صدمت مشاعر الإغريق من نواح كثيرة بما تتضمنه من معتقدات وعادات مناقضة تماماً للمعتقدات والعادات التي أحضروها معهم . كان الإغريق القادمون من الشمال شعباً مقاتلاً يسوده نظام أبوي، ويمارس عادة الزواج بواحدة ، وهو ما يختلف اختلافاً بيّناً عن تقاليد شعوب شرق البحر المتوسط والأناضول الذين كان يسود بينهم نظام الأمومة ، بمعنى تسلسل النسب من ناحية الأم ، وتعدد الزوجات ، واقتران الشعائر الدينية بالزراعة، واستعمال الرموز التناسلية ، وعبادة إلهات الخصب .

فما الذي حدث بعد ذلك؟ لقد أكدت العبقرية اليونانية قدرتها على التكيّف والمواءمة ، فاحتفظ الإغريق باسم أرتميس . لكن الربة التي كانت الأمومة الخصبة هي في الأصل صفتها المميزة أصبحت عندهم ربة صيد جميلة عذراء .

---

(١) لا يرد ذكر أرتميس كثيراً في الإلياذة حيث يعرضها الشاعر في صورة مهينة بعيدة عن=

ومن المحتمل أن ذلك حدث نتيجة لتصور قيام تشابه أو تطابق بين صفات المعبودات ، بمعنى أنه ربما كان الإغريق يعبدون قبل مجيئهم إلى جنوب البلقان ربة صيد عذراء فقابلوها بعد استقرارهم بالمعبودات الأكثر أنوثة وأمومة بمنطقة البحر الإيجي ، ولعلهم لاحظوا وجود ارتباط يتمثل في أنها كانت مثلهن قوة مسيطرة على البراري والحيوانات . هذا تفسير جائز . وأرجح منه أنهم ربما وجدوا في البلقان « ربة للحيوانات » لا تبرز فيها صفات الأمومة والأنوثة بقدر ما تبرز فيها صفات القتال والاسترجال ومن ثم ناظروها بربتهم . ولا يتبين من الرسوم والتماثيل المتصلة بالعبادة المينوية أثر واضح للأمومة أو الرمزية التناسلية ولو أن هذا ليس بدليل كاف على أن الربة المينوية (كما يفترض البعض) لم تكن أماً . ففي طقوس عبادة أرتميس بأركاديا والمناطق المتاخمة في البلوبونيز –وهي عبادة قديمة ترجع إلى عصر سابق على هوميروس ، وربما إلى عصر سابق على الإغريق أنفسهم – نجد عناصر « جنسية » تؤكد صفة أرتميس كربة للخصب . كانت أرتميس – بلا ريب – إلهة للصيد قبل ظهور الإغريق . وكان من بين مهامها كسيدة للحيوانات وأم لها ، أن تروّض الوحوش . وتظهر « كيبيلي » ، الربة الفريجية ، المناظرة لأرتميس ، في بعض الرسوم ، وهي تشد الأسود إلى

=الاحترام . فعندما تجترىء أرتميس على معارضة هيرا تضربها الأخيرة بقوسها وتطردها فتنخرط في بكاء مرير . وهذه الصورة تناقض تماماً الصورة الكريمة التي يرسمها الشاعر لأمها « ليتو » . ولعل هذا يعكس الشعور في وقت كانت هيرا قد اكتسبت فيه تماماً الصفة الهللينية وتأقلمت كربة أوليمبية بينما لم تكن أرتميس قد اكتسبت تماماً هذه الصفة أي لم تتأقلم بعد كربة أوليمبية . ويلاحظ أن هوميروس لا يبدي أيضاً احتراماً كبيراً لأفروديتي في الإلياذة حيث يجعل البطل ديوميديس يصيبها بجرح فتنسحب من ميدان المعركة مولولة باكية . والسبب – فيما يحتمل – واحد في الحالتين .

فيز غريتها . وهناك صورة لإلهـة مرسومة على أحد الأختام الكريتية وهي تسيطر على الأسود وتمسك في يدها لا بعصا من عصي الطقوس الدينية بل بما يشبه السوط أو السلاح الحقيقي .

لعل الربة أرتميس كانت - كما ينعتها الإغريق - بارثنوس (parthenos) ، وهي كلمة يونانية تترجم في العادة بكلمة « عذراء » . لكن « بارثنوس » عند الإغريق كلمة يحتمل معناها أكثر من تأويل. لدينا - أولاً - بعض أدلة على أن الكلمة لم تكن تؤدي دائماً أو بالضرورة معنى «عذراء». فقد لا يعدو المعنى أن يكون « غير متزوجة » أو « عزباء » ، أي غير مرتبطة برباط مع رجل معين تسلس له قيادها وتسلمه مقاليد أمورها وتخضع لسيادته أو سيطرته [1] . كانت هناك كاهنات وإلهات في الديانات قبل الإغريقية والشرقية القديمة يمشن على هذا النمط لكن بدون أن يحتفظن بالعذرية ، بل إن التضحية بالعذرية كانت جزءاً من واجبات بعض هؤلاء الكاهنات . غير أنهن كن لا يضحين بحريتهن لقرين ذكر أو زوج ولا يرضين أن يتملكهن تملكه للمتاع على النحو الذي كانت تتضمنه فكرة الزواج في العصور القديمة . وهناك تأويل آخر لمعنى « بارثنوس » جدير بالذكر لإثبات أن الفرق بين الفتاة البكر وبين الأم - وهو ما يبدو لنا أمراً يحتمه المنطق - لم يكن كذلك بالنسبة للإغريق إذ لم يكن في نظرهم أمراً مستعصي التفسير . فقد ساد بينهم اعتقاد بأن البكارة يمكن تجديدها دورياً عن طريق التطهير . ويذكر الكاتب باوسنياس شيئاً من هذا القبيل سمعه من أهل مدينتي ناوبليا وأرجوس . لقد ذكر له أهل ناوبليا أن هيرا كانت تجدد بكارتها سنوياً بالاستحمام في ينبوع ماء يسمى كَنَثَاوس. ويضيف باوسنياس أن القصة

---

(١) راجع ص ٢٤٥ ، ٢٥٠ فيما تقدم .

نشأت عن حفل ديني ذي شعائر سرية كانوا يقيمونه تمجيداً لهيرا ، أي أن الخرافه كانت تستند إلى شعيرة دينية مشابهة لما كانت نساء أثينا يقمن به في عيد « بلينتيريا » حيث كن يحملن تمثالاً للربة أثينة ويغسلنه في البحر . وهذه الشعيرة الدينية ذاتها كانت تمارس في أرجوس حيث كان الأهالي يغسلون تمثال أثينة في نهر إناخوس . ويتردد صدى هذه الشعيرة في ذلك « الابتهال الديني » الذي نظمه الشاعر كاالياخوس (في القرن الثالث ق.م) بعنوان « استحمام بللاس (أثينة) »[1] .

وربما لا يوجد دليل قاطع يحملنا على ترجيح أحد التأويلين على الآخر ونقطع بأنه يمثل شعور الإغريق الأوائل ويتفق مع رأيهم في عذرية أرتميس . لكن قياساً على الحالات الكثيرة المماثلة ـ كحالة كيبيلي وأتيس[2] ، وأفروديتي

---

(١) راجع ص ٢٦٦ وهامش ٢ ، ٢٦٧ ـ ٢٦٨ ، ٢٧٠ فيما تقدم .

(٢) كيبيلي (Cybelê) هي « الأم الكبرى » أو « أم الآلهة » أو « الأم الكبرى للآلهة» وهي ربة فريجية جعلها الإغريق صنواً للربة ريا (Rhea) ، زوجة كرونوس ، وأم زيوس وإخوته من آلهة أوليمبوس. وكانت كيبيلي (أو كيبيي Kybêbê كما يسميها هيرودوت) « أم الجبل » أي ربة الجبال (Mêtêr Oreia) ، وقد لقبت بألقاب مشتقة من أسمائها مثل «دنديمني» (Dindymené) نسبة إلى جبل دنديموس في غرب فريجيا . وكانت بالتالي ربة البراري وما فيها من حيوانات مفترسة . ولذلك تظهر الأسود برفقتها . وعلى ذلك فقد شبهها الاغريق بأرتميس، ربة الصيد . وفي الواقع أن كيبيلي كانت تلقب أحياناً « بأرتميس الكبرى ».لكن كيبيلي كانت تعرف أيضاً باسم أجدستيس (Agdistis) ، نسبة إلى صخرة تقع بالقرب من بلدة بسينوس Pessinus (بين فريجيا وجلاتيا) ، التي كانت المركز الرئيسي لعبادتها التي انتشرت أيضاً في ليديا منذ وقت مبكر . وجاء في الأساطير أن أجدستيس (كيبيلي) انبثقت أصلاً من الأرض، وكانت تجمع مثل عشترت (أفروديتي)بين خواص الجنسين (راجع ص ٢٨٢) . وهذا يقطع أنها كانت في الأصل إلهة الخصب . ولهذا ناظرها الاغريق أحياناً « بجايا » ربة الأرض =

وأدونيس ، وديميتير وتريبتوليموس ، يمكن القول إن أرتميس هي الأخرى كان لها في الأصل ـ على ما يرجح ـ رفيق أو عشيق شاب . ولم يكن زوجاً لها وسيداً (على نحو ما صار زيوس بالنسبة لهيرا) .وبعدما سادت الفكرة اليونانية

= و « ديميتير »ربة القمح . وقيل إن أجدستيس (كيبيلي) كانت مخلوقاً شرساً عاث في الأرض فساداً . ورأى الآلهة ضرورة ترويضه فاحتالوا عليه حتى استأصلوا مما فيه من ذكورة مبقين له الأنوثة فقط . ومن الدماء التي نزفت أثناء عملية الاستئصال وسقطت على الأرض نبتت شجرة لوز جبلية . ورأت الحورية « نانا » (Nana) ، ابنة الإله النهر سنجاريوس ، هذه الشجرة فاقتطفت منها ثمرة وأخفتها في حجرها . ولم تلبث الثمرة أن اختفت ووجدت « نانا » نفسها حبلى وعندما ولدت طفلا تخلصت منه برميه في العراء . لكن جدياً وجد الطفل الرضيع وتمكن من حضانته والعناية به . وسمي الطفل أتيس (Attis) إما لأن هذه الكلمة معناها في اللغة الليدية « صبي وسيم » أو لأن كلمة أتاجوس معناها « جدي » في اللغة الفريجية . وأحبت أجدستيس (كيبيلي) هذا الفتى الوسيم حتى لم تعد تطيق فراقه فكانت تأخذه معها دائماً في رحلاتها للصيد في البراري . وأصبحت تغار عليه أشد الغيرة. ولما بلغ أتيس أشده واستعد للزواج أو وقع في غرام إحدى الحوريات ، حقدت عليه كيبيلي وأصابته بلوثة عقلية جعلته يخصي نفسه ويقضي نحبه . وندمت كيبيلي ندماً شديداً على قسوتها . وابتهلت إلى زيوس كي يعيده إلى الحياة أو ـ على الأقل ـ لا يدع جسده يتعفن أبداً . ومسخه زيوس شجرة صنوبر، وهي شجرةأصبحت مقدسة لأتيس . ولعل الأسطورة قد ابتدعت لتفسير سبب إخصاء كهنة كيبيلي لأنفسهم إذ كانوا دائماً من الأخصياء.ولا شك في أن أتيس كان مثل تموز البابلي (= أدونيس اليوناني)ومثل أوزيريس المصري إلهاً من آلهة الزراعة يرمز إلى الدورة النباتية . ولم تنتشر عبادته في بلاد اليونان بقدر ما انتشرت في روما زمن الإمبراطورية إذ اكتسبت عبادته صفة رسمية في عهد الإمبراطور كلوديوس . وكان يحتفل بذكرى موته وبعثه حياً كل عام في وقت الاعتدال الربيعي . وكانت طقوس عبادته تشتمل على نحر كبش (criobolium) . وغالباً ما كانت تمارس مع طقوس عبادة كيبيلي التي أجيزت رسمياً في روما عام ٢٠٥ - ٢٠٤ ق.م . وكانت أهم ما تتضمنه هو نزول المتعبد في حفرة واغتساله بدم ثور كان يذبح فوق رأسه . وتسمى هذه الشعيرة الغريبة taurobolium . وكان الاعتقاد بالخلود (أي بحياة أخرى بعد الموت) جزءاً من ديانة كيبيلي وأتيس. وقد تحول كل منهما في آخر الأمر إلى قوة سماوية فصار أتيس إلهاً للشمس . =

عن عذريتها التامة ، بقي الرفيق لكنه نذر نفسه ـ مثلما فعل هيبوليتوس في مسرحية يوريبيديس ـ للطهارة والعفة مقتدياً في ذلك بأرتميس نفسها. وأياً كان التفسير الصحيح لأمومتها الأصلية ، فالحقيقة ذاتها ترسمها في صورة مختلفة عن أرتميس العصر الكلاسيكي اختلافاً شديداً . كانت أرتميس – كما يقول أفلاطون

=وقد انتشرت عبادتها في بلاد الغال وشمال أفريقيا واستمرت مزدهرة حتى القرن الرابع الميلادي .

وقد ذكرت أن الإغريق ناظروا كيبيلي ـ في العبادة والأساطير ـ بالربة « ريا » ، أم زيوس التي ولدته في كريت وفقاً للأسطورة الكريتية (راجع ص ٢٠٣، ٢٢٢) . ومن هنا نشأ الخلط بين مرافقي أو أتباع كيبيلي المعروفين باسم كوريبانتيس (Corybantes) وبين الكوريتيس (Kourêtes) ، وهم رفاق زيوس الصبية الذين رقصوا حوله وقرعوا الطبول والأسلحة بعد مولده حتى لا يسمع أبوه كرونوس صراخه وعويله . وقد نشأ الخلط بسبب التشابه بين الجماعتين في الصفات والوظائف. ولا نعرف أصل اسم « كوريبانتيس » . لكنهم كانوا ـ مثل الكوريتيس ـ أرواحاً (daimones) ترتبط دائماً بالرقص الشعائري ، والطقوس الديلية السرية ، وطرق العلاج السحرية. وكانت كيبيلي إلهة قادرة على شفاء أمراض نفسية وعقلية كالوهم والقلق والاضطراب العصبي . ويروى أنها شفت ديونيسوس نفسه من الجنون (mania) . وكان الرقص الشعائري مصحوباً بالموسيقى ، وهي أنغام فريجية تعزف على المزمار والطبلة والصنج . وهنا يلاحظ التشابه بين عبادة كيبيلي وعبادة ديونيسوس من حيث أن كلتا العبادتين كانت تجد أنصاراً لها بين المصابين بأمراض نفسانية متماثلة وتحدث ردود فعل نفسانية مماثلة . وكانت تنتاب المتعبدين للربة كيبيلي نوبات من البكاء فيضربون صدورهم بأكفهم ضرباً عنيفاً ، ويرقصون رقصاً صاخباً ويغيبون عن وعيهم ويروحون في غيبوبة وتنتابهم حالة من « الجذبة » أو « التقمص » كالمتعبدات للإله ديونيسوس (راجع ص ٣٣٧ هامش ١) . وكانت الموسيقى الشعائرية في كلتا العبادتين لها تأثيرها في « تطهير » المصاب من مرضه وإبرائه من علته . ويتحدث أفلاطون عن التأثير المعنوي الذي تحدثه الموسيقى . ويؤكد بعض فلاسفة وأطباء قدماء مثل ثيوفراسطوس ، تلميذ أرسطو ، ومثل أسكليبياديس (المتوفى عام ٤٠ ق.م) وسورانوس (٩٨ – ١٣٨ م) ، يؤكدون فائدة الموسيقى في علاج أمراض نفسانية كالقلق الروحي ، والاضطراب العصبي ، والاكتئاب .

– ربة لا أولاد لها . لكنها كانت ـ كما يضيف الفيلسوف نفسه ـ ربة للولادة مثل هيرا . وقد عبدت باسم الربة القابلة (Locheia) التي تساعد النساء عند الوضع، وعودلت بأيليثويا، إلهة الولادة نفسها. وهذه قرينة قوية على أن عذريتها لم تكن أصلية بل إن الربة كانت قديماً ـ مثل هيرا ـ راعية لحياة النساء في جميع اطوارها ، وأنها مرت هي نفسها بهذه الأطوار وخبرتها . ولعل ذلك يفسر أيضاً ارتباط أرتميس بالقمر ، وهو ارتباط كان في العصور التالية أقوى من ارتباط هيرا به [1] .

وبدهي أن آثار صفة الأمومة لم تزل عن الربة القديمة بل ظلت عالقة بأرتميس التي عبدها الإغريق . ففي إفسوس ظلت عبادتها تمارس طبقاً للطقوس القديمة أثناء العصر الكلاسيكي [2] ، وإن ذهب البعض إلى أن أرتميس ربة إفسوس غير أرتميس ربة الاغريق . وفي بلاد الاغريق بقيت ذكرى عبادتها القديمة عالقة بأذهان الناس على نحو معين له دلالته ومغزاه ، إذ نشأت عندهم بعض أساطير تربط أرتميس ربطاً قوياً ببعض حوريات (من بين رفيقاتها الدائمات) ممن كانت لهن أنفسهن علاقات غرامية انتهت بإنجابهن أطفالاً في بعض الأحيان . ولا تحتل هذه الأساطير ـ كما هو متوقع ـ مكاناً بارزاً في الأدب اليوناني ، لكنها تتصل اتصالاً وثيقاً بالعبادة في مناطق معينة . ففي أركاديا حيث كانت عبادة أرتميس ـ على ما يبدو ـ أصيلة ، جرت أحداث قصة كالليستو (Callistô) ، وهي رفيقة صغيرة لأرتميس كانت ترتدي دائماً زي الربة نفسه وتشاركها هواية الصيد . وقد غرر زيوس بهذه الفتاة وجامعها وهو

---

(١) راجع ص ٢٢٦ فيما تقدم

(٢) راجع ص ٣٠٤ فيما تقدم .

متنكر في صورة أرتميس أو في صورة الدب ، ونهشت الغيرة قلب هيرا فمسختها دبة ثم حضت أرتميس على رمي الدبة بنبالها فصرعتها دون أن تدري شيئاً عن هويتها . وفي رواية أخرى أن أرتميس نفسها هي التي مسخت كالليستو دبة بدافع من الغضب الشديد عندما اكتشفت ذات يوم وهي تستحم معها في الينابيع أنها حبلى ، وقد انتزع زيوس الطفل من بطن أمه قبيل مصرعها ، وسمي أركاس (Arcas) ، وهو الجد الأرسطوري للأركاديين ، ويصف باوسنياس في فصل من كتابة عن أركاديا قبر كالليستو قائلاً إنه كان عبارة عن كوم ترابي مرتفع مزروع بالأشجار . ويضيف أنه كان يوجد فوق قمة هذا الكوم معبد لأرتميس المعبودة بلقب كالليستي (Callistê) ، وهو لقب معناه « الأجمل » أو « المتناهية في الجمال » . ولا توسم أرتميس بهذا اللقب في المؤلفات الأدبية فقط بل توسم به أيضاً في طقوس عبادتها بأثينا . ويدل لقب « كالليستي » ـ مع الأسطورة سالفة الذكر ـ دلالة واضحة على أن كالليستو كانت قديماً هي الربة (أرتميس) ذاتها [1] . وربما نجد في عبادة أرتميس ببلدة براورون في أتيكا تعزيزاً لهذا الاستنتاج . ففي هذه البلدة حيث كانت الربة تعبد بلقب « أرتميس البراورونية » (Artemis Brauronia) جرت العادة على أن ترتدي الفتيات اللائي كن يخترن لتقديم القرابين لأرتميس ثياباً ضاربة إلى الصفرة ، محاكيات شكل الدببة ، وكن بذلك يعتبرون تجسيداً للربة ، ويحملن اسم الحيوان الذي يرتبط بها ارتباطاً وثيقاً . وتنهض ألقاب كهذه دليلاً على وجود اعتقاد قديم بأن الربة كانت تظهر في شكل حيوان وأن المتعبد كان يصطنع الظهور في

---

(١) إذا كانت أرتميس في الأصل ربة دبة كما يعتقد البعض فإن لقب « المتناهية في الجمال » ربما نشأ عن رغبة في تلطيف النداء لاسترضاء الربة واستدرار عطفها .

شكل هذا الحيوان .

وكانت بريتومارتيس (Britomartis) رفيقة أخـــرى من رفيقات أرتميس . وكان سكان كريت يبتهلون إلى صيادة عذراء بهذا الاسم محببة إلى الربة ، وإن زعم بعض الكتاب القدامى أن « بريتومارتيس » ما هو إلا اللقب الكريتي (ومعناه العذراء المليحة) الذي كان سكان كريت ينادون به أرتميس نفسها . وفضلاً عن ذلك فإن بريتومارتيس كانت ـ مثل أرتميس ـ تعرف في أنحاء كثيرة من كريت باسم « دكتينا » (Dictynna) ، وهو اسم معناه «ربة جبل دكتى » (Dictê) المعروف في شرق الجزيرة . لكنه يمكن أن يتضمن أيضاً معنى « الشبكة » (diktuon) . وقد أدى هذا إلى اختلاق أسطورة تعليلية لتفسير أصل الاسم . وتقول الأسطورة إن بريتومارتيس كانت ابنة أنجبها زيوس من فتاة مغمورة الأصل في كريت . ولما شبت عن الطوق أصبحت حورية تهوي الصيد . وقد تدله مينوس ، ملك كريت ، في حبها لكنها لم تبادله الحب فتعقبها في جبال الجزيرة . واختبأت الحورية وسط غابات البلوط أو في المروج الكثيفة . وظل مينوس يطاردها تسعة أشهر دون أن يكل من المطاردة. وكاد أن يظفر بها ذات مرة عند قمة أحد الجبال عندما قفزت فجأة إلى البحر حيث تلقفتها شبكة أحـــد الصيادين وبذلك كتبت لها النجاة [1] . ومن ثم أطلق أهل كريت على الحورية لقب « دكتينا » أي « ذات الشبكة ». ويضيف راوي الأسطورة ـ وهو الشاعر السكندري كاليماخوس ـ أنهم أطلقوا اسم « دِكتى » على الجبـــل الذي قفزت منه الحورية ، مع أن جبل « دكتى » في

(١) في رأي بعض الباحثين أن القفز من قمم الجبال إنما يرتبط بشعيرة تطهير دينية بواسطة الهواء .

الواقع لا يقع قرب البحر بل في داخل الجزيرة. وهذا وحده يدل على مدى الخلط والتلفيق. والحقيقة هي أن «دكتينا» اسم لمعبودة كريتية سميت كذلك نسبة إلى جبل «دِكتي» وليس العكس. ومعناه – كما ذكرنا – «ربة جبل دِكتي». وليس لهذا الاسم أي ارتباط بالاسطورة التعليلية، والمستحيلة جغرافياً، والمبنية على اشتقاق لغوي زائف. كانت «دِكتينا» ربة من «ربات الجبال»، وسميت كذلك نسبة إلى أعلى قمة جبلية في المنطقة. ومثلها في ذلك «كيبيلي» التي كانت تلقب بلقب «دنديني» أي «ربة أو سيدة دِنديمـــوس» نسبة إلى جبل دنديموس (Dindymus) المعروف في فريجيا. كانت دِكتينا في الواقع ربة أما كريتية مثلمـــا كانت بريتومارتيس في الأصل. ولدينا قرائن واضحة على أن كلتا الربتين كانت لها عبادة مستقلة قبل أن يرتبطا بأرتميس إما كرفيقتين تابعتين لها أو كاسمين آخرين لأرتميس نفسها. ومع هذا فمن العسير – في ضوء قصيدة كاللياخوس – أن نفصل بـــين بريتومارتيس ودِكتينا، ومن المحتمل أن الأولى كانت تنتمي أصلاً إلى شرق كريت بينما كانت الثانية تنتمي إلى غربها، ثم حدث الخلط بينهما. ويتحدث هيرودوت عن وجود معبد لدكتينا في بلدة كيدونيا الواقعة على الساحل الغربي من الجزيرة. كذلك كانت توجد رأس جبلية ناتئـــة في البحر بقرب الجزيرة تسمى دكتينايون (Dictynnaion) ولعلها كانت هي مسرح قصة قفز «بريتومارتيس – دكتينا» إلى البحر، والذي خلط كاللياخوس بينه وبين جبل «دكتي» في الشرق. وعلى أي حـــال فلا يسعنا إلا الربط بين أحد المكانين والآخر وربطهما معـــاً بأرتميس. ولا جدوى هنا من المضي في البحث اكتفاءً بأن موطن دكتينا كان في جزيرة كريت. وجدير بالملاحظة أن كلاً من دكتينا وبريتومارتيس كانت مرتبطة – على الأقل في العصور التالية – «بزيوس» الكريتي.

ولا تنتهي قصة بريتومارتيس بسقوطها سالمة في شبكة أحد الصيادين أو باختفائها تحت هذه الشبكة . إذ يروي سكان آيجينا أن بريتومارتيس هربت بعد ذلك في زورق صياد يدعى أندروميديس لاتجة إلى جزيرتهم حيث اختفت عن عيني مينوس وسط دغل مقدس لأرتميس. وقد رُفعت إلى مصاف الآلهات. لكنها لم تُعبد في آيجينا باسم بريتومارتيس بل باسم أفايا (Aphaia) لأنهـا اختفت فجـأة عن الأنظار (aphanês) . ولا ريب في أن هذا التفسير غير صحيح لأنه ليس ثمة ارتباط بين الكلمتين من الناحية الصرفية. ومن الواضح أن نشأة هذه الأساطير ترتبط بالعبادة ، وأن مساواة بريتومارتيس ودِكتينّا ، ومساواتها أحياناً بأرتميس إنمـا يدل على أن الربات الثلاث كن متشابهات تشابهاً شديداً أو طفيفاً . وعلى أي حال فإن معبد أفايا بجزيرة آيجينا حقيقة ثابتة ، ولا تزال أطلاله قائمة فوق السفح الجنوبي لجبل آيجينا ، ومن بينهـا المنحوتات الرخامية الشهيرة التي تمثل مناظر من الحرب الطروادية .

أساطير أرتميس :

وقد جعل الإغريق من أرتميس ابنةً لزيوس من عشيقته الجبـارة « ليتو » ، وشقيقة توأماً لأبوللون الذي مرت بنا قصة مولده في ديلوس. وقد سبقته أرتميس إلى الدنيا بيوم واحد لأنهـا ولدت في اليوم السادس بينما هو في اليوم السابع من شهر قمري . والدليل على أنها أكبر منه أنها عاونت أمها في توليده . وبدهي أن الأسطورة مختلقة لأن أرتميس لم يكن لها في الأصل أي علاقة بأبوللون ، ومن المرجح أنها ولدت في إفسوس (على ساحل الأناضول) [1] ، كما أنها عبدت في أماكن غير أماكن عبادته . ولم تتزوج أرتميس أبداً فظلت كائنة وهستيا ربة

---

(١) راجع ص ٣٠٤ فيما تقدم .

عذراء . ولما كانت ربة للمناطق غير المزروعة كالجبال والفيافي والطبيعة البرية حيث تكثر الوحوش كالأسود والدببة والحيوانات غير المستأنسة كالظباء والأيائل والوعول ، فقد اشتهرت أرتميس – التي انتشرت عبادتها انتشاراً واسعاً – بأنها « ربة الصيد » . وفي هذه البراري كانت الربة تمضي الوقت لاهيـــة في القنص والرقص مع رفيقاتها العذارى من الحوريات والعرائس . وشد ما كانت أرتميس تبتهج بمشاهدة فتيات قرية كرياي (Caryatides) وهن يرقصن تحت أضواء القمر في نشوة بالغة رقصاً دائرياً حاملات فوق رؤوسهن سلالاً من البوص فيخالهن المرء أشجاراً راقصة . لا عجب إذاً أن لقبت أرتميس نفسها « كارياتيس » (Caryatis) نسبة إلى هذه القرية . ولقد ذكرنا أنها كانت ربـة عذراء وأن رفيقاتها كن عذارى مثلها . ألا ويلٌ للرجل الذي يحاول أن يختلس النظر إليها وهي تستحم في نهر أو جدول أو ينبوع ! فعندما اجترأ « سيبروئتيس » الكريتي على اختلاس النظر إليها وهي عارية ، قلبته امرأة ! . ويعرف كثير منا قصة أكتيون (Actaeon) ، البويوتي ، وهي قصة مفجعة رويت بأشكال مختلفة . وأكثر هذه الروايات تداولاً تقول إن أكتايون ، الذي رباه « خيرون » ودربه على الصيد ، كان يصطاد ذات مرة ومعه كلابه قرب جبل كيثايرون . ووقعت عيناه دون قصد على أرتميس وهي تستحم فاقتصت منه بأن مسخته أيلاً ، وهو حيوان أثير لدى الربة ولكنه راح ضحيتها في هذه المرة ، إذ انقضت الكلاب الخمسون على سيدها الممسوخ أيلاً ومزقته إرباً . وقامت أم أكتايون بجمع أشلاء ابنها المتناثرة ، وهي مهمة ثقيلة على قلوب الثكالى من الأمهات . وفي رواية أقدم أن أكتايون تودد إلى أرتميس وهو متنكر في شكل أيل ، وراودها عن نفسها ، بل حاول اغتصابها ، فلقى جزاءه الرهيب . وثمة رواية ثالثة تقول إن أكتايون ما لقى هذا المصير المؤلم إلا لأنه ادعى بأنه صياد أمهر من الربة نفسها .

وكانت أرتميس ـ كأخيها أبوللون ـ ماهرة في رمي النبال والسهام، وسريعة الغضب شديدة الانتقام ممن يتطاولون عليها أو يمتهنون كرامتها أو يسيئون إلى أحد من أحبائها . وقد مر بنا كيف انتقم أبوللون وحده أو بالتعاون مع أخته من الوحش تتيوس الذى حاول انتهاك عرض أمها ليتو . ويروى أن نيوبي (Niobé) ـ وهي زوجة أمفيون وابنة تنتالوس ـ [1] ، رزقت عدداً كبيراً من الأبناء بلغ عددهم سبعة بنين وسبع بنـات . وتملكت نيوبي سعادة غامرة فلم تكتم رضاها عن نفسها وازدهاءها بأبنائها . وحدث في ذات يوم أن تباهت بكثرة بنيها على « ليتو » بل عيرتها بقلة ذريتها لأنهـا لم تنجب سوى بنت واحدة وولد واحد . ولعلها تمادت فادعت أنها لا تنقص عن ليتو في شيء وأنها أحق منها بالقرابين وهياكل العبادة . وأحست « ليتو » بالمهانة واستشاطت غضباً فناشدت ابنيها معاقبة نيوبي على خيلائها وغطرستها . وكان الانتقـام رهيباً إذ أطلق أبوللون سهامه على البنين فصرعهـم جميعاً ، وأطلقت أرتميس سهامها على البنـات فصرعتهن ما عدا واحدة [2] . وهكذا ثكلت نيوبي في أبنائها فطفقت تبكي وتنتحب حتى تجمدت من هول الكارثة أو مسخت صخرة. ومن عجب أن الدمع ظل ينهمر من هذه الصخرة . ويروي أن بعض الرحالة شاهدوا في العصور التالية صورة نيوبي الصخرية فوق جبل سيبيلوس (Sipyles) في ليديا بالأناضول . ويوجد بمتحف « ترمي » في روما نسخة من تمثال صنعه فنان إغريقي

---

(١) عن تنتالوس Tantalus ، راجع ص ٢٢٧ . وتنتالوس هو أبو بيلوبس (Pelops) جد أجاممنون ، راجع ص ١٩٠ .

(٢) وهي خلوريس (Chloris) التي تزوجت من نستور (Nestor) ، أحد شخصيات الإلياذة وقدر له أن يعيش طويلا لأن أبوللون أضاف إلى عمره تلك السنوات التي انتقصها من عمر أبناء نيوبي .

في القرن الخامس (ق. م) لإحدى بنات نيوبي ساعة احتضارها . وتظهر المسكينة ـ في التمثال ـ عارية إلا من عباءة متهدلة على ساقها اليمنى ، وهي على وشك أن تجثو على ركبتها اليسرى بينما تمد ذراعها اليمنى إلى ظهرها لتنتزع منه سهماً نفذ فيه . وقد فغرت فاها في ألم ظاهر .

لكن هذه القصة ومثيلاتها لا ينبغي أن تنسينا أن أرتميس كانت ربة حنوناً تحمي مواليد الحيوان والإنسان وتتولى حضانتهم وتعني بتربيتهم . ولعل ذلك يفسر كيف أصبحت تعين النساء في ساعة الوضع . ولم تلبث أن صارت ـ نظراً لأهميتها عند الأمهات ـ ربة "مدنية" أي من ربات المدينة ، مثلها في ذلك مثل هيرا وابنتها أيليثويا ، الربة القابلة . وقد أدى ذلك إلى الربط بين أرتميس والقمر الذي ساد الاعتقاد قديماً بأن لظهوره صلة بالولادة وأن لتغير أشكاله تأثيراً على الحياة الجنسية ، ومن ثم نشأ الخلط بين أرتميس وهكاتي (Hecatê) التي كانت في الأصل إلهة للخصب ، ثم ربة رهيبة من ربات العالم السفلي ، وملكة للأشباح والظلام ثم ارتبطت أخيراً بالقمر (١) . كما كان من الطبيعي

---

(١) كانت هكاتي (Hecatê) إلهة من إلهات الخصب . ولعلها كانت ـ على الرغم من اسمها ـ ربة كارية الأصل (أي من كاريا بالأناضول) . وبينما لا يذكرها هوميروس اطلاقاً ، يتحدث عنها هيسيود كإلهة عظيمة ولا سيما في إقليم بويوتيا . كان الناس يبتهلون إليها طالبين منها النجاح والتوفيق في المحاكم والمجالس العامة، والنصر في الحرب، والفوز في المباريات الرياضية ، والتوفيق في ركوب الخيل، وصيد الأسماك، وتربية الماشية . وكانت أيضاً ربة النساء إذ توصف أحياناً ـ مثل أرتميس ـ بأنها حاضنة أو مربية للأطفال (Kourotrophos) . وقد أدى ما بين هكاتي وأرتميس من تشابه وتداخل في الاختصاص إلى اختلاق قرابة دم أسطورية نسجها بينهما خيال الإغريق ، إذ جعل من « أستيريا » أخت ليتو، أماً لهكاتي . وبذلك تكون أرتميس ابنة خالتها، أو قد يجعل أباها هو زيوس وأمها هي ديميتر التي تظهر أحياناً كأم لأرتميس. ومن ثم فقد احتفظت هكاتي ، في غير الأماكن الأناضولية التي عبدت فيها كإلهة رئيسية، بمكانتها كتابعة أو رفيقة لأرتميس. ولم تنسج حول هكاتي أساطير كثيرة . لكنها كانت مرتبطة بالأرض بطريقة =

أن يخلط بين أرتميس وبين سليني (Selênê) ، ربة القمر ، على نحو ما خلط بين شقيقهـــا أبوللون وبين هيليوس (Hêlios) إله الشمس[1] . ومن عجب أن الربة التي نذرت نفسها للعذرية الكاملة ، وكانت تعاقب بالموت أي رفيقة لها تفرط في عفتها ، كان لديها من الشفقة ما يدفعها إلى مساعدة النساء عندما تنتابهن آلام الوضع . ومن عجب أيضاً أن أرتميس التي آلت على نفسها أن تعني بالمواليد وترعى الصغار حالت دون إبحـــار الأسطول الإغريقي إلى

= أو أخرى لأنه كان في مقدورها أن تزيد من خصبها وتكاثر من ثمارها . وتنزع أمثال هؤلاء الربات - كما لاحظنا في حالة كوري (برسيفوني) - إلى الارتباط بعالم الموت السفلي . وفي الحق أن ميديا (Medea) - في مسرحية يوريبيديس الشهيرة - تنـــادي هكاتي بلقب برسيس Perseis (راجع ص ٢٣٤) . ومن هنا نشأ تصور هكاتي كربة لكل ما يجري تحت جنح الظلام ، وملكة رهيبة لكل الأشباح ، وبالتالي لكـــل أنواع السحر وعلى الأخص السحر الأسود (البالغ الضرر) . وبهذه الصفة كانت هكاتي أيضاً ربة ملتقى الطرق حيث تكثر الأشباح ، وحيث توضع غالباً « أعمال » السحر التي يقصد بها إيذاء الغير . ولعل هذا هو السبب في أن هكاتي كانت ترسم - في العصور التـــالية - بثلاثة وجوه أو أجسام متلاصقة الظهور تعبيراً عن قدرتها على النظر في آن واحد إلى جميع الاتجاهات وهي واقفة عند ملتقى الطرق . وفي هـــذا المكان اعتاد الناس أن يضعوا لها في كل شهر قرابين من أطعمة كلحم الكلب والسمك أو لحم الضأن وعسل النحل ، وهي ما اشتهرت « بوجبات عشاء هكاتي » ، وكانت بمثابة شعيرة تطهيرية . وكان من المعتقد أن هكاتي تظهر أحياناً في هذا المكان ، وبالأخص ليلاً ، في هيئة عفريت مخيف ، حاملة في يدها مشعلاً وفي رفقتها كلاب نابحة مسعورة . وكما كان الناس يبتهلون إليها كي تنجح « الأعمال » السحرية (كالرقي والطلاسم) التي يضعونها في مكان معين بقصد إلحاق الأذى البدني أو النفسي أو العقلي بأعدائهم ، كذلك كانوا يبتهلون إليها نفسها أن تذهب بعيداً كي تذهب معها الأرواح الشريرة التي تتقمصهم والاضطرابات العصبية التي تنتابهم . لقد كـــانت هكاتي - مثل أبوللون وديونيسوس وكيبيلي - قادرة على التطهير من الأمراض العصبية ، وعلى الرقاية من السوء . وكانت بالإجمال ربة السحر والتعاويذ وما إليها .

(١) راجع ص ٣٠٢ ، ٣١١ فيما تقدم .

طروادة ولم تدعه يتحرك من مينائه إلا بعد أن ضحى على منبحها بصبية عذراء! إن مثل هذه المتناقضات في سلوك أرتميس لا ينبغي الآن أن تبدو مستغلقة على الفهم أو مجرد نزوات بعد أن تعرفنا على العناصر التي تشكل منها هذا السلوك. لقد كان أغلب المتعبدين لأرتميس قوماً بسطاء لا فلاسفة في الديانة . وتكشف مثل هذه المتناقضات عن ازدواج في طبيعة الرواية المتناقضة . لكنها لا تدعو إلى الافتراض بأنها كانت تقلق بال الإغريق طالما بقيت الديانة الإغريقية ديانة حية قوية مؤثرة في النفوس .

هرميس [1] : Hermês

كان هرميس إلهاً قديماً موجوداً في بلاد الاغريق قبل مجيء الإغريق .وفي أكبر الظن أنه كان إلهاً مينوي الأصل.ولا نعرف اسمه القديم . لكن الإغريق هم الذين أطلقوا عليه اسم أو لقب هرميس (Hermês) . وهذا الاسم أو اللقب مشتق من لفظ «هرما» herma أو «هرمايون» hermaion بمعنى كوم من الحجارة أو نصب حجري . وكانت الأكوام أو الأنصاب الحجرية تستخدم كعلامات على جوانب الطرق أي كمعالم تحديداً لها وهداية للمسافرين . ولكي يفسر الإغريق ارتباط هرميس بالاكوام الحجرية ابتدعوا أسطورة تعليلية تقول إنه عندما قتل هرميس ابن إله النهر إناخوس المسمى «ارجوس» قدم للمحاكمة أمام مجلس الآلهة . وقد برأوه بأن أدلى كل إله بصوته عن طريق إلقاء حصاة (psêphos) عند قدمي هرميس . وبذلك ارتفع من حوله كوم

---

(١) = مركوريوس (Mercurius) عند الرومان .وهذا الاسم مشتق من كلمة مركيس (merces) اللاتينية بمعنى سلع تجارية أو بضائع لأن هرميس كان إلهاً التجارة والتجار .

من الحجارة . لا بد أن هرميس كان يمثل روح أكوام الحجارة (daimôn) التي نشأت حولها عدة معتقدات خرافية .

لكن هرميس – كما ذكرت – كان إلهاً قديماً ويرجح أنه كان كريتي النشأة . ومن الأدلة التي تساق لإثبات أنه كان إلهاً غير هلليني الأصل : عبادته في صورة غير آدمية أو حيوانية ، ورسوخ أقدام عبادته في أقليم كأركاديا حيث تأصلت عادات وتقاليد ترجع إلى العصر البلاسجي (قبل الإغريقي)[1]، وتبادل السادة والعبيد مقاعدهم في احتفالات عيد هرميس بجزيرة كريت ،وهي عادة كانت تمارس في عيد الإله القديم كرونوس[2] . يضاف إلى ذلك أدلة أخرى من بينها : حطة مركز هرميس بين آلهة أوليمبوس وتبعيته لزيوس ، وميله للسرقة ، وارتباطه بشخصيات أسطورية قديمة كأوديسيوس وبرسيوس وآوتوليكوس [3] ، وتورطه في منازعات الهية تنم عن اصطدامات عنصرية (كاصطدامه مع أبوللون الذي انتهى بالصلح بينهما) . وينهض فوق ذلك دليلاً على صلته بالعادات الدينية المينوية : عبادته في كهوف وقمم جبال (كجبل كيلليني بأركاديا وجبل يوكتاس بكريت وغيرهما من الجبال) ، وارتباطه بعبادة الأحجار والأنصاب والأعمدة القصيرة (وهي ليست مقصورة عليه وحده ولكنها واضحة جداً في حالته) ، وارتباطه – إلى حد ما – بعبادة الشجر . ويقال تعزيزاً لذلك إن عصا هرميس الشهيرة كانت – على ما يرجح –

---

(١) راجع ص ٨٥ ، حاشية ١ فيما تقدم .

(٢) راجع ص ٢٠٤ ، حاشية ١ فيما تقدم .

(٣) عن برسيوس ، راجع ص ١٩٥ ، ٢٥٨ . وهو ابن زيوس من دناي Danaë . وآوتوليكوس (Autolycus) في الأساطير اليونانية هو ابن هرميس من خيوني . وكانت ابنته أنتيكليا Anticlea هي زوجة لائرتيس (Laertes) وأم أوديسيوس .

أصلا من الخشب وترسم أحياناً مقرونة بأوراق شجر زاهية [1] . كما أن قدرة هرميس على الطيران بجناحين إنما هي قدرة قديمة سابقة على وظيفته كرسول إلهي ، ويرجع أصلها إلى « تجلي» بعض الآلهة عند الميتويين في صورة طيور [2]. ولدينا الآن بعض نقوش من ميكيناي وكريت مرسوم عليها أكوام حجرية لها دلالتها الدينية الواضحة . وتكفي الإشارة إلى اللوحة البلورية المكتشفة في إحدى المقابر الصخرية في ميكيناي ، والمرسوم عليها صورة تمثل شبحين أو روحين (daimones) برؤوس حيوانية ، ويمسكان بإبريق من أباريق سكب القرابين فوق حَجرة كبيرة خشنة موضوعة على قمة كوم من الحصى. والتطابق تام بين هذه الصورة وبين شكل كوم الحجارة اليوناني (hexmaion)، ويتضح من مقارنتها برسوم أخرى من كريت أن الفكرة التي تتضمنها الصورة إنما ترجع إلى العصر قبل الإغريقي .

كان إله أكوام الحجارة إذاً موجوداً في جنوب البلقان وكريت قبل قدوم الإغريق . وفي أغلب الظن أن الصفات التي خلعها عليه الإغريق كانت هي عين الصفات الي عرفه بها السكان القدامى الأصليون . ويؤيد ذلك الحجج التالية : إن أبرز صفة يتميز بها هرميس هي استعداده أو قدرته على الحماية والوقاية ، كما يتضح من إرشاده ومساعدته لعابري الطرق ، وحراسته لقطعان الماشية . ولقد كانت الحيوانات المفترسة هي الخطر الرئيسي الذي يتعرض له عابرو الطرق وقطعان الماشية في بلاد الإغريق أثناء العصور الباكرة. فإذا كان هرميس قادراً على الحماية من هذه الوحوش ، فلا بد من أنه كان لديه — في اعتقاد الناس —

---

(١) كان لهرميس عصوان إحداهما شعاره كرسول للآلهة ، والأخرى كمرشد لأرواح الموتى إلى العالم السفلي .

(٢) انظر ص ٢٦٨ فيما تقدم .

بعض السيطرة عليها . وفي الحق أنه كانت لديه هذه السيطرة كما يتبين من مؤلفات أدبية قديمة « كالنشيد الهوميري لهرميس » حيث ورد أن هرميس لم يتلق فقط أمر أبولون بالعناية بالأبقار ذوات القرون التي تعيش في الحقول ، وبالخيول والبغال المكدودة بل منح أيضاً السيطرة على الأسود الضارية والخنازير البرية ذات الأنياب الحادة، والكلاب والأغنام ، وكل الأنعام التي تقتات من كلأ الأرض الواسعة . وتوجد فوق ذلك أدلة على ارتباط هرميس بصيد الحيوان والصيادين . لدينا إناء ذو زخرفة حمراء ومرسوم عليه صورة لهرميس وهو واقف منتصباً وسط كوم من الحجارة بينا يقدّم له كيفالوس (Cephalus) قرباناً من الخمر ،مبتهلاً إليه ـ دون شك ـ أن يوفقه في الصيد[1]. وأمامه تقف أرتميس(؟) مرتدية لباس الصيد وممسكة في يدها بحربتين . وفي وسعنا أن نتبين أيضاً في الفن المينوي ارتباط إله أكوام الحجارة بالحيوانات المفترسة . ففي رسم كريتي نرى عنزتين بريتين وأقدامها الأمامية مرتكزة فوق كوم من الحجارة ، وكذلك أسدين في نفس الوضع .وفي رسم آخر نشاهد كائناً آدمياً ذكراً (يمثل هرميس؟) في الوسط ، وفي الأطراف حيوانات مفترسة أو « أرواح » (أشباح) ذوات رؤوس حيوانية . ونجد على تحفة أثرية (مصنوعة من الحجر الكريم) منظراً يمثله واضعاً يديه على رأسي « روحين » من الأرواح التي تحمل أباريق القرابين . وفي رسم آخر نراه يمسك فعلاً هذه « الأرواح » من ألسنتها . وأخيراً فلتقي بصورة تمثله وهو يمسك بأسدين أحدهما من رقبته والآخر من إحدى رجليه الخلفيتين أو يضع يده على رأسيهما .

---

(١) كيفالوس في الأساطير هو زوج « بروكريس » ، ابنة إرخثيوس ، ملك اثينا . وقد اشتهر بمهارته في الصيد ، وحربته التي لا تطيش وكلبه الذي لا تفلت منه الفريسة أبداً.

ويستخلص من ذلك كله أن المعبود الذكر هو سيد أو « رب الحيوانات » ويقابل — من هذه الوجهة — الربة التي تحتل في الفن المينوي مكاناً بارزاً، وتظهر فيه سيدة أو « ربة الحيوانات » . وأما « الأرواح » الغريبة ذوات الرؤوس الحيوانية فهي حيواناته المدللة التي تسير في ركابه ، وبمقتضى ذلك تملك هي الأخرى مثله السيطرة على الوحوش . والمعبود — فضلاً عن ذلك — هو روح أكوام الحجارة التي رأينا نفس « الأرواح » تسكب فوق إحداها خمر القرابين. ويجمع هذا الإله المينوي بين صفتين : فهو « روح أكوام الحجارة » « ورب الحيوانات المفترسة » . وهرميس عند الإغريق هو الإله الوحيد الذي له هاتان الصفتان .

إن الديانة المينوية لا يزال يكتنفها الغموض ، وتفسيرها أمر عسير نظراً لطبيعته الأدلة التي تتألف كلها تقريباً من آثار ورسوم . وكم كنا نود أن نعرف على الأخص ما هي العلاقة بين « سيدة الحيوانات » « وسيد الحيوانات » ، وهل كانت — مثلاً — من نوع تلك العلاقة التي مر بنا ذكرها عند الكلام عن « الزواج المقدس » حيث يقترن إله شاب بإلهة من إلهات الخصب والأمومة ؟ [1] .

كان هرميس — كما ذكرنا — هو الروح الكامنة في أكوام الحجارة . وكانت هذه الأكوام — إذا تحرينا الدقة — عبارة عن أنصاب حجرية أو أعمدة قصيرة تحيط بقواعدها أكوام من الحصى . ولما كانت الأعمدة القصيرة أو الأنصاب الحجرية توضع على جانبي الطرق لتحديد معالمها ، أصبحت وظيفته الغالبة هي إرشاد عابري الطرق والمسافرين ، أي أصبح « إلهاً للطرق » (Enodios) . ولم يكن هرميس إلهاً رهيباً عنيفاً بل كان ودوداً لطيفاً . كان يظهر بجانب

(١) راجع ص ٢٠٣ وهامش ١ ، ٢١٨ ، ٢٢١ .

المسافرين ـ على غير توقع ـ ويساعدهم ويرشدهم ويسدي لهم النصائح المفيدة وعلى هذا النحو يوصف في أقدم مؤلفات الأدب اليوناني إذ يرسله زيوس لكي يرشد بريام إلى خيمة أخيل ويقوده إليها بسلام. وكانت أبرز ميزاته الخاصة هي سرعته وخفة حركته، فكان يجيء فجأةً دون جلبة وكذلك كان يذهب. ويتضح ذلك من قول الإغريق المأثور عندما يخيّم صمت مفاجيء على مجلس أو اجتماع ، « إن هرميس دخل القاعة ». وميزة أخرى تميز بها هرميس هي فطنته ودهاؤه. ولقد وصف بأنه « أذكى الآلهة » ، بل لقد وصف بأنه إله مكار محتال (Dolios) . ومن هنا نشأت شهرته باللصوصية ، ورعاية اللصوص ، وهي مهنة أعانته عليها خفة حركته ، ومعرفته التامة بالطرق والدروب .

وبدهي أن يصبح هرميس « إلهاً للتجار » ، مرتادي الطرق ، لعدة أسباب كمعرفته الوثيقة بالطرق ، ودهائه ، فضلاً عن ارتباطه ـ كما سنرى ـ بالأسواق العامة ، وما يجري فيها من مساومات ماكرة تؤدي إلى صفقات مربحة . ومن ثم صار إلهاً التجارة وما يقترن بها من ربح أو ثروة أو حظ حسن لأن هرميس ـ كما سنرى ـ كان أيضاً « إله الحظ ». وبدهيّ أيضاً أن يصبح هرميس « رسولاً للآلهة » (Diaktoros) وعلى الأخص للإله زيوس . ذلك أن هرميس ـ إلى جانب سرعته ومعرفته بالطرق ـ لم يحتل مكانة كبيرة بين آلهة أوليمبوس بل كان خادمهم الذكي اللبق ، فكان زيوس كثيراً ما يعهد إليه بقضاء حاجاته المستعجلة وحمل رسائله إلى البشر . كان ساعياً ورسولاً ينجز المهمة الموكولة إليه على وجه السرعة إن لم يكن في لمح البصر . وبهذه الصفة تخيله الإغريق في صورة شخص يلبس في قدميه نعلين ضخمين تبرز منهما أجنحة تعينه على الطيران ، ويضع فوق رأسه قبعة عريضة الحواف petasos (قد تبرز منها أجنحة أيضاً) ، ويمسك في يده بعصا

المنادي أو عصا الرسول المسماة (kērykeion) [١] .

كانت أكوام الحجارة أو الأعمدة القصيرة تستخدم في غرض آخر . كانت تقام كعلامات فاصلة بين حدود الملكيات . ومن ثم أصبح هرميس بمثابة رقيب على الحدود وحارس للممتلكات. ويمكن من هذه الوجهة مناظرته بالإله ترمينوس (Terminus) عند الرومان ، والذي كان هو الآخر يتجسد في شكل علامة حجرية مميزة للحدود ويعتبر روحاً حارسة لها في الوقت ذاته . ولما كان القصد من وضع هذه العلامات الحجرية تنبيه الدخلاء أو تحذير المعتدين، فقد كان طبيعياً أن تُعتبر الروح الساكنة فيها بمثابة كلب حراسة أو خفير مكلف من قبل المالك بحراسة ممتلكاته وحمايتها . وبهذه الصفة كان هرميس يقف أمام المنازل الأثينية في هيئة تمثال نصفي لحراستها ووقايتها من الشر والمكاره [٢] . ولقد ذكرت أن كوم الحجارة كان — في الواقع — نصباً حجرياً يحيط بقاعدته كوم من الحصى. ورويداً رويداً أخذ الإله والعمود الذي يمثله ، يقترب كل منهما — في أذهان الناس — من الصورة الآدمية ، فزوّدوه بعضو الذكورة (phallus) استجلاباً للخصب والوفرة . وأخيراً ظهر هرميس في شكل آدمي كامل . ومع هذا فإن تماثيله النصفية (Hermae) التي كانت تقام أمام المنازل في أثينا في القرن

---

(١) وتسمى في اللاتينية caduceus .

وكانت إيريس (Iris) هي رسولة زيوس وآلهة أوليمبوس في الأصل ، ثم انتقل اختصاصها إلى هرميس ونلتقي باسمها كثيراً في الإلياذة ولكنه لا يرد أبداً في الأوديسيا حيث يمارس هرميس وحده وظيفة الرسول .

(٢) كان هرميس — على ما يبدو — قادراً أيضاً على الوقاية من السوء (Alexikakos) . ونجده يعطي أوديسيوس عشباً سحرياً لوقايته من الأذى ، ويعلمه طريقة استعماله .

الخامس (ق.م.) لم تتجرد تماماً من كل أثر ينم عن أصلها ، إذ كانت لا تعدو أن تكون أشكالاً نصف آدمية .

ولقد ذكرت أن هرميس كان يرمز « للروح » التي تسكن أكوام الحجارة، وأن هذه الأكوام كانت توضع أحياناً كعلامات للقبور المحفورة على جانبي الطريق في العصور القديمة . ولهذا السبب أو ربما لمجرد التوسع في اختصاصه كرسول أو لارتباطه بالخصب، ومن ثم بباطن الأرض وعالم الموتى (chthonipos)، أصبح هرميس ـ كما يتبين من الأوديسيا ـ مرشداً لأرواح الموتى (Psychopomos) إلى « هاديس » أو العالم السفلي[1] . وبهذه الصفة كان هرميس يرسم أحياناً حاملاً عصا سحرية ذات ثلاث أوراق ذهبية ، وهي غير عصاه كرسول (caduceus) التي يلتف حولها ثعبانان . لكن هرميس لم يكن ـ حتى في قيامه بوظيفة إرشاد أرواح الموتى ـ إلها عبوساً متجهماً ، بل ملاكاً دمثاً رقيق الحاشية .

لقد تحدثنا حتى الآن عن هرميس بوصفه روحاً كامنة في أكوام الحجارة . فماذا عن هرميس الذي وصفناه في مستهل سيرته بأنه كان في الأصل ربّاً للحيوانات المفترسة وحارساً للقطعان الماشية والأغنام من هذه الحيوانات ؟ في الحق أن الرعاة اتخذوا من هرميس رباً لهم وحامياً لقطعانهم (Nomios) ، ولهذا نشأت الأسطورة التي تقول إنه وُلد في أركاديا . تقول الأسطورة اليونانية إن هرميس هو ابن زيوس من الحورية مايا (Maia) ، ابنة أطلس (Atlas)، وأجل أخواتها المعروفات باسم بليادیس (Pleiades) . فقد هام بها وزارها

---

(١) راجع ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ فيما تقدم .

خفية – في غفـلة من زوجته هيرا – وأنجب منها هرميس فوق جبل كيلليني (Cyllene) بأركاديا في اليوم الرابع من شهر قمري . ولما كانت أركاديا ، مسقط رأسه ، إقليماً رعوياً ، فقد ارتبط بالرعي وحراسة الماشية والأغنام . ولهذا السبب نفسه ازدهرت عبادته في أركاديا بصفة خاصة منذ وقت مبكر ، وإن ذهب البعض إلى أن ازدهار عبادته في هذا الإقليم إنما يرجع إلى أنه كان منذ القدم رباً للحيوانات ، وفي الحق أن هرميس يظهر في الإلياذة كحارس لقطعان الماشية . وهذا الارتباط بالماشية أدي إلى نشأة الرأي القائل إن هرميس كان إلهاً للخصب والتناسل ، ولا سيما تكاثر الماشية [1] . ومن ارتباطه بالخصب والتكاثر تولد الاعتقاد بأنه كان إلهاً للحظ والثروة التي كانت تتمثل قديماً في امتلاك رؤوس الأغنام والماشية . لقد كان من حسن طالع المرء أن يلتقي بهذا الإله ، بل إن كل ما يعثر عليه المرء بالصدفة في طريقه ، وكل ضربة من ضربات الحظ الحسن كانت تسمي « هبة من هرميس » [2]. وفي رأي بعض الباحثين أن هذا هو السبب في أنه صار « إلهاً للتجارة » ، وما يقترن بها من ربح حلال أو حرام ، أي مكتسب بالأمانة أو الغش (فهو إله للصوص كذلك) . ويؤكد هؤلاء الباحثون ارتباط هرميس الدائم بالخصب ويدعمون رأيهم بأدلة من

---

(١) ومن أنصار هذا الرأي الأستاذ « روز » ، راجع :

H. J. Rose Handbook of Greek Mythology 6th ed. (UP 70) 1958, P. 245 f. ; OCD , s. v. « Hermes » .

(٢) يوصف هرميس أحياناً بأنه eriounios (= eriounês) ، وهي صفة مجهولة الاشتقاق . ويقترح البعض ترجمتها بالمعين أي الذي يعين المرء على زيادة رزقه وثروته . ويقترح البعض الآخر ترجمتها بمعنى مضاد لمعنى « مكار » أو « محتال » .

بينها عبادته في شكل عمود مستطيل تعلوه رأس انسان ويتوسطه عضو الذكورة ، ووظيفته كمرشد لأرواح الموتى إلى العالم السفلي ، وعلاقته بربات خصب مثل أفروديتي وهكاتي وبريمو (Brimô) وهرسي (Hersê) ابنة كيكروبس[1]، ومناظرته بكادميلوس (أو كاسميلوس) أحد آلهة الخصب المعروفين بالكابيرين (Cabiri)[2] .

وقد ظل هرميس لمدة طويلة إلهاً لقوم بسطاء متخلفين كأهل أركاديا الرعاة رقيقي الحال المتأخرين . وكان الإله مثل قومه بسيطاً متخلفاً مما قد يفسّر تخلفه عن آلهة أوليمبوس وحطة مركزه بينهم . لكن هذا يفسر أيضاً سبب شعبيته

---

(١) راجع ص ٢٧١ .

(٢) عن الكابيرين (Cabiri) راجع ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ هامش ١ فيما تقدم . وقد انتشرت عبادتهم في الأناضول ومقدونيا وبلاد الإغريق (تساليا وبيوتيا) ولعلهم اسمهم مشتق من كلمة «كابيريم» الفينيقية بمعنى «قوي» أو «كبير» مما يتفق مع وصف الإغريق لهم بالآلهة العظام أو « الآلهة الكبار » (Megaloi Theoi) ، وانتشار عبادتهم في بيوتيا (منذ القرن السادس ق.م) التي يرتبط اسم عاصمتها « طيبة » باسم « كادموس » الفينيقي الأصل . لكن الدراسات الحديثة تميل إلى تأييد أصلهم الفريجي . وهذا قد يفسر مناظرتهم بالكوريبانتيس والكوريتيس في العصر الهلينستي (راجع ص ٢٩١ حاشية) . وأيا كان الأمر فمن المؤكد أن « الكابيرين» كانوا آلهة خصب . وترتبط بعبادتهم طقوس سرية مشهورة (mystêria) . وكان أشهر مركز لعبادتهم في العصر التاريخي هي جزيرة ساموطراقيا حيث كانت تقام الشعائر المذكورة . وقد قرن الإغريق عبادة الكابيرين بعبادة ديميتر وديونيسوس وهرميس . وكان من المعتقد أنهم يحفظون المتعبدين من كل الأخطار ولا سيما أخطار البحر . ولهذا خلط بينهم - في العصر الهلينستي - وبين الديوسكوريين Dioscuri (وهما كاستور وبوليكس إبنا زيوس من ليدا ، وشقيقا هليني في الأساطير ، اللذان كانا هما الآخران راعيين للبحارة يحميانهم من أخطار البحر) .

ورواج عبادته لا بين رعاة الأغنام فقط بل بين العامة والدهماء كذلك . ولهذا السبب نفسه ـ ولما جُبِلَ عليه هرميس من رقة ولطافة ومودة ـ كان هرميس يبتهج بالاجتماعات العامة والمجالس والمنتديات . فهل هذا هو السبب في أنه أصبح إلها للأسواق العامة (Agoraios) ؟ هل رعايته العامة وشعبيته بينهم هي التي جعلته إلها للأسواق ؟ أم دهاؤه الذي أهّله لأن يكون بوجه خاص حليفاً نافعاً في مساومات البيع والشراء وعقد صفقات رابحة ؟ أم مجرد وجوده بصورة مرئية في الاسواق العامة إذ يقال إن كل سوق يونانية (agora) كان يوجد فيها تمثال نصفي له ؟ والافتراض الأخير يعود بنا ثانية إلى ركوم الحجر البدائي الذي تنبثق منه ـ على ما يبدو ـ معظم صفات هرميس .

وكان على هرميس ـ بوصفه رسولاً ـ أن يبلغ رسالته بوضوح وبدافع أحياناً عن وجهة نظر من أرسلوه . ومن ثم فقد دخلت الخطابة والبلاغة (نثراً أو شعراً) في دائرة اختصاصه . ولهذا السبب – ولميله إلى الاختلاط بالعامة – نراه يرتاد المجالس ويشارك في مداولاتها . ولما كان هرميس – كما سنرى ـ هو الذي ابتدع القيثارة فلم يكن من العسير أن يصبح موسيقياً وراعيا للموسيقى ، وبمرور الزمن إلها للأدب . ولا يتضح لنا السبب الذي من أجله صار هرميس – في العصر الكلاسيكي – « راعيا الشباب » ونشاطاته ولا سيا الألعاب الرياضية التي كانت تمارس في حلبة المصارعة (palaestra) الملحقة بالنادي الرياضي الثقافي أو « الجيمنازيوم » (gymnasium) حيث كان يقام له في العادة تمثال نصفي . وفي رأي أحد الباحثين أن هذا ربما يرجع إلى أنه كان – كما ذكرنا – إلها الحظ ، وهو ما يحتاج إليه الشبان دائماً الفوز في المباريات الرياضية . وكان هرميس نفسه يرسم أحياناً – منذ أواخر القرن الخامس ق.م. – في صورة شاب رشيق نحيل

القوام يافع (يتراوح عمره بين السابعة عشرة والثامنة عشرة) أي كأحد أفراد منظمة الشبيبة (ephêbos)، وهي منظمة كان يتحتم على الشباب من المواطنين الالتحاق بها في هذه السن لممارسة الرياضة والتدريب العسكري، وكانت تُشكل عنصراً هاماً من عناصر التربية في مختلف المدن اليونانية .

أساطير هرميس :

كان هرميس منذ ولادته سريع الخطا خفيف الحركة وقد أصبح إلهـا للطرق عليما بخباياها ومرتاديها . وكان فوق ذلك ذكياً فطناً بل ماكراً خداعاً . وكانت هذه الصفات كفيلة بأن تثير الريبة فيه وتثير الغبار من حوله ، فاشتهر بسمة الحيلة بل بالاحتيال واللصوصية. ونشأت حوله أسطورة تقول إنه مارس السرقة وهو لا يزال في المهد رضيعاً بل مارسها قبل أن يناهز اليوم الأول من عمره . فما هذه القصة التي اكتسب هرميس من جرائها لقب الإله اللص أو رب اللصوص ؟ يحدثنا كاتب فكه بأن هرميس « وُلد مع الفجر ، وفي الظهر كان يلعب بالقيثارة ، ولم يأت المساء حتى كان قد سرق قطيـع ماشية أبوللون ، رامي السهم ، في الرابع من الشهر ، يوم ولدته الربة مايا » . وما إن رأى نور الدنيا لأول مرة حتى بدأ يتململ في مهده، فقام من فوره وطفق يروح ويغدو أمام مدخل الكهف الذي ولد فيه، باحثاً عن قطيع من البقر كان يملكه أخوه (غير الشقيق) أبوللون . والتقى عند خروجـه من الكهف بسلحفاة برية تزحف ببطء شديد ، فرحب بها قائلا « كم أنا سعيد برؤيتك أيتها الراقصة الجميلة ! لقد أتيت في الوقت المناسب. لكن هل لك أن تخبريني من أين لك هذه الصدفة البهيجة التي تقي ظهرك ؟ لسوف آخذك إلى بيتي لأنتفع بك . ومن

الأسلم أن تكوني في الداخل من أن تكوني في الخارج». وحمل هرميس السلحفاة إلى داخل الكهف وقطعها بيديه وصنع من صدَفها قيثارة(lyra) فقد شــد الصَّدَفة إلى بوصتين وربطها كلها بسبعة أوتار جلدية من أحشاء الغنم . وشرع يعزف بها لحناً جميلاً بلغ مسامع الآلهة فطربوا له . وقد تغنى هرميس بأبويه زيوس وأمه « مايا » ، منشداً قصة غرامها ، ومشيداً بمولده . لكن سرعان ما سرح فكره إلى شيء آخر ، إذ هفت نفسه إلى لحم القرابــين . لذلك ألقى بالقيثارة في المهــد وغادر الكهف . وأخذ يجول خفية باحثاً عن فريسة مثلما يفعل اللصوص تحت جنح الظلام . وقادته قدماه إلى الشمال . وكان «هيليوس» يهبط من السماء بعربته ذات الجياد مؤذناً بمغيب الشمس عندما وصل هرميس إلى منطقة بييريا (Pieria) - قرب أوليمبوس في ثساليا- حيث كانت ترعى قطعان الآلهة الخالدين وسط الأعشاب النضرة أو تقبع في حظائرها الفسيحة . وسرق هرميس خمسين بقرة من بقرات أبوللون . وساقها معكوسة بحيث كانت أقدامها الأمامية إلى الخلف وأقدامها الخلفية إلى الأمام. وتبعها موليًا هو الآخر ظهره للأمام. واصطنع لنفسه نعلين كبيرين من أغصان أو عساليج مضفورة، وربطها في أسفل قدميه . فعل ذلك إمعاناً في تضليل من يفكر في تعقبه وقص أثره . وقفــل راجعاً على عجل لأنه كان لا يزال أمامه طريق طويل . وبعد أن قطع النصف من رحلته نحو الجنوب ، شاء سوء حظه أن يراه رجل عجوز كان يفلح بستان كروم بالقرب من أونخيستوس في بويوتيا . فقال له هرميس « أيهــا العجوز ، لسوف يأتيك محصول وفير من العنب . لكن عليك أن تلزم الصمت ، وكأنك لم تر ما رأيت ولم تسمع ما سمعت . وإني لأنذرك بسوء العاقبة إن نبست ببنت شفة ! » .

---

(١) « النشيد الهوميري لهرميس » ، ج ٤ ، ١٧ - ١٩ .

وحث هرميس الماشية على السير عبر الجبال والوديان والمروج . وانقضى الليل ، حليف اللصوص ، ولاحت تباشير الفجر . ولم يكف الإله الصغير عن السير طوال النهار . وعندما ظهرت « سليني » ، ربة القمر ، في كبد السماء ، كان هرميس قد بلغ مدينة بيلوس قرب ضفاف نهر ألفيوس بإقليم إيليس[1] . ودفع بالبقرات المسروقة إلى فناء أحد الكهوف . ثم جمع حطباً من أشجار الغار وأضرم ناراً هائلة في حفرة فبدت كأنها أتون يتصاعد منه لهيب مستعر[2] . وأحضر بقرتين وطرحهما أرضاً ثم ذبحهما وكسر عظمهما واستخلص منه اللحم وشواه جميعاً مع الشحم على أسياخ خشبية . وأما الجلد ففرشه على صخرة ليجف في الشمس . وبعدئذ قطع اللحم أثنتي عشرة قطعة قرباناً لآلهة أوليمبوس الاثني عشر ، محتفظاً لنفسه بقطعة منه[3] . وإذا كانت نفسه قد هفت إلى لحم القرابين وسال لعابه عندما شم رائحته الشهية ، فقد كبح شهوته ولم يضع في فمه أي شيء منه لأن الآلهة لا يأكلون في الواقع من لحم القرابين المقدمة لهم . وكدّس هرميس اللحم في فناء الكهف كنصب تذكاري لأول سرقة من سرقاته .

ولما فرغ هرميس من عمله ألقى بنعليه الكبيرين في النهر وأطفأ النار وذرا الرماد الأسود في الهواء . ومضت ليلة ثم مضت أخرى وهو ما يزال متغيباً عن بيته . وأخيراً عاد مع الصباح المبكر إلى جبل كيلليني في أركاديا . ولم يقابله في رحلته الطويلة أحد من الآلهة أو الناس ، ولم ينبح في وجهه كلب . وتسلل بسرعة إلى الكهف من ثقب الباب كما تتسلل منه نسمة من

(١) وهي غير مدينة بيلوس (Pylos) بإقليم مسينيا الذي يقع في جنوب إقليم إيليس (بالبلوبونيز) .

(٢) في الأساطير أن هرميس كان أول من أوقد النار .

(٣) اشتهر هرميس بأنه كان الطباخ الذي يطهو الطعام لآلهة أوليمبوس .

نسائم الخريف . ودلف في خفة دون أن يشعر به أحد . واستلقى في مهده وجذب قماطه حول كتفيه ، وطفق يلهو كالطفل الرضيع بالملاءة التي تغطي ردفيه . وتناوم واضعاً قيثارته تحت إبطه الأيسر . غير أن أمه ، الربة «مايا» ، لاحظت كل شيء ، وقالت لابنها الإله « من أين جئت ، أيها الولد الماكر ، وأين كنت تمضي الليل ، أيها اللعين ؟ شد ما أخشى من أن يجرجرك أبوللون عبر هذا الباب مقيداً بالاغلال . أتريد أن تنفق حياتك ، كما يفعل اللصوص ، قابعاً في الأخاديد والجحور ؟ فلتعد إلى حيث كنت ! وكأن أباك لم ينجبك إلا لتثير المتاعب في وجه الآلهة والناس » . ورد هرميس عليها قائلاً « لماذا ، يا أماه ، تنهالين على لوماً وتقريعاً كأنك تخاطبين طفلاً لا يعرف عن الشر إلا القليل ، وترتعد فرائصه فرقاً عندما تزجره أمه ؟ لقد اخترت هذه الحرفة الماهرة لأنها ستكفل لي ولك أوفر الرزق . أوَ تريدين أن نجلس بين الآلهة دون قرابين ودون صلوات لنا ، كما هو شأنك الآن ؟ لقد وطدت العزم على أن أحظى بما يحظى به أبوللون من توقير وإجلال . فإذا لم أحظ به من أبي ، فلن تعوزني الجرأة لأن أصبح أميراً للصوص . ولئن طاردني « ابن ليتو » لأنزلن به ضرراً أفدح مما أنزلته به . لسوف أذهب إلى بيثو (دلفي) وأسرق بيته (معبده) الذي يزخر بالنفائس والجوهرات .

وعندما أسفر الصبح كان أبوللون قد بلغ اونخيستوس في بيوتيا . ودخل دغل بوسيدون المقدس . وهناك التقى بالرجل العجوز الذي كان يفلح بستانه على جانب الطريق . وبادره أبوللون بالسؤال عن بقراته . وسأله عما إذا كان قد رأى أحداً يسوق ماشيته . فأجاب العجوز « يا صاحبي ! إنه لمن العسير أن يتذكر المرء كل ما تراه عيناه ، فكثير من الناس يمرون بهذه الطريق ، وبعضهم طيب وبعضهم الآخر خبيث ، فكيف يتسنى لي أن أتفحصهم جميعاً .

وفضلا عن ذلك فإنني كنت منكبا على عملي هنا في بستاني طيلة النهار حتى غروب الشمس . غير أنه يبدو لي أنني لمحت غلاماً صغيراً ـ وإن كنت غير متيقن تماماً ـ لمحته يمر ومعه قطيع من البقر. وكان ممسكاً في يده بعصا ، ويسير خلف القطيع متلفتا وراءه في حذر » . ولمح أبوللون آنئذ طائراً في الجو باسطا جناحيه فأدرك فوراً من هذه العلامة أن أحد أبناء زيوس قد انقلب لصا . وفي وثبة واحدة بلغ بيلوس مدثراً في غلالة لامعة من الضباب الداكن . ورأى بعينيه آثار الأقدام فقال لنفسه « إنه لأمر غريب ، فهذه آثار حوافر ماشية عن يقين، لكنها تسير في الاتجاه المضاد نحو مرج السوسن. وأما تلك الآثار الأخرى فهي لأقدام أضخم من أن تكون أقدام إنسان أو ذئب أو دب أو أسد . إنه لأمر غريب يزيد من حيرتي » .

وفكر أبوللون مليا ثم هرع إلى جبل كيلليني واقتحم الكهف وهو يتلفت يمنة ويسرة ، فلما رأى هرميس الشرر يتطاير من عيني أخيه أخفى نفسه في قماطه مثلما تختفي جذوة من النار تحت الرماد . وانكمش واضعا رأسه بين ساقيه كمن يلتمس الدفء بعد الاستحمام أو من يغالبه النعاس . لكنه كان يقظان متنبها وقيثارته تحت إبطه . وأجال أبوللون بصره في جميع أركان الكهف ، فوقعت عيناه بعد لأي على هرميس ، فبادره قائلا « أيها الطفل هنالك ، أنت يا من تسترخي في المهد ! قل لي بربك أين البقرات ؟ والخير لك أن تجيبني بسرعة وإلا فإننا لن نفترق في سلام ،أو ألقيت بك في أعماق ظلام «ترتاروس» الذي لا خلاص منه »[1]. وأجابه هرميس في خبث « أي ألفاظ نابية هذه التي تتفوه بها يا ابن ليتو ؟ وأي بقرات هذه التي تبحث عنها ؟ إنني لم أر شيئاً منها ولم أسمع

(١) اشارة إلى وظيفة هرميس كمرشد لأرواح الموتى إلى العالم السفلي .

عنها قط . وليس لدي أي معلومات أدلي بها إليك فأفوز بمكافأة كالتي يفوز بها المرشدون والوشاة . وهل أبدو كرجل قوي يستطيع أن يسرق البقر ؟ إن هذا ليس عملي بل هو أبعد ما يكون عني . إن عملي هو النوم والرضاعة من ثدي أمي والاستلقاء بين لفائفي أو في حمام دفيء . ألا فلتحذر إذاً أن يعلم أحدٌ سبب غضبك عليّ وتعنيفك إياي ! لسوف يُذهل الناس حين يقال لهم إن طفلاً حديث الولادة ترك مهده وخرج ليبحث عن البقر ! لقد وُلدت، يا أبوللون ، بالأمس فقط ، وما تزال قدماي ناعمتين بينما الأرض خشنة . لكن إذا شئت فإني أقسم لك برأس أبي أنني غير مذنب . ولم أر أحداً آخر يسرق بقراتك . فهذه أول مرة أسمع فيها عن البقر !

وابتسم أبوللون قائلاً « أي طفلي المدلل ، أنت ماكر ومخادع تتكلم كما يتكلم لص عريق ! كم سيعاني منك الرعاة في الجبال عندما تهفو نفسك إلى اللحم فتنقض على قطعانهم . لكن إذا أردت أن لا يكون يومك هو الأخير ، فلتهب من فراشك يا رفيق الليل الحالك وتأتيني بالبقرات . لسوف تشتهر أبداً بين الآلهة بأنك أمير اللصوص ! » . وأمسك به أبوللون وهمّ بحمله بين ذراعيه . لكن الطفل ضايقه وجعله ينفر منه حتى أخلى سبيله . ثم وثب وثبة قوية وأخذ يعدو أمامه ملوحاً بيديه ونادباً حظه ولاعناً كل البقر . ولم يكف عن الصياح مؤكداً براءته ، ومحذراً أبوللون من غضب زيوس .

وانتقل الأخوان إلى أوليمبوس ليعرض كل منهما شكواه على أبيهما ، رب الأرباب . وتظاهر زيوس بعدم معرفة هرميس وعامله معاملة الغرباء ، وسأل أبوللون أين وجد ذلك الطفل اللطيف الذي يشبه الرسل . فروى له أعمال اللص الصغير ، وكيف سرق بقراته وضلله بلبس نعلين ضخمين في قدميه ، وكيف ضبطه آخر الأمر في أقصى ركن من الكهف المظلم حيث لا يستطيع الصقر ذاته أن يراه. ومضى يسرد لزيوس سلسلة أكاذيب أخيه. ورد هرميس مستنكراً مزاعم أبوللون ومنكراً التهمة وقال « أيها الأب زيوس ، لقد أتى

أبوللون إلى بيتنا في فجر هذا الصباح يبحث عن بقراته . ولم يحضر معه شهوداً رأوا بأعينهم مـــا حدث حتى يستطيعوا الإدلاء بأقوالهم أمام الآلهة . وقد حاول أن يرغمني بالقوة على الاعتراف بالسرقة ، وهدد بإلقائي في أعماق ظلام « ترتاروس » لأنه فتى قوي في أوج شبابه على حين أنني وليد الأمس فقط ، كما يعلم هو نفسه . ولا ريب في أن أبي سوف يصدق كلامي ، فأنا أعلم سوء العاقبة إن لم أقــل الصدق . وإني لأخجل من الكذب في حضرة الآلهــة ، وهيليوس ، إله الشمس . ولقد أقسمت مرة من قبل برأسك . لكن في هذه المرة أقسم بين يديك عند مدخل قصر الآلهة الخالدين . وخليق بك يا زيوس أن تأخذ بيد الصغار وتنصر المستضعفين ! » . وعندئذ ضج كبير الآلهـــة بالضحك ، وناشد الأخوين التصافي والوئام . وأمر هرميس أن يرشد أخاه إلى المكان الذي أخفى فيه البقر . وعندما تكلم زيوس أومأ برأسه تلك الإيماءة التي يهتز لها دائماً كل أوليمبوس ولا يستطيع أن يعصاها هرميس أو غيره من الآلهة .

وأسرع الأخوان الخطا إلى بيلوس حيث أخرج هرميس البقرات من حظيرة كان قد أعدها في جوف كهف على ضفــاف نهر ألفيوس . ورأى أبوللون من بعيــد جلود بقرتين من بقراته منشورة على صخرة ضخمة . وتعجب من قوة أخيه الطفل الذي تمكن من أن يطرحها أرضاً وينحرهما بيديه. وكان لا يزال بادي التأثر والغضب من فعلة أخيه. لكن هرميس لجأ إلى قيثارته وشرع يعزف بها نغماً شجياً انشرح له صدر أبوللون إذ نفذ النغم العجيب إلى قلبه وملك عليه حواسه ولم يعد بوسعه مقاومة رغبته في اقتناء القيثارة. ولم ينكر أن هذه الآلة الموسيقية تعدل بقراته الحسين. وهنأ أخاه الصغير على ابتكارها. وأعرب عن استعداده لإعطائه أي شيء في مقابل القيثارة . وتنازل هرميس عنهـــا وسلمها له . وتلقى من أبوللون — أو من زيوس بواسطة أبوللون — أول عطية وهي عصاه كرسول ، ثم مركزه كراع للماشية له مكانته . وبديهي أنه أقسم لأخيه إنه لن يسرق منه القيثارة (مثلما غافله وسرق منه قوسه أثناء عرض

قضيتها على كبير الآلهة) . وعندئذ تنـــازل له أبوللون عن سيطرته على الوحوش، وبوأه منصب «مرشد الأرواح» على الطريق المؤدية إلى قصر هاديس، وزوده أيضاً بتلك العصا السحرية التي تمنح الثروة . وكان الشيء الوحيد الذي لم يستطع أبوللون أن يمنحه لأخيه هي القدرة على التنبؤ ، وإن كان – على ما يبدو – لم يضن بتلقينه بعض مبادىء أولية في علم العرافة .

ولا يتسع المقام للخوض في قصص هرميس الغرامية، وما أكثرها ! حسبنا الإشارة إلى أنه كان أباً لبريابوس (Priapus) ، أحد آلهة الخصب والحدائق الذي حاول عبثاً اغتصاب الربة هستيـــا نفسها [1] . كما ينسب إلى هرميس أحياناً الإله بان (Pan) ، وإن لم يكن هناك إجماع على ذلك . بل إن الروايات لتختلف فيمن كانت أمه، وإن رجحت الرواية القائلة إنها كانت إحدى الحوريات . وكان بان إلهاً للمناطق الرعوية في التلال (وراء الحقول المزرعة) ومن ثم أصبح إلهاً للرعي والرعاة [2] . وكان – مثل أبيه – إلهاً أركادياً . لكنه كان – على نقيضه – لا يرسم قط في شكل آدمي كامل ، بل يرسم بقرنين، وأذنين طويلتين وأنف أفطس، وقدمين كقدمي الجدي. وفي الحق أنه كان يتصف أيضاً كهذا الحيوان بالشهوة الجامحة. ولا ننسى أنه كان إلهاً للخصب الشديد [3] . وكان بان مثل أبيه هرميس إلهاً ماجناً شغوفاً بالمغـازلة ولكنه كان احيـاناً حاد المزاج شديد الهياج ولا سيا عندما يزعجه أحـد وهو نائم

---

(١) راجع ص ٢٦٠ – ٢٦١ .

(٢) الاسم مجهول الاشتقاق. وفي رأي البعض أنـــه ربما يكون مشتقاً من نفس الجذر الذي يشتق منه فعل pasco في اللاتينية بمعنى يطعم أو يرعى الغنم .

(٣) ولذلك كان يرسم أحياناً في شكل عضو الذكورة أو في شكل آدمي قبيح: جسم ضئيل ولسان طويل وبطن منتفخ وأعضاء تناسلية ضخمة . ويشبه « بان » تلـــك المخلوقات المساة بالساتيريين والسيلينيين (راجع ص ٢٥٣) . وقـد نشأت عبادته أصلاً في بلدة لامبساكوس (Lampsacus) على الدردنيل .

ظهراً في المرعى أو الغاب، فيهب من نومه مثيراً الذعر في قلب من أزعجه[1]. وكان كالرعاة شغوفاً بالموسيقى بارعاً في العزف على المزمار، فارتبط بالموسيقى، بل قيل إنه ابتدع نوعاً من المزمار (syrinx)[2].

وما دمنا بصدد الحديث عن أبناء هرميس فينبغي ألا يفوتنا ذكر ابنه الذي أنجبه من افروديتي، ربة الحب والخصب والتناسل. وقد ذكرنا - في حينه - أن هذا المخلوق كان يجمع بين خواص الجنسين[3]. لكن يبدو أنه لم يكتسب هذه الصفة المزدوجة آنذاك بل سمي فقط « هرمافروديتوس »، وهو اسم يجمع بين اسمي أبويه، وورث عن أمه الجمال الفائق. ويحكى أن افروديتي عهدت به بعد مولده إلى حوريات جبل «إيدا» بجزيرة كريت حيث نما وترعرع في أحد الكهوف. فلما بلغ الخامسة عشرة من عمره غادر موطنه الجبلي، وطاف بأنحاء آسيا الصغرى حيث اعجب بالأنهار والينابيع والعيون التي صادفها في طريقه أيما إعجاب. وأخيراً بلغ إقليم « كاريا » حيث نزل على مقربة من ينبوع الحورية سلماكيس (Salmacis). ولم تكن سلماكيس إحدى رفيقات أرتميس لأنها لم تهو الصيد قط بل كانت تمضي الوقت في تصفيف شعرها والنظر في الماء - مثل نركيسوس Narcissus - إعجاباً بصورة وجهها المنعكسة على صفحته. ووقعت عيناها فجأة على الفتى الجميل فافتتنت به وتدلهت في حبه. ولم يبادلها الفتى الهوى بل أعرض عنها وقابلها بالصد. ولم تستطع الحورية إغواءه. لكن إذا كان هرمافروديتوس قد استطاع مقاومة إغرائها فإنه لم يستطع مقاومة إغراء الينبوع حين دعته للاستحمام فيه. ولم يلبث أن ألقى بنفسه في الماء. واحتضنته سلماكيس آنئذ مبتهلة إلى الآلهة أن ترتبط به ارتباطا أبدياً. وحققت الآلهة رغبتها فيه. واتحدت الحورية به

---

(١) ومن هذه الصفة جاءت كلمة panic في الانجليزية بمعنى « ذعر ».

(٢) يسمى الآن في الانجليزية pan - pipe نسبة إليه. وهو مزمار مصنوع من البوص أو القصب.

(٣) راجع ص ٢٨٣ فيما تقدم.

الجســـاداً تاماً فأصبح هرمافروديتوس منذ تلك اللحظــة غلاَما أنثى . وصار مثل أجدستيس (Agdistis) ، ذلك المخلوق الذي كان يجمع أصلاً بين صفات الجنسين ثم جعله الآلهة أنثى فقط. لكن «هرمافروديتوس» لم يفقد كل رجولته مثلما فقدها «اتيس» (Attis) ، رفيق كيبيلي (اجدستيس) بإخصاء نفسه[1].
لقد انقلب كائناً يجمع فسيولوجياً بين خواص الرجل والمرأة (androgynos)، وهو ما نعبر عنه اليوم بكلمة « هرمافروديت » أي خنثى . ومن المؤكد أن رواية القصة على هذا النحو ليست قديمة . ولا ينبغي أن ننسى أن افروديتي نفسها عبدت في أماثوس بجزيرة قبرص حيث لقبت بأفروديتوس(Aphroditus) أي «افروديتي الذكر» ورسمت صورتها هناك مقرونة بلحية[2]. وليس هذا بالأمر المستغرب إذ أنها كانت – مثل كيبيلي وبعض آلهات الأناضول والشرق– تجمع قديماً – بوصفها عشتروت – بين الذكورة والأنوثة[3] .

---

(١) راجع ص ٣٨٩ ، هامش ٢ فيما تقدم .
(٢) أو مقرونة – كما حدث في العصور التالية – بأعضاء الذكورة ، أو في صورة هرميس له نهدان بارزان .
(٣) راجع ص ٢٨٣ فيما تقدم .

شركة علاء الدين
للطباعة والتجليد
بيروت - تلفون ٣٠٤٢٨٣

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ أحمد محمود غنيم

Bibliotheca Alexandrina
0360753